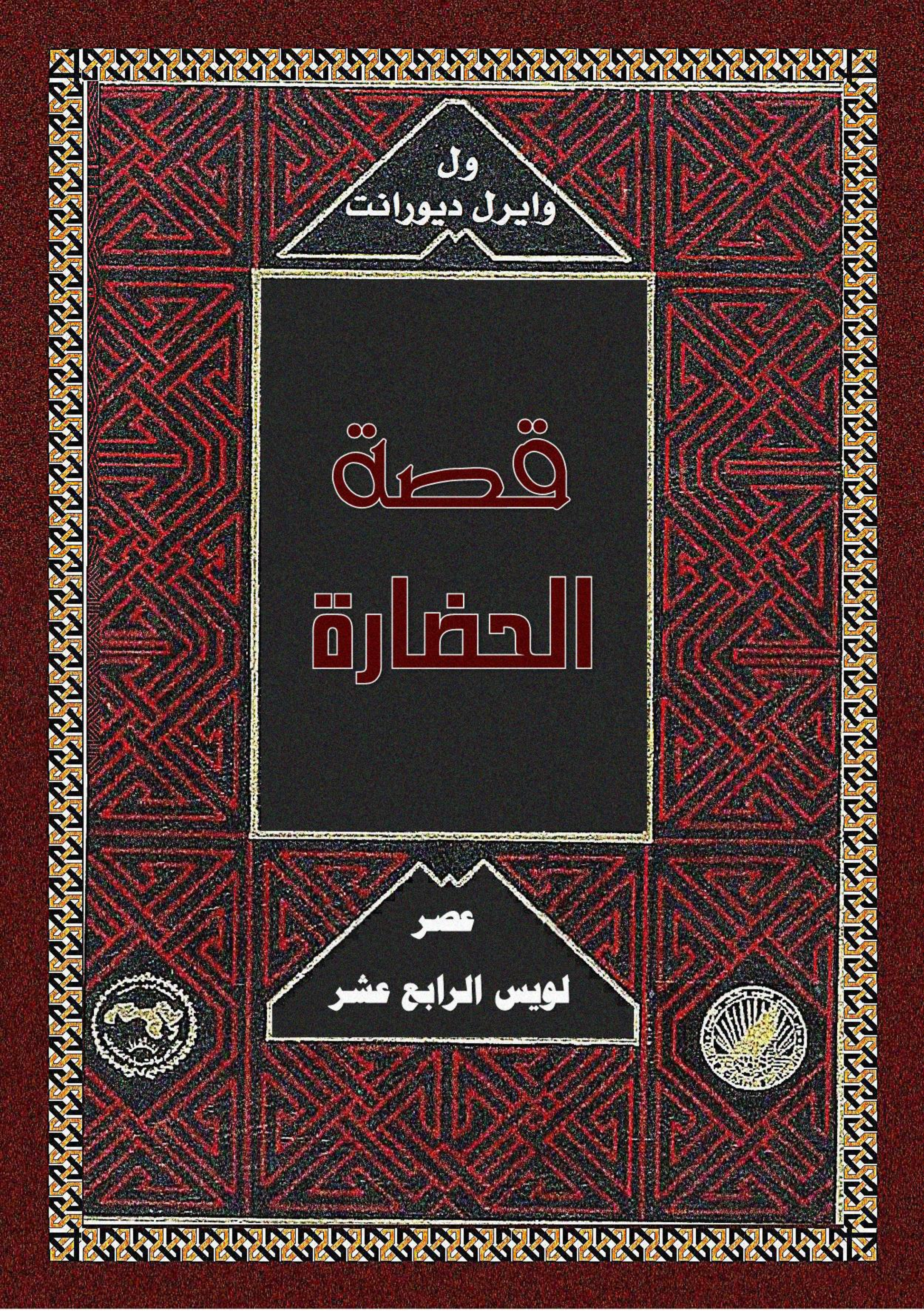
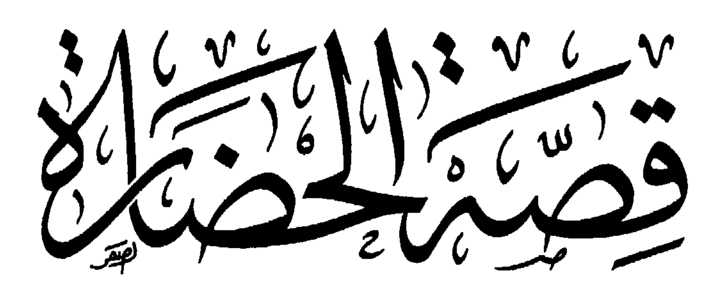


ول
وايرل ديورانت
قصة
الحضارة
عصر
لويس الرابع عشر



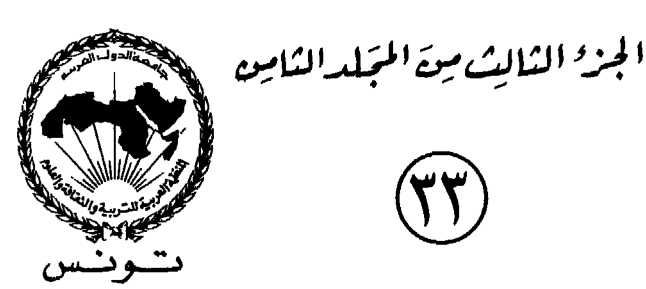
ول وايريل ديورانت

عصر لويس الرابع عشر

تاريخ الحضارة الأوروبية
في عصر
بسكال وموليير وكرومول وملتن
وبطرس الأكبر ونيوتن وسبينوزا
١٦٤٨ - ١٧١٥

ترجمة
فؤاد أندراوس

مراجعة
علي أدهم



الجزء الثالث من المجلد الثامن





تونس
بيروت

دار الجيل : ص.ب: ٨٧٣٧ - ت: ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤٦٥ - تلكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: دار جيلاب - بيروت - لبنان

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

الفصل التاسع عشر

الكتاب الثالث

محيـــط القارة

١٦٤٨ — ١٧١٥

الفصل الثانى عشر

الصراع على البلطيق

١٦٤٨ ـ ١٧٢١

١ ـ السويد المغامرة : ١٦٤٨ ـ ١٧٠٠

ان التاريخ شظية من البيولوجيا ـ انه اللحظة البشرية فى موكب الأنواع · وهو أيضا وليد الجغرافيا ـ لأنه فعل الأرض والبحر والهواء ، وأشكالها ونتاجها ، وتأثيرها فى رغبة الانسان ومصيره · فلنتأمل هنا أيضا تلك المواجهة بين الدول المحيطة بالبلطيق فى القرن السابع عشر· فالسويد فى شماله ، واستونيا وليفونيا ولتوانيا فى شرقه ، ومن خلفها روسيا الباردة الجائعة ، وفى جنوبه بروسيا الشرقية وبولنده وبروسيا الغربية وألمانيا ، وفى غربه الدنمرك بموقعها الاستراتيجى على منافذ البلطيق الضيقة الى بحر الشمال والاطلنطى · لقد كان هذا سجنا جغرافيا سيصطرع نزلاؤه على السيطرة على تلك المياه والمضايق ، والشواطىء والثغور ، ومسالك التجارة ودروب الهرب برا أو بحرا · هنا خلقت الجغرافيا التاريخ ·

أما الدنمرك فقد لعبت الآن دورا صغيرا فى مسرحية البلطيق · ذلك أن نبلاءها الذين احتكروا الحرية لأنفسهم غلوا أيدى ملوكها وأرجلهم · وكانت قد نزلت عن سيطرتها على مضايق الاسكاجراك والكاتيجات (١٦٤٥) وبقيت النرويج خاضعة لها ، ولكنها فى ١٦٦٠ فقدت أقاليم السويد الجنوبية · وشعر فردريك الثالث (١٦٤٨ ـ٧٠) بحاجته الى سلطة ممركزة تتصدى للتحديات الخارجية ، فأرغم النبلاء على أن ينزلوا له عن السلطة المطلقة والوراثية ، مستعينا على ذلك برجال الدين والطبقات الوسطى · وقد وجد ابنه كرستيان الخامس (١٦٧٠ ـ ٩٩) معينا له فى بيدر شوماخر ، كونت جريفنفلد ، الذى ظفر بثناء لويس الرابع عشر عليه وزيرا من أكفأ الوزراء فى عصر الدبلوماسية الذهبى ذاك · أصلح مالية الدولة ، ودفع التجارة والصناعة

قدما ، وأعاد تنظيم الجيش والبحرية . واستن الكونت سياسة السلم ، ولكن الملك الجديد كان تواقا لاستعادة القـوة والاقاليـم التى كانت الدنمرك تملكها فيما مضي . ومن ثم ففى ١٦٧٥ جدّد الحرب القديمة مع السويد ، ولكنه هزم ، وثبّتت من جديد سـيادة السـويد على اسكندناوة .

وقد تعاقب على عرش السويد فى تلك الحقبة طائفة ممتـازة من الملوك الأشداء ، وظلوا نصف قرن أعجوبة زمانهم لا ينافسهم فى ذلك منافس غير لويس الرابع عشر . ولو اتيح لهم سـند أكبر من الموارد لبلغوا ببلدهم من القوة والمنعة مبلغ فرنسـا ، ولاسـتطاع الشـعب السويدى ـ بوحى من منجزات الجوستافين ، والكارلين الثـلاثة ، ووزرائهم العظام ـ أن يموّل ازدهارا ثقافيا يتناسب مع انتصـاراتهم وتطلعاتهم . غير أن الحروب التى عززت قوتهم اسـتنزفت ثروتهم ، فخرجت السويد من ذلك العهد مستنزفة القوى وان تكللت بأمجـاد البطولة . وانه لما يثير الدهشة أن تحقق أمة من الامم هذا القدر الكبير من المنجزات فى الخارج على ما بها من ضعف شـديد . فسـكانها لم يجاوزوا مليونا ونصفا ، ينقسمون طبقات لم تتعلم الى ذلك الحين أن يعيش بعضها مع البعض فى سلام . وكان النبلاء يتسلطون على الملك ، ويقررون لأنفسـهم شراء أراضي من أملاك التـاج بشروط ميسرة ، والصناعة مقيدة محددة بحاجات الحرب تحديدا أعجزها عن تغـذية التجارة التى أطلقت الحرب عقالها ، وكانت الأملاك الخارجية عبئـا لا تبرره غير العزة القومية . ان حنكة الوزراء المخلصين وحدها هى التى دفعت عن البلاد خطر الافلاس الذى بدا أنه ثمن المجد .

كان شارل العاشر جوستافس ابن عم كرستينا الرهيبة ، ورفيـق لعبها ، وعاشقها ، وخلفها بعد أن نزلت له عن العرش فى ١٦٥٤ . وقد درأ خطر الافلاس بأكراه النبلاء على رد بعض الضياع الملكية التى سطوا عليها . واستطاعت الدولة بفضل هذا « الاختزال » لأملاك الاقطاعيين أن تسترد ثلاثة آلاف مسكن بأراضيها وتستعيد قدرتهـا على الوفـاء بديونها . ورغبة في استكمال النقص فى العملة الفضـية والذهبية ، عهد شارل الى يوهان بالمسترو بانشاء مصرف قومى واصدار نقود ورقية

(١٦٥٦) - وهى أول ما صدر منها فى اوربا . وقد حفز ازدياد تداول العملة الورقية الاقتصاد حينا ، ولكن المصرف أصدر منها فوق ما يستطيع الوفاء به نقدا عند الطلب ، فأوقفت التجربة . ونقل الملك المقدام أثناء ذلك صناعة الحديد والصلب التى اختصت بها ريجا الى السويد ، فارسي بذلك أسس قاعدة صناعية أقوى تستند اليها سياسته العسكرية .

أما هدفه الذى جاهر به فكان توسيع رقعة ملكه . فالامارات التي كسبها جوستافس أدولفس على أرض القارة تهدد بالثورة ، والحكومة البولندية تأبى أن تعترف بشارل العاشر ملكا على السويد ، ولكن بولنده أضعفها تمرد القوزاق ، وقد خفت الروسيا لنجدة القوزاق ، وكان الأمل ولا ريب يراودها فى شق طريق لها الى البلطيق . ثم ان للسويد جيشا حسن التدريب خافت أن تسرحه ، وخير سبيل الى اعاشته أن يخوض حربا ظافرة . ورأى شارل فى هذه الظروف كلها ما يزكى الهجوم على بولنده . وعارض الفلاحون ورجال الدين ، فاسترضاهم بالزعم بان مشروعه ليس الا حربا مقدسة لحماية حركة الاصلاح البروتستنتى وتوسيع نطاقها (١٦٥٥) (١) .

ولكن تبين أن بولنده بلد يسهل غزوه ، ويصعب اخضاعه . كانت مقاومتها فى الغرب ضعيفة لما حاق بها فى الشرق من خلل وما عانته من غارات العدو . ودخل شارل وارسو ، وهدأ النبلاء البولنديين بوعده أن يبقى على امتيازاتهم الموروثة ، وتلقى ولاء البروتستنت البولنديين، وعرض اللتوانيون أن يعترفوا بسيادته . ولما حاول فردريك وليم ، « ناخب براندنبورج الأكبر » الافادة من انهيار بولنده بالاستيلاء على بروسيا الغربية (وكانت يومها اقطاعة بولندية) ، سيّر شارل جيشه غربا بسرعة نابليونية وحاصر الناخب فى عاصمته ، وارغمه على توقيع معاهدة كونيجزبيرج (يناير ١٩٥٦) . واعلن الناخب ولاءه لشارل فيما يتصل ببروسيا الشرقية باعتبارها اقطاعة سويدية ، ووافق على أن يؤدى للسويد نصف رسوم تلك الولاية وضرائبها ، ووعد بأن يمد الجيش السويدى بالف وخمسمائة مقاتل .

غير أن الخصومة الدينية التى أثارها شارل هزمته . ذلك أن البابا اسكندر السابع والامبراطور فرديناند الثالث سخرا كل ما يملكان

من نفوذ ليؤلفا حلفا ضد السـويد ، لا بل ان الدنمركيين والهولنديين البروتستنت انضموا الى الحلفاء فى تصميمهم على كبح جماح الفـاتح الشاب مخافة أن يعدو بعد ذلك على ممتلكاتهم أو تجارتهم . فهرع قافلا الى بولندة ، وهزم قوة بولندية جديدة ، واحتل وارسـو من جـديد (يوليو ١٦٥٦) . غير أن بولنده امتشقت الآن الحسام لقتاله بعد أن ثارت حماستها الدينية ، والقى شارل نفسه ــ وهو بلا صـديق رغـم انتصاره ــ وقد أحدق به الأعـداء من كل حـدب . وهجـره ناخب براندنبورج وتعهد بتقديم العون لبولندة . أما شارل ــ الذى كان خبيرا بكسب المعارك فقط لا بدعم فتوحه بصلح عملى ــ فقد اكتسح البـلاد غربا فى هجوم على الدنموك ، وعبر الكاتيجات فوق ثلاثة عشر ميـلا من الجليد (ينـاير ١٦٥٧) ، وهـزم الدنمركيين ، وأكره فردريك الثالث على توقيع صلح روسكيلدى (٢٧ فبراير) . وانسحبت الدنمرك كلية من شبه الجزيرة السويدية ، ووافقت على أن تغلق مضيق الساوند فى وجه أعداء السويد . فلما تباطأ الدنمركيون فى تنفيذ هذه الشروط استأنف شارل الحرب ، وحاصر كوبنهاجن . وعقد العـزم الآن عـلى خلع فردريك الثالث ، وتوحيد الدنمرك والسويد والنرويج من جديد تحت تاج واحد .

ولكن القوة البحرية هزمته . ذلك أن انجلترة والأقاليم المتحدة ، وهما أعظم أمم العصر البحرية آنذاك ، اتفقتا الآن ــ رغم ما بينهمـا عادة من عداء ــ على ألا تقبض أى دولة من الدول على مفتاح البلطيق بالهيمنة على الساوند بين الدنمرك والسويد . ففى أكتوبر اقتحمت قوة هولندية الساوند ، ورفعت الحصار عن كوبنهاجن ، وساقت أمامهـا الأسطول السويدى الصغير الى ثغوره فى أرض الوطن . وأقسم شارل أن يقاتل الى النهاية . ولكن الشدائد التى عاناها فى حملاته كانت قـد فعلت فيه فعلها ، فبينما كان يخطب الديت السـويدى فى جوتيبورج أخذته الحمى . وما لبث أن قضي نحبـه فى ربيـع حيـاته (١٣ فبراير ١٦٦٠) .

وكان ابنـه شارل الحـادى عشر (١٦٠٠ ــ ٩٧) لا يزال فى الخامسة ، فاضطلع بالحكم مجلس وصاية أنهى الحرب بصلح أوليفـا

ومعاهدة كوبنهاجن (مايو ، يونيو ١٦٦٠) . ونزلت الملكية البولندية عن دعواها فى تاج السويد ، وثبتت تبعية ليفونيا للسويد ، ونالت براندنبورج الحق الكامل فى بروسيا الشرقية ، واحتفظت السويد بمقاطعاتها الجنوبية (سكانى) واقاليمها على ارض القارة (بريمن ، وفيردن ، وبومرانيا) ، ولكنها انضمت الى الدنمرك فى ضمان حق السفن الأجنبية فى دخول البلطيق . وبعد عام وقعت السويد وبولنده فى كارديس صلحا فاترا مع قيصر الروس . واستمر الصراع على البلطيق خمسة عشر عاما بوسائل أخرى غير الحرب .

كانت هذه المعاهدات نصرا لا يستهان به للسويد ، ولكن البلاد أشرفت مرة أخرى على الأفلاس . وكافح عضوان من مجلس الوصاية هما جوستاف بوندى وبير براهى للحد من النفقات الحكومية ، ولكن المستشار ماجنس دى لا جاردى أضاف الى الديون القديمة ديونا جديدة ، وأتاح للنبلاء ولأصدقائه ولنفسه جنى المنافع على حساب الخزانة ، وفى سبيل تلقى المعونة المالية ربط السويد بحلف مع فرنسا (١٦٧٢) قبل أن ينقض لويس الرابع عشر على الاقاليم المتحدة ، حليفة السويد ، بأيام معدودات فقط . وما لبثت السويد أن وجدت نفسها تخوض حربا ضد الدنمرك ، وبراندنبورج ، وهولندة . وهزمت على يد الناخب الأكبر فى فيربيللن (١٨ يونيو ١٦٧٥) ، واجتاح أعداؤها أقاليمها القارية ، وغزا جيش دنمركى « سكانى » من جديد ونكبت البحرية السويدية بكارثة تجاه أولاند « ١ يونيو ١٦٧٦) .

وأنقذ السويد ملكها الشاب شارل الحادى عشر ، الذى اضطلع الآن بزمام الأمر ، وذلك بسلسلة من الحملات ألهمت فيها بسالته الشخصية جنوده ، فدحروا الدنمركيين فى لوند ولاندسكرونا . وبفضل هذين الانتصارين وتأييد لويس الرابع عشر استردت السويد كل ما فقدته . وتعاون بطل جديد من أبطال الدبلوماسية السويدية ، هو الكونت يوهان جيلنشتييرنا ، مع الكونت جريفنفلد — لا فى الترتيب لصلح بين السويد والدنمرك فحسب ، بل فى ابرام حلف عسكرى وتجارى بينهما . واتفقت الدولتان على عملة مشتركة ، وكانت الوحدة الاسكندناوية كلها قاب قوسين أو أدنى حين قطع هذا التطور موت

جيلنشتييرنا وهو فى الخامسة والأربعين (١٦٨٠) . وحافظت الأمتان على السلام عشرين عاما .

وكان جيلنشتييرنا قد علم الملك الشاب أن السويد لن تستطيع الابقاء على مكانتها بين الدول العظيمة اذا مضي نبلاؤها فى التهام أراضي التاج ، وهو أمر يهوى بالملكية الى ذل الفقر وبالدولة الى درك العجز . وفى ١٦٨٢ اتخذ شارل الحادى عشر خطوة حاسمة . فاستأنف بتأييد من رجال الدين والفلاحين وأهل المدن ، فى تدقيق وشمول يحفزهما السخط « اختزال » أراضي النبلاء ، أى استرداد ما فقدته الملكية من ضياعها . ثم حقق فى فساد الموظفين وعاقبه ، وبلغ بايرادات الدولة النقطة التى أتاحت للسويد القدرة من جديد على الاحتفاظ بممتلكاتها والاضطلاع بتبعاتها . ولم يكن شارل الحادى عشر بالملك المحبب جدا الى شعبه ، ولكنه كان ملكا عظيما . فلقد آثر انتصارات السلام الأقل ضجيجا على انتصارات الحرب ، وذلك رغم ما خلف فى الحرب من سجل يحسده عليه الكثيرون . وقد وطد حكم الملكية المطلق، ولكن هذا النظام كان يومها البديل لاقطاعية رجعية فوضوية .

وفى هدوء هذه الهدنة الصافية ازدهرت علوم السويد وآدابها وفنونها . وبلغت العمارة السويدية أوجها فى القصر الملكى الفخم الضخم باستوكهولم ، الذى صممه (١٦٩٣ — ٩٧) نيقوديموس تيسين . وكان لارس يوهانسون للسويد بمثابة ليوباردى (الايطالى) ومارلو (الانجليزى) مجتمعين ، فهو يتغنى غناء شجيا بكراهية الانسان ، ويلقى حتفه بطعنات السلاح فى شجاربحان قضي عليه وهو بعد فى السادسة والثلاثين . وقد ألف جونو دالشتيرنا ملحمة شعرية ببحر دانتى سماها Kunga Skald (١٦٩٧) اشادة بمآثر شارل الحادى عشر . ومات الملك فى تلك السنة ، بعد أن أنقذ وعمر بلدا كاد يدمره من بعده ابنه الأشهر منه .

وكان هذا الابن ، شارل الثانى عشر ، قد بلغ الخامسة عشرة . ولما كانت خريطة أوربا يعاد رسمها آنئذ بالدم والحديد ، فقد دُرّب أولا وقبل كل شيء على فنون القتال . فهيأته العابه كلها للأعمال العسكرية، وتعلم الرياضيات فرعا من العلوم الحربية ، وقرأ من اللاتينية ما يكفيه

لان يستوحى من سيرة الاسكندر التى كتبها كنتوس كورتيوض طمـــوح التفوق فى السلاح ان لم يكن الطموح لغزو العالم · واذ كان فارع القامة، وسيما ، قويا ، لا يثقل بدنه درهم زائد من لحم وشحم ، فقد استمتع بحياة الجندى ، وتجلد لما فيها من حرمان ، وهزأ بالخطر والموت ، وتطلب هذه الصلابة عينها فى جنده · ولم يابه كثيرا بالنســـاء ، فلم يتزوج قط وان خطبت وده الكثيرات · وكان يصيد الدببة وسلاحه شوكة خشبية ثقيلة لا أكثر ، ويركب خيله بسرعة طائشة ، ويسبح فى ميـاه تغطى الثلوج نصفها ، ويلتذ المعارك الزائفة التى كاد هو وأصـــدقاؤه يلقون حتفهم فيها غير مرة · وقد رافقت بسالته العنيدة وحيويته البدنية بعض فضائل الخلق والعقل : صراحة تزدرى ألاعيب الدبلوماســـية ، واحساس بالشرف تشوبه لحظات شاذة من القسوة الوحشية ، وعقـــل يلتقط لب الأمور لتوّه ، ولا يطيق المداخـــل الملتـــوية فى التفكير أو التدبير ، وكبرياء صموت لم يغب عنها قط محتـــده الملكى ولم تعترف قط بالهزيمة · وآية ذلك أنه فى حفلة تتويجه توج نفسه بيده على طريقة نابليون ، ولم يقطع على نفسه يمينا تحدّ من سلطته ، فلما تشكك أحد رجال الدين فى صواب خلع السلطة المطلقـــة على فتى لم يتجـــاوز الخامسة عشرة ، حكم عليه شارل أولا بالاعدام ، ثم خفف الحكم الى السجن المؤبد ·

كانت السويد يوم ارتقى عرشها دولة قارية كبرى ، تحكم فنلنده ، واينجريا ، واستونيا ، وليفونيا ،وبومرانيا ، وبريمن ، وكانت تهيمن على البلطيق وتقوم سدا حائلا بين روسيا وبين ذلك البحر· وراترروسيا، وبولنده ، وبراندنبورج ، والدنمرك ، فى حداثة سن ملك الســـويد فرصة لمد حدودها دعما لتجارتها ومواردها · وكان « العامل الهدّام » فى هذا الحل الجغرافى فارسا ليفونيا يدعى يوهان فون باتكول ، انخرط فى سلك الجيش السويدى بوصفه من رعايا السويد ، وارتقى الى رتبـــة النقيب · وفى ١٦٨٩ و ١٦٩٢ احتج بشدة على « اختزال » شارل الحادى عشر لضياع النبلاء فى ليفونيا ، فاتهم بالخيانة ، وفر الى بولنده ، ثم التمس من شارل الثانى عشر أن يعفو عنـــه فرفض ، وفى ١٦٩٨ اقترح على أوغسطس الثانى ملك بولنده وسكسونيا تأليف حلف ضد السويد من بولنده ، وسكسونيا ، وبراندنبورج ، والدنمـــرك ، وروســـيا · ورأى

أوغسطس أن الخطة جاءت فى أوانها ، فاتخذ الخطوة الأولى بالدخول فى حلف مع ملك الدنمرك فردريك الرابع (٢٥ سبتمبر ١٦٩٩) • وذهب باتكول الى موسكو • وفى نوفمبر وقع بطرس الأكبر مع مبعوثى سكسونيا والدنمرك اتفاقا لتقطيع أوصال السويد •

٢ - بولنده وسوبيسكى : ١٦٤٨ - ٩٩

فى مستهل هذه الحقبة أثر حدثان تأثيرا عميقا فى تاريخ بولنـده ففى ١٦٥٢ هزم عضو واحد من أعضاء البرلمان البولندى Sejm للمرة الأولى قانونا بممارسته حق « الفيتو المطلق » ، الذى كان يسـمح لأى نائب فى ذلك البرلمان بابطال قرار أية أغلبية • ذلك أن النظام فى الماضي كان يشترط موافقة جميع الأقاليم قبل اقرار أى قانون ، وكانت أقلية ضئيلة أحيانا تجعل التشريع مستحيلا ، ولكن فردا من الأفراد لم يؤكد الى ذلك الحين الحق فى نقض اقتراح يقبله الباقون كلهم • وقـد استطاع « الفيتو المطلق » لنائب واحد أن « ينسف » أو ينهى ثمـــانى وأربعين دورة من الدورات الخمس والخمسين التى عقدها البرلمان بعد ١٦٥٢ • وقد افترضت الخطة أنه ما من أغلبية تستطيع بحق أن تطغى على أقلية مهما صغرت • ولم يكن مبعثها النظرية الشـعبية بل الكبرياء الاقطاعية ، اذ اعتبر كل مالك نفسه سيدا أعلى فى أرضه • وأسفر هــذا عن أكبر قدر من الاستقلال المحلى والعقم الجمـــاعى • ولما كان الملوك خاضعين للبرلمان ، والبرلمان خاضعا للفيتو المطلق ، فقد كانت السـياسة القومية المتسقة ضربا من المحال عادة • وبعد تسع سنوات من الفتيو الأول تنبأ الملك جون كازيمير للبرلمان بنبوءة لافتة للنظر ، قال :

« أتمنى على الله أن يتبين أننى نبى كذاب ، ولكنى أقول لكم انكم ان لم تجدوا علاجا لهذا الشر (أى الفيتو المطلق) فستغدو الدولة فريسة للدول الأجنبية • سوف يحاول الموســكوفيون ان يقتطعوا بالاتيناتنا الروسية ربما الى الفستولا• وسوف يحاول البيت المالك البروسي الاستيلاء على بولنده الكبرى • وسوف تلقى النمسا بثقلها على كراكو • وســوف تؤثر كل من هذه الدول اقتسام بولنده دون الاستيلاء عليها كلها ولها هذه الحريات التى تتمتع بها اليوم » (٢) •

وقد تحققت هذه النبوءة بحذافيرها تقريبا ٠

وكانت ثورة القوزاق فى أوكرانيا (١٦٤٨) حدثا لا يفـــوقه فى أهميته التاريخية سوى هذا الفيتو ٠ ذلك أن دمج لتوانيا مع بولنده فى « اتحاد لوبلين » (١٥٦٩) أخضع اقليم أوكرانيا ، الذى يجرى فيــه نهر الدنيير ، لحكم غلب عليه العنصر البولندى ، وكان أكثر سكان الاقليم من قوزاق زابوروج الذين ألفوا الاستقلال وتمرسوا بالحرب ٠ وحــاول النبلاء البولنديون الذين ابتاعوا الأرض فى أوكرانيا أن يرسوا فيهـــا أسس الأحوال الاقطاعية ، وثبّط الكاثوليك البولنديون ممارســـة تلك الحرية التى كفلها اتحاد لوبلين للعبادة الارثوذكســـية ٠ وانبعثت ثورة من ثورات القوزاق من هذا المركب من أسباب السخط والتذمر ، وتزعمها حينا زعيم حربى (هتمان) غنى يدعى بوجدان شميلنيكى ، وناصرها تتار القرم المسلمون ٠ وفى ٢٦ مايو ١٦٤٨ دحر التتار والقوزاق الجيش البولندى الرئيسي فى كورسون ، وسرت الحماسة للثورة بين الأغنيـــاء والفقراء على السواء ٠

وقد خلفت وفاة لاديسلاس الرابع فى ٢٠ مايو عرش بولنده فى هذه الأثناء مثارا لنزاع بين النبلاء استمر حتى ٢٠ نوفمبر ، حين اختــارته هيئة الديت الانتخابية جون الثانى كازيمير ٠ أما شيملنيكى فقد خشي ألا تستطيع الثورة الصمود للجيوش البولندية المعززة الا بقبول المعــونة والسيادة الأجنبيتين ، فاختار الاستنجاد بروسيا الأرثوذكسية ٠ وعرض أوكرانيا على القيصر الكسيس ، ورحبت الحكومة الروسية بالعرض وهى عليمة بأن معناه الحرب مع بولنده ، وبمقتضى « قانون بيريياســلاف » ١٨ يناير ١٦٥٤ ، انضوت أوكرانيا تحت الحكم الروسي ٠ وكفل للاقليم الاستقلال الذاتى تحت حكم زعيم حربى ينتخبه القوزاق ويصدق عــلى انتخابه القيصر ٠

وفى الحرب التى تلتذلك بين بولنده وروسيا، حول تتار القرم الذين آثروا أوكرانيا بولندية على أوكرانيا روسية ـ حولوا معونتهم من القوزاق الى البولنديين ٠ وفى ٨ أغسطس ١٦٥٥ استولى الروس على فلنــــو ، وذبحوا آلافا من الأهالى، وأحرقوا المدينة وسووها بالتراب٠ وبينماكان البولنديون يدافعون عن أنفسهم على جبهتهم الشرقية ، قاد شارل العاشر

جيشا سويديا الى غربى بولنده واستولى على وارسو (٨ سبتمبر) . وانهارت المقاومة البولندية . وأعلن النبلاء البولنديون ، بل حتى الجيش البولندى ، الخضوع للفاتح واقسموا يمين الولاء له (٣) . وأرسل له كرومويل تهانئه لأنه قبض على أحد قرون البابا (٤) ، وأكد شارل لـ « حامى الجمهورية » (كرومويل) أنه عما قليل لن يبقى فى بولنده بابوى واحد (٥) ، ومع ذلك وعد بالتسامح الدينى فى بولنده .

على أن خططه أحبطها جيشه الظافر . ذلك أنه الجيش أفلت زمامه ، فراح ينهب المدن ويذبح السكان ويسلب الكنائس والأديار . وقاوم الحصار دير ياسنا جورا ، القريب من تشستوتشوا ، مقاومة باسلة ، وأثار نجاحه الذى عد من المعجزات حماسة الجماهير الدينية ، وأهاب الكهنة الكاثوليك بالأمة أن تطرد الغزاة الكفار ، وبادر الفلاحون الى امتشاق الحسام ، ففرت الحامية التى تركها شارل فى وارسو أمام الحشد الزاحف وأعيد كازيمير الى عاصمته (١٦ يونيو ١٦٥٦) وانقلب التتار على روسيا ، ووقعت روسيا هدنة مع بولندة مؤثرة جيرتها على جيرة السويد (١٦٥٦) . وأفضي موت شارل العاشر فجاة الى صلح أوليفا (٣ مايو ١٦٦٠) الذى انهى الحرب بين بولندة والسويد . وفى ١٦٥٩ استؤنف الصراع مع روسيا . وبعد ثمانية أعوام من الفوضي والحملات وذبذبات الولاء القوزاقى ، نالت روسيا بمقتضي صلح أندروسوفو (٢٠ يناير ١٦٦٧) سمولينسك ، وكيف ، وأوكرانيا شرقى الدنيبر . وظلت تجزئة أوكرانيا على هذا النحو سارية حتى التقسيم الأول لبولنده (١٧٧٢) .

ثم اعتزل جون كازيمير عرش بولنده (١٦٦٨) بعد أن أرهقته الحرب وأضناه الفيتو مطلق ، واعتكف فى نيفير بفرنسا ، وعاش حياة هادئة بين الدرس والصلاة الى أن مات (١٦٧٢) . وخاض خلفه ميخائيل فسنيوفيكى حربا مدمرة مع العثمانيين ، وبمقتضي صلح بوكزاكز (١٦٧٢) اعترفت بولندة بالسيادة العثمانية على أوكرانيا الغربية ، وتعهدت بأداء جزية سنوية للسلاطين تبلغ ٢٢٠٫٠٠٠ دوكاتية . وفى تلك الحرب اكتشفت بولندة عبقرية جان سوبيسكى الحربية ، فلما مات فسنيوفيكى (١٦٧٣) ، انتخب الديت أعظم ملوك بولندة قاطبة (١٦٧٤) بعد أن ضيّع وقتا ثمينا على عادته .

أما جان هذا ــ الذى يسمى الآن يوحنا الثالث ــ فكان يبلغ الرابعة والأربعين اذ ذاك . وقد حالفه الحظ فى مولده ، لأن أباه كان الحاكم العسكرى لكراكو ، أما أمه فكانت حفيدة القائد البولندى ستانسلاس زولكيفسكى الذى استولى على موسكو فى ١٦١٠ ، وكان حب الحرب يسرى فى دم جان . وبفضل تعليمه فى جامعة كراكو وأسفاره فى ألمانيا والأراضي المنخفضة وانجلترة وفرنسا ، حيث قضي بباريس قرابة عام ، أصبح رجلا مثقفا فضلا عن بسالته ومهارته الحربيتين . وفى ١٦٤٨ مات أبوه ، عقب اختياره ممثلا لبولنده فى معاهدة وستفاليا . وسارع جان بالعودة الى أرض الوطن ، وانضم الى الجيش البولندى فى قتال الثوار القوزاق . ولما غزا السويديون بولنده ، وفر جان كازيمير ، كان سوبيسكى واحدا من الموظفين البولنديين الذين ارتضوا شارل العاشر ملكا على بولندة ، وظل يخدم عاما فى الجيش السويدى . ولكن حين ثار البولنديون على الغزاة عاد سوبيسكى الى ولائه القومى ، وأبلى فى الدفاع عن وطنه بلاء رفعه الى منصب القائد العام للجيوش البولندية فى ١٦٦٥ . وفى تلك السنة تزوج المرأة الممتازة التى أصحبت نصف حياته والمشكل لسيرته .

هذه المرأة ، واسمها ماريا كازيميرا ، التى كان يجرى فى عروقها الدم الفرنسي الملكى ، ولدت فى نيفير عام ١٦٤١ ، وربيت فى فرنسا وبولندة . وفى وارسو يوم كانت فى الثالثة عشرة ألهب حسنها ومرحها عاطفة سوبيسكى وهو فى الخامسة والعشرين . ولكن سعود الحرب ونحوسها أقصته عنها ، فلما عاد وجدها زوجة لنبيل فاسق يدعى جان زامويسكى . واذ كانت ماريا مهملة من زوجها ، فقد قبلت سوبيسكى وصيفا مرافقا . ويبدو أنها حافظت على عهودها الزوجية ، ولكنها وعدت بالزواج من سوبيسكى حالما يفسخ زواجها من زامويسكى . على أن الزوج كفاها مئونة هذا الشرط بموته . وما لبث العاشقان أن تزوجا ، وأصبح غرامهما الطويل أسطورة فى التاريخ البولندى . وكان الكثير من النساء البولنديات ينافسن النساء الفرنسيات فى الجمع بين الجمال الكلاسيكى ، والشجاعة والذكاء القريبين من شجاعة الرجال وذكائهم ، والولع بصنع الملوك أو ارشادهم . وقد بدأت ماريا من يوم زواجها تخطط لكى تبوىء سوبيسكى عرش بولنده .

وكان حبها أحيانا حبا لا يقيم وزنا لصوت الضمير كما قد يكون الحب • ففى ١٦٦٩ يبدو أن سوبيسكى قبل المال الفرنسي ليؤيد كردينالا فرنسيا ضد فسنيوفيكى • وبعد انتخاب ميخائيل انضم جان الى غيره من النبلاء فى مؤامرات تستهدف خلع الملك لانه جبان لا يصلح للدفاع عن بولنده ضد العثمانيين ولا رغبة له فى هذا الدفاع • وقاد بنفسه رجاله الى انتصارات أربعة خلال عشرة أيام • وفى ١١ نوفمبر ١٦٧٣ ، وهو اليوم الذى مات فيه الملك ، دحر سوبيسكى العثمانيين فى خوتين ببسارابيا • وجعله هذا النصر المرشح المنطقى لعرش لا قبل الآن بدفع الأعداء المحدقين به من كل جانب الا لأصلب القتال وأشده تصميما • ولكى يدعم المنطق حضر الى هيئة الديت الناخبة على رأس ستة آلاف مقاتل • ولعب المال الفرنسي دورا فى انتخابه ، ولكن هذا كان يتفق وسنّة العصر تمام الاتفاق •

ولقد كان ملكا بجسمه وروحه كما كان باسمه • وصفه الأجانب بأنه « من أكثر الرجال وسامة وأكملهم بنية » فى أوربا ، « له طلعة نبيلة شماء، وعينان تشعان نورا ونارا(٦) » قوى البدن، مثابر على الأنجاب، متطلع العقل متيقظه • وقد حفز حبه الطبيعى للتملك اسراف حبيبته ماريزنيكا ، ولكنه كثيرا ما عوض عن بخل البرلمان الشحيح بدفع رواتب جنده من جيبه ، وبيع أملاكه ليشترى لهم البنادق (٧) • وقد استحق كل ما أخذ ، لأنه أنقذ بولنده وأوربا جميعا •

ذلك أن سياسته الخارجية كانت بسيطة فى هدفها ، وهو ردّ العثمانيين الى آسيا ، أو على الأقل صد هجماتهم على معقل العالم المسيحى الغربى بفيينا • وقد عاكس جهده هذا تحالف حليفته فرنسا مع السلطان العثمانى ، ومحاولات الامبراطور أن يزج به فى الحروب التركية ، وكان ليوبولد الأول يأمل اذا وفق فى محاولاته هذه أن تطلق يد النمسا فى تملك الأراضي الدانيوبية أو المجرية التى كانت كل من النمسا وبولنده تدعى الحق فيها لنفسها • وبينما كان سوبيسكى يتحسس طريقه غاضبا وسط هذه المتاهة ، تاقت نفسه لحرية تخطيط السياسة واصدار الأوامر دون أن يكون خاضعا فى كل خطوة للبرلمان والفيتو المطلق • وحسد لويس الرابع عشر والامبراطور على سلطتهما فى اتخاذ القرارات بصورة قاطعة ثم اصدار الأوامر دون ابطاء •

وعقب انتخابه اضطلع باسترداد أوكرانيا الغربية من العثمانيين ، الذين تقدموا الآن شمالا حتى بلغوا لفوف . وهناك ، وبقوة لا تزيد على خمسة آلاف فارس ، هزم عشرين ألف تركى (٢٤ أغسطس ١٦٧٥) . وبمقتضى معاهدة زورافنو (١٧ أكتوبر ١٦٧٦) أكره العثمانيين على النزول عن حقهم المزعوم فى الجزية ، والاعتراف بسيادة بولندة على أوكرانيا الغربية . ثم شعر بأن الفرصة مواتية لطرد القوة العثمانية من أوربا . فدعا الامبراطور للانضمام اليه فى حرب ضروس يخوضانها مع الترك ، ولكن ليوبولد اعترض بأنه لا يملك تأكيدا بألا يهاجمه لويس الرابع عشر فى الغرب ان أرسل جيوشه الى الشرق ، ورجا سوبيسكى فرنسا أن تعطى النمسا هذا التأكيد ، ولكن لويس الرابع عشر أبى (٨) . وتحول سوبيسكى أكثر فأكثر الى التحالف مع النمسا . فلما حاول العملاء الفرنسيون رشوة البرلمان ضده فضح مؤامراتهم ونشر رسائلهم السرية . وفى رد الفعل التالى ضد فرنسا وقع البرلمان (١ أبريل ١٦٨٣) حلفاً مع الامبراطورية ، واتفق على أن تحشد بولنده أربعين ألف مقاتل ، والامبراطورية ستين ألفا . فاذا حاصر العثمانيون فيينا أو كراكو ، خف الحليف لنجدة حليفه بقوته كلها .

وفى يوليو زحف العثمانيون على فيينا . وفى أغسطس غادر سوبيسكى والجيش البولندى وارسو بهذا الهدف المعلن ، وهو « أن يمضوا الى الحرب المقدسة ، ويردوا بعون الله الحرية القديمة لفيينا المحاصرة ، فيعينوا بذلك جميع العالم المسيحى المتخاذل (٩) » . وبدا أن أنبل ما عرفت العصور الوسطى من فروسية قد بعث من جديد . ووصل البولنديون الى العاصمة المحاصرة فى الوقت المناسب ، لأن المرض والجوع كادا يفتكان بأكثر المدافعين عنها . وقاد سوبيسكى بشخصه جيشى بولنده والامبراطورية المجتمعين فى معركة من أحسم المعارك فى التاريخ الأوربى (١٢ سبتمبر ١٦٨٣) . ولقى نصف البولنديين الذين تبعوه فى هذه الحرب الصليبية - وعددهم خمسة وعشرون ألفا - حتفهم فى المعركة أو فى طريقهم اليها .

ثم قفل الى بولنده مكللا بنصر يشوبه شعرر الخيبة . واستقبلته وارسو فخورة به بطلا لأوربا ، ولكن الامبراطور كان قد خيّب آماله فى

تزويج ابنه من أرشيدوقة النمسا • ولكى يؤمن ملكا لابنه حـاول فتـح ملدافيا ، وانتصر فى جميع المعارك الا معاركه مع الجو والقدر ، وعـاد الى بلده صفر اليدين •

ووسط ضجيج السياسة وصخبها ، وفى الفترات التى تخللت الحرب جعل من بلاطه مركز احياء ثقافى• فلقد كان هو نفسه رجلا واسع الاطلاع: درس جاليليو وهارفى ، وديكارت وجاسندى ، وقرأ بسكال ، وكورنيى، وموليير • ومع انه أيد الكنيسة الكاثوليكية باعتبار هذا التأييد سياسة للدولة ، فانه بسط الحرية الدينية والحماية على البروتستنت واليهود(١٠) واحبه اليهود كما أحبوا قيصر من قبل • وكان يريد ، وان لم يستطع ، أن ينقذ من الموت رجلا من احرار الفكر أعرب عن بعض شكوكه فى وجـود الله (١٦٨٩) (١١) ، وكان هذا أول احراق لمهرطق فى تاريخ بولنده• ثم مضت بولنده فى انجاب شعرائها ، ولكنها ظلت تستورد أكثر فنانيها الأفذاذ • فنظم فاكلاو بوتوكى ملحمة عن انتصار بولنده فى خوتين ، وكتب فسبازيان كوشوفسكى ملاحم مماثلة ، ومجموعة مزامير بولنـدية فى نثر شعرى ، أما أندرزى مورزيتن ، فبعد أن ترجم « أمينتا » تاسو و « سيد » كورنيى ، أظهر فى غنائياته تاثير الشعر الفرنسي والايطالى فى بولنده • وقد شجع سوبيسكى التاثير الفرنسي ، لأنه كان معجبا بكل شيء فى فرنسا الا سياستها • واسـتقدم المصـورين والمثالين الفرنسـيين والايطاليين ليعملوا فى وارسو ، واستخدم المعمـاريين ، ولا سـيما الأيطاليين منهم ، ليشيدوا قصورا بطراز البـاروك فى فيـلانوف ، وزولكييف ، ويافوروف • وبنيت الكنائس الفخمة ابان حكمه : كنيسـة القديس بطرس فى فلنو وكنيستا الصليب المقدس والراهبات البندكتيات فى وارسو • وأقبل أندرياس شلوتر من المانيا لحفـر الزخـارف للقصر المبنى فى فيلانوف ، ولقصر كرازنسكى فى العاصمة • ووسـط هـذه التأثيرات الغربية فى الفن ، غلب التأثير الشرقى فى الملبس والمظهر : العباءة الطويلة والمنطقة العريضة الزاهية الألوان ، والشاربان المفتولان الى أعلا كأنهما سيفان أحدبان •

وقد كدر صفاء شيخوخة الملك تمرد ولده يعقوب ، وعناد زوجته ، وفشله فى جعل الملك وراثيا فى أسرته • وكان الفيتو المطلق سيفا مصلتا فوق رأسه على الدوام • ولم يستطع أن يصلح من حال الفلاحين ، لأن

سادتهم سيطروا على البرلمان ، ولم يستطع اكراه الأغنياء على دفع الضرائب ، لأن الأغنياء كانوا هم البرلمان ، ولم يستطع السيطرة على النبلاء المشاغبين، لانهم أبوا أن يكون له جيش دائم. ومات من تبولن الدم فى ١٧ يونيو ١٦٩٦ ، لاكسير القلب كما زعمت الرواية ، بل آسفا على انحدار بلده الحبيب من قمة البطولة التى رفعه اليها .

وتخطى الديت ابنه وباع التاج الى فردريك أوغسطس ، ناخب سكسونيا ، الذى تحول فى غير عناء من البروتستنتية الى الكاثوليكية ليصبح أوغسطس الثانى ملك بولنده . وكان شخصية عجيبة فى ذاته . ويسميه التاريخ اوغسطس القوى ، لانه كان الرياضي الشديد الباس فى جسمه وفراشه ، وقد نسبت اليه اسطورة انجاب ٣٥٤ طفلا غير شرعى(١٢) . وفى يناير ١٦٩٩ وقع فى كارلوفتز معاهدة نزلت بمقتضاها تركيا عن كل دعوى لها فى أوكرانيا الغربية . فلما شعر اوغسطس بالأمان فى الجنوب والشرق ، استمع الى باتكول ، وربط بولنده بحلف مع الدنمرك وروسيا لاقتسام السويد .

٣ ــ روسيا تتجه الى الغرب : ١٦٤٥ ــ ٩٩

استطاع كل من المتآمرين الثلاثة أن يختلق عذرا ويدعى استفزازا ما . فشارل العاشر ملك السويد كان قد حاصر كوبنهاجن وحاول فتح الدنمرك ، وغزا بولنده واستولى على عاصمتها ، وكان جوستافس ادولفس قد دعم قوة السويد فى ليفونيا واينجريا دعما أتاح له أن يتحدى روسيا أن تنزل زورقا فى البلطيق دون موافقة السويد . أما الدب الروسي الحبيس فكان يحرق الأرم لمرأى المخارج كلها مغلقة فى الغرب ، والمنافذ الى البحر الاسود كلها يسدها التتار والترك . ولم يبق غير الشرق مجال لتحرك روسيا ــ الى سيبيريا ، وذلك يبدو الطريق الى الشدائد والهمجية . لقد كانت أسباب الراحة ومفاتن الحياة تومىء لروسيا أن تتجه غربيا ، وكان الغرب مصمما على أن يبقى روسيا بلدا شرقيا .

وحين اعتلى الكسيس ميخايلوفتش رومانوف عرش القياصرة كانت روسيا لاتزال يطغى عليها طابع العصر الوسيط . فهى لم تعرف القانون الرومانى ، ولا انسانية النهضة الأوربية ، ولا اصلاح الحركة

البروتستنتية . وفى عهد الكسيس صيغ القانون الروسي من جديد (أولوزينى ١٦٤٩) لكن هذه الصياغة لم تكن أكثر من جمع وتنسيق للقوانين القائمة المبنية على الحكم المطلق واستقامة العقيدة الدينية . فمثلا ظل القانون يرى من الجريمة أن يتطلع انسان الى الهلال الجديد أو أن يلعب الشطرنج أو يغفل الذهاب الى الكنيسة فى الصوم الكبير . وهذه الجرائم وعشرات غيرها تعاقب بالجلد . وكان الكسيس ذاته متعصبا فى تدينه رغم ما فى طبعه من لطف وسماحة ، وكثيرا ما كان ينفق خمس ساعات كل يوم فى الكنيسة ، وقد انحنى فى احدى المناسبات الفا وخمسمائة انحناءة (١٣) . وكأن يبتهج باطعام الشحاذين الذين يتجمعون حول قصره ، ولكنه كان يعاقب كل انشقاق سياسي أو دينى عقابا صارما ، ويفرض الضرائب الباهظة على شعبه ، ويسمح لاستغلال الفلاحين وفساد الحكومة أن يستشريا الى درجة أشعلت الثورةفى موسكو، ونوفجورود ، وبسكوف ، وأهم من ذلك بين قوزاق نهر الدون . وقد الف قوزاقى من هؤلاء يدعى ستينكا رازين عصابة لصوص ، وسلب الأغنياء وقتلهم ، ونصب نفسه سيدا على استراخان وزارتسين (التى أصبحت ستالنجراد) . ثم اقام جمهورية قوزاقية على الفولجا ، وهدد مرة بالاستيلاء على موسكو . وانتهى أمره بأن أسر وعذب حتى مات (١٦٧١) ، ولكن الفقراء حفظوا له ذكرى عزيزة تعدهم بالانتقام من الملاك والحكومة .

على أن بعض المؤثرات العصرية سرت حتى الى هذه البيئة الوسيطة فقد اقتضت الحروب مع بولنده اتصالات أكثر مع الغرب . وأقبل الدبلوماسيون والتجار فى أعداد متزايدة من بلاد أطلق عليها الروس اسم « أوربا » . وشهد نهر دوينا وثغرا ريجا وأركانجل تجارة نامية مع الدول الغربية . ودعى الفنيون الأجانب لتطوير المناجم ، وتنظيم الصناعة ، وصنع السلاح . ونمت مستوطنة كاملة للمهاجرين حوالى ١٦٥٠ فى أحد أحياء موسكو ، وجلب الألمان والبولنديون مسحة من الأدب والموسيقى الغربيين الى هذه المستوطنة ، وزودوا الأسر الروسية بمدرسين خصوصيين للاتينية . وكان لالكسيس نفسه أوركسترا ألمانى . وقد سمح لوزيره أرتامون ماتفيف باستيراد الأثاث الغربى والعادات الفرنسية ، الى حد اباحة اختلاط النساء بالرجال فى المجتمع ، ولما

بعث السفير الروسي لدى دوق توسكانيا الأكبر الى الكسيس أوصافا للدرامات والأوبرات والباليهات الفلورنسية ، سمح الكسيس ببناء مسرح فى موسكو وبعرض المسرحيات ، لا سيما المقتبسة من الكتاب المقدس . وقد سبقت احداها ، وهى « استير » ، تمثيلية راسين التى تحمل هذا الاسم بسبعة عشر عاما . ولما شعر الكسيس أنه أذنب باختلافه الى هذه الحفلات التمثيلية ، ذكرها لكاهن اعترافه ، فاباح له هذه المتع الجديدة (١٤) . وتزوج ماتفيف سيدة اسكتلندية تنتمى لأسرة هاملتن الشهيرة ، وقد تبنيا وربيا يتيمة روسية تدعى ناتاليا ناروبشكينا ، وقد اتخذها الكسيس زوجة ثانية له .

على ان مغامرات التغريب هذه اثارت رد فعل وطنيا ، فشجب بعض الروس الارثوذكس دراسة اللاتينية باعتبارها شرا قد يغرى الشباب بالأفكار غير الأرثوذكسية . وأحس الجيل المخضرم أن أى تغيير فى العادات أو الايمان أو الطقوس يزيح حجرا فى بناء المجتمع ، ويقلقل الاحجار كلها ، وقد يهوى بعد حين بالبناء المزعزع كله ويحيله خرابا . وكان الدين فى روسيا يعتمد على الطقوس اعتماده على العقيدة . ومع أن قدرة الجماهير على تفهم الأفكار كانت الى ذلك الحين محدودة جدا ، فقد أمكن تدريبها على الطقوس الدينية التى أعان تكرارها المنّوم على الاستقرار والسلام الاجتماعيين والنفسيين . ولكن التكرار يجب أن يكون دقيقا حتى يحدث الأثر المنّوم ، وأى تغيير فى التتابع المألوف قد يحطم التعويذة المهدئة ، ومن هنا كان لابد من بقاء كل تفاصيل المراسم الدينية ، وكل كلمة من كلمات الصلوات ، على حالها كما كانت منذ قرون . وقد وقع خلاف من اشد الخلافات والانقسامات مرارة فى التاريخ الروسي حين أدخل نيكون ، بطريرك موسكو ، على الطقوس بعض الاصلاحات المبنية على دراسة للممارسات والنصوص البيزنطية . فقد دله الاكليريكيون الذين درسوا اليونانية على أخطاء كثيرة فى النصوص التى تستعملها الكنيسة الروسية ، فامر نيكون بمراجعة النصوص والطقوس وتنقيحها ، فمثلا تقرر أن يكتب اسم يسوع بعد ذلك Jisus بدلا من Isus ، وأن ترسم علامة الصليب بثلاثة أصابع لا أصبعين ، وأن يخفض عدد المطانيات (الركعات) فى صلاة معينة من اثنتى عشرة الى أربع ، وأن تحطم الأيقونات التى يظهر فيها التأثير الايطالى ويستبدل بها أيقونات تتبع

النماذج البيزنطية . وتقرر بصفة عامة أن يطابق مطابقة أوثق بين الشعائر الروسية وأصولها البيزنطية . وقد أنزلت رتب بعض رجال الكنيسة الروس الذين أبوا قبول هذه التغييرات أو أوقع عليهم الحرم أو نفوا الى سيبيريا . وساءت القيصر أساليب نيكون الدكتاتورية ، فنفاه في ١٦٦٧ الى دير ناء . وانقسمت الكنيسة الروسية الى حزبين ، فأما الكنيسة الرسمية التى يؤيدها الكسيس فقد قبلت الاصلاحات ، وأما المخالفون (راسكولنيكى) أو قدامى المؤمنين (ستاروفيرتسي) فقد تطوروا الى هيئة منشقة اضطهدتها الارثوذكسية الجديدة بالنار والحديد. وقد أحرق زعيمهم أفاكوم على الخازوق (١٦٨١) بأمر القيصر فيودور . وقتل كثيرون من قدامى المؤمنين أنفسهم مؤثرين الموت على دفع الضرائب لحكومة كانت فى نظرهم عدوا للمسيح . وهذه الفوضى الدينية كانت بعض التركة التى ورثها بطرس الأكبر .

ومهد موت الكسيس (١٦٧٦) لصراع عنيف بين أبنائه . فقد خلف من زوجته الأولى ماريا ميلوسلافسكى ولدا عليلا يدعى فيودور (المولود فى ١٦٦٢) ، وآخر أعرج نصف أعمى ونصف معتوه يدعى ايفان(المولود فى ١٦٦٦) ، وست بنات كانت أكفاهن وأشدهن طموحا صوفيا الكسيفنا (المولودة فى ١٦٥٧) . وخلف من زوجته الثانية ناتاليا ناروبشكينا ولده الأشهر بطرس (المولود فى ١٦٧٢) . وورث فيودور العرش ، ولكنه مات فى ١٦٨٢ . وأراد البويار (النبلاء الروس) أن يولوا بطرس عرش القيصرية ، بوصاية أمه ، لما رأوه من عجز ايفان الشديد . ولكن أخوات بطرس لأبيه كن يكرهن ناتاليا ويخشين أن يهملن تحت حكمها ، فحرضن جنود حامية موسكو (السترلتسي) ، تتزعمهن صوفيا ، على أن يغزوا الكرملين ويصروا على تنصيب ايفان . وناشد ماتفيف ، حاضن ناتاليا ، الجند أن ينسحبوا ، فانتزعوه من قبضة بطرس ، وقتلوه على مرأى من الصبى ذى العشرة الاعوام ، وقتلوا أخوة ناتاليا ونفرا من أنصارها ، وأكرهوا البويار على قبول ايفان قيصرا ، يشاركه بطرس تابعا له ، وصوفيا وصية عليه . ولعل هذه الفظائع أسهمت فى اصابة بطرس بتلك التشنجات التى نغصت حياته فيما بعد ، وهى، على أى حال أعطته دروسا لا تنسى فى العنف والوحشية .

واعتكفت ناتاليا مع بطرس فى احدى ضواحي موسكو المسماة بريوبرازينسكى. وحكمت صوفيا البلاد بكفاية. وقد استنكرت عزل النساء فى مساكنهن (التيريم أى الحريم terem) ، وظهرت أمام الناس سافرة ، ورأست فى غير خشية اجتماعات الرجال حيث راح الشيوخ يهزون رءوسهم أسفا وحسرة على هذه الوقاحة ، ولكنها كانت قد تلقت من التعليم أكثر من معظم الرجال المحيطين بها ، وكانت ميالة الى الاصلاح والى الأفكار الغربية ، واختارت رئيسا لوزرائها ، وربما عشيقا لها ، رجلا افتتن بحياة الغرب . وكان هذا الرجل ، وهو الأمير فازيلى جوليتسين ، يكتب اللاتينية ، ويعجب بفرنسا ، ويجمل قصره بالصور وقطع نسيج جوبلان المرسومة ، ويقتنى مكتبة كبيرة تضم كتبا لاتينية وبولندية وألمانية . والظاهر أن قدوته وتشجيعه كان لهما الفضل فى بناء ثلاثة آلاف مسكن حجرى بموسكو فى سنوات وصايته السبع ، فى حين كانت كل البيوت تشاد قبل ذلك بالخشب . ويبدو أنه كان يخطط لعتق أرقاء الأرض (١٥) . وفى عهده ألغى الاسترقاق بسبب الدين ، وكفّت الحكومة عن دفن القتلة أحياء ، وألغيت عقوبة الاعدام على التفوه بعبارات التحريض . على ان جهوده فى الاصلاح أودى بها فشله فى قيادة الجيش ، فقد أعاد تنظيمه وقاده مرتين ضد الترك ، وفى الحالتين أساء ادارة تموين الجند ، فعادوا مهزومين متمردين ، وأعطى سخطهم بطرس الاشارة للقبض على زمام السلطة .

٤ ـ بطرس يتعلم

كان يتلقى التعليم من أمه ، ومن معلميه الخصوصيين ، ومن جولاته فى شوارع موسكو . ولم يكن مبكر النضج ، ولكنه كان تواقا الى العمل ، طلعة ، ذكيا ، بهرته الآلات المجلوبة من الغرب كالساعات ، والاسلحة ، والأدوات . وهفت نفسه الى روسيا تنافس الغرب فى فنون الصناعة والحرب . وكان يحب لعب الألعاب الحربية مع رفاقه الخشنين ـ كبناء القلاع ، ومهاجمتها ، والدفاع عنها . وحلم ببحرية روسية قبل أن يتاح لروسيا الوصول الى بحر لا يتجمد ؛ فبنى قوارب أكبر فأكبر ، حتى اضطر الى رحلة ثمانين ميلا من موسكو ليجد فى بيريسلافل بحيرة يستطيع أن يعوّم فيها أسطوله الصغير .

فلما اشتد عوده ازداد ضيقه بهيمنة اخت غير شقيقة ، اغتصبت مع فازيلى جوليتسين سلطة ايفان وسلطته . وفى ١٨ يوليو ١٦٨٩ ، انضم بطرس الى ايفان فى الموكب الذى كان يحتفل كل سنة بتحرير موسكو من قبضة البولنديين . ومشت صوفيا فى الموكب على غير ما قضت به التقاليد . فامرها بطرس ، وقد بلغ الآن السابعة عشرة ، أن تنسحب ، ولكنها أصرت على السير ، فغادر المدينة غاضبا ، وبحث عن حلفاء ضد الوصية . فوجدهم فى « البويار » الذين لم يستطيعوا أن يروضوا أنفسهم على الرضي بحكم امرأة ، وفى حامية موسكو (الستريلتسي) ، التىكان رجالها على استعداد للخدع الحربية والاسلاب بعد أن صدتهم صوفيا غير مرة . وحرك بوريس جوليتسين ، ابن عم الوزير ، الانقلاب بارسـاله رسالة مزورة الى بطرس زعمت أن صوفيا تدبّر القبض عليه . وفر بطرس وتبعته أمه ، وأخته ، وزوجته التى تزوجها مؤخرا ، الى دير ترويتسكو ـ مرجيفسكايا ، على خمسة وأربعين ميلا من موسكو . ومن هناك أرسل الأوامر لكل كولونيل فى الحامية بالذهاب الى الدير المذكور . ونهتهم صوفيا عن الذهاب ، ولكن كثيرين ذهبوا . وسرعان ما اقبل زعمـاء الأشراف ، ثم يواقيم بطريرك موسكو . واستدعى فازيلى جوليتسين ، فخضع ، ونفى الى قرية قريبة من أركانجل . وقبض على نفر من مؤيدى صوفيا ، وعذب بعضهم ، وأعدم آخرون . وكتب بطرس لايفان يستأذنه فى تقلد زمام الحكم ، فاعطى ايفان الاذن أو افترض أنه أعطاه ، وأمر بطرس صوفيا أن ترحل الى دير للراهبات ، فاحتجت ، وتمردت ، ثم استسلمت . وهناك زودت بكل أسباب الراحة وبالخدم الكثيرين ، ولكن حظر عليها أن تبرح الدير . وفى ١٦ أكتوبر ١٦٨٩ دخل بطرس موسكو ، ورحب به ايفان ، فتقلد زمام السلطة العليا . واعتزل ايفان الحياة العامة فى لباقة ، ومات بعد سبع سنوات .

على أن بطرس لم يكن قد تهيأ بعد للحكم . فترك الحكومة لبوريس جوليتسين المتزمت الرجعى ، وليواقيم ، وغيرهما ، بينما انفق هـو كثيرا من وقته فى المستوطنة الأجنبية . وهناك صنع أصدقاء جددا كانوا ذوى أثر قوى فى تطوره . ومن هؤلاء باتريك جوردون الاسـكتلندى ، المقاتل المغامر الذى كان الآن ضابطا فى الجيش الرومي وهو فى الخامسة والخمسين ، ومنه تعلم بطرس المزيد عن فنون الحرب . ثم فرانسوا

ليفور ، الذى ولد فى جنيف ، وكان الآن لواء فى الرابعة والثلاثين . وقد ابتهج القيصر الشاب بحسن طلعته وسرعة خاطره وأساليبه اللطيفة ، وكان يتناول الطعام معه مرتين أو ثلاثا فى الأسبوع ، الأمر الذى أفزع اهل موسكو ، فهم ينظرون الى جميع الاجانب نظرتهم الى المهرطقين الاشرار . وقد فضل بطرس عشرة هذين الأجنبيين على عشرة الروس ، لأنه رآهما أكثر تحضرا وان لم يقلا عن الروس اسرافا فى الشراب ، وقد فاقا الروس كثيرا فى معارفهما الصناعية والعلمية والحربية ، وكان حديثهما أرقى وملاهيهما أرفع . ولاحظ بطرس تسامحهما المتبادل فى امور الدين — فجوردون كان كاثوليكيا ، وليفور بروتستنتيا — ووقف فى ابتسام عرابا للأطفال الكاثوليك والبروتستنت على السواء عند جرن المعمودية . ثم تعلم من لغتى الالمان والهولنديين ما يكفى لتحقيق اهدافه .

أما أهدافه هذه فهى أن يجعل روسيا شديدة البأس فى الحرب ، منافسة للغرب فى فنون السلم . لقد تعلم من النزيل الهولندى ، البارون فون كيلر ، كيف حافظ الهولنديون على ثروتهم وقوتهم ببناء السفن الجيدة . وتاقت نفسه لايجاد منفذ الى البحر ، ولبناء أسطول بحرى . ولم يكن له منفذ بحرى الا فى أركانجل ، التى كان يكتنفها الجليد نصف العام . ومع ذلك اتخذ طريقه اليها فى ١٦٩٣ . واشترى سفينة حربية هولندية رأسية فى الميناء ، فلما تغلب على خوفه من البحر وأبحر على هذه السفينة أسكرته الفرحة ، وكتب الى ليفور يقول : « ستقودها أنت ، وسأخدم انا بحارا بسيطا فيها (١٦) » . وارتدى سترة قبطان هولندى ، واختلط مغتبطا بالبحارة الهولنديين فى حانات الثغر . لقد كان الهواء الملح الذى هب عليه من ذلك البحر البارد نسمة منعشة من الغرب ، من ذلك الاقليم ، اقليم الصناعة والمنعة والعلم والفن ، الذى كان يناديه فى اغراء يزداد قوة يوما بعد يوم .

وكان هناك طريقان عمليان الى الغرب : أولهما طريق البلطيق الذى تسده السويد وبولنده ، وثانيهما طريق البحر الأسود ، الذى يسده التتار والترك . وكان التتار والترك يسيطران عند آزوف على مصب الدون ، ويغيران المرة بعد المرة على الأراضي الموسكوفية ، ويأسران الروس — أحيانا عشرين ألفا فى سنة واحدة — ليبيعوهم عبيدا فى

الاستانة • وفى ١٦٩٥ أمر بطرس جيشه أن ينتقل من التلهى بالألعاب الى التمرس بالحرب ، وأن يزحف مخترقا السهوب ، ويبحر هابطا الأنهار ، ويهاجم آزوف • واضطلع ثلاثة قواد بالقيادة قسمة بينهم – جولوفين ، وجوردون ، وليفور • وعمل بطرس بتواضع مدفعيا برتبة رقيب فى فوج بريوبرازينسكى • وأسيئت ادارة العملية ، وكان الجند سيئى التدريب ، وبعد أربعة عشر أسبوعا من التضحيات أقلع الروس عن الحصار ، وعاد بطرس الى موسكو وهو يقسم ليدربن جيشا أفضل ويعيدن الكرة •

وبنى فورونيز أسطول ناقلات وبوارج • وفى مايو ١٦٩٦ ابحر هابطا الدون على رأس ٧٥٫٠٠٠ رجل ، واستأنف حصار آزوف • وفى يوليو ، ويفضل بسالة قوزاق الدون على الأخص ، استولى الروس على المدينة • وعلى الفور أمر بطرس ببناء أسطول كبير فى فورونيز ليعمل فى البحر الاسود • وفى سبيل هذا الهدف فرضت الضرائب على روسيا كلها بما فيها كبار ملاك الأراضي ، وجنّد العمال ، وجلبت الآلات الأجنبية • وبعث خمسون من أشراف الروس على نفقتهم الى ايطاليا ، وهولنده ، وانجلتره ، ليتعلموا فن بناء السفن • وفى ١٠ مارس ١٦٩٧ تبعهم بطرس •

ولو خطر ببال روسيا أن القيصر سيمضي الى بلاد تدنسها الهرطقة لأفزعتها الفكرة وروعتها • لذلك نظم سفارة من خمسة وخمسين نبيلا ومائتى تابع ، يرأسها ليفور ، لتزور « أوربا » وتبحث عن حلفاء ضد الترك • وكان من هؤلاء المبعوثين الخمسة والخمسين صف ضابط لا يدعى الا باسم بطرس ميخايلوف ، ويستعمل ختما عليه صورة نجار سفن وهذه العبارة « رتبتى تلميذ ، وأنا فى حاجة الى معلمين (١٧) » فلما خرج بطرس من روسيا ، لم يدقق فى الاحتفاظ بهذا التنكر ، فقد استضافه ناخب براندنبورج فردريك الثالث ، والملك وليم الثالث فى انجلتره ، والامبراطور ليوبولد الأول فى فيينا ، بوصفه قيصر روسيا • ولقد صدم أهل القصور ، حتى وهو يسفر عن مقامه الملكى ، بجلافة سلوكه وحديثه ، وبقذارته واهماله ، وبعزوفه عن استعمال السكين والشوكة (١٨) • ولكنه شق طريقه •

ولقيت السفارة المصاعب — التى لم ينسها بطرس قط — فى سفرها الى ريجا مخترقة ليفونيا السويدية . ومن هناك أسرع الى كونيجزبيرج . حيث وقّع مع الناخب معاهدة تجارة وصداقة . وفى براندنبورج درس المدفعية والتحصين على يد مهندس حربى بروسي أعطاه شهادة بتقدمه . وفى كوبنبروجى أقنعته صوفيا ، ناخبة هانوفر الارملة ، وابنتها صوفيا شارلوت ، ناخبة براندنبورج ، هو وبطانته بالعشاء والرقص معهما وقد وصفته الناخبة الأرملة فيما بعد بهذه العبارات :

« ان القيصر رجل فارع الطول ، دقيق الملامح ، رائع السمت ، له ذهن شديد الحيوية ، وبديهة حاضرة ... وليت عاداته اقل جلافة ... كان مرحا جدا ، كثير الحديث ، وقد كونا صداقة حميمة فيما بيننا .... اخبرنا أنه يعمل فى بناء السفن ، وأرانا يديه ، وجعلنا نلمس المواضع القاسية التى خلفها بهما العمل ... انه رجل شديد الغرابة ... طيب القلب جدا ، نبيل العاطفة الى حد عجيب ... ولم يشرب حتى يثمل فى حضرتنا ، ولكن ما ان بارحنا المكان حتى عوض أفراد بطانته عن قصده فى الشراب ... وهو حساس لمفاتن الجمال ... ولكنى لم اجد فيه ميلا للتودد للنساء ... وفى أثناء الرقص حسب الموسكوفيون عظام الحوت المصنوعة منها مشدّاتنا عظامنا ، وأبدى القيصر دهشته بقوله ان للنساء الالمانيات عظاما قاسية الى حد رهيب (١٩) » .

ومن كوبنبروجى ، أبحرت السفارة هابطة الرين الى هولنده وترك بطرس ونفر من أخصائه أكثر الجماعة فى امستردام ، ومضى الى زاندام ، وكانت يومها مركزا كبيرا لبناء السفن (١٨ أغسطس ١٦٩٧) . فقد سمع الكثير ، حتى فى روسيا ، عن مهارة بناة السفن فى هذه المدينة الجميلة . وتعرف فى شوارعها على صانع عرفه فى موسكو ، اسمه جيريت كيست . وطلب اليه بطرس أن يتستّر على تنكره ، واقترح ان يسكن كوخ كيست الخشبى الصغير . وهناك مكث أسبوعا يرتدى زى عامل هولندى ، وينفق نهاره فى مراقبة نجارى السفن وهم يشتغلون ، ويجد فى ليله متسعا لمنازلة فتاة تخدم فى حانة الحى . وفى سنوات لاحقة زار جوزف الثانى ونابليون هذا الكوخ كأنه مكان مقدس ، وجمّله القيصر اسكندر الأول بلوحة رخامية ، وكتب شاعر

مولندى على الحائط بيتا مشهورا : لا شيء يصغر فى نظـــر الرجـــل العظيم (٢٠) » .

فلما ضاق بطرس بالجموع التى تبعته فى كل خطوة بزاندام ، عاد الى امستردام وسفارته . وهنا أيضا أصر على التنكر ، ولكنه سمى نفسه الآن « النجار بطرس الزاندامى » . واقنع شركة الهند الشرقية الهولندية بأن تسمح له بالانخراط فى سلك عملها بأحواض السفن فى أوستنبورج وهناك اشتغل بهمة مع عشرة من أتباعه طوال شهور أربعة ، وعاونوا فى بناء سفينة وانزالها الى الماء . ولم يسمح بأى تفرقة بينه وبين العمـــال الآخرين ، وحمل على كتفه الأخشاب كما حملها سائرهم . وكان فى الليل يدرس الهندسة ونظرية بناء السفن ، وتبين مذكراته مبلغ دقة هـــــذه الدراسات . ووجد متسعا من الوقت لزيارة المصانع ، والورش ، ومتاحف التشريح ، والحدائق النباتية ، والمسارح ، والمستشفيات . وقابل الطبيب وعالم النبات العظيم بويرهافى ، ودرس المكروسكوبيا على ليوفينهويك، واصطحب بطانته الى مدرج تشريح بويرهافى . ودرس الهندسة الحربية على البارون فان كويهورن ، والعمارة على شينفويت ، والميكانيكا على فان درهيدن . وتعلم كيف يخلع الأسنان ، ولقى بعض مساعديه عنتا من جراء حماسته فى علاج الأسنان . ودخل منازل الهولنديين ليدرس حياتهم الأسرية وتنظيم بيوتهم . واشترى فى الأسواق ، وخالط الناس ، وتعجب من حرفهم المتنوعة ، وتعلم أن يصلح ملابسه ويرقع حذاءه . واحتسي الجعة والنبيذ مع الهولنديين فى مشاربهم . وأغلب الظن أن التـــاريخ لم يشهد رجلا أشوق منه الى تشرب الحياة وتذوقها .

وفى هذا النشاط كله لم تغب روسيا عن نظره . فوجه برســـائله أعمال حكومتها النائبة عنه . واستخدم وأرسل الى روسيا عدة قباطنة بحريين ، وخمسة وثلاثين ملازما ، واثنين وسبعين مرشدا ، وخمسين طبيبا ، وأربعة طباخين ، و ٣٤٥ بحارا . وبعث الى روسيا على عجل ٢٦٠ صندوقا من البنادق ، وقماش القلوع ، والبوصلات ، وعظم الحوت والفلين ، والمراسي ، والعدد ، وحتى ثمانى قطع من الرخام ليشـــتغل عليها النحاتون الروس (٢١) . ولكن اهتمامه كان يفتر اذا اتصل الأمر بتهذيب العادات ، أو لطائف المجتمع ، أو دقائق الفكر ، ولم يكن لحبه

متسع من الوقت للميتافيزيقا أو المراقص أو الصالونات ، وعلى أية حال ، لا ضير فى أن ترجأ هذه الأشياء غير الملموسة . أما الآن فمهمته أن يدخل صنائع الغرب وعلومه العملية الى روسيا « حتى اذا تمكنا منها تمكنا كاملا استطعنا عند عودتنا الى الوطن أن ننتصر على أعداء يسوع المسيح (٢٢) » وهو يقصد الاستيلاء على الآستانة واطلاق روسيا من سجنها لتعبر البوسفور الى العالم .

وبعد أن قضى فى هولنده أربعة شهور طلب الى وليم الثالث الاذن له بزيارة انجلتره ، شبه متنكر أيضا . وبعث وليم باليخت الملكى ليأتى به ، ووصل بطرس الى لندن فى يناير ١٦٩٨ . ومع أن الوقت كان شتاء فانه زار أرصفة الموانىء والمؤسسات البحرية ، والجمعية الملكية ، ودار ضرب النقود ، ولعله التقى بنيوتن هناك . وقلب ايفلين بيته وهيا أرضه بعناية فى دبتفورد لبطرس وجماعته ، وقد منحت الحكومة الانجليزية السر جون بعد ذلك ٣٥٠ جنيها ليصلح التلف الذى أحدثه الروس . وأدهش القيصر جيرانه بالذهاب الى فراشه مبكرا ، والاستيقاظ فى الرابعة ، والسير الى أحواض السفن يحمل على كتفه بلطة وفى فمه « بيبة » . واتخذ ممثلة كبيرة خليلة له ، وقد شكت من ضآلة المال الذى نقدها اياه . وتسلم درجة الدكتوراة فى القانون فى اكسفورد ، وحضر الخدمات البروتستنتية فى لياقة توقع معها القساوسة الانجليز أنه سيحول روسيا الى حركة الاصلاح البروتستانتى . وحاول الأسقف بيرنت التاثير عليه ، فوجده محبا للاستطلاع ولكنه لا يلتزم بموقف متميز ، وخلص الى أن القيصر « هيأته الطبيعة فيما يبدو لأن يكون نجار سفن أكثر منه ملكا عظيما (٢٣) » .

وأبحر بطرس عائدا الى أمستردام بعد أن أنفق أربعة اشهر فى انجلتره ، وانضم الى بعثته ، وواصل معهم رحلته الى فيينا مرورا بلبيزج ودرسدن (٢٦ يونيو ١٦٩٨) . وعبثا حاول ، طوال شهر نفد خلاله صبره ، أن يضم الامبراطور اليه فى حلف ضد تركيا . وقد تلطف مع اليسوعيين الذين بدأوا يحلمون بروسيا الكاثوليكية الرومانية . وبينما هو على وشك مغادرة فيينا ، وصلته رسالة تنبئه بأن حامية موسكو تمردت ، وأنها تهدد بالاستيلاء على موسكو وعلى مقاليد الحكم . فخف

من فوره الى روسيا ، ولكن قرب كراكو وصله تاكيد بأن الثورة أخمدت. ولبث أربعة أيام فى رافا مع أوغسطس الثانى ملك بولنده . وأدهشه وأبهجه ن يجد ملكا يستطيع أن يباريه فى قوة البدن ، وصيد الوحوش ، والاسراف فى الشراب . وقد أحب أحدهما الآخر ، وتعانقا ، وتناقشا فى أى البلدين يجب أن يكون أول ضحية لصداقتهما ، السويد أم تركيا . وفى ٤ سبتمبر وصل بطرس الى موسكو بعد ثمانية عشر شهرا من رحلة عينت فى رأى ماكولى « حقبة فى التاريخ — لا تاريخ بلده فحسب ... بل تاريخ العالم (٢٤) » . لقد اكتشفت روسيا أوربا ، واكتشفت أوربا روسيا . وبدأ ليبنتز يدرس الروسية .

على أن بطرس كان لا يزال له طبع مسكوفيى القرن السابع عشر . انه لم يغتفر قط لحامية موسكو اشتراكهم فى قتل أخواله وماتفيف ، وفى تمكين صوفيا من اغتصاب السلطة . ولم يكن فى خططه لتنظيم جيش جديد مكان لهذا « الحرس الامبراطورى » المثير للمتاعب . فلما نمى اليه أن صوفيا فاوضتهم من ديرها ليعيدوها الى الحكم ، وأنهم هددوا ليفور وغيره من أهل « المستوطنة الألمانية » ، وأنهم أذاعوا الشائعات بانه يخون ديانة روسيا فى ولعه بالغرب ، استحال غضبه تشنجا يطلب الانتقام . فأمر بتعذيب نفر كبير من الحامية ليحملهم على الاعتراف بدور صوفيا فى تمردهم ، ولكنهم تجلدوا لأروع ضروب العذاب دون أن يحملوها أى تبعة ، وأمر بتعذيب أتباعها بنفس الهدف والنتيجة . وأكرهت صوفيا على أن تقطع على نفسها نذر الرهبنة ، وأحكم حبسها فى ديرها ، حيث ماتت بعد ست سنوات . ثم أعدم ألفا من رجال الحامية قتل بطرس منهم خمسة بيده ، وأكره مساعديه على أن يقتدوا به ، ولكن ليفور أبى . وما وافى عام ١٧٠٥ حتى كانت حامية موسكو (السترلتسي) قد اختفت من التاريخ .

وشرع بطرس من فوره فى بناء جيش جديد . وكان الجيش القديم قوامه رجال الحامية ، والمرتزقة الاجانب ، والمجندون من الفلاحين جمعهم الأشراف . فاستبدل بطرس بهذا الخليط جيشا دائما عدته ٢١٠٫٠٠٠ مقاتل بتجنيده رجلا من كل عشرين أسرة من أسر الفلاحين . والبس هؤلاء الجنود سترات عسكرية « أوربية » ودربوا على تكتيك الغرب . اما مدة الخدمة لجميع الرتب فهى مدى الحياة . وفضلا عن

هذا دعا بطرس ١٠٠٫٠٠٠ قوزاقى للخدمة · وبنيت السفن على عجـل على البحيرات ، والأنهار ، والبحار ، فما وافى عام ١٧٠٥ حتى كان للبحرية الروسية ثمان وأربعون بارجة ، وثمانمائة سفينة أصغر منهـا ، و ٢٨٫٠٠٠ بحار ·

كان هذا كله لا يزال فى طريق التنفيذ ، ناقصا لم يكتمل بعــد ، حين جاء باتكول الى موسكو واقترح أن ينضم بطرس الى فردريك الرابع ملك الدنمرك وأوغسطس الثانى ملك بولنده ليطردوا السويد من أرض القارة وينتزعوا منها الهيمنة على البلطيق · ورأى بطرس أن كل هذه السفن التى يجرى بناؤها تتوق لأن تمخر عباب البحر ، وهى تؤثر البحر المتوسط الدافىء — ولكن الامبراطورية العثمانية كانت لا تزال قوية الى حد يفت فى العضد · وكانت الآستانة عصية على الهجوم ، والنمســا وفرنسا الآن صديقتين للأتراك · فعلى روسيا اذن أن تتطلع الى الباب الآخر ، وأن تلتمس لها منفذا فى الشمال · وكان من ســوء التوقيت أن يحضر المبعوثون السويديون الى موسكو قبيل ذلك ويحصلوا على موافقة بطرس على تجديد معاهدة كاردس التى تعاهدت فيها روسيا والسويد على السلام · ولكن الجغرافيا والتجارة تهزءان بالمعاهدات · ثم ألم يكن ساحل البلطيق بين نهرى نيفا ونارفا — ولايتا اينجريا وكاريليـا — من قبل ملكا لروسيا ، ولم يسلم للسويد فى ١٦١٦ الا لأن روسيا كانت فى فترة شدتها تلك عاجزة عن المقاومة ؟ فلم لا تسترد القــوة ما أخـــذ بالقوة ؟ وعلى ذلك ، ففى ٢٢ نوفمبر ١٦٩٩ انضم بطرس الى الحلف ضد السويد ، واتخذ أهبته لشق طريقه الى البلطيق · وفى ٨ أغسطس ١٧٠٠ أمن جبهته الجنوبية على قدر ما تستطيع معاهدة تأمينها ، وذلك بابرامه صلحا مع تركيا · فى ذلك اليوم بعينه أمر جيشه بالزحف على ليفونيا السويدية ·

٥ — شارل الثانى عشر والحرب الشمالية الكبرى :

١٧٠٠ — ٢١

ونمى الى استوكهولم نبأ غامض عن اتفاق الحلف · فالتـــأم المجلس الملكى ليناقش اجراءات الدفاع · وكان الرأى الغالب وجـــوب فتح باب المفاوضات مع أحد الحلفاء لعقد صلح منفرد معه · واستمع شارل

مليا وهو صامت ، ثم انتفض قائما وقال : « أيها السادة ، لقد عقدت النية على الا أخوض حربا ظالما حييت ولكنى ... لن أنهى حربا عادلة الا بالقضاء المبرم على أعدائى (٢٥) » . ثم طلق كل لهو وترف واتصال بالنساء ومعاقرة للخمر . وكان جيشه وبحريته مستعدين ، فغادر معهما استوكهولم فى ٢٤ أبريل ١٧٠٠ ليبدأ واحدة من أروع السير الحربية فى التاريخ . ولم يشهد عاصمة ملكه بعدها قط .

وبدأ بمهاجمة الدنمرك ، فقد كان عليه أن يحمى ولايات السويد الجنوبية من هجمات الدنمرك وهو يواجه بولنده وروسيا . ثم قاد سفنه عبر مضيق الساوند ـ المفترض أنه لا يصلح للملاحة ـ بما عهد فيه من جرأة وسرعة ، رغم اعتراض أميرال بحريته ، ورسا على سييلاند ، التى لا تبعد عن كوبنهاجن سوى أميال (٤ أغسطس ١٧٠٠) . وسارع فردريك الرابع ملك الدنمرك الى ابرام صلح ترافندال معه (١٨ أغسطس) خشية أن تسقط عاصمته ، ودفع تعويضا قدره ٢٠٠,٠٠٠ ريال دنمركى ، وأقسم انه لن يهاجم السويد أبدا .

وفى مايو ١٧٠٠ حاول أوغسطس الثانى الاستيلاء على ريجا . ولكن هزمه الكونت ايريك دالبيرج ، القائد السويدى البالغ من العمر خمسة وسبعين عاما ، والذى اكتسب لقب « فوبان السويد » لمهارته فى فن التحصين . وتقهقر أوغسطس وناشد بطرس أن يخفف عنه بغزوه اينجريا . واستجاب بطرس بان أمر أربعين الف مقاتل بحصار نارفا . وأراد شارل الثانى عشر أن يساعد دالبيرج ، فنقل جيشه بالبحر الى برناو (بارنو) ، على خليج ريجا ، ولكنه حين وجد ذلك المقاتل منتصرا ، اتجه شمالا . واخترق المناقع والممرات الخطرة ثم ظهر فجاة فى مؤخرة جيش بطرس . وأخذ القيصر على غرة ، فبدر منه ما بدا جبنا معيبا ، اذ ترك الجيش (الذى كان يخدم فيه ملازما فقط) ، وفرّ الى نوفجورود وموسكو . وأغلب الظن أنه عرف أن مجنديه الغشم سينهارون فى أول امتحان لهم ، ولم يكن فى وسعه أن يترك العدو يأسره ، لأنه رأى نفسه أعظم قيمة لروسيا حيا منه ميتا . أما الجيش الروسي ، الذى بلغ أربعين الفا ، والذى كان يقوده الامير المجرى كارل يوجين ديكروا قيادة عاجزة ، فقد هزمه جنود شارل الثمانية الآلاف فى موقعة نارفا (٢٠ نوفمبر ١٧٠٠) ، وكانت أول نكسة فى حياة بطرس بعد صباه .

وألح القواد السويديون على شارل فى أن يزحف على موسكو ويجهز على بطرس . ولكن جيش شارل كان صغيرا ، والشتاء حل ، وكل شجاعة ، حتى شجاعة هذا النابليون الشاب ، لابد أن تتردد أمام مسافات روسيا المترامية فضلا عن مشكلة اطعام الجيش فى أرض معادية . ثم (ما دامت العهود والمواثيق حبرا على ورق) هل يستطيع أن يركن الى ملك الدنمرك ، أو ملك بولنده ، فى ألا يغزو أحدهما السويد وجيشها الرئيسي وقائدها نائيان عن أرض الوطن ؟ وبعد أن أعاد شارل تنظيم حكومة ليفونيا ودفاعها ، سار جنوبا الى بولنده ، واحتل وارسو دون عناء (١٧٠٢) على نحو ما فعل جده قبل سبعة وأربعين عاما ، وخلع أوغسطس ، ونصب ستانيسلاس لزكزنسكى ملكا على بولنده (١٧٠٤) . لقد هزم الآن كل حليف من الحلفاء ، ولكن الدب الروسي لم يكد يبدأ النزال .

ذلك أن بطرس لم يفق من رعبه فحسب ، بل نظم جيشا آخر وجهزه . ولكى يزوده بالمدافع أمر بأن تصهر أجراس الكنائس والأديار ، وصنع ثلاثمائة مدفع ، وأنشئت مدرسة لتدريب رجال المدفعية . وسرعان ما أخذت القوات المجندة الجديدة فى احراز الانتصارات ، وتقدمت كتيبة مدفعية بطرس غيرها فى الاستيلاء على نينسكانس ، عند مصب نيفا (١٧٠٣) ، وهنا شرع القيصر لتوه فى بناء « بطرسبرج » دون أن يدرك الى ذلك الحين أنها ستكون عاصمة ملكه ، ولكنه صمم على أن تكون أحد منافذه الى البحر . وبينما كان شارل مشغولا فى بولنده ، ظهر بطرس ثانية أمام نارفا . وكان شارل قد ترك فيها حامية ضئيلة ، واقتحم الروس القلعة الكبيرة (٢٠ أغسطس ١٧٠٤) ، وثأر المنتصرون لأنفسهم من فشلهم السابق بمذبحة رهيبة ، وضع لها بطرس حدا فى النهاية بأن قتل بيديه اثنى عشر من الروس المتعطشين للدماء .

وفى بولنده بدا أن انتصار شارل كامل . فقد وقع أوغسطس المخلوع معاهدة اعترف فيها بلزكزنسكى رلكا ، وتخلى عن أحلافه ضد السويد ، وأسلم لشارل الرجل الذى نظم الحلف أولا ، فحطم جسد يوهان فون باتكول على دولاب التعذيب ثم قطع رأسه (١٧٠٧) . ووجد بطرس نفسه وحيدا أمام هذا الارهاب السويدى الشاب . فحاول

أن يرشو الوزارة الانجليزية لترتب له صلحا ، ولكنهـا رفضـت أن تتدخل • ومضي عامل بطرس رأسا الى ملبره ، فوافق على الوسـاطة لقاء امارة فى روسيا (٢٦) ، وعرض عليه بطرس كييف أو فلاديمير أو سيبيريا ، وضمانا من خمسين ألف طالير فى العـام ، و « ياقوتة ماسية لا يملك نظيرها أى ملك أوربى » (٢٧) ، ولكن هذه المفاوضات أخفقت • وتعاطف الساسة الغربيون مع شارل ، واحتقروا أوغسطس ، وخافوا من بطرس ، وكانت حجة بعضهم أنه لو سمح لروسيا بالتوسع غربا ، فان أوربا كلها سترتعد بعد قليل أمام فيضان سلافى (٢٨) •

وفى أول يناير ١٧٠٨ عبر شارل الفستولا فوق جليد غير مأمون على رأس ٤٤٫٠٠٠ مقاتل نصفهم من الفرسان • فوصل الى جرودنو فى اليوم السادس والعشرين بعد أن رحل عنها بطرس بساعتين فقط • ذلك أن رأى القيصر استقر على الدفاع بالعمـق والتخريب • فأمـر جيوشه بأن تتقهقر ، وتستدرج شارل ليوغل داخل الفرشة الروسية أبعد فأبعد ، وتحرق كل المحاصيل أثناء مسيرتها ، وأمـر الفـلاحين بأن يخفوا قمحهم فى باطن الأرض أو تحت الثلوج ، ويشتتوا ماشيتهم فى الغابات والمستنقعات • وعهد الى الزعيم القوزاقى ايفان مازيبا بمهمة الدفاع عن « روسيا الصغيرة » وأوكرانيا • وكان مازيبا قد نشيء وصيفا فى البلاط البولندى ، وبأمر من نبيل بولندى أغوى ايفـان زوجتـه ربط عريانا على حصان أوكرانى وحشي ، وأرهب الحصـان عمـدا بضربات سوط واطلاق مسدس عند أذنه (كمـا سـيروى بيرون) ، واندفع الحصان خلال الأحراج والغابات الى مسارحه الأولى ، ولـكن مازيبا ظل على قيد الحياة وان تمزق لحمه وسال دمه ، وارتقى حتى أصبح زعيما لقوزان زابوروج • وتظاهر بالولاء لبطرس ، ولكنه كـره أوتقراطية القيصر ، وترقب الفرصة للثورة • فلما سـمع بأن بطرس يتقهقر وشارل يتقدم ، قرر أن فرصته قد حانت • فارسل الى شـارل يعرض عليه التعاون معه •

ولعل هذا العرض هو الذى حدا بشارل الى المضي فى زحفـه المتهور داخل روسيا • وبدأت سياسة « الأرض المحرقة » تؤتى ثمارها، فلم يجد السويديون غير برية متفحمة فى طريقهم وأخذوا يتضورون جوعا • وكان شارل قد اعتمد على تعزيزات انتظر وصولها من ريجا ،

وقد حاولت أن تصله ولكن الروس دمروها نصف تدمير فى طريقها • وعلل شارل نفسه بأن مازيبا سينضم اليه بالامداد وقوة قوزاق الدنيبر كاملة ، ولكن بطرس ، الذى توجس من خيانة مازيبا ، جرد جيشا بقيادة الكسندر دانيلوفتش منشيكوف ليقبض عليه ، وفوجىء الزعيم قبل أن يستطيع ايقاظ فرسانه ، ففر الى شارل عند هوركى جالبا معه ألفا وثلثمائة رجل فقط • وزحف شارل جنوبا ليستولى على عاصمة مازيبا ، واسمها باتورين ، ويأخذ مؤنها ، ولكن منشيكوف سبقه اليها ، وأحرق المدينة وسواها بالتراب ، وعين زعيما مواليا لروسيا • واستعمل بطرس كل سلاح ، فثنى القوزاق عن الانضمام الى السويديين بمنشورات وصفت الغزاة بأنهم مهرطقون « ينكرون عقائد الدين الصحيح ويبصقون على صورة العذراء المقدسة » (٢٩) • ولم يبق لشارل من أمل الا فى أن يخف التتار والترك لنجدته انتقاما لاستيلاء بطرس على آزوف •

ولكن أحدا لم يأت ، وكان شتاء ١٧٠٨ ـ ٩ عدوا رهيبا للسويديين • كان شتاء قارسا جدا فى كل أرجاء أوربا ، فتجمد البلطيق الى عمق سمح لعربات النقل الثقيلة أن تعبر الساوند على الجليد ، وفى ألمانيا ماتت أشجار الفاكهة ، وغطى الجليد الرون فى فرنسا ، والقنوات فى البندقية • وفى أوكرانيا كست الثلوج الأرض ، من أول أكتوبر الى ٥ أبريل ، وسقطت الطيور نافقة أثناء طيرانها ، وتجمد اللعاب فى طريقه من الفم الى الأرض ، وتجمد النبيذ والمسكرات فاصبحت كتلا صلبة ، واستحال اشعال الحطب فى العراء ، وكانت الريح ماضية كالمدى فى هبوبها على السهول المنبسطة وعلى وجوه الناس • واحتمل جنود شارل فى تجلد صامت بينما لقى ألفان منهم حتفهم جوعا أو بردا • قال شاهد عيان « كنت ترى بعضهم بغير أيد ، وبعضهم بغير أرجل ، وبعضهم بغير آذان أو أنوف ، وكثيرين يزحفون فى سيرهم على نحو ما تفعل ذوات الأربع (٣٠) » وأمرهم شارل بالسير قدما ، أملا فى أنهم لن يلبثوا أن يباغتوا جيش بطرس الرئيسي فى مكان ما ويظفر بروسيا كلها فى نصر ساحق واحد • وكان أينما التقى بالعدو ، فى هولوفكزين ، وسركوفا ، وأوبرسيا ، ينتصر بفضل التفوق فى القيادة والشجاعة ، على قوات كثيرا ما بلغت عشرة أضعاف

قواته . ولكن حين انتهى ذلك الشـــتاء ، كان جيشـــه قد تقلص من ٤٤٫٠٠٠ الى ٢٤٫٠٠٠ مقاتل .

وفى ١١ مايو وصل الى بلطاوه الواقعة على فرع من فروع الدنيبر على خمسة وثمانين ميلا جنوب غربى خركوف . هنالك لمح شـــارل أخيرا جيش بطرس ، وكانت عدته ثمانين ألف مقاتل . وبينما كان فى احدى جولاته الاستطلاعية أصابته رصاصـــة فى قـــدمه . فلم يعبـــأ بالجرح . وانتزع الرصاصة فى هدوء بسكينه ، ولكنـــه حين عاد الى معسكره أغمى عليه ، فلما عجز عن قيادة جيشه بشخصه ، وكل بهـــا الجنرال كارل رينسكيول ، وأمره بأن يهاجم العدو فى الغـــد (٢٦ يونيو) . وفى بداية المعركة اكتسح السويديون كل شيء أمامهم ، وهم الذين لم يخسروا قط معركة تحت امرة شارل . ورغبة فى اســـتنفار جنوده أمر شارل أن يحمل الى ساحة القتال على محفة ، ولكن نيران العدو حطمتها من تحته . وركب بطرس الى المقدمة رغـــم أنه مازال رسميا مجرد ملازم فى الجيش ، مستنهضا همم جنده ، ولكن رصاصة مرقت خلال قبعته ، وثانية صدها صليب ذهبى على صدره . وأسعفته الآن سنواته التى أعد فيها المدفعية ودربها ، فكانت مدافعه تطـــلق خمس مرات مقابل مرة يطلقها السويديون . فلما نضـــبت ذخـــيرة السويديين فتكت المدفعية الروسية بالمشاة السويديين على بكرة أبيهم ، واستسلم الفرسان السويديون حين رأوا الموقف ميئوسا منه . أما شارل فقد امتطى جوادا وفر مع مازيبا وألف مقـــاتل عبر الدنيبر الى أرض تركية . وفقد السويديون أربعة آلاف رجل بين قتيل وجريح ، والروس ٤٫٤٣٥ ولكنهم أسروا ١٨٫٦٧٠ فيهم قائدان وضباط كثيرون . وعامل بطرس الضباط معاملة كريمة ، ولكنه استخدم الأسرى فى التحصينات والأشغال العامة . وأشاد ليبتنر بانسانيته واستنتج من ضخامة الكتائب الروسية أن الله يقف فى صف الروس (٣١) . ووافقه بطرس ، وكتب يقول : « الآن بعون الله أرســـيت أســـاســـات بطرســـبرج وأمنتهـــا الى الأبد (٣٢) » .

وكان للمعركة نتائج بعيدة المدى لا حصر لها . فقد فر لزكزنسكى الى الألزاس ، واعتلى أوغسطس الثانى عرش بولنـــده من جـــديد . واستولت روسيا على امارات البلطيق وكل أوكرانيا . وعادت الدنمرك

الى الحلف ضد السويد ، وغزت سكانى ، ولكنها ردت على أعقابها . واستولى فردريك وليم ملك بروسيا على ستتين وهولشتين وجـزء من بومرانيا . وارتفع شان روسيا وازدادت عزة وكبرياء . وعرض لويس الرابع عشر التحالف مع بطرس ، فرفضه هذا ، ولكنه رضي أن يستقبل مبعوثا للويس .

أما شارل فانه لم يعترف بانه هزم هزيمة ساحقة . وأغدق الاتراك الشاكرون صنيع أى انسان يثير القلاقل لروسيا على لاجئهم الملكى كل أسباب التكريم ، باستثناء الامتيازات الملكية . ففى بندر (وهى اليوم تيغينا) القريبة من الدنيستر ، احتفظ ببلاطه ، وتلقى من السـلطان أحمد الثالث المئونة له ولألف وثمنمائة سويدى بقوا فى خدمته . وحالما التأم جرح قدمه استانف التمرينات العسكرية ودرب جيشه الصـــغير . وشاع عنه أنه اعتنق الاسلام لزهده فى الخمر واختلافه الى الصلاة العامة بانتظام . ولم يدخر وسيلة ليقنع السلطان أو الصدر الأعظـــم بشـن الحرب على روسيا ، وبهذا الأمل رفض أن تعيده الى الســـويد سـفن فرنسية وضعت تحت تصرفه . وبذلت محاولة لتسميمه ، ولكنها كشفت فى أوانها . وطالب بطرس بأن يسلم اليه مازيبا باعتباره مواطنـــــا روسيا خائنا ، ولكن شارل أبى أن يسمح بهذا ، وقطع مازيبا العقـدة بأن مات (١٧١٠) .

ان كل انتصار يولد أعداء جددا أو يلهب الأعداء القدامى . وقد استطاع شارل أن يقنع السلطان بأن قـــوة روســـيا المتزايـدة ، التى لا يكبحها الآن كابح فى الشمال ، ستتحدى هيمنة الترك على البحـــر الاسود والبوسفور ان عاجلا أو آجلا . فأعلن السلطان الحــرب على روسيا ، وجرد عليها ٢٠٠ر٢٠٠ مقاتل بقيادة الصدر الأعظم . وأخـذ بطرس على غرة ، فلم يستطع أن يحشد أكثر من ٣٨ر٠٠٠ مقاتل فى الجنوب ليصد هذا السيل الجارف . وخذله حلفاؤه البلغار والصرب . فلما التقى الجيشان على نهر بروت (وهو اليوم حد رومانيا الشرقى) اضطر بطرس لمنازلة الترك ، لان الاقليم المحيط به كان قد دمر . ولم يكن لديه غير مئونة يومين . وتوقع الهزيمة والموت ، فارسل تعليماته الى موسكو لانتخاب قيصر جديد اذا تحققت مخـاوفه ، ثم اعتكف فى خيمته ومنع أى انسان من الدخول عليه . ولكن زوجته الثانية كاترين

اتفقت مع قواده على أن الاستسلام خير من الانتحار الجماعى • وواجهت غضب بطرس اذ حملت اليه خطابا طلبت اليه التوقيع عليه ، يطلب فيه الى الصدر الأعظم شروط الصلح • ووقع بطرس يائسا • وجمعت كاترين كل مجوهراتها ، واقترضت مالا من الضباط ، وبعثت بطرس شافيروف نائب المستشار ، مسلحا بـ ٢٣٠ر٠٠٠ روبل ، ليفاوض الوزير فى شروط الصلح • وأخذ الوزير الروبلات والمجوهرات ، وسمح لبطرس بأن يسحب جيشه وعتاده دون عائق ، شريطة أن يسلم آزوف ، ويجرد القلاع والسفن الروسية هناك من سلاحها ويسمح لشارل بالعودة الى السويد فى أمان ، وألا يتدخل بعدها فى شئون بولنده • ولم يتردد بطرس فى بذل هذه الوعود (أول أغسطس ١٧١١) وانصرف بجنوده • وأقبل شارل مستعدا لخوض المعركة ، ولكنه استشاط غضبا حين وجد الصلح أمامه • فحمل السلطان على طرد الوزير المسالم وواصل جهوده لاستئناف الحرب ، ولكن شافيروف، الذى حمل معه ٨٤ر٩٠٠ دوكاتية ، أقنع الوزير الجديد بتثبيت معاهدة بروت •

وأعيت السلطان هذه العقد ، فطلب الى شارل أن يرحل عن تركيا ، ولكنه أبى • فارسل السلطان قوة تركية عدتها اثنا عشر ألف رجل لاجلائه ، واستطاع شارل باربعين رجلا أن يصمد لهم ثمانى ساعات ، قتل خلالها عشرة أتراك بشخصه ، وأخيرا قهره اثنا عشر انكشاريا (أول فبراير ١٧١٣) • فنقل الى ديموتيكا قرب أدرنه ، ولكن سمح له بأن يمكث فيها عشرين شهرا بينما كان وزير جديد يفكر فى مقاتلة روسيا • فلما تضاءل هذا الأمل وافق شارل على العودة للسويد • فزود بالحرس العسكريين والهدايا والأموال • وغادر ديموتيكا (٢٠ سبتمبر ١٧١٤) ، وأخترق الأفلاق وترانسلفانيا والنمسا ، وفى منتصف ليلة ١١ نوفمبر وصل الى بومرانيا وثغرها وحصنها سترالسوند ، على ساحل البلطيق جنوب السويد مباشرة • وكانت هى وفيسمار الى الغرب آخر القلاع السويدية على أرض القارة •

وكان اصرار شارل قبيل ذلك على حكم السويد من تركيا ، ورفضه بذل أى تنازلات لبطرس ، قد جرا الخراب على الامبراطورية

)السويدية . ففى أول أغسطس ١٧١٤ كان جورج ناخب هانوفر قد أصبح جورج الأول ملك انجلترة . فلما عقد العزم على استخدام قوته الجديدة فى ضم بريمين وفيردين الى هانوفر ، جمع بين بريطانيا وبين الدنمرك وبروسيا فى حلف جديد ضد السويد ، وعزز الأسطول الانجليزى الأسطول الدنمركى فى المضايق . ووجد شارل نفسه حبيسا فى سترالسوند ، فى حرب مع انجلتره ، وهانوفر ، والدنمرك ، وسكسونيا ، وبروسيا ، وروسيا . وظل يقاوم الحصار هناك اثنى عشر شهرا بستة وثلاثين الف مقاتل ، يقود حاميته المرة بعد المرة فى هجمات بطولية عقيمة . فلما حطمت مدافع المحاصرين المدينة وأسوارها ، ولم يكن مفر من التسليم ، قفز شارل فى سفينة صغيرة ، وأبحر بها وسط نيران العدو ، وبلغ كارلسكرونا على ساحل السويد (١٢ ديسمبر ١٧١٥) .

وانتظرت استوكهولم وصول بطلبها اليائس ، ولكنه أبى أن يعود اليها الا قائد ظافرا . فأمر بتجنيد قوات جديدة حتى من الغلمان الذين لا تتجاوز أعمارهم الخامسة عشرة ، وصادر جميع السلع الجديدية ليبنى بها أسطولا جديدا ، وفرض الضرائب على كل شيء تقريبا يستعمله شعبه حتى شعورهم المستعارة . فاذعنوا صامتين ، ظنا منهم بانه ربما قد جن ، ولكنه مع ذلك عظيم . وجاهد البارون جيورج فون جورتز ، كبير وزرائه الآن ، ليحطم الحلف . ولاحظ أن جورج الأول مختلف مع بطرس على تقسيم الأسلاب ، فحاول أن يعقد صلحا بين السويد وروسيا ، ويعين ثورة أسرة ستيوارت فى انجلتره ، ولكن خططه باءت بالفشل . وما وافى خريف ١٧١٧ حتى كان شارل قد حشد جيشا من عشرين ألف مقاتل . فى تلك السنة ، ثم فى ١٧١٨ ، غزا النرويج ، أملا فى أن يكسب أرضا تعوضه ما فقد على أرض القارة . وفى ديسمبر حاصر قلعة فريدريكستين . وفى اليوم الثانى عشر رفع رأسه لحظة فوق متراس الخندق الأمامى واذا رصاصة نرويجية تصيبه فى صدغه الأيمن فترديه قتيلا لفوره . وكان يومها فى السادسة والثلاثين .

لقد مات كما عاش ، مشدوها ببسالته . كان قائدا مغوارا ، كسب انتصارات لا تصدق فى ظروف معاكسة جدا ولكنه عشق الحرب عشق

المخمور بها ، ولم يشبع من الانتصـــارات ، وفى ســبيل البحث عن انتصارات جديدة راح يدبر الحملات الى حد أشرف على الجنون . وقد أفسدت الكبرياء كرمه وسماحته ، كان يعطى كثيرا ، ويطلب أكثر ، ولقد عاق السلام غير مرة برفضه تنازلات ربما أنقذت امبراطوريته وماء وجهه . ولكن التــاريخ يغتفر له أخطـــاءه ، لأنه لم يكن البـــادىء بـ « الحرب الشمالية العظمى » ، هذه الحرب التى أبى أن يختمهـــا الا بالانتصار .

أما الحكومة السويدية ، التى ندر أن جنحت الى التطرف ، فقد سارعت بمفاوضات الصلح . وبمقتضي معـــاهدتى اسـتوكهولم (٢٠ نوفمبر ١٧١٩ و ١ فبراير ١٧٢٠) نزلت عن بريمين وفيردين لهانوفر ، وعن ستيتين لبروسيا ، ورفضت أول الأمر مطـــالب بطرس بجميــع الأراضي السويدية فى البلطيق الشرقى ، فغزت الجيوش الروسية ثلاث مرات هذه الدولة التى استنزفت الحروب دماءها ، وخربت أراضيهـــا الساحلية ومدنها . وأخيرا ، وبمقتضي معاهدة نيستاد (٣٠ أغسطس ١٧٢١) حصلت روسيا على ليفونيا ، واستونيا ، واينجريا ، وجزء من فنلنده . وهكذا ترك الصراع على البلطيق روسيا ظافرة ، وجعل منهـا « دولة عظمى » .

أما القيصر المكدود ، المكتهل ، الظافر رغم ذلك ، والذى وصل الى بطرسبرج ومعه نبأ السلام ، وهتاف السلام ، السلام « مير ! ميرا! » فقد حياه شعبه أبا لوطنه ، وامبراطورا لأقاليم روسيا كلها ، ولقبـــه ببطرس الأكبر .

الفصل الثالث عشر

بطرس الأكبر

١٦٩٨ ـ ١٧٢٥

١ ـ الهمجي

أراد فولتير « أن يعرف ما الخطوات التى انتقل بها الناس من الهمجية الى المدنية (١) » فلا عجب اذن أن أثار بطرس اهتمامه ، لأنه كان يجسد على الأقل ذلك الجهد ، ان لم يكن تلك العملية ، فى بدنه وروحه وشعبه . أو استمع الى ملك « أكبر » آخر ، هو فردريك الثانى ملك بروسيا ، يكتب الى فولتير عن بطرس فى شيء من الخلط :

« لقد كان الملك الوحيد المتعلم حقا . ولم يكن مشرع وطنه فحسب ، بل كان يفهم جميع العلوم البحرية فهما تاما . وكان معماريا ، ومشرحا ، وجراحا ... وجنديا خبيرا ، واقتصاديا بارعا .. .. ولم يعوزه الا تعليم أقل همجية وضراوة (٢) ليكون المثل لجميع الملوك » .

ولقد لاحظنا ذلك التعليم الهمجى الضارى ، وما اكتنف طفولة بطرس من عنف وسفك للدماء ، مما هز جهازه العصبى وعوده الشراسة . وكان حتى فى شبابه يعانى من تقلص عصبى لاارادى فى عضلاته ربما استفحل بعد ذلك بالافراط فى الخمر وبالمرض السرى(٣) . كتب بيرنيت بعد أن زاره بانجلترة فى ١٦٩٨ (٤) يقول : « انه عرضة لتشنجات تصيب بدنه كله » . وقال روسي من أهل القرن الثامن عشر « من المشهور أن هذا الملك ... كان عرضة لنوبات مخية قصيرة متكررة من نوع عنيف بعض الشيء . وكان ضرب من التشنج يعتريه ، يحدث به فى فترة قد تمتد ساعات حالة من الاكتئاب تجعله لا يطيق النظر الى انسان ولو كان أقرب أصحابه . وكان يسبق هذه النوبة دائما التواء شديد فى العنق نحو الجانب الأيسر ، وتقلص عنيف فى عضلات

الوجه (٥) » . ومع ذلك كان متين البناء قوى البـــدن . وروى أنه حين التقى باوغسطس الثانى تباريا فى ثنى الأطـــباق الفضـــية فى أيديهما . وقد صوره نيلر عام ١٦٩٨ شابا يتقلد السلاح وشعارات الملك، غاية فى اللطف والبراءة ، بعد ذلك نجده مصورا تصويرا أكثر واقعية، فهو عملاق محدودب ، طوله ستة أقدام وثمانى بوصات ونصف ، ذو وجه تام الاستدارة ، وعينين واسعتين وأنف كبير ، وشعر بنى يتساقط فى خصل لا تقص الا نادرا . ولا تكاد نظرته الآمرة الناهية تنسجم وثوبه المهمل المهوش ، وجواربه الخشنة المرفوة ، وحذاءه المرقع ترقيعـــا بدائيا . ومع أنه نظم أمة باسرها الا أنه كان يترك محيطة المباشر فى فوضى أينما ذهب . ذلك أن الجهود الكبيرة استغرقته استغراقا ضن معه على التوافه بأى وقت .

وأما عاداته فكانت كلباسه لا تعمل فيها ولا تانق حتى لتحســبه فلاحا لا ملكا ــ لولا أنه كان خلوا من صبر الفلاحين الروس المتبلد . بل لقد كانت عاداته أحيانا أسوأ من عادات الفلاحين لأنه لم يكبحه خوف من سيد أو خشية من قانون . مرة رأى تمثالا لآلة الذكر فى مجموعة عاديات ببرلين ، فأمر زوجته أن تقبله ، فلما رفضت كاترين هددهـا بضرب عنقها ، ولكنها أصرت على الرفض ، ولم يهـــدىء من ثائرته الا تقديم التحفة هدية له يزين بها حجرته الخاصـــة (٦) . وكان فى أحاديثه ورسائله يبيح لنفسه استعمال أنكر الألفاظ وأفحشها . وكثيرا ما كان يعنف أخص أصدقائه بضربات من قبضته الهائلة ، ومرة ضرب منشيكوف على أنفه فأسال دمه ، ومرة ركل ليفـــور . وكان ولعـــه بـ « المقالب » يتخذ أحيانا صورا قاسية ، من ذلك أنه ألزم أحـــد مساعديه بأن ياكل السلاحف ، وآخـــر بأن يشرب قـــارورة كاملة من الخل ، وفتيات صغيرات بأن يبتلعن حصة جندى من البراندى . وكان يجد لذة شاذة فى تطبيب الأسنان ، وكان على المقربين منه أن يحذروا من أن تبدر منهم أقل شكوى من ألم فى أسنانهم ، فكلابته دائمـا فى متناوله . ولما شكا اليه تابعه من أن زوجته تحتج بألم مزعوم فى ضرسها لتحرمه من متع الزواج ، أرسل فى طلبها ، وخلع لها ضرسا سليما ، وقال لها أن تنتظر المزيد اذا ظلت عزباء (٧) .

ولقد جاوزت قسوته الفاجرة النقطة التى يمكن أن يعتذر عنهـا

بانها طبيعية أو ضرورية فى زمانه ومكانه • حقـا لقـد الف الروس القسوة ، ولعلهم كانوا أقل حساسية للألم من ذوى الأعصـاب الأكثـر رهافة ، وربما كانوا فى حاجة الى تاديب صارم ، بيد أن قيام بطرس شخصيا تقريبا بذبح حامية موسكو يوحى بلذة سادية بالقسوة ، وشبق للدماء ، وما كان هناك ضرورة من ضرورات الدولة تقتضي تقطيع اثنين من المتآمرين شرائح حتى يموتا (٨) • لقد كان فى بطرس مناعة ضد الرحمة أو الحنان ، وأعوزه ذلك الاحساس بالعدالة الذى كبح نزوات لويس الرابع عشر أو فردريك الأكبر • أما انتهاكاته لوعوده القاطعـة فكانت تنسجم تماما وسنة العصر •

وكان يرى ككل فلاح روسي أن السكر استعفاء معقول من واقـع الحياة • فلقد اضطلع بكل أعباء الدولة ، وبمهمة أخطر بكثير هى مهمة تحويل شعب شرقى الى الحضارة الغربية ، ومن ثم بدا الشراب والقصف مع أصحابه تخففا يستحقه • وكان يتقبل من كل قلبه حكمة الفـلاحين التى تزعم أن الشراب فرحة الروسي • وكان مما يقيس به قدر الرجـل قدرته على احتمال الشراب • وحين كان فى باريس راهـن على أن كاهن اعترافه يستطيع أن يشرب أكثر ، ويظل أثبت جنانا ، من الكاهن أمين سر الوزارة الفرنسية ، ومضت المباراة ساعة ، فلما تدحرج الأب الفرنسي تحت المائدة ضم بطرس كاهنـه اليـه لأنه « أنقـذ شرف روسيا (٩) » • وحوالى عام ١٦٩٠ الف بطرس وخلصاؤه فرقة سموها « جماعة المخمورين من الحمقى والمهرجين » (السوبور) • وانتخب الأمير فيودور رومودانوفسكى قيصرا للسوبور ، وقبل بطرس منصبا أدنى (كما فعل فى الجيش والبحرية) ، وكثيرا ما كان في الحيـاة الواقعية يتظاهر بان رومودانوفسكى هو قيصر روسيا • وكان « سوبور» السكارى هذا مكرسا رسميا لعبادة باخوس وفينوس ، وكانت له شعائر معقدة ، تقلد فى سوقية وفحش شعائر الكنيستين الأرثوذكسية الروسية والكاثوليكية الرومانية ، والكثير من هذه الشعائر السـاخرة كان من وضع بطرس نفسه • وشارك السوبور فى كثير من احتفـالات الدولة الرسمية • فلما تزوج بطريركه الهزلى نيكيتا زاتوف ، البالغ من العمر أربعة وثمانين عاما ، عروسا فى الستين ، صمم بطرس وأدار احتفالا بذيئا مزينا (١٧١٥) ، يشارك فيه نبلاء البلاط ونبيلاته جنبـا الى جنب مع الديبة والغزلان والتيوس ، ويعزف السفراء على النـاى أو الأرغن اليدوى ، ويدق بطرس على الطبل (١٠) •

كان حبه للفكاهة صخابا لا يعرف القيود ، وكثيرا ما أسف حتى استحال تهريجا . وكان بلاطه يعج بالمهرجين والأقـــزام الذين كانوا عنصرا لا غنى عنه لكل احتفال . وذات مرة ركب القيصر ، الذى ناهز سبعة أقدام طولا وراح يلعب دور جليفر أمام الليليبوتيين ، فى موكب على رأس أربعة وعشرين قزمـــا راكبين . وكان يقتنى فى فترة من الفترات اثنين وسبعين قزما فى بلاطه ، ويقدم بعضهم على المائدة فى فطائر هائلة الحجم . كذلك كان عنده عمالقة ، ولكن أكثرهم أرسلوا هـــدية لفردريك وليم ملك بروســـيا لينخرطوا فى جيش عمالقتـــه « المسلات » . وقد أهدى الى بطرس عدة زنوج وكان يقـدرهم تقديرا كبيرا ، وبعث بعضهم الى باريس ليتعلموا ، وأصـبح أحـــدهم قائدا روسيا ، وهو الجد الأكبر للشاعر بوشكين .

الى الآن صورنا بطرس رجلا ما زالت تغلب عليه الفطرة الهمجية ، رجلا من طراز ايفان الرهيب ولكنه مرح ، تواقا الى التحضر ولكنــه يحسد الغرب ـ لا على لطائفة وفنونه بل على جيوشه وأساطيله ، وعلى تجارته وصناعته وثروته . وكانت فضائله موجهة الى هذه الغـــايات باعتبارها مقومات الحضارة . ومن هنا فضوله الذى لا يشبع . فهو يريد أن يعرف عن كل شيء كيف يسير ، ثم كيف السبيل الى تسييره ســيرا أفضل . وقد أضنى مساعديه أثناء رحلاته بالجرى هنا وهناك ليرى هذا وذاك حتى أثناء الليل . كان فى غمرة من أفكاره ، فاذهل بذلك ليبنتز ، الذى كان فى غمرة أخرى من أفكاره ، ولكن أفـــكار بطرس كانت نفعية لاخفاء فيها . فقد كان له عقل مفتـــوح لأى شيء قد يعين وطنه على اللحاق بالغرب . وفى وسط أمة متدينة تدينا عابسا ، معادية بتعصب للعقائد الغربية ولأساليب الحياة الدخيلة ، كان مبرأ من التحيز كأنه الطفل أو الحكيم ، يجرب الكاثوليكية ، والبروتستنتية ، وحتى الالحاد . كان مقلدا أكثر منه مبتكرا ، نقل الأفكار المجلوبة أكثر ممـــا تصورها ، ولكن فى محاولته لرفع أمته الى مستوى المنافسة مع الغرب ، كان من الأحكم أن تستوعب هذه الأمة خير ما يستطيع الغرب تعليمه أولا ، ثم تحاول التفوق عليه . ان المحاكاة لم تكن قط بمثـــل هـــذه الأصالة .

وقد رفعه تفانيه الدءوب فى سبيل هذا الهدف من الهمجيـة الى

العظمة . واذا كان قد سخر وأفنى ملايين الروس لتحقيق غاياته فانه افنى نفسه ايضا فى محاولته اعطاء روسيا جيشا عصريا ، وحكومة اكفأ ، وصناعات اكثر تنوعا وانتاجا ، وتجارة أوسع ، وثغورا تستطيع أن تتصل بالعالم . كان يتوخى القصد فى كل شيء الا الحياة البشرية ، التى كانت السلعة الوحيدة التى تزخر بها روسيا . وكان أول اجراء له تقريبا حين تقلد زمام الحكم أنه طرد جيش الخدم وموظفى القصر الذين غص بهم البيت المالك ، وباع ثلاثة آلاف جواد من المرابط الملكية ، وأطاح بثلاثمائة من الطهاة وصبيانهم ، وخفض عدد الجالسين الى مائدة الملك حتى فى الأعياد الى ستة عشر على الأكثر ، واستغنى عن الاستقبالات والمراقص الرسمية ، وحول الى الدولة المبالغ التى كانت الى ذلك الحين مخصصة لهذه الكماليات . وكان أبوه الكسيس قد خلف له من الممتلكات الشخصية ١٠٫٧٣٤ ديسياتينا (٢٨٫٩٨٢ فدانا) من الأرض المزروعة وخمسين الف بيت ، تغل ريعا قدره ٢٠٠٫٠٠٠ روبل فى العام . فنزل بطرس عن هذا كله تقريبا لخزانة الدولة ، ولم يحتفظ لنفسه الا بالميراث القديم لأسرة رومانوف ــ وهو ثمانمائة « نفس » فى اقليم نوفجورود . وعلى عكس لويس الرابع عشر ، خفض أعظم قيصر تبوأ عرش روسيا حاشيته فى الواقع الى بضعة أصدقاء ، مع احتفال بين الحين والحين ، غير رسمى وأحيانا صاخب ، ليضفى بعض الحيوية على جو موسكو الرتيب . وكثيرا ما استحال اقتصاده شحا شديدا . فكان يبخس موظفى قصره أجورهم ، ويقتر فى حساب نفقة القصر اليومية من الطعام ، ولا يدعو أصدقاءه لغداء أو عشاء بل لرحلات خلوية يدفع فيها كل منهم نصيبه ، ولما اشتكت البغايا اللاتى يرفهن عنه من ضآلة أتعابهن أجاب بأنه ينقدهن قدر ما ينقد رامى القنابل اليدوية ، وهو رجل تفوق خدماته خدماتهن قيمة .

أما النساء فكن أحداثا عارضة قليلة الخطر فى حياته باستثناء واحد . ذلك أنه لم يكن مرهف الحس بالجمال . نعم كانت له حاجات جنسية ، ولكنه أشبعها دون احتفال . ولم يكن يحب أن ينام وحيدا ، ولكن لا شان لهذا بالجنس ، وكان أحد الخدم يقاسمه فراشه عادة ، ولعله كان يحتاج الى شخص قريب منه اذا دهمته تشنجاته فى الليل . وحين بلغ السابعة عشرة ، ورغبة فى تهدئة أمه ، تزوج يودوكسيا لوبوخينا ، التى وصفت بأنها « جميلة غبية » ، فلما وجد احدى

الصفتين أكثر دواما من الأخرى أهملها ، وعاد الى أصحابه ومراكبه . واتخذ سلسلة من الخليلات العابرات ، كن فى الكثير الغالب وضيعات الاصل رقيقات الحال . ومرة كان فردريك الثانى ملك الدنمرك يمـزح معه فى أمر اتخاذه محظية فأجـابه بطرس « ياأخى ، ان عاهراتى لا يكلفننى الكثير ، أما عاهراتك فيكلفنك آلاف الكراونات التى تستطيع أن تنفقها فى وجوه أفضل (١١) » . وقد عمل ليفور ومينشـيكوف قوادين له ، ونزل مينشيكوف عن خليلته لتكون زوجة بطرس الثانية . ولا بد أن هذه المرأة أوتيت قدرة فذة رفعتها ـ كما رفعت تيودورا خليلة جستنيان من قبل ـ الى عرش الامبراطورية بعد أن كانت مومسا .

أما هذه المرأة ، التى ستصبح كاترين الأولى ، فقد ولدت حوالى ١٦٨٥ بليفونيا من أسرة وضيعة . ولما تيتمت رباهـا الراعى اللوثرى جلوك خادمة فى مارينبورج ، وعلمها مبادىء المسيحية ولكنه لم يعلمها الأبجدية ، ولم تتعلم القرءاة قط . وفى ١٧٠٢ حاصر جيش روسي يقوده شيريميتيف مارينبورج . فلما يئس قائد الحامية من الدفـاع قرر أن ينسف القلعة وهو فيها . ونمى الى القس جلوك ما نوى القائد ، فأخـذ أسرته وخادمته وفر الى المعسكر الروسي . فأرسل الى موسكو ، ولكن كاترين أبقيت لترفه عن الجنود . وارتقت منهـم الى شيريميتيف ، فمينشيكوف ، فبطرس . فى تلك الحروب والأخطار كان على المـرأة الفقيرة أن تتلطف لتأكل . ويبدو أن كاترين ظلت حينا تخـدم كلا من مينشيكوف والقيصر . وقد أحباها لأنها كانت نظيفة ، بشوشة ، لطيفة، متفهمة ، فهى مثلا لم تصر على أن تكون الخليلة الوحيدة ، ووجـد بطرس فيها ترفيها مرحا بعد ضجيج السياسة أو الحـرب وغضبات المحظيات الغيورات . ورافقته فى حملاته ، وعاشت عيشة الجنـود ، وقصت شعرها ، وافترشت الارض ، ولم تجفل حـين رأت الرجـال يصرعهم الرصاص الى جوارها . فاذا دهمت بطـرس احـدى نوبات تشنجه وخاف الجميع أن يلمسوه ، كانت تتحدث اليه ملاطفه ، وتربته، وتهدىء روعه ، وتدعه ينام ورأسه على صدرها . واذا افترقا كتب الى « كاترينوشكا » حبيبته رسائل تفيض حنانا معابثا ولكنه مخلص . ثم غدت ضرورة لا غنى له عنها . ولم يحل عام ١٧١٠ حتى كانت زوجته فى كل شيء الا شرعا . وولدت له عدة أطفال . وفى ١٧١١ عاونت على انقاذه فى البروث . وفى ١٧١٢ اعترف بها زوجة له علانيـة . وفى ١٧٢٢ توجها امبراطورة .

وكان تاثيرها عليه طيبا من نواح كثيرة • فهذه الصبية الفلاحة هذبت من طباع ذلك الملك الفظ • لقد حدت من ولعه بالمسكر ، وفى عدة مناسبات كانت تدخل الحجرة التى يعاقر فيها الخمر ويقصف مع أصحابه وتأمره بهدوء قائلة : « عد الى البيت أيها الأب الصغير » فيطيعها • وكانت تغضي عن مغازلاته بعد الزواج • ولم تبذل محاولة للتأثير عليه فى مجرى السياسة ، ولكنها حرصت على أن يدبر القيصر أمر مستقبلها ، ومستقبل أقربائها ، وأصدقائها • وتغلبت على الاستياء العام من جراء رفعها من أصلها الوضيع بسلوكها مسلك ملاك الرحمة ، ففى حالات عديدة أنقذت أشخاصاً من العقوبات التى أراد بطرس أن ينزلها بهم ، فاذا أصر على الصرامة كان عليه ن يخفى الأمر عنها • وقد استغلت سلطانها عليه ببيع وساطتها ، وبهذه الطريقة جمعت ثروة فى الخفاء ، استثمرت بعضها بحكمة تحت أسماء مستعارة فى همبورج أو أمستردام • فهل نلومها لانها نشدت شيئا من الضمان فى زمن كل شيء فيه رهن بنزوة رجل واحد ، وكل روسيا فيه فى تقلب وتغير ؟ •

٢ ـ الثورة البطرسية

ورث بطرس السلطة المطلقة ، وتقبلها قضية مسلمة ، ولم يتطرق اليه قط شك فى ضرورتها • فالحكم بمجلس تشريعى (دوما) من النبلاء (البويار) سيعيد الانفصالية الاقطاعية والفوضي القومية أو الركود ، والحكم بمجلس ديمقراطى مستحيل فى بلد مازال بدائيا من الناحيتين الفكرية والخلقية ، ووافق بطرس كرومويل ولويس الرابع عشر على أن تركيز السلطة والمسئولية هو وحده القادر على تنظيم الخليط البشرى المتنافر ليؤلف منه دولة لها من القوة ما يمكنها من السيطرة على أهواء الشعب وصد هجمات الأعداء المتعطشين للأرض • ولم ينظر الى نفسه نظرته الى حكم مستبد بل الى خادم للأمة ومستقبلها ، وكان هذا الى حد كبير ايمانا مخلصا ، نصف صادق على الأقل •

ولقد عمل بهمة لا تقل عن همة أبسط الفلاحين فى مملكته ، فكان عادة يستيقظ فى الخامسة صباحا ويكد أربع عشرة ساعة فى اليوم • لا ينام أكثر من ست ساعات فى الليل ، ولكنه يتقيل • ومثل هذا البرنامج لم يكن بالأمر غير العملى فى صيف سانت بطرسبورج ، حيث النهار يبزغ فى الثالثة صباحا ويستمر الى العاشرة مساء ، أما فى الشتاء

فكان لابد من مواصلة الكثير من هذا البرنامج أثناء الليل الذى يبـــدأ حوالى الثالثة عصرا ويستمر الى التاسعة من صباح الغد .

وكانت سانت بطرسبورج الرمز ونقطة الارتكاز الأرخميدية لثورة لم تكن موقعا مثاليا لعاصمة دولة نظرا لشدة قربها من الساحل ، ولكنها مع هذا كانت تبعد خمسة وعشرين ميلا من البحر ، فى نقطة يتفرع فيها نهر نيفا الى فرعين ، وكان بطرس يأمل أن يحميها بقلعة كرونســتاد التى شادها (١٧١٠) على جزيرة فى مدخل الخليج . أما المدينة نفسها فقد أسست فى ١٧٠٣ على غرار أمستردام . واذ كان الكثير من هــذا الموقع تغمره المستنقعات (وكلمة نيفا باللغة السويدية معناها الوحل) فقد بنيت سانت بطرسبورج على دعامات – أو فى عبارة روسية حزينة ، على عظام آلاف العمال الذين جندوا قسرا لارساء هذه الأسس وتشييد المدينة . ففى ١٧٠٨ أرسل نحو ٤٠٫٠٠٠ رجل للقيام بهذا العمل ، وفى ١٧٠٩ أرسل ٤٠٫٠٠٠ آخرون ، وفى ١٧١١ أرســـل ٤٦٫٠٠٠ ، وفى ١٧١٣ أرسل ٤٠٫٠٠٠ فوق ما سبق . وكانوا ينقدون نصـف روبل فى الشهر ، لم يكن بد من أن يستكملوه بالتسول أو السرقة . وكان أسرى الحرب السويديون الذين استخدموا فى البناء يموتون بالآلاف . واذ لم يكن هناك عجلات يدوية ، فقد كان الرجال ينقلون المواد فى قفاطينهم المرفوعة . كذلك صودر الحجر ، فحرم مرسوم صــدر فى ١٧١٤ تشييد بيوت بالحجر فى أى مكان بروسيا الا فى سانت بطرســبورج ، أما فى المدينة نفسها فقد أمر كل شريف فى البلاد بأن يبنى له مسكنا من الحجر. وفعل الأشراف محتجين ، اذ كرهوا مناخ المدينة ولم يشاركوا بطرس عشقه للبحر . أما بطرس فكلف بعض مهـرة الصــناع الهولنديين بأن يقيموا له كوخا كالأكواخ التى رآها فى زاندام ، بحيطان من جـــذوع الشجر ، وسقف من الحصباء ، وحجرات صغيرة . وكان يكره القصور ، ولكنه سمح ببناء ثلاثة منها للمناسبات الرسمية فى بيترهـوف (وهى الآن بترودفوريتس) على المشارف الجنوبية للمدينة . وقد دمر هـــذا « القصر الصيفى » فى الحرب العالمية الثانية . وفى ضاحية قريبة تدعى تسارسكو سيلو (وهى الآن بوشكين) ، شاد كوخــا صــيفيا لحبيبته كاتيرينوشكا .

ولم يكن قصده أول الأمر أن يجعل سانت بطرســبورج عاصــمة بالاضافة الى كونها ميناء ، فقد كانت شديدة القرب الى عدوته السويد .

ولكنه قرر اجراء هذا التغيير بعد انتصاره على شارل الثانى عشر فى بلطاوه • وكان تواقا الى الهرب من جو موسكو الكنسي القاتم وروحها القومية الضيقة ، وأراد أن يشعر النبلاء المحافظون برياح التقدم تهب عليهم من الغرب • وعليه فقد جعلها عاصمة له فى ١٧١٢ • وحزن أهل موسكو ، وتنبأوا بأن الله مدمر عما قريب تلك المدينة نصف الوثنية • كتب بوشكين يقول : « ان موسكو أحنت رأسها أمام العاصمة الجديدة ، كما تنحنى أرملة الامبراطور أمام امبراطورة شابة (١٢) »• لقد كان فى بطرس من شدة الشوق الى تغريب روسيا ما دفعه الى تحويلها صوب البلطيق وكأنه يجرها اليه جرا ، ثم أمرها أن تتطلع من خلال «نافذته على الغرب×»• وفى سبيل هذا الهدف ، وفى سبيل توفير قاعدة لأسطوله وميناء للتجارة الخارجية ، ضحى بكل الاعتبارات الاخرى • صحيح أن الميناء سيحيط بها الجليد خمسة أشهر فى السنة ، ولكنها ستواجه الغرب وتلمس البحر • وكما أن الدنيبر جعل روسيا بيزنطية ، والفولجا جعلها آسيوية ، فكذلك سيغريها النيفا بأن تكون أوربية (١٤) •

وكانت الخطوة التالية بناء بحرية تحرس مسالك التجارة الروسية خلال البلطيق الى الغرب • وحقق بطرس هذه الغاية فترة ببناء ألف سفينة كبيرة خلال حكمه ، ولكنها كانت مبنية على عجل بناء سيئا • فتلفت أخشابها ، وتحطمت صواريها فى الريح ، وبعد موته استسلمت روسيا لقضائها الذى حكمت عليها به الجغرافيا ، وهى أن تكون بلدا حبيسا فى اليابس مغلقا دون الاطلنطى ، منتظرا غزو الفضاء ليقفز متجاوزا حواجزه الى العالم • وبهذا المعنى كانت موسكو على حق : فقوة روسيا ودفاعها كان يجب أن يكونا على اليابس ، بجيوشه ورقعته الواسعة • وعليه فقد ثارت موسكو لنفسها فى ١٩١٧ وأصبحت العاصمة من جديد •

أما أعظم اصلاحات بطرس دواما فهو اعادته تنظيم الجيش •

× الظاهر أن هذه العبارة استعملها أول مرة الكونت فرانشسكو الجاروتى فى ١٧٣٩ (١٣) •

وكان قبله يعتمد على قوات مجندة من الفلاحين يقـــودهم ســـــادتهم الاقطاعيون الذين لهم عليهم حـــق الولاء أولا ، وكانوا يفتقرون الى النظام ، ويعوزهم السلاح الجيد . وقد قوض بطرس سلطان النبــلاء حين أنشا جيشا دائما مدده من التجنيد الاجبارى ، وعتاده من أحدث أسلحة الغرب ، وضباطه رجال ارتقوا من تحت السلاح ودربوا عــلى الهدف الجديد ، هدف خدمة روسيا فى فخر لا خدمة اقليم ضـــــيق واقطاعى بغيض . والضرورة الحربيـــــة هى التى أملت على بطرس ثورته ، فما كان فى استطاعته تطوير روسيا دون أن يفتح لها طريقــا الى البلطيق أو البحر المتوسط ، وما كان فى استطاعته أن يفعل هــذا بغير جيش عصرى ، ولا أن يحتفظ بجيش كهذا دون أن يغير اقتصاد روسيا وحكومتها ، ولا أن يغير هذين دون أن يعيد صنع الشعب الروسي من حيث عاداته وأهدافه وروحه . لقد كان عملا ينوء بحمله رجل واحد أو جيل واحد .

وقد استهله على طريقته المندفعة الهوائية بلحى الرجال المحيطين به وزيهم . ففى ١٦٩٨ ، عقب عودته من الغرب ، حلق لحيته الخفيفة ، وأمر كل الذين يريدون الاحتفاظ برضائه أن يحذوا حــذوه ، باستثناء بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية ، وبعد قليل أرسل مرســـوم الى جميع أرجاء روسيا يقضي بأن يحلق جميع العلمانيين لحاهم ، ولهم ان يبقوا على شواربهم . وكانت اللحية أشبه برمز دينى فى روسيا ، أطلقهــــا الأنبياء والرسل من قبل ، وقبل ثمانية أعوام فقط شجب البطــــريرك أوريان الجالس على كرسي البطريركية آنذاك حلق اللحى بوصفه عملا مهرطقا خارجا على الدين . وقبل بطرس التحــدى : فحلق اللحيــــة سيكون رمزا على الحداثة ، وعلى الرغبة فى دخول الحضارة الغربية . وأباح للعلمانيين الذين يشعرون بالحاجـــــة الماســــة الى الاحتفــــاظ بعوارضهم أن يحتفظوا بها لقاء ضريبة سنوية تبدأ من كوبك واحــــد للفلاح حتى تبلغ مائة روبل للتاجر الغنى . يقول كتاب تاريخ قــــديم « كان الكثير من شيوخ الروس يحرصون على شعر لحاهم أشد الحرص بعد حلقه ليوضع فى نعوشهم مخافة الا يسمح لهم بدخــول الجنـــــة يدونه (١٥) » .

وبعد اللحى جاء دور الزى الروسي . هنا أيضا شعر بطرس أن

المقاومة الداخلية للتغريب ستخف بارتداء الزى الغربى . فقطع بنفسه الأكمام الطويلة التى يلبسها من يمثل أمامه من ضباط الجيش . وقال لأحدهم « انظر ، هذه الاشياء تعوق حركتك . فلا أمان لك فى أى مكان ما دمت تلبسها . تارة تقلب كوبا ، وتارة أخرى تغمسها سهوا فى الصلصة . أوص بصنع غطاء لحذائك منها (١٦) . وعليه صدر أمر (يناير ١٧٠٠) يقضي على جميع رجال الحاشية والموظفين فى روسيا باتخاذ الزى الغربى . وكان على الوافدين على موسكو أو الراحلين عنها أن يختاروا بين قص قفاطينهم عند الركبة - وكانوا يرسلونها الى الكاحل - وبين دفع غرامة . كذلك حثت النساء على ارتداء الزى الغربى ، وكانت مقاومتهن أقل من مقاومة الرجال ، فالنساء فى عالم الازياء دعاة للثورة فى كل عام .

وقضي بطرس على حجاب المرأة الروسية بقدوة أسرته أكثر مما قضي عليه بالقوانين . وكان أبوه الكسيس وأمه ناتاليا سباقين فى هذا الطريق ، ثم وسعته أخته لأبيه صوفيا . أما بطرس فقد دعا النساء للقاءات اجتماعية وشجعهن على أن ينزعن براقعهن ، ويرقصن ، ويعزفن ، ويطلبن العلم ولو على يد المعلمين الخصوصيين . ثم أصدر المراسيم التى تحظر على الآباء تزويج بنيهم وبناتهم على غير ارادتهم، وتشترط مضي ستة أسابيع بين الخطبة والزواج ، وفى هذه الفترة ينبغى السماح للخطيبين باللقاء المتكرر ، وبفسخ الخطبة ان أرادا . وابتهجت النساء بالخروج من الحريم « التيريم » وبدأن سباقا فى اتخاذ الأزياء الجديدة ، وكان بعض الزيادة فى ولادة الأطفال غير الشرعيين حجة تذرع بها رجال الدين ليقاوموا ثورة بطرس .

ولقد كانت مقاومة الدين له العقبة الكؤود فى سبيله . ذلك أن رجال الاكليروس أدركوا أن اصلاحاته ستنتقص من مكانتهم وسلطتهم . فناحوا وولولوا على تسامحه مع المذاهب الغربية فى روسيا ، وخامرتهم الظنون فى ايمانه بأى عقيدة دينية . وسمعوا فى اشمئزاز شديد بالتقليدات الساخرة التى كان هو وخلصاؤه يهزأون فيها بالطقوس الأرثوذكسية . وكان بطرس من ناحيته يغيظه تحويل القوى البشرية الى الاديار الشاسعة التى لا حصر لها ، ويشتهى الموارد الهائلة التى

تتمتع بها هذه المؤسسات • فلما مات البطـــريرك أوريان (أكتـــوبر ١٧٠٠) ، امتنع بطرس عمدا عن تعيين خلف له ، وأصبح هو نفســه رئيسا للكنيسة على نحو ما فعل هنرى الثامن فى انجلتره ، وتزعــم حركة اصلاح دينى فى روسيا • وظل منصب البطريرك شاغرا احدى وعشرين سنة ، فحرمت الكنيسة الارثوذكسية زعيما يتصدى لأصلاحات بطرس • وفى ١٧٢١ ألغى المنصب كله ، وأحل مكانه « مجمعا مقدسا » من رجال الكنيسة يعينه القيصر ويخضع لوكيل علمانى • وفى ١٧٠١ نقل ادارة الممتلكات الكنسية الى احدى مصالح الحــكومة ، واختزل اختصاص المحاكم الكنسية ، وأخضع تعيين الاساقفة لتصديق الحكومة • ومنعت مراسيم أخرى رسامة المتصوفين أو المتعصبين ، وحدت من عدد مراكز صنع المعجزات • وقضي على الرجال الا يقطعوا على أنفســهم نذور الرهبنة قبل الثلاثين ، وعلى النساء ألا ينذرن أنفسـهن نهائيــا للرهبنة قبل الخمسين (١٧) • وتقرر الزام الرهبان بالقيام بعمـــل نافع • وأجرت الحكومة تعدادا للممتلكات والايرادات الديرية ، وترك بعض الايــراد للأديـــار ، وخصص البـــاقى لانشــــاء المـــدارس والمستشفيات (١٨) •

واستسلم معظم الاكليروس لحركة الاصلاح الدينى الروسي هذه ، وهو اصلاح لم يمس العقيدة كما لم يمسها هنرى الثامن • وندد بعض المخالفين ببطرس عدوا للمسيح ، وأهابوا بالشعب أن يرفضوا طاعته ودفع الضرائب له • فأمر بالقبض على زعماء هذا التمــرد ، وتصرف معهم بطريقته العادية • فجلد البعض ونفوا الى سيبيريا ، وســجن البعض مدى الحياة ، ومات أحدهم من التعذيب ، وأحرق اثنان منهم حرقا بطيئا حتى الموت (١٩) •

وفى غير هذا كان بطرس متمشيا مع الغرب فى التسامح الدينى • فحمى المخالفين من الاضطهاد ما داموا بعيدين عن الســياسة • وفى سانت بطرسبورج ، وبهدف تشجيع التجارة ، سمح ببنـــاء الكنائس الكلفنية واللوثرية والكاثوليكية على « النيفســكى بروسبكت » ، الذى أصبح يلقب « مكان التسامح (٢٠) » وحمى الرهبان الكبوشيين الذين دخلوا روسيا ، ولكنه نفى اليسوعيين (١٧١٠) لمثايرتهم الشديدة على

الدعوة لكنيسة روما ٠ وكانت اصلاحات بطرس الدينية بوجه عام أبقى اصلاحاته كلها ، فقد أنهت العصور الوسطى فى روسيا ٠

ثم غيرت عملية ضخمة من العلمنة حياة روسيا وروحهـا ، من تحكم الكهنة وملاك الأراضي الى حكم الدولة الذى كاد يصل الى حـد التنظيم العسكرى الصارم ٠ فقد أخضـع بطرس النبـلاء لارادته ، وأكرههم على خدمة الشعب ، وأعاد تنظيم مراتب المجتمع حسب أهمية الخدمة الاجتماعية التى تؤدى ٠ فنبتت أرستقراطية جديدة ، تتألف من موظفى الجيش والبحرية ودواوين الدولة ٠ ورأس الحـكومة مجلس شيوخ من تسعة رجال (زيدوا بعد ذلك الى عشرين) يعينهم القيصر ، وكان يديرها تسع هيئات أو « كليات » تختص بالضرائب والدخـل ، والمصروفات ، والحسابات والرقابة ، والتجارة ، والصناعة ، والعلاقات الخارجية ، والحرب ، والبحرية ، والقضاء ، وكان حكام الاقاليم الاثنا عشر ، أو « الجوبيرنييا » والمجالس التحـ تحكم المدن ، مسئولين أمام مجلس الشيوخ ٠ وقسم سكان كل مدينة الى طبقـات ثلاث : التجـار الأغنياء والمهنيين ، والمدرسين والحرفيين ، والاجـراء والعمـال ، والطبقة الاولى وحدها هى التى يجوز انتخابهـا للمجلس البـلدى (الماجسترا) ، والطبقتان الاوليان وحدهما لهمـا حـق التصويت ، ولكن لكل دافعى الضرائب الذكور الحق فى الاشتراك فى اجتمـاعات المدينة ٠ وظهر « المير » أو مجتمع القـرية ، لا بوصـفه مؤسسـة ديمقراطية ، بل هيئة مسئولة بجملتها عن ضريبة الرءوس التى أدخلت فى ١٧١٩ ٠ وحد الاشراف المركزى من الاستقلال المحـلى ، ولم يكن هناك أى تفكير فى النظـم الديمقراطيـة ، لأن التغيير السريع الذى اختطه بطرس لا سبيل الى تحقيقه ــ ان كان هناك سبيل على الاطلاق ـ لا بالسلطة الدكتاتورية ٠

ووجب أن يشمل ذلك التغيير الاقتصاد كما شمل السـياسة ، لأن مجتمعا زراعيا خالصا لا يمكن أن يحتفظ باسـتقلاله طويلا أمام دول أغنتها الصناعة وزودتها بالسلاح ٠ وقد أورد اقتصادى ألمانى عاصر ذلك العهد رأيا سيثبت صوابه القرنان التاليـان له ــ وهـو أن الامة التى لا تصدر فى الأكثر غير الخامات والحاصـلات الزراعيـة لن تلبث أن

تخضع للدولل المنتجة والمصدرة للسلع المصـــنوعة أولا (٢١) ٠ وعلى ذلك لم يوجه بطرس للزراعة الا القليل من اهتمـــامه ٠ وبدلا من أن يخفف منرق الأرض طبقه على الصناعة ٠ وقد علم الفلاحين بقـدوته الشخصية كيف يحصدون غلتهم وأمر بأن يستبدل بالمناجل ذات المقبض القصير sickles مناجـــل ذات مقبضين seythes ٠ وقد الف الروس حرق أراضي الغابات للحصـــول على رماد مخصـب للتربة ، فحظر بطرس هذا العمل ، لأنه احتـــاج لألواح الخشـب لســفنه ، وللأشجار لصواريه ٠ وأدخل زراعة التبغ ، والتوت ، والكروم ، وافتتح تربية الخيل والغنم فى روسيا ٠

على أن هدفه الأهم كان التصنيع السريع ٠ وكانت أولى مشاكله توفير الخامات ٠ فشجع نشر التعدين ، ومنح المكافآت الحافزة لرجال مثل نيكيتا ديميدوف والكسندر ستروجانوف أبدوا الجرأة والمهـارة فى التعدين وتشغيل المعادن ، وحث ملاك الأراضي على أن يشـــجعوا أو يسمحوا باستخراج المعادن من أراضيهم ، فان قصروا فى هذا فلغيرهم أن يستخرجوها لقاء رسم اسمى فقط يؤدونه لهم ٠ فما وافى عام ١٧١٠ حتى كفت روسيا عن اســـتيراد الحـــديد ، وقبل موت بطرس كانت تصدره (٢٢) ٠

تم استقدم مهرة الصناع ومديرى الصناعة الأجانب ، وحض الروس من جميع الطبقات على تعلم الفنـون الصـــناعية ٠ وافتتح انجليزى بموسكو مصنعا لدبغ الجلود وصنع الأحذية ، وأمر بطرس كل مدينـــة فى روسيا بأن تبعث وفدا من الحذائين الى موسكو لتعلم أحدث طرق صناعة الأحذية بنوعيها الواطىء والعالى ، وهدد المتمسكين بالأساليب العتيقة فى هذه الصناعة بتشغيلهم فى سفن العبيد ٠ ورغبة فى تشجيع صناعة النسيج الروسية لم يلبس غير المنسوجات الوطنية بعد أن نشطت صناعتها ، وحظر على المسكوفيين شراء الجوارب المستوردة ٠ وما لبث الروس أن صنعوا المنسوجات الجيدة ٠ وروع اميرال بحـرى أصحاب التقاليد ، وأبهج القيصر ، بصنعه المقصبات الحريرية ٠ وصنع فـلاح طلاء (لاكيه) يفوق أى نظير له فى « أوربا » باستثناء الطلاء البندقى وقبل أن ينتهى حكم بطرس كان فى روسيا ٢٢٣ مصنعا ، بعضهــــا

لا يستهان بحجمه ، واستخدمت صناعة الحرير بموسكو ١٦٢ر١ عاملا ، واستخدم أحد مصانع النسيج ٧٤٢ رجلا ، وآخر ٧٣٠ ، ووظفت مؤسسة للتعدين ٦٨٣ شخصا (٢٣) . نعم كان فى روسيا مصانع قبل بطرس ، ولكن ليس على هذا النطاق . وكثير من المصانع الجديدة بدأته الحكومة ثم سلم للأهالى ليديروه ، ولكنهم مع هـــذا كانوا يتلقون اعانات من الدولة ، ويخضعون لأشراف دقيق من الحـــكومة . وكانت الرســـوم الجمركية المرتفعة الحامية درعا يقى الصناعة الوليدة من المنافســـة الأجنبية .

ولجأ بطرس الى تجنيد الرجال قسرا ليزود بهم المصـــانع . ولم يتوفر من العمال الا القليل ، فحول الفلاحين صناعا طوعا أو كرها . وخول لرجال الصناعة أن يشتروا الأقنان من ملاك الأراضي ويشغلوهم فى المصانع . وزودت المشـــاريع الكبرى بفلاحين منقولين من أراضي الدولة ومزارعها (٢٤) . وحدث ما يحدث فى معظـــم المحـــاولات الحكومية للتصنيع السريع ، اذ لم يستطع القادة الانتظار ريثما تتغلب غريزة التملك على العادات والتقاليد ، وتقود العمـــال من ميـــادين وأساليب عتيقة الى أعمال وأنظمة جديدة . فطورت قنية صناعية ، على كره من بطرس بوجه عام ، وعن عمد من خلفائه . واعتذر بطرس عنها فى مرسوم ١٧٢٣ ، فقال :

« ألا يصنع كل شيء (أول الأمر) بالاكراه ؟ أما أن الراغبين فى الاشتغال بالصناعة قلة فصحيح ، لأن شعبنا أشبه بالأطفال ، يأبون البدء بتعلم الأبجدية ما لم يكرههم عليها معلموهم . ويبدو لهم هذا التعـلم غاية فى الصعوبة أول الأمر ، ولكنهم ما ان يتعلموها حتى يحمـــدوا لمعلميهم صنيعهم ، ونحن نسمع اليوم الكثير من آيات الحمد والشكر على الاصلاحات التى أتت أكلها فعلا ... فعلينا فى مسائل الصـــناعة أن نعمل ونلزم ، ونعين بالتعليم (٢٥) » .

ولكن الصناعة لا تتطور الا بتجارة تبيع منتجاتها . ولكى يشجع بطرس التجارة رفع المكانة الاجتماعية لطبقة التجار . وفرض نمـــو صناعة كبيرة لبناء السفن فى أركانجل وسانت بطرسبورج . وحـــاول انشاء بحرية تجارية تحمل السلع الروسية فى سفن روسية ولكنه أخفق

لأن الفلاح الروسي الذى ضربت جذوره فى الأرض وانغلق فيها لم يقبل على البحر برغبة أو كفاية . وفى داخل روسيا نفسها كانت المسافات الشاسعة والطرق الوعرة تعوق التجارة . ولكن الأنهار كانت وفيرة ، تغذيها ثلوج الشمال وأمطار الجنوب ، فاذا تجمدت الانهار ففى صلابة تتحمل بفضلها الأثقال شأنها شأن الطرق المتجمدة . وكانت الحاجة ماسة لربط هذه الأنهار بقنوات ـ تصل النيفا والدوينا بالفولجا ، والفولجا بالدون ، فيربط البلطيق والبحر الأبيض بالبحر الأسود وبحر قزوين . وأرسى بطرس الأساس لهذه المجموعة الكبيرة ، وافتتح فى ١٧٠٨ القناة الموصلة بين النيفا والفولجا ، ولكن كان لا بد أن تنقضى عهود ملكية عديدة قبل أن تكتمل هذه الشبكة ، وقد لقى الالوف من العمال حتفهم فى هذه المحاولة .

وأكرهت الحرب والمشروعات المتنوعة بطرس على جمع رأس المال بمقادير لم يسبق لها نظير فى روسيا . وقد حصل على بعضه باعطاء الحكومة احتكار انتاج وبيع الملح ، والتبغ ، والقار ، والدهون، والبوتاس ، والراتنج ، والغراء ، والراوند ، والكافيار ، وحتى التوابيت المصنوعة من البلوط . وكانت هذه التوابيت تباع بربح بلغ اربعمائة فى المائة ، اما الملح فتواضع ربحه الى مائة فى المائة ، ولكن القيصر أدرك أن الاحتكارات تعوق الصناعة والتجارة ، فبعد أن أبرم الصلح مع السويد ألغاها بجرة قلم وأطلق التجارة الداخلية من عقالها. وبقيت التجارة الخارجية خاضعة لرسوم التوريد والتصدير ، ولكنها كادت تبلغ عشرة أضعافها بين ١٧٠٠ وموت بطرس فى ١٧٢٥ . وكان أكثرها تنقله سفن أجنبية ، وما بقى منها فى أيد روسية كانت تعرقله الرشوة التى استشرت بحيث لم تجد فيها حتى عقوبات بطرس الوحشية .

أما نظام الضرائب فكان شاملا . فقد كلفت هيئة خاصة عينتها الحكومة بوضع نظام لضرائب جديدة وادارته . ففرضت الضرائب على القبعات والأحذية ، وخلايا النحل ، والحجرات ، وأقباء الخمور والمؤن ، والمداخن ، والمواليد ، والزيجات ، واللحى . أما الضريبة على الأسر فقد عطلتها الهجرات الجماعية غير المنظمة ، فاستبدل بها

بطرس ضريبة على « الأنفس » أينما وجدت ، ولم تطبق هذه الضريبة على النبلاء أو الاكليروس · وارتفعت ايرادات الدولة من ١٫٤٠٠٫٠٠٠ روبل فى ١٦٨٠ الى ٨٫٥٠٠٫٠٠٠ فى ١٧٢٤ ـ خصص خمسة وسبعون فى المائة منها للجيش والبحرية · ونصف هذه الزيادة كانت غير واقعية بسبب انخفاض قيمة العملة بمقدار النصف فى عهد بطرس ، لأنه لم يستطع مقاومة اغراء الربح المؤقت بغش العملة ·

وكان افتقار الجميع ـ من الملك الى الفلاح ـ للنزاهة معطلا لسير الاقتصاد ، وجمع الضرائب ، وأحكام القضاء ، وتنفيذ القوانين · وقد قرر بطرس الحكم بالاعدام على جميع الموظفين الذين يقبلون « الهدايا » ولكن احد مساعديه نبهه الى أنه ان نفذ هذا القانون فلن يجد بعد حين غير موظفين أمواتا · ومع ذلك قتل بعضهم · من ذلك أن الأمير ماتفى جاجارين ، حاكم سيبيريا ، أثرى ثراء صارخا ، فزين تمثاله المصنوع للعذراء بمجوهرات بلغت قيمتها ١٣٠٫٠٠٠ روبل ، وأراد بطرس أن يعرف كيف حصلت عليها العذراء ، فلما عرف شنق جاجارين · وفى ١٧١٤ قبض على عدد من كبار الموظفين بتهمة سرقة الحكومة والشعب ، وكان من بينهم نائب حاكم سانت بطرسبورج ، ورئيس تموين الدولة ، ورئيس الأميرالية ، وحاكما نارفا وريفيل ، وعدد من اعضاء السناتو · وشنق بعضهم ، وحكم على بعضهم بالسجن مدى الحياة ، وجدعت أنوف البعض ، وجلد البعض بالعصي · ولما أمر بطرس بوقف الجلد توسل اليه الجنود الذين كانوا يقومون به قائلين « اسمح لنا يا أبتاه أن نجلدهم أكثر قليلا لأن هؤلاء اللصوص سرقوا كل شيء حتى خبزنا (٢٦) » · واستشرى الفساد ، وزعم مثل روسي أن المسيح نفسه كان من الجائز أن يسرق لولا أن يديه شدتا الى الصليب ·

وفى وسط هذا النضال ، نضال ارادة واحدة تريد تغيير الحياة الاقتصادية والسياسية لنصف قارة ، وجد بطرس وقتا حاول فيه احداث ثورة ثقافية أيضا · لقد كان يكره الخرافة ، ويتوق الى أن يحل محلها التعليم والعلم · وكان الروس الى عهده يؤرخون من خلق العالم كما افترضوه ، ويبدأون السنين بشهر سبتمبر · ففى ١٦٩٩ جعل بطرس

التقويم الروسي يتفق مع التقويم اليوليانى ، كما تستعمله الدول البروتستنتية ، فتقرر أن تبدأ السنة بعد ذلك بيناير ، وتؤرخ من مولد المسيح . وتذمر الشعب ، فكيف يختار الله منتصف الشتاء زمانا للخليقة ؟ وأنفذ بطرس ما أراد ، ولكنه لم يجرؤ على تطبيق التقويم الجريجورى ، الذى قبلته أوربا الكاثوليكية فى ١٥٨٢ ، فحذف عشرة أيام كما اقتضته تلك « الحيلة البابوية » كان يسلب عدة قديسين أرثوذكس أعيادهم المقدسة .

ووفق القيصر الذى لم يهدأ له بال فى مشروع آخر لا يقل عنتا ، هو اصلاح الأبجدية . ذلك أن الكنيسة الأرثوذكسية كانت تستعمل الأبجدية السلافونية القديمة ، ولكن الطبقات الصناعية والتجارية اقتبست أبجدية أساسها الحروف اليونانية . فأمر بطرس بأن تطبع بها كل الكتب غير الدينية . واستورد المطابع واستقدم الطباعين من الأراضي المنخفضة ، وبدأ (١٧٠٣) أول جريدة روسية ، وهى « جازيتة سانت بطرسبورج » ، وأمر بنشر كتب فى التكنولوجيا والعلوم ، ومول النشر ، وأسس مكتبة سانت بطرسبورج ، وأنشأ المحفوظات الروسية بأن جمع فى المكتبة مخطوطات الأديار وسجلاتها وأخبارها . وفتح عدة معاهد تقنية وأمر بأن يلتحق بها أبناء الطبقة الارستقراطية . وحاول أن ينشىء فى كل اقليم « مدرسة للرياضيات » ، وفى موسكو أنشأ مدرسة ثانوية « جمنازيوم » على غرار المدارس الألمانية لتعليم اللغات والأدب ، والفلسفة ، ولكن هذه المدارس لم يكتب لها طول البقاء . وفى ١٧٢٤ نظم أكاديمية سانت بطرسبورج ، وجلب اليها علماء أفذاذا كجوزيف دليل ليعلم الفلك ، ودانيال برنوللى ليعلم الرياضيات . وبالحاح من ليبنتز كلف (١٧٢٤) فيتوس بيرنج ، الملاح الدنمركى ، بأن يرأس بعثة الى كمشتكا ليتبين هل آسيا وامريكا متصلتان طبيعيا . وقد أقلع بيرنج بعد وفاة بطرس .

أما المسرح الروسي فكان على عهد الكسيس لايقدم غير الحفلات الخاصة . فرخص بطرس مسرحا على الميدان الأحمر وفتحه للجمهور ، واستقدم الممثلين الألمان ، فمثلوا خمس عشرة مأساة وملهاة ، منها بعض ملاهى موليير . وجلب الموسيقيين الأجانب لتاليف الأوركسترات . وأدخلت فى روسيا السوناتا والكونشرتو ، واتخذت الموسيقى العلمانية

الروسية أشكالا أوربية من تآلف الألحان وامتزاجهـــا · وأوصي بطرس بشراء اللوحات والتماثيل ، ولا سيما الأيطالية منها ، وجمعهـــا هى وغيرها من الآثار الفنية فى متحف للفن فى سانت بطرسبورج فتحـه لجميع الزوار مجانا ، وأمر بتقديم المشروبات الخفيفة لهـــم (٢٧) · ووفد المصورون الأجانب ليرسموا لوحات الأشخاص بأسلوب الغـرب · وبنيت بعض الكنــــائس أيام الكسيس ، ولكن قــل منها ما بنى أيام بطرس · ووجد المعماريون الآن أنه أربح لهم أن يبنوا القصور ·

ولم يزدهر أدب عظيم خلال هذه الثورة التى اقتلعت القديم من جذوره ، فلابد من انقضاء وقت حتى يمكن الاحساس بدفعة بطرس فى الشعر · وقد صدر كتاب جرىء قبل وفاته بعام ، وهو « كتاب الفقر والغنى » بقلم ايفــان بوسوشـــكوف الذى وبخ الروس على همجيتهم وأميتهم ، وظاهر بقوة اصلاحات القيصر · وقد جاء فى الكتاب « من سوء الحظ أن مليكنا العظيم يكاد يقف وحده ، ومعه عشرة أشخاص ، فى محاولة رفع الأمة فى حين يحاول الملايين خفضها (٢٨) » · وندد ايفان بظلم الفلاحين ، وطالب بقضاء نزيه تجريه محاكم متحررة من السيطرة الطبقية ، وصدم القيصر بأن طلب جمـــع ممثلين لجميـــع الطبقات ليكتبوا دستورا جديدا ومدونة قوانين لروسيا · وقبض عـلى بوسوشكوف بعد موت بطرس ببضـــعة شـــهور ، ومات فى الســـجن فى ١٧٢٦ ·

٣ ـ العقابيـــل

ازدادت المقاومة لاصلاحات بطرس من سنة الى سنة · ذلك أن الروس ألفوا الفقر ، والعذاب ، والاستبداد ، ولكنهم لم يسبق لهم قط ـ حتى تحت حكم ايفان الرهيب ـ أن أثقلوا بمثل هذه الأعباء ، أو دفعوا مثل هذه الضرائب ، أو ماتوا بمثل هذه الكثرة لا فى ساحة القتـــال فحسب بل فى أشغال السخرة جوعا وبردا واعياء ومرضا · كتب لينفور صديق بطرس المحبوب فى ١٧٢٣ يقول « ان الشقاء يشتد من يوم الى يوم ، والشوارع تمتلىء بناس يحاولون بيع أطفالهم ··· والحـكومة لا تدفع مالا لا للجنود ، ولا لرجال البحـــرية ، ولا لموظفى الاداوات

الحكومية ، ولا لأحد (٢٩) » . وحير القيصر ازدياد الفقر وسط اصلاحاته ، فجعل التسول أو التصدق على المتسولين جريمة ، وأقام ستين منظمة لتوزيع الصدقات .

ولكن التسول استمر ، والجريمة انتشرت . وكاد يسيطر على الطرق الأقنان الآبقون من الرق ، والجنود والعمال المسخرون الذين هجروا معسكراتهم معرضين أنفسهم للموت . ونظموا أنفسهم أحيانا أفواجا عدتها مئات حاصرت المدن واستولت عليها . ذكر قائد فى ١٧١٨ « ان موسكو مباءة للسطو ، وكل شيء فيها خرب ، وعدد الخارجين على القانون يتضاعف ، واعدام المذنبين لا يتوقف أبدا » . وأقام المواطنون المتاريس فى بعض شوارع موسكو ، وأحاطوا بعض البيوت بأسوار عالية اتقاء اللصوص . وحاول بطرس منع السرقة بالعقاب الصارم ، فأمر بأن يشنق قطاع الطرق الذين يقبض عليهم ، وأن تجدع أنوف الساطين على المنازل ، الخ . ولكن هذه العقوبات لم تردع المجرمين . فقد شقت الحياة على الفقراء حتى لم يصبح هناك فرق يذكر في نظرهم بين عقوبة الاعدام وبين السجن المؤبد الذى يقضونه راسفين فى أغلال القنية أو السخرة ، واحتملوا أبشع ضروب العذاب بتجلد من ماتت أعصابهم .

واشتد كره الناس لبطرس حتى لقد عجب الكثيرون أن أحدا لم يقتله . كرهه النبلاء لأنه أرغمهم على خدمة الدولة ، ولأنه رفع الطبقات الصناعية والتجارية مقاما وثراء ، وكرهه الفلاحون لأنه سخرهم فى عمل اقتلعهم من أوطانهم ، ومن أسرهم فى كثير من الحالات ، وكرهه رجال الكنيسة لأنه الوحش الوارد ذكره فى سفر الرؤيا ، والذى جعل المسيح ذاته خادما للحكومة ، وارتاب فيه كل الروس تقريبا لاختلاطه بالأجانب واستيراده الأفكار « الوثنية » ، وخافت روسيا كلها بأسه لعنفه ولعقوباته الوحشية . ان روسيا لم ترد هذا التغريب ، انها تمقت الغرب مقتا شديدا ، والاحتفاظ بروحها القومية كان يقتضيها أن تكون « سلافية الميول » ونشبت حركات تمرد يائسة بموسكو ١٦٩٨ ، وبأستراخان فى ١٧٠٥ ، وعلى طول الفولجا فى ١٧٠٧ ، وفى أوقات متفرقة فى أرجاء الامبراطورية وخلال العهد كله .

أما بطرس فقد رمز الى الصراع وزاده حدة بالعودة الى الغرب مرتين . ففى خريف ١٧١١ ذهب الى ألمانيا ليرأس فى تورجو مراسيم زواج ابنه . وهناك استقبل ليبنتز ، الذى اقترح عليه انشاء أكاديمية روسية كان يرجو الفيلسوف المتعدد المواهب أن يرأسها . وعاد القيصر الى سانت بطرسبورج فى يناير ١٧١٢ ، ولكنه فى أكتوبر ، وسط حملة شنها الى السويد ، استشفى بمياه كارلسباد ، وزار فتنبرج . وأخذه بعض القساوسة اللوثريين الى البيت الذى قذف فيه لوثر محبرة على الشيطان ، وأروه الحبر على الحائط ، وطلبوا اليه أن يكتب تعليقا عليه ، فكتب « ان الحبر جديد تماما ، فواضح اذن أن القصة غير صحيحة (٣٠) » . وعاد بطرس الى عاصمته الجديدة فى أبريل ١٧١٣ . وفى فبراير ١٧١٦ انطلق الى الغرب مرة أخرى ، فزار ألمانيا وهولندة ، وفى مايو ١٧١٧ بلغ باريس آملا أن يزوج ابنته اليزابيث للويس الخامس عشر . ولما التقى بطرس بالملك الصبى ذى السبعة الأعوام ، رفعه ليقبله ، وبعد أيام ، حين كان لويس يستقبله أمام القصر الملكى ، رفعه بطرس كأنه طفل وحمله صاعدا السلم مما جعل أفراد الحاشية يرتعدون. وأنفق فى باريس ستة أسابيع متفرجا ، مستوعبا كل جوانب الحياة فى المدينة - السياسية ، والاقتصادية ، والثقافية . وصوره الرسامان ريجو وناتييه . وزار مدام دمانتنون العجوز فى سان - سير . ومن باريس ذهب الى سبا ، وظل خمسة أسابيع يشرب المياه هناك ، لأنه كان اذ ذاك يشكو عللا كثيرة - ولحقت به زوجته كاترين فى برلين . واكتشفت أن له خليلة ، ولكنها اغتفرت ذلك جريا على أرقى تقاليد البيوت المالكة الأوربية . فلما وصل الى سانت بطرسبورج (٢٠ أكتوبر ١٧١٦) واجه أزمة من أسوأ الأزمات فى حياته .

ذلك أن ابنه ألكسيس ، الذى كان يرجو أن يورثه ملكه ويترك له المضي قدما فى اصلاحاته ، انتهى الى كره الكثير من تلك البدع ، وكره الأساليب التى كانت تفرض بها فرضا . وكان فى بدنه وعقله ابن يودوكسيا أكثر منه ابن بطرس . وكان ضئيل الجسم ، هيابا ، ضعيفا ، ولوعا بالكتب ، مخلصا للكنيسة الارثوذكسية ، لأنه ربى على التقوى بينما كان بطرس منطلقا الى الحرب والغرب . وحين بلغ ألكسيس

التاسعة رأى أمه تقصي الى الدير (١٦٩٩) ، فلما بلغ الحادية عشرة سمع الكهنة يتحسرون على صهر أجراس الكنيسة لصنع المدافع ، وسأل أباه لم يذهب الروس خارج روسيا للقتال فى سبيل مدينة نائية كنارفا ، واشمأز بطرس حين وجد أن وريثه لا يستطيب سفك الدماء .

وبينما كان بطرس مشغولا ببناء سانت بطرسبورج ، مكث ألكسيس بموسكو ، وأحب كنائسها وأساليب حياتها القديمة . وقد كره تمـزيق البطريركية ومصادرة الدولةللممتلكات الديرية. وعلمه كاهن اعترافه أن بدافع عن الكنيسة دائما أيا كان الثمن . وغدا ألكسيس المعبود ومعقـد الآمال للجماعات الكنسية والارستقراطية التى أبغضت علمنـة بطرس لروسيا وتغريبها ، وانتظرت بفارغ الصبر الوقت الذى يجلس فيه على العرش ذلك الفتى المتدين المطواع . وكان بطرس لا يراه الا لماما ، فاذا رآه وبخه عادة ، وضربه أحيانا ، كما فعل حين اكتشـف القيصر أن الصبى زار أمه خفية فى ديرها . وأوشك اســتياء الفتى أن يكون كرها . واعتراف لكاهنــه اجناتيف أنه يتمنى لو مات أبوه . ولم ير اجناتيف فى هذا اثما ، فقال لألكسيس « ان الله سيغفر لك فكلنا نتمنى موته ، لأنه حمل الشعب أحمالا ثقالا (٣١) » .

وفى ١٧٠٨ بعث بطرس ابنه الى درسدن ليدرس الهندســة وفن التحصين . وفى ١٧١١ تزوج ألكسيس بمدينة تورجو شارلوت كرستينا صوفيا ، أميرة برنزويك ـ فولنفبوتل . ولم يستطع أن يغتفــر لهــا رفضها التخلى عن مذهبهــا اللوثرى واعتنــاق المذهب الأرثوذكسي الروسى . واتخذ الخليلات حتى من المواخير ، وأفرط فى الشراب . وعقب أن ولدت له شارلوت طفلا زارها بصحبة مومس (٣٢) . وبعد عام ماتت زوجته وهى تلد (١٧١٥) . واستدعاه بطرس الى سانت بطرسبورج بخطاب غاضب حوى عبارات تنذر بالويل والثبور « اننى لا أضن بحياتى ، ولا بحياة أحد من رعاياى ، ولن استثنيك من هذه القاعدة . فعليك أن تصلح من حالك ، وأن تجعل نفسك نافعا للدولة ، فان لم تفعل حرمتك من الميراث (٣٣) » . وحاول ألكسيس تهدئه ثائرة أبيه بالتخلى عن حقوقه فى العرش ، وقال انه سيقنع بالعيش عيشــة هادئة فى الريف . وشعر بطرس بأن هذا ليس حلا . ففى ٣٠ ينــاير ١٧١٦ كتب الى ألكسيس يقول :

« لا أستطيع تصديق يمينك ... لقـد قـال داود ان كل البشر كذابون ، فحتى لو شئت الوفاء بها لثناك عن ذلك ذوو اللحى الطويلة .. .. فكل الناس يعرفون انك تكره أعمالى التى اعملها فى سـبيل هذه الأمة ، غير ضنين بصحتى ، وأنك بعد موتى ستقضي عليها ، ولهذا السبب فان بقاءك كما تريد أن تبقى ، بغير وجهة محددة ، ضرب من المحال . وعليه فاما أن تغير من خلقك ، وتصبح دون نفاق خلفى الكفء، أو تصبح راهبا . فاجبنى فورا .. .. فان لم تفعل عاملتك كما أعامل المجرمين (٣٤) » .

وأشار عليه أصدقاؤه بالرهبانية ، وقال أحدهم ، « ان قلنسـوة الراهب لا تسمر فوق انسان ، ففى الامكان خلعهـا » وكتب الكسيس لأبيه بأنه راغب فى الرهبانية . ولانت قناة بطرس ، وأمهله نصف سنة ليستقر على رأى . ووصل القيصر الى الغرب (فبراير ١٧١٦) . وفى ٢٩ يونيو نصحت ناتاليا ، أخت بطرس ، الكسيس بأن يرحل عن روسيا ويضع نفسه فى حمى الامبراطور . وفى سبتمبر كتب بطرس لابنه من كوبنهاجن يقول ان نصف العام قد انتهى ، وان على الكسيس أن يدخل الدير فورا ، أو يلحق بأبيه فى الدنمرك مستعدا للخدمة العسـكرية . وتظاهر الكسيس بأنه ذاهب الى أبيه ، وحصل على المال من منشيكوف ومجلس الشيوخ ، ثم انطـلق لا الى كوبنهـاجن بل الى فيينا (١٠ نوفمبر) . وهناك التمس من نائب المستشار الامبراطورى أن يحصـل له على حماية الامبراطور شارل السادس قائلا « ان أبى غضوب محب للثأر الى حد لا يصدق ، وهو لا يرحم أحدا ، ولو ردنى الامبراطور الى أبى لكان فى هذا حتفى (٣٥) » . وأرسله نائب المستشار الى قلعـة ابرنبيرج بالتيرول . وهناك ظل مختبئا متنكرا ، تحت الرقابة ولكنـه مزود بكل أسباب الراحة ، وسمح له بالاحتفاظ بخليلته أفروسينيا مرتدية ثياب الوصيف . وتعقبه جواسيس بطرس الى مخبئـه ، وأنذر الكسيس ففر الى نابلى حيث كان تحت الحراسة فى « كاستيل سانتيلمو » . وعثر عليه عملاء بطرس والحوا عليه فى العودة الى روسيا واثقا من رأفة أبيه به . فقبل شريطة أن يأذن له بطرس بالعيش مع أفروسـينيا معتزلا فى الريف . ووعد بطرس بهذا فى خطاب بتاريخ ٢٨ نوفمبر ١٧١٧ . ورتب الكسيس أن تظل أفروسينيا بايطاليا حتى تضع مولودها . وكان أثنـاء رحلته الطويلة الى روسيا يبعث لها بأرق الرسائل .

ووصل موسكو فى آخر يناير . وفى ٣ فبراير استقبله بطرس فى اجتماع مهيب ضم كبار رجال الدولة والكنيسة . والتمس ألكسيس العفو من أبيه وهو جاث ودموعه تسيل . ومنحه بطرس العفو ، ولكنه حرمه من وراثة العرش ، وأعلن ابن كاترين ، بطرس بتروفتش ، البالغ من العمر ثلاث سنين ، وريثا للعرش . وأقسم ألكسيس يمين الولاء لولى العهد الجديد . وعلق بطرس عفوه الآن على شرط ، هو اعتراف ألكسيس بشركائه فى مقاومة اصلاحات أبيه . وورط ألكسيس الكثيرين ، فقبض عليهم وعذبوا لانتزاع المزيد من التفاصيل منهـــم ، ونفى عديدون الى سيبيريا ، وأعدم البعض بعد أن عذبوا أبشع تعذيب . أما ألكسيس ، الذى ترك حرا فى الظاهر ، فقد أسكن بيتا قريبا من قصر القيصر فى سانت بطرسبورج ، ومنح معاشا سنويا قدره أربعون ألف روبل . وكتب الى أفروسينيا يقول ان أباه يحسن معاملتـــه وأنه دعاه الى مائدته ، وكان يتطلع الى مجيئها ، والى الحياة السعيدة معها فى هدوء الريف .

ووصلت فى أبريل ، فقبض عليها فورا ، ولم تعذب ولكنها امتحنت امتحانا صارما ، فانهارت ، واعترفت بأن ألكسيس اغتبط لنبأ حركات التمرد على أبيه ، وأنه أعرب عن نيته حين يعتلى العرش فى هجران سانت بطرسبورج والبحرية ، وخفض عدد الجيش الى ضرورات الدفاع . ولم يكن هذا شرا مما كان بطرس يعلمه من قبل ، فترك ألكسيس طليقا شهرين آخرين . ثم أثارته مفاجآت جديدة لا علم لنا بهـــا ، فأعلن أنه سحب عفوه عن ألكسيس ، لأن هذا العفو افترض اعترافه الكامل ، وقد توافر لديه الدليل الآن على أن الاعتراف كان غير مخلص وغير كامل . وفى ١٤ يونيو قبض على ألكسيس وسجن فى قلعة القديســـين بطرس وبولس .

وفى ١٩ يونيو ١٧١٨ ، وبعد أن فحصته محكمة القضاء العليـا ؛ عذب لأول مرة ، فجلد خمسا وعشرين جلدة . واعترف بأنه تمنى موت أبيه ، وبأن كاهنه قال له « اننا جميعا نتمنى مـوته » . ثم ووجـــه بأفروسينيا ، التى أعادت ما قالته للقيصر من قبل ، ومع ذلك أقسم أنه سيحبها حتى الموت . وقال معترفا « شيئا فشيئا أصبح شخص أبى ذاته ، لا كل شيء عنه فحسب ، بغيضا فى عينى » واعترف بأنه لو اقتضاه الامر لاستعان بالامبراطور « فى قهر التاج بالقوة (٣٦) » . وفى ٢٤ يونيو عذب مرة أخرى بجلده خمس عشرة جـــلدة لم تنتزع منـــه مزيدا من

الاعترافات . وقضت المحكمة العليا بأنه مذنب بالخيانة وحكمت عليه بالاعدام . والتمس ألكسيس السماح له بمعانقة خليلته قبل اعدامه ، ولا علم لنا هل أجيب الى طلبه . ولم يوقع بطرس على الحكم . ثم أعيد استجواب ألكسيس مرتين (٢٥ و ٢٦ يونيو) وهو يعذب ، وفى المرة الثانية بحضور القيصر والحاشية ، وقال ليفور فيما بعد « اكدوا لى أن أباه جلده الجلدات الأولى بنفسه ، وان كنت غير واثق من صدق هذا القول (٣٧) » . فى ذلك المساء مات ألكسيس فى سجنه ، والظاهر أن موته كان من آثار تعذيبه . وزعمت رواية أن كاترين أمرت الأطباء بأن يقطعوا أوردته ، ولا نستطيع الحكم على هذا العمل ، أهو من أعمال الرأفة به أم الطمع فى سبيل مصلحة ولدها . أما أفروسينيا فنالت نصيبا من ثروة ألكسيس ، وتزوجت ضابطا فى الحرس ، وعاشت حياة مريحة ثلاثين سنة أخرى فى سانت بطرسبورج .

وكان بطرس يأمل أن يربى ابنه من كاترين ليخلفه ، ولكن الصبى مات فى ١٧١٩ . وأنجبت كاترين ولدين آخرين ، بطرس وبولس ، ولكنهما ماتا قبل القيصر . وعزى نفسه بالألقاب الفخمة التى خلعت عليه بعد صلحه مع السويد . وفى ذلك العام ، (١٧٢١) ، خلع مجلس الشيوخ والمجمع المقدس لقب الامبراطورة على كاترين . وبعد أن أمهل بطرس روسيا سنة سلامها الوحيدة منذ بداية حكمه النشيط ، وجه قواته شطر فارس . وكان يرجو أن يستخلص طريق قوافل الى وسط آسيا ، وأخيرا الى الهند ، ويسيطر عليه ، وأخبره مبلغوه أن فى الامكان العثور على الذهب فى الطريق ، وكان سباقا الى توقع الامكانات الصناعية لزيت القوقاز والشرق الأوسط (٣٨) . وفى ١٧٢٢ جرد أسطولا على قزوين لمهاجمة فارس ، فاستولى على باكو وبعض سواحل قزوين الفارسية ، غير أن العواصف دمرت معظم سفنه ، وأتى المرض على جزء من جيشه ، وعاد بطرس من حملة ١٧٢٤ مرهقا ، متشائما ، مشرفا على الموت .

ذلك أنه كان يشكو مرض الزهرى سنوات طويلة (٣٩) ، ويعانى من العقاقير التى تعاطاها للعلاج منه . وزاد ادمانه السكر الطين بله ، واجتمعت عليه انفعالات الحرب ، والثورة ، وحركات التمرد ، وعنف

الارهاب ، لتنهك جسمه العملاق فى النهاية ٠ وفى نوفمبر ١٧٢٤ قفز الى النيفا المتجمد ليساعد على انقاذ ملاحين على سفينة جانحة ٠ وظل يعمل طوال الليل فى مياه غمرته حتى خصره ٠ وفى الغد أصيب بحمى ، ولكنه شفى منها ، واستانف برنامجا حافلا بالوان النشاط ٠ وفى ٢٥ يناير لزم فراشه اثر التهاب مؤلم فى المثانة ٠ وأبى أن يسلم بأن منيته دنت حتى ٢ فبراير ، فاعترف ببعض ذنوبه ، وتناول الأسرار المقدسة ٠ وفى السادس من الشهر وقع اعلانا بتحرير جميع السجناء فيما خلا المحكوم عليهم لجرائم القتل أو لجرائم ضد الدولة ٠ وقد روع أتباعه بصرخات الألم ٠ وطلب لوحا يكتب عليه وصيته ، ولكن ما ان كتب هاتين الكلمتين « أعطوا جميع » حتى وقع القلم من يده ٠ وسرعان ما انتابته غيبوبة دامت ستا وثلاثين ساعة ، ولم يفق منها قط ٠ وأذيع نبأ موته فى ٨ فبراير ١٧٢٥ ، وكان يومها فى الثانية والخمسين ٠

وتنفست روسيا الصعداء كأن كابوسا طويلا رهيبا قد انجاب عن صدرها آخر الأمر ٠ وابتهج ملكا السويد وبولنده ، وتوقعا أن تتردى روسيا فى مهاوى الفوضي ، وتكف عن أن تكون خطرا يهدد الغرب ٠ ورفعت روسيا القديمة ، روسيا العصور الوسطى ، عقيرتها وطلبت عودا الى الماضي ٠ لقد دفعت الامة دفعا مفرطا فى العنف ، وأوذيت فى روحها وكبريائها بهذا التقليد الاعمى للغرب ٠ وانتشرت الرجعية انتشارا واسعا وانتصرت ، وترك الكثير من الاصلاحات ليموت من افتقاره الى التاييد ٠ واختزلت البيروقراطية الادارية ، ولكن اطارها احتفظ بحياته حتى ١٩١٧ ، واستعاد النبلاء الكثير من سلطانهم القديم ، واستردوا حقوقهم فيما تحويه أراضيهم من أخشاب ومعادن ٠ أما الطبقة الصناعية والتجارية التى ظفر بها بطرس فقد عادت الى خضوعها الماضي ٠ وانهار الكثير من الصناعات الجديدة بسبب النقص فى الآلات ، أو العجز فى العمال أو الادارة ٠ واضمحلت الرأسمالية الوليدة ، وظلت روسيا الاقتصادية مائتى عام أخرى كما كانت أساسا قبل الثورة البطرسية ٠ أما الاصلاحات التجارية فكانت أوفر حظا ، فاستمرت التجارة مع الغرب فى ازدياد مطرد ، وأثمرت الاتصالات بأوربا شيئا من التهذيب فى السلوك ، ولكن الأزياء الوطنية القديمة

عادت فى عهد كاترين الثانية (١٧٦٢ ـ ٩٦) ، وعاد الناس يطلقون لحاهم فى عهد الاسكندر الثانى (١٨٥٥ ـ ٨١) . واستمر الفساد ، ولم يبد على الاخلاق أنها جنت شيئا من وراء العهد ، ولعل ما ضربه بطرس لشعبه من مثال فى السكر ، والاباحية ، والتوحش ، خلف الشعب أسوأ خلقا من ذى قبل . ولم يبق من التغييرات الا ما ضرب جـذوره فى الزمن .

لقد كان بطرس أحد شخصيات التاريخ الحديث الأقل ظفرا بحب الناس ، ومع ذلك كان انجازه هائلا . واخفاقاته تنهض شـاهدا على قيود العبقرية وحدودها عاملا من العوامل المؤثرة فى التاريخ ، ولكن فى البصمة التى تركها على روسيا ما يشيد بقوة الشخصية . فلقد أعطى روسيا جيشا وبحرية ، وفتح الثغور التى أتاحت لها الاتجار مع الغرب فى السلع والأفكار ، وأرسي صناعة التعدين وتشغيل المعـادن ، وانشأ المدارس وأسس اكاديمية . وبجذبة وحشية واحدة انتزع روسـيا من براثن آسيا وأدخلها أوربا ، وجعلها عاملا مؤثرا فى الشئون الأوربية . فمنذ الآن ستضطر أوربا لأن تحسب حسابا أكثر فأكثر لقلب القـارة الشاسع ذاك ، ولتلك الجماهير الصلبـة ، الصـابرة ، المتجـلدة ، ومصيرها المحتوم .

الفصل الرابع عشر

الامبراطورية المتغـيرة

١٦٤٨ ـ ١٧١٥

١ ـ اعادة تنظيم ألمانيـا

هبطت حرب الثلاثين بسـكان ألمانيـا من ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ الى ١٣٫٥٠٠٫٠٠٠ . وبعـد عام أفاقت التربة التى روتهـا دماء البشر ، ولكنها ظلت تنتظر مجىء الرجال . وكان هناك وفرة فى النساء وندرة فى الرجال . وعالج الأمراء الظافرون هذه الأزمة البيولوجية بالعودة الى تعدد الزوجات كما ورد فى العهد القديم . ففى مؤتمر فرانكونيـا المنعقد فى فبراير ١٦٥٠ بمدينة نورمبرج اتخذوا القرار الآتى : ـ

« لا يقبل فى الأديار الرجال دون الستين ... وعلى القساوسـة ومساعديهم (اذا لم يكونوا قد رسموا) ، وكهنة المؤسسات الدينية ، أن ينزوجوا .... ويسمح لكل ذكر بأن يتزوج زوجتين ، ويذكر كل رجل تذكيرا جديا ، وينبه مرارا من منبر الكنيسة ، الى النصرف على هذا النحو فى هذه المسألة (١) » .

وفرضت الضرائب على النساء غير المتزوجـات (٢) . وسرعان ما اعادت المواليد الجديدة المساواة التقريبية بين الجنسين ، وأصرت الزوجات على ألا يقاسمهن أحد فى رجالهن . واستعاد السكان كثرتهم سريعا ، فما وافى عام ١٧٠٠ حتى ارتفع عددهم ثانيـة الى عشرين مليونا من الأنفس . وبنبت مجدبورج من جديد ، وبعثت الاسواق الحياة والنشاط فى ليبزج وفرانكفـورت ـ أم ـ مين ، وخرجت همبـورج وبريمن أقوى مما كانتا . على أن الصناعة والتجارة استغرقتا أكثر من مائة عام حتى تدركا مستواهما الذى كانتا عليه فى القـرن السـادس عشر . فالسويديون والهولنديون يسـيطرون على مصـاب الأودر ، والألب ، والرين ، والنقل بالمحيط يحدث ركودا نسبيا فى النقل البرى ،

والطبقات الوسطى قد اضمحلت ،ولم يعد يحكم المدن رجال الأعمال بل أمراء الأقاليم أو من ينوبون عنهم .

وكانت الحرب قد انتهت بكارثة على سلطه هابسبورج الامبراطورية . ذلك أن فرنسا أذلتها ، وأذلت أسبانيا حليفة الامبراطورية . وغدا الأمراء الألمان فى مجموعهم أقوى من الامبراطور فلهم جيوشهم ، وقصورهم ، وعملتهم ، وهم يفصلون فى سياساتهم الخارجية ، ويؤلفون أحلافهم مع الدول غير الألمانية ، بل ضد المصالح الامبراطورية . وكان هناك نحو مائتى امارة « زمنية » تستمتع الآن بهذا الاستقلال ، وثلاثة وستون دويلة يحكمها رؤساء أساقفه أو أساقفة أو رؤساء ديورة يتبعون كنيسة روما الكاثوليكية ، واحدى وخمسون « مدينة حرة » ، لا تخضع لغير الامبراطور ، وخضوعها له لا يعدو أن يكون صوريا . واغتبطت فرنسا برؤية هذه الدويلات الألمانية الكثيرة بدلا من ألمانيا الموحدة .

وكانت براندنبورج ، اقليم الحدود الألمانى ، رمزا على الامبراطورية المحتضرة ، وعلى ألمانيا جديدة تتخذ لها شكلا جديدا . فهناك ، وعلى منأى من الامبراطور ، وفى مواجهة السويد وأمام جيش من الصقالبة ، تعلمت أسرة هوهنزولرن أنه لابقاء لدويلتهم الا بمواردها وقوتها . ففى القرن العاشر كان هنرى الصياد قد أقام « الحد الشمالى للسكسون » على طول الالب حصنا ضد الطوفان السلافى . وانتزع من الوند الصقالبة قلعتهم وعاصمتهم برنيبور (التى اشتق منها اسم براندنبورج) وردهم الى الأودر . وظلت الاقاليم الواقعة بين الالب والأودر قرونا يتبادلها الألمان والصقالبة . ودخلت براندنبورج ساحة التاريخ دخولا أنشط حين اشتراها فردريك هوهنزولرن ، فى ١٤١١ - ١٦ ، هى وصوتها الانتخابى فى الديت الامبراطورى . ومن ذلك التاريخ حكم بيت هوهنزولرن براندنبورج حتى أصبحت بروسيا ، وحكم بروسيا حتى تنازل القيصر فلهلم الثانى عن عرشه فى ١٩١٨ . وندر أن ارتبطت أسرة بدولة هذا الارتباط الطويل الوثيق ، أو كرست نفسها لرفاهية أمة وتوسيع رقعتها بهذه الغيرة والفعالية . وعلى عهد الناخب جون سجسموند (١٦٠٨ - ١٩) حصلت براندنبورج على دوقية كليف فى الغرب ودوقية بروسيا الشرقية فى الشرق ، بحيث غدا

اقليم الحدود بشيرا بمملكة بروسيا . وكان من أضعف أفراد الأسرة الناخب جورج وليم (١٦١٩ - ٤٠) ، الذى أدت تقلباته فى حرب الثلاثين الى تدمير براندنبورج على أيدى الجنود السويديين . فهجرت القرى والمدن ، وخربت برلين ، وكادت الصناعة نتلاشي ، وهبط سكان اقليم الحدود من ٦٠٠ر٠٠٠ الى ٢١٠ر٠٠٠ واستطاع فردريك وليم ، الذى ورث هذه التركة الخربة (١٦٤٠) ، أن ينجز خلال الثمانية والأربعين عاما التى حكم فيها ، معجزة من معجزات التعمير والتنمية ، حتى لقد اعترف له حتى معاصروره بلقب « الناخب الأكبر » . ولولاه لما كان فردريك الاكبر (كما سلم بهذا فردريك الاكبر نفسه) (٣) .

كان يبلغ العشرين حين ولى العرش - فتى وسيما ، أسود الشعر ، أسمر العينين ، يشق طريقه الى السلطة . كان قد نشيء على التقوى والنظام ، وأكمل تعليمه فى جامعة ليدن . وقد سبق بطرس قيصر الروس فى اعجابه بالهولنديين وبشجاعتهم الصامدة وجدهم واجتهادهم ، فاستقدم بعد ذلك ألوفا منهم ليعمروا وطنه المتعطش للسكان . ثم حصل بمقتضي صلح وستفاليا على بومرانيا الشرقية (البعيدة) ، وأسقفيتى مبندن وهالبرشتات ، والحق فى وراثة رآسة أسقفية مجدبورج الهامة ، وقد آلت اليه فى ١٦٨٠ ، واختتم فردريك وليم حكمه بملك مبعثر بدأ جهده ليصبح مملكة . وفى تاريخ مبكر - ١٦٥٤ - اقترح كبير وزرائه ، الكونت جيورج فردريك الفالدكى ، توحيد ألمانيا كلها تحت زعامة بيت هوهنزولرن (٤) . وبدا أن فردريك وليم هو الرجل الكفيل بتحقيق هذه الوحدة الحامية . فلما اعتنق أوغسطس القوى أمير سكسونيا الكاثوليكية ليصبح ملك بولندة فتح الطريق لألمانيا لتتولى الزعامة البروتستنتية - ولم تعترضه سوى قوة السويد .

ذلك أن معاهدات ١٦٤٨ كانت قد تركت نقطا استراتيجية هامة بألمانيا فى قبضة السويد ، وطالبت السويد بزعامة ألمانيا البروتستنتية استنادا الى تضحياتها وانتصاراتها فى حرب الثلاثين . فكيف تستطيع براندنبورج - بروسيا ، بمكوناتها التى تحدق بها الدول المنافسة من أقصي ألمانيا الى أقصاها ، أن تبلغ من القوة والمنعة حدا يتيح لها الدفاع عن نفسها ضد تسلط السويد ، أو تسلط سكسونيا ، الدولة الموحدة

المركزية السلطة ؟ وبدأ فردريك وليم بخطة وارادة همـا أول دعامات الحكم الكفء ، ثم جمع بالضرائب والاعانات الفرنسية المال الذى هـو ثانى دعامات الحكم الكفء ، وبالمال نظم جيشا ، هو ثالث دعامات الحكم الكفء ، فما حـل عام ١٦٥٦ حتى كان له أول جيش دائم فى أوربا - عدته ثمانية عشر الف مقاتل شاكى السلاح . وبهذه الوسيلة من وسائل الاقناع أقنع الولايات المكونة لدولته أن تدفع « اشتراكا » سنويا فى نفقات الحكومة المركزية ببرلين ، وبهذه الموارد أصبح مستقلا عن سلطان المال فى المجالس الاقليمية ، وحقق ما كان فى رأيه الشـكل العملى الوحيد للحكومة فى المرحلة الراهنة من مراحل التطور السياسي والفكرى - وهو الحكم المطلق المركز . وأعفى النبـلاء من الضرائب المباشرة ، ولكنه ألزم أبناءهم خدمته نبلاء صغارا « يونكر » فى وظائف الجيش والادارة العليا . وكره هؤلاء « الصغار » هذه الخدمـة أول الأمر ولكنه خلع عليهم الثياب العسكرية الفاخرة والمركز الاجتمـاعى المرموق ، ودربهم على الكفاية وعـزة النفس ، وربى فيهـم « روح الفريق » التى حلت محل ولاءات النظام القديم الاقطاعيـة ، والتى جعلت الجيش خادما لا لملاك الأراضي بل للحكومة . وهكذا بدأ الجهاز العسكرى والاجتماعى الذى مكن لفردريك الأكبر أن يثبت لنصف أوربا ، والذى أعد ألمانيا لخوض الحرب العالمية الأولى .

على أن فردريك ولبم أعوزته صفة واحدة - هى عبقـرية ملوك السويد الحربية . فقد ظل عشرين عاما ينقل قونه من جانب الأجانب فى صراعات السويد مع بولنده ، والامبراطورية مع فرنسا ، حافظـا بالجهد كيانه بالدبلوماسية . ولكن حين غزا شـارل الحـادى عشر براندنبورج ، برر جيش فردريك وليم وجوده بهزيمته السـويديين فى فيربللين (١٦٧٥) ، وهذا النصر هو الذى أكسبه لقب الناخب الأكبر. وفى خاتمة المطاف ، ورغم سياساته المتقلبة وموارده الضيقة ، أضاف لدولته أربعين ألف ميل مربع من الأرض .

بيد أن اصلاحاته الاقتصادية والادارية كانت أهم - فبفضل حضه حسن الاشراف وسائلهم الزراعية وزادوا من غلة ضياعهم . وقد طور صناعة ناجحة للحرير بزرعه أشجار التوت على نطاق واسع . وقلب الاتجاه الى اقتلاع أشجار الغابات ، فاشترط على الفـلاحين أن يغرس

كل منهم اثنتى عشرة شجرة قبل أن يتزوج ٠ وصمم ومول شق قناة فردريك وليم لتربط نهرى الأودر وسبرى ٠ ولما ألغى لويس الرابع عشر مرسوم نانت ، أصدر الناخب الأكبر « مرسوم بوتسدام » (نوفمبر ١٦٨٥) الذى دعا الهيجونوت المنكوبين للمجىء الى براندنبورج — بروسيا والاقامة فيها ، وبعث مندوبين ليوجهوا هجرتهم ويمولوها (٥)، وجاء عشرون الفا ، فكانوا مهمازا حفز الصناعة البروسية ، وألفوا خمسة أفواج فى الجيش البروسي ٠ وكان فردريك وليم نفسه ، كما كان سليله فردريك الأكبر ، يكد ويكدح فى الأدارة بهمة لاتنى ، وقد أرسي ذلك المبدأ الذى قبله بعد ذلك القيصر بطرس و « المستبدون المستيرون » من حكام الفرن الثامن عشر ، ومؤداه أن على الملك أن يكون خادم الدولة المكرس ٠ وقد أدرك أن التعصب الدينى معطل للتطور الاقتصادى والسياسي ، فتفرد فى ألمانيا بأن سمح لشعبه بالبقاء على المذهب اللوثرى فى حين ظل هو على مذهبه الكلفنى ، ومنح الحرية الدينية للكاثوليك ، والموحدبن ، واليهود ٠

ومات عام ١٦٨٨ وقد بلغ التامنة والستين ٠ وكانت وصبته التى قسم فبها ولاياته العديدة ببن أبنائه كفيلة بأن تمحو ما أحدثه حكمه من أثر موحد ، لولا أن خلفه رفض الوثيقة واحتفظ بالسلطة المركزية ٠ واكتسب هذا الخلف — وهو فردريك الثالث — مودة الامبراطور ليوبولد الأول بالانضمام اليه ضد فرنسا ، ومن أجل هذا ، ومن أجل ثمانية آلاف مقاتل ، منحه ليوبولد لقب « ملك بروسيا » ٠ وقد توج باسم فردريك الأول فى كونجزبرج فى ١٨ يناير ١٧٠١ ، وبدأت بروسيا مسيرتها نحو بسمارك والوحدة الألمانية ٠

ومن المفاخر التى ازدان بها سجل فردريك انشاؤه جامعة هالى ، ومفخرة أخرى تذكر له أنه عضد جهود زوجته الثانية فى النهوض بلطائف الثقافة والفكر فى برلين ٠ وقد اشتهرت هذه الزوجة ، واسمها صوفيا شارلوت ، ابنة صوفيا ناخبة هانوفر ، بأنها أجمل النساء وأذكاهن فى ألمانيا٠ فجلبت الى بلاط برلين من مقامها الطويل فى باريس مزيجا جذابا من الثقافة والظرف ٠ وبالحاحها والحاح ليبنتز ، أنشأ فردريك أكاديمية برلين للعلوم ، التى قدر لها أن تصنع التاريخ فى عهد فردريك الثانى ٠ وبنى الناخب لزوجته (١٦٩٦) القلعة أو القصر

(شلوس) الشهير فى الضاحية التى اتخذت اسمها ، شارلوتنبرج . وتوافد على صالونها فى قصر شارلوتنبرج العلماء والفلاسفة وأحرار الفكر واليسوعيون والقساوسة اللوثريون ، وكانت شارلوت تحب أن تحفزهم لخوض المعارك اللاهوتية التى كانت أحيانا تستغرق الليل كله . هناك استوعبت زوجة أخيها ، كارولين ملكة انجلترة ، العلم والفن اللذين ستجفل لهما انجلترة . فلما حضرت الوفاة شارلوت (اذا صدقنا رواية حفيدها فردريك الأكبر) رفضت عروض القساوسة الكاثوليك والبروتستنت على السواء بالصلاة من أجلها ، وقالت لهم انها تموت فى سلام ، وانها تشعر بحب الاستطلاع اكثر من الرجاء أو الخوف ، لأنها الآن ستشبع فضولها حول أصل الأشياء « الذى لم يستطع حتى ليبنتز أن يفسره لى قط » ، وعزت زوجها الشديد الولع بالمراسم بقولها ان موتها « سيتيح له فرصة تشييعها بجنازة فخمة (٦) ». لقد كانت صوفيا شارلوت واحدة من نساء كثيرات ذوات خلق وتعليم ، حملن ألمانيا والقرن السابع عشر ينزلق الى الثامن عشر .

أما بلاط برلين ، وهو واحد من نيف وثلثمائة بلاط أفنت آنئذ موارد الامبراطورية ، فلم يكن له من منافس سوى البلاط السكسونى . وقد خلف أوغسطس القوى ، الذى حكم سكسونيا (١٦٩٤ - ٢٧٣٣) باسم الناخب فردريك أوغسطس الأول ، لأوربا رهطا من الأبناء غير الشرعيين ، ومنهم المارشال دى ساكس الشهير . وجعل عاصمته « أجمل مدينة فى ألمانيا (٧) » ومركز الفنون الصغيرة ومفخرتها ، ولكن السكسون لم يستطيعوا أن يغفروا له ارتداده عن مذهبه ، واستعماله أموالهم ورجالهم فى حروب بولنده ، وترف بلاطه الباهظ التكاليف .

وقد أسهمت امارة هانوفر الناخبة فى التاريخ فى هذه الحقبة بايوائها ليبنتز وضمها انجلترة . وفى ١٦٥٨ ، تزوجت صوفيا أميرة بالاتين المخلوعة ، وابنة اليزابيث ستيوارت (ملكة بوهيميا) ، من ارنست أوغسطس ، الذى أصبح ناخب هانوفر . وقد أربك علمها الواسع زوجها ، فقد كانت تتحدث خمس لغات بطلاقة تكاد تكون تامة ، وتعرف من التاريخ الانجليزى أكثر مما يعرفه السفراء الانجليز فى بلاطها . وظلت حينا تحتفظ فى هانوفر بصالون يؤمه العلماء والفلاسفة . ولكنها كانت تتحرق شوقا للحصول على عرش انجلترة لولدها جورج : كان

دمها يختلج بالملوكية ، لانها لم تنس قط أنها حفيدة جيمس الأول . وفى ١٧٠١ قرر البرلمان الانجليزى كما رأينا حق وراثة العرش لصوفيا و « ورثتها من دمها شريطــة أن يكونوا من البروتستنت » . ونأملت فى سرور مشهد ولدها حين يصبح جورج الأول ، وفى كدر مشهد زوجته صوفيا دوروتيا ملكة له ، وتطلعت فى هدوء الى فسخ زواجهمــا . واشتبه جورج فى ان تكون زوجتــه خانتــه مع الكونت فيليب فون كونجزمارك ، فقتل بأمره ، وطلق صوفيا دوروتيا ، وسجنها من ١٦٩٤ الى أن ماتت فى ١٧٢٦ . وفى غضون هذا ماتت الناخبة الأرملة فى يونيو ١٧١٤ وقد بلغت الرابعة والثمانين ، قبل أن يهبط تاج انجلترة على رأس ولدها بشهرين فقط . وكذلك يتصرف الله الحظ العظيم ، من عرشه الكلى الوجود ، فى المصائر والدول والرجال .

٢ – الروح الألمانيــة

كان اصطراع الكاثوليكية والبروتستنتية على روح ألمانيا يخفف من غلوائه ، لأن حرب الثلاثين جعلت من الأحقاد اللاهوتيــة « فيـاس خلف » . وتحول الى كنيسة رومــا فى هــذه الفترة بعض الأمــراء البروتستنت ، ومعظم الفضل فى هذا لأقناع اليسوعيين لهم . وتفوقت الكلفنية على اللوثرية التى نزعت الى الدجماطيــة السكســولاستية الجامدة . وانتقاضا على هذه الشكلية قبل كل شيء ، انتشرت الحــركة « التقوية » التى حاولت أن تستبدل بالطقوس الخارجية روحا باطنية من الوحدة مع الله . وفى النصف الثانى من القرن السابع عشر حمــل جورج فوكس ، ووليم بن ، وروبرت باركلى ، انجيل طائفة « الكويكر » الى ألمانيا ، ولعل هذه الحركة التبشيرية شاركت فى تطوير التقــوية هناك ، ونلاحظ أن كتاب فيليب يعقـوب ســبينر Pia desideria (١٦٧٥) صدر بعد زيارة بن الأولى بأربع سنوات . ذلك أن سبينر ، بوصفه راعيا لكنيسة لوثرية فى فرانكفورت – أم – مين ، اســتكمل خدماتها بعبادات صوفية تؤديها اجتماعات خاصة (هيئات تقوية) فى منزله . وقد أطلق اســم التقــوى Pietist ، كلفظ البيــورتان والمثودست ، على هؤلاء العابدين نقادهم على ســبيل الســخرية ، فقبلوه ، وأصبح لهم شارة فخر متواضع . وتشبثوا فى حــرارة بآمال

عصر السلام المرتقب (بعد مجىء المسيح) التى تعـزت بهـــا بعض الجماهير الألمانية خلال الحرب . ولم تكن فكرتهم عن المجىء الثانى للمسيح عقيدة لاهوتية غامضة ، بل الهاما حارا نشيطا فى حياتهـــم اليومية . ففى أى لحظة قد يظهر المسيح ثانية على الأرض ، وسيهدىء صراع الأديان وينهى حكم القوة والحرب ، وسيقيم « كنيسة روحية » خالصة ، بغير تنظيم ، ولا طقوس ، ولا كهنـــة ، تمارس فى فـــرح مسيحية القلب السمحة الكريمة .

وواصل أوجست فرانكى الحركة تحدوه غيرة الأنبياء . وتأثرت نساء كثيرات بمسيحيته العملية وتطوعن فى قضية التقـــوى الشخصة والبر العام . وبعد أن تأثرت الحركة بالبيورتانية الانجليزية والهدوئة الفرنسية ، أثرت بدورها فى المثودية الانجليزية والشعر الألمـــانى ، وأشعرت الناس بوجودها فى أمريكا ، حيث رحب بهـــا كوتون ماذر برجاء فقال « ان العالم بدأ يشعر بدفء من النار الألهية التى تضطرم على هذا النحو فى قلب ألمانيا (٨) » . ولكن التقوية كالبيوريتانيـــة آذت نفسها لأنها جعلت تقواها علنية ومحترفة ، وترددت أحيـــانا فى مهاوى الافتعال والرياء . فأغرقها فى القرن الثـــامن عشر الطوفان العقلانى الذى تدفق من فرنسا .

وكان لانتصارات ريشـــليو ، ومازاران ، ولويس الرابع عشر ، ولثراء البلاط الفرنسي وبهائه المتزايدين ، أثر لا يقاوم فى المجتمـــع الألمانى خلال القرن التالى لصلح وستفاليا . وطغت النزعة العالمية حينا على القومية . وسادت الأساليب الفرنسية قصور الملوك والأمراء فى اللغة والأدب والغرام والعادات والرقص والفن والفلسفة والخمر والشـــعور المستعارة. ولم يتكلم الارستقراطيون الألمان الا بالألمانية الا مع الخدمفقط. وكتب المؤلفون الألمان بالفرنسية للطبقات العليا أو باللاتينية للعـــالم المثقف . واعترف ليبنتز ، الذى كانت معظم كتابته بالفرنسـية ، بأن « العادات الألمانية تحولت قليلا الى الأناقة والأدب » بالقدوة الفرنسية، ولكنه حزن على حلول اللغة والعبارات الفرنسية محل الحديث الألمانى ، أو التسرب اليه (٩) .

ولم يعش من كتب هذا العهد الالمانية سوى كتاب واحد اسمه « سمبلسيوس سمبليسيموس » (١٦٦٩) بقلم هانز فون جريملز هاوزن . وهو من حيث الشكل سيرة متشرد ذاتية ، ذات أحداث مترابطة ، لميلكيور فون فوشهايم ، وهو انسان ربع أحمق ، وربع فيلسوف ، ونصف وغد . أما من حيث الروح فهو هجاء فكه متشائم يهجو المانيا التى خلفتها ثلاثون عاما من الحرب بين الحياة والموت. ويبدأ ميلكيور هذا ربيبا لفلاح يصف المؤلف حياته فى عبارات مهذبة فيقول :-

« كان سيدى يملك الغنم والماعز والخنازير بدلا من الاتباع والخدم والسياس ، وكانت كلها تتبعنى فى السباق حتى أسوقها الى البيت . أما مخزن ذخائره فعامر بالمحاريث ، والمعاول ، والبلط ، والفئوس ، والمجاريف ، ومذارى الروث والدريس ، التى كان يمارس استعمالها كل يوم ، لأن العزق والحفر هما تدريبه العسكرى ... واستخراج السباخ هو علم التحصينات عنده ، وامساك المحراث علم الاستراتيجية ، وتنظيف الاسطبل تسليته ومباراته الفروسيتان (١٠) ».

ولكن جماعة من الجند تسطو على هذا الفردوس الريفى ، وتعذب الأسرة لتكرهها على البوح بسر مؤن مختزنة لا وجود لها . ويهرب ميلكيور ويلتجىء الى ناسك عجوز يلقنه أول دروسه اللاهوتية . فاذا سئل عن اسمه أجاب « وغد أو رد مشانق » لأنه لم يسمع أحدا بدعوه الا بهذا الاسم ، أما اسم متبنيه ، جريا على القاعدة ذاتها ، فهو « صعلوك ، وبلطجى ، وكلب مخمور » . ويقبض عليه الجند ، فيأخذونه الى قصر حاكم هاناو ، وهناك يدرب على أن يكون مهرجا ، ويطلق عليه اسم سمبليسيوس سمبليسيموس . ثم يختطف ، ويصبح لصا ، ويعثر على كنز مخبوء ، ويصبح جنتلمانا ، ويغوى فتاة ، ويكره على زواجها ، ثم يهجرها ، ويعتنق الكاثوليكية ، ويزور قصبة الدنيا ، ويخسر ثروته ، ويعوضها بالشعوذة والتدجيل ، ثم يضنيه طول التجوال ، فيعتكف ليحيا حياة ناسك كشف حقيقة الدنيا وخداعها . هذه « كانديد » أولى سابقة على قصة فولتير بقرن ، والفرق أن هجاءها تلطف منه الفكاهة الألمانية ، ولا يجمله الذكاء الفرنسي . وندد النقاد بالكتاب ، وأصبح من عيون الأدب ، وأشهر ثمار الأدب الألمانى بين لوثر وليسنج .

على أننا يجب الا نتقبله صورة منصفة لألمانيا فى الجيل التالى للحرب . فربما كان الألمانى شديد الولع بالشراب ، ولكنه احتفظ بروح فكاهته الفوار حتى فى كئوس شرابه ، وربما وصفته زوجتــه بالكلب المخمور ، ولكنها أحبته لأنها لم تجد خيرا منه ، وربت أبناءه تربيــة قوية متينة . وربما كان فى ألمانيا ذلك العصر من الخلق السليم أكثر مما كان فى فرنسا . وآية ذلك أن شارلوت اليزابيث المسكينة ، أميرة بالاتين (١٦٧١) التى تزوجت على غير رغبتها بـ « المسيو » فليب أورليان أرمل « مدام » هنرييتا المنحرف جنسيا ، لم تسل قط جمـال هيدلبرج الهادىء ، وبعد أن عاشت ثلاثة وأربعين عاما عيشا غير مريح مع ترف البلاط الفرنسي ، لم تفتأ تتوق الى « صحن طيب من الكرنب والسجق المدخن » مؤثرة اياه كثيرا على ما تقدمه باريس أو فرساى من قهوة أو شاى أو كاكاو (١١) . ويدلنا وفاؤها الرواقى لزوجها الحقير ، وصبرها على الملك أخى زوجها الذى أمر او أذن بتدمير بلاتينات، على أنه - حتى وسط خرائب ألمانيا - وجدت نساء استطعن أن يعلمن اللباقة والانسانية للملوك المعطرين ، الموشحين ، المطـرزين ، اللابسـين البواريك .

٣ - الفنون فى ألمانيـا

ثم ان هذا العصر كان من أكثر العصور انتاجا فى العمارة الألمانية ، على عكس كل التوقعات المعقولة ، فقد شهد أول تفتح للباروك الألمانى، الذى خلع واجهة جديدة من الفتنـة والبهجـة على كارلسروهى ، ومانهايم ، ودرسدن ، وبايرويت ، وفرنسبورج ، وفيينا . وكان زمان البنائين أمثال يوهان فيشر فون ايرلاخ ، ويعقوب برانتاور ، ويوهان وكيليان وكريستوف دينتسنهوفر ، وأندرياس شـلوتر ، الذين كانت أسماؤهم خليقة بأن تشتهر بين الشعوب الناطقة بالانجليزية اشتهار رين وانيجو جونز ، لولا سجن الحدود وبلبلة الألسن . على أن ما خلفوه دمر بعضه فى غزوات الجيوش الفرنسية لألمانيا (١٦٨٩) ، وبعضـه فى الحرب العالمية الثانية (١٢) . ان التاريخ سباق بين الفن والحرب .

وارتفعت كنائس جميلة وسط الفقر والخراب . ويشين سجلنا هذا الا نشير فيه اشارة ولو عابرة لكتدرائية يوهان دينتسنهوفر فى فولدا أو

كنيسة ديره فى بانتز ، أو لأشغال كريستوف وكيليان دينتسنهوفر فى كنيستى القديسين نيقولا ويوحنا فى براغ . وفى ١٦٦٣ بدأ المعمارى الايطالى أجوستينو باريللى قصر نيمفينبورج خارج ميونيخ ، وأكمل يوسف افنر داخله فى مزيج موفق من العمد الكلاسيكية والزخرف الباروكى . لقد كانت الزينة هى الاغراء المتسلط على الباروك ، واستعملت باسراف فى الفستزال أو صالة الاحتفالات فى شلوس برلين، وفى جناح قصر زفينجر الذى بناه فى درسدن متاوس دانيال بوبلمان لأوغسطس القوى ، هنا تحول الباروك الى روكوك جميل أنسب لداخل مخدع منه لواجهة قصر . وقد تهدم معظمه فى الحرب العالمية الثانية ، وكذلك شلوس شارلوتنبورج وشلوس برلين ، وهو القصر الملكى الذى بدأه أندرياس شلوتر فى ١٦٩٨ .

أما أبرز المثالين الألمان فى هذا العصر فهو شلوتر . فقد انتشت ألمانيا كلها بتمثال الفارس الراكب الذى صنعه للناخب الأكبر Der Grosse Kurfurst والذى لم تنل منه كل قنابل الحرب ، والذى يرتفع الآن فى ميدان شارلوتنبورج خارج برلين . وفى كونجزبرج أقام شلوتر تمثالا لفردريك الأول عقب تتويجه ملكا لبروسيا ، لا يقل روعة عن التمثال المذكور . ونحت يوليوس جليسكر رأسا للعذراء مريم ، حزينة فى صمت ، لمجموعة تماثيل للمسيح المصلوب فى كتدرائية بامبرج . وأظهر نقاشو الخشب مهارتهم فى مقاعد المرتلين الرائعة فى كلوستركيرشي بسيليسيا ، ولكنهم غالوا فى الأثاث المنقوش نقشا مسرفا والذى أمر بصنعه سادة فيهم من التفاخر أكثر مما فيهم من الذوق السليم .

ولم ينجب التصوير الألمانى روائع فى هذه الفترة ، الا اذا حسبنا من الروائع صورة ساحرة بريشة كريستوف باراديزو تسمى « شاب ذو قبعة رمادية (١٣) » . وقطع النسيج المرسوم التى صممها رودلف بيس لقصر فورتسبورج من أبدع القطع . واشتهرت بلدة فارمبرون — ينابيع سيليسيا الحارة — بزجاجها المصقول ، وروجت درسدن استعمال « صينى درسدن » . وكان أوغسطس القوى كذلك « ملك القاشانى » ، وحين عثر على أنواع مناسبة من الطفل قرب مايسين ، اقام بها

(١٧٠٩) الفمائن التى انتجت أول خزف (برســـلان) صلب فى أوربا .

على أن الموسيقى هى التى وجدت فيها الروح الألمانية أبرز تعبير لها ، وكان هذا العهد بمثابة العشية التى بزغ بعدها صبح يوهـــان سبستيان باخ . أما الاشكال والآلات فجاءت من ايطاليا ، ولكن الألمان سكبوا فيها عاطفتهم الرقيقة وتقواهم الضخمة . فبينما تفوقت ايطاليا فى اتساق الأصوات ، وفرنسا فى الايقاع الرشيق ، تقدمت المانيا الى مكان الصدارة فى الليدة (الأغنية الألمانية) ، وموسيقى الأرغـــن ، والكورال . وفى الحان ج . ف . كريجر المسماة « ١٢ سوناتا بكمانين» (١٦٨٨) نجد متتالية السوناتا قد أرسيت فعلا فى ثلاث حـــركات ـ الالليجرو (الأعجل) ، واللارجو (البطىء جدا) ، والبريســـتو (السريع) . وكانت موســـيقى الآلات ، المتطـــورة من رقصـــات (كالبافان ، والسربنده ، والجافوت ، والجبج الخ) تعلن اســتقلالها من الرقص والصوت جميعا .

وكان الطلب على الموسيقيين الايطاليين لايزال كبيرا فى المانيا . فملك كافاللى على ميونيخ ، كما ملك من بعده فيفالدى على دارمشتات. واستوردت الأوبرا الايطالية ، وعرضت أول عرض لهـا فى المانيـــا بتورجاو (١٦٢٧) ، وتلت ذلك عروض أخرى فى ريجنســـبورج ، وفيينا ، ومبونيخ . وكانت أول أوبرا ألمانية (Singspiel) هى « آدم وحواء » من تلحين يوهان تايلى ، وقد أخرجت بهامبورج فى ١٦٧٨ ، ومنذ ذلك التاريخ ظلت هامبورج تتزعـــم الأوبرا والدرامـا الألمانبتين طوال نصف قرن . هناك أنتج هندل « الميرا » و «نيرون» فى ١٧٠٥ ، و « دافنى » و « فلورندا » فى ١٧٠٦ ، قبل أن يذهب لغزو انجلترة . والاسم الكبير فى الأوبرا الألمانية فى ذلك العهد هـــو رابنهارد كايزر ، الذى أنتج ١١٦ أوبرا لفرقة هامبورج .

وبعد ١٦٤٤ انتزع المؤلفون الألمان مكان الصدارة من الايطاليين فى التأليف للأرغن والكنيسة . وعبرت ترانيم باول جرهارت عن عقيدته اللوثرية العنيدة . وسيطر يان راينكن على الأرغـــن فى كنيســـة « كاترييننكرشي » بهامبورج من ١٦٦٣ حتى وفـــاته عـــام ١٧٢٢ فى

الحادية والتسعين . وأصبح ديتريش بوكستيهودى ، المولود بالدنمرك، عازف الأرغن فى كنيسة مارينكرشي بلوبيك فى ١٦٦٨ ، واشتهرت حفلاته هناك ، لا سيما حفلات « موسيقى المساء » التى جمعت بين الأرغن والأوركسترا والخورس ، وذاع صيتها حتى أن باخ الكبير كان يمشي خمسين ميلا من آرنشتات الى لوبيك ليسمعه وهو يعزف (١٤) . وقد عاش نحو سبعين من الألحان التى وضعها للأرغن ، وكثير منها مازال يعزف ، وقد أسهمت الحانه الكورالية فى تكوين أسلوب يوهان سبستيان . وسبق يوهان كوناو باخ عازفا على الأرغن فى كنيسة توماسكرشي بليبزج ، وقد طور السوناتا للكلافير ، ولحن ألحانا (Partien من نوع متتاليات باخ .

وأخذت أسرة باخ تدخل الآن عالم الموسيقى فى خصوبة مذهلة . وقد وصل الى علمنا أسماء نحو أربعمائة من آل باخ بين ١٥٥٠ و ١٨٥٠: كلهم موسيقيون ، وستون منهم يشغلون مراكز هامة فى دنيا الموسيقى فى زمانهم . وقد ألفوا نوعا من النقابة العائلية التى تجتمع دوريا فى مقارهم بأيزيناخ ، أو آرنشتات ، أو ارفورت . وهم يؤلفون بلا جدال أكبر وأشهر أسرة فى التاريخ الثقافى ، ويثيرون الاعجاب لا لكثرة عددهم فحسب ، بل لاخلاصهم لفنهم ، وللثبات فى الهدف جرمانى صيل ، ولغزارة انتاجهم وقوة تاثيرهم . ولم تبرز أسماؤهم فى الحوليات الموسيقية الا فى جيلهم الخامس ، بظهور يوهان كرستوف ويوهان ميكائيل باخ ، ابنى هينريش باخ ، عازف الأرغن فى آرنشتات . وكان يوهان كرستوف كبير عازفى الأرغن فى ايزناخ طوال ثمان وثلاثين سنة ، رجلا بسيطا ، جادا ، مدققا فى عمله ، درب فرق الترتيل ولحن للأرغن وللأوركسترا . وأصبح أخوه يوهان ميكائيل عازف الأرغن فى جيرين فى ١٦٧٣ ، وظل هناك حتى مات فى ١٦٩٤، وأعطى خامس بناته زوجة أولى ليوهان سبستيان. وكان لكريستوف باخ أخى هينريش ، وعازف الأرغن فى فيمار ، ابنان كانا عازفى كمان ، واحدهما وهو أمبروزيوس كان أبا يوهان سبستيان . أما يوهان باخ ، أخو هينريش وكرستوف ، فكان عازف الأرغن فى ايرفورت من ١٦٤٧ الى ١٦٧٣ ، حين خلفه ابنه يوهان كرستيان باخ ، الذى خلفه فى ١٦٨٢ أخوه يوهان اجيديوس باخ . وكان قوى الطبيعة كلها وجهت لتنجب وتعد يوهان سبستيان باخ .

٤ ـ النمسا والأتراك العثمانيـون

ان فى فيينا اليوم من الجمال ما يصعب معه علينا أن نتصور حالها عقب حرب الثلاثين ، صحيح أن النمسا لم تقاس ما قاسته المانيـــا من ويلاتها ، ولكن خزانتها نضبت ، وجيوشها تهلهلت ، وهبط صلح وستفاليا بسمعة الأباطرة وقوتهم . على أن ظرفا واحدا كان فى صفها . ذلك أن ليوبولد الأول خلف أباه فرديناند الثالث على العرش الامبراطورى فى ١٦٥٨ وظل متربعا عليه طوال سبعة وأربعين عاما ، ومع أن هذا الحكم الطويل سمع العثمانيين يقرعون أبواب فيينا مرة أخرى ، فان النمسا أخذت تفيق من كبوتها سريعا . وكان ليوبولد ملكا على الامارات الألمانية أسما لا فعلا ، ولكنه كان الملك الفعلى لبوهيميا وغربى المجـــر ، وكان يحكم دوقيات استيريا ، وكارنثيا ، وكارنيولا ، وكونتية التيرول . ولم يكن بالحاكم العظيم ، كان يكد ويكدح بشعور الواجب فى الادارة وتشكيل السياسة ، ولكنه افتقر الى الرؤية البعيدة التى أوتيها أســلافه من آل هابسبورج ، فلم يرث منهم غير لاهوتهم وشكل ذقونهم . وكان قد درب أصلا للكهانة ، ولم يفقد قط حبه لليسوعيين ، أو ينحـــرف كثيرا عــن ارشادهم . ومع أن أخلاقه الشخصية كانت نقية لا عيب فيهـــا ، فانه قبل المبدأ الذى يحتم جعل جميع رعاياه كاثوليكا ، ونفــذ ســياسته بأوتقراطية صارمة فى بوهيميا والمجر . وكان ميالا الى السلم ، ولكنه أكره أو سيق الى سلسلة من الحروب بسبب اعتداءات لويس الرابع عشر والعثمانيين . وقد وجد فيما بين عمليات اراقة الدماء هذه وقتا للشعر والفن والموسيقى ، ألف الموسيقى بنفسه ، وشـــجع الأوبرا فى فيينا ، فعرضت بها أربعمائة أوبرا جديدة فى السنين الخمسين التالية لاعتلائه العرش . ويدلنا نقش يرجع الى عام ١٦٦٧ على أن المدينة كانت تملك دار أوبرا فخمة ، ذات ثلاثة صفوف من الألواج ، وكل مقعد فيها مشغول . وهكذا نرى أن هذه الدعامة المبهجة للغناء قديمة جدا .

وعلينا أن ننظر الى النمسا فى هذا العصر على أنها المدافع عن الغرب ضد تركيا المنبعثة من جديد ، المعذبة بعداء أشد حكام الغرب بأساء فقد عاق صراع العالم المسيحى مع العالم الاسلامى وشوشه ذلك النزاع القديم بين الهابسبورج وفرنسا . وزادت المجر المشكلة تعقيدا ، لأن ثلثيه

الغربى فقط هو الذى خضع لحكم الامبراطور ، وكان جزء منه بروتستنتيا يتوق الى التحرر . وكان للمجريين مشاعرهم القومية الخاصة بهم ، والتى يغذوها أدبهم وما توارثوه من تقاليد يعتزون بها عن هونيادى يانوس وماتياس كورفينوس ، وكان ميكلوس زرينيى قد نشر قبيل هذه الفترة (١٦٥١) ملحمة تفيض بحب الوطن . وكان المجريون الذين أهانهم وظلمهم الحكم النمساوى والتسلط الكاثوليكى تحدثهم نفوسهم بالترحيب بالعثمانيين حين قرر هؤلاء محاولة فتح المجر كلها .

وقد أوقفت سلسلة من الوزراء العثمانيين الأقوياء اضمحلال تركيا ، وعاودوا ارهاب الغرب . ومن علامات الانتعاش أن شاعرا تركيا فحلا اسمه « نبى » راح يتغنى بمديح الوزراء الذين أغدقوا عليه المال ، وعلامة أخرى أن المال والذوق والورع التركى ـ كلها تضافرت لتشيد جامع يينى ـ وليدى البديع فى اسطنبول (١٦٥١ ـ ٨٠) . وعين السلطان محمد الرابع محمد كوبريلى صدرا أعظم (١٦٥٦) ، استهل وهو فى السبعين من عمره نصف قرن من الحكم تربعت فيه أسرته الألبانية على دست الوزارة ، ولم يدم استيزاره أكثر من خمس سنوات ، ولكن فى هذه الوزارة الخماسية أعدم بأمره ٣٦٫٠٠٠ شخص لجرائم تتفاوت من السرقة الى خيانة الدولة ، وكان كبير جلاديه يشنق ثلاثة كل يوم فى المتوسط . وأكره الخوف من العقاب المفسدين فى الادارة ودساسي الساسة فى الحريم على الاعتدال ، وأعيد النظام الى الجيش ، وخفف باشوات الولايات من استقلالهم واختلاساتهم . فلما تمرد جورج راكوكزى الثانى ، أمير ترانسلفانيا ، على السيادة العثمانية ، اكتسح كوبريلى حركة التمرد بجيش يقوده بنفسه ، وخلع راكوكزى ، وفرض على البلاد تعويضا باهظا ، وزاد الجزية التى تدفعها ترانسلفانيا للسلطان سنويا من خمسة عشر ألف فلورين الى خمسين ألفا .

وخلف هذا السبعينى الرهيب فى الوزارة ابنه أحمد كوبريلى . فلما نشبت ثورة أخرى فى ترانسلفانيا بقيادة يوحنا كيمينيى ، عززها ليوبولد بعشرة آلاف مقاتل يقودهم قائد فذ من قواد ذلك العصر هو الكونت الايطالى ريموندو دى مونتيكوكولى . ورد أحمد بالزحف بجيش عدته ١٢٠٫٠٠٠ مقاتل تحت قيادته حاول به استكمال فتح المجر . وطلب ليوبولد المعونة ، واستجابت الولايات الألمانية ، البروتستنتية

والكاثوليكية على السواء ، بالمال والرجال ، وأسهم لويس الرابع عشر بأربعة آلاف جندى بعد أن تخلى عن تحالفه مع العثمانيين . ولكن المقاومة بدت أمرا ميئوسا منه حتى بعد هذ اكله ، وتوقعت أوربا سقوط فيينا ، واستعد ليوبولد للرحيل عن عاصمته . وكانت قوات مونتيكوكولى اقل كثيرا من قوات العدو ولكنها أفضل تزودا بالمدافع . ولم يجرؤ على لقاء الترك فى أرض مكشوفة تعطى ميزة للكثرة العددية ، فناورهم ليحاولوا عبور نهر رابا عند زنتجوتهارد ، على نحو ثمانين ميلا جنوبى فيينا ، وهاجم كل كتيبة تركية بمجرد وصولها الى ضفة النهر اليسرى . وكتب النصر لاستراتيجيته ، وللبطولة الفذة التى قاتل بها افراد الفرقة الفرنسية (أول أغسطس ١٦٦٤) ، فى معركة أنقذت أوربا مرة أخرى من آن يغرقها طوفان المسلمين .

ولكن ، كما ترك انتصار ليبانتو قبل قرن من الزمان (١٥٧١) العثمانيين محتفظين بقوتهم مفيقين بسرعة من كبوتهم ، فكذلك اضطر الامبراطور ، بسبب قدرتهم على تعويض خسائرهم ، وجيشهم الذى مازال محتفظا بضخامته ، وعدم ثقة ليوبولد بحلفائه التواقين الى العودة لأوطانهم - اضطر الى أن يبرم مع السلطان هدنة تمتد عشرين عاما (١٠ أغسطس ١٦٦٤) ، ترك بمقتضاها معظم المجر تحت حكم الترك ، واعترف فيها ليوبولد بالسيادة التركية على ترانسلفانيا ، ودفع للسلطان « هدية » بلغت ٢٠٠,٠٠٠ فلورين . أما أحمد كوبريلى ، الذى خسر المعركة وكسب الحرب ، فقد عاد الى القسطنطينية مكللا بالغار .

وأنهى هجوم لويس الرابع عشر على الأراضي المنخفضة (١٦٦٧) مؤقتا اتحاد العالم المسيحى ضد الترك . وفى ١٦٦٩ تولى احمد قيادة الحصار الطويل لكريت ، وأكره البنادقة على تسليم الجزيرة ، وسيطر الاسطول التركى مرة أخرى على البحر المتوسط . ولم يشعر حاكم غير يوحنا سوبيسكى ، ملك بولنده ، بأن لديه من الرغبة القوية ما يغريه بقهر تركيا . وقد أعلن عن هدفه فى شجاعة فقال ان « مقارعة الهمجى غزوا بغزو ، ومطاردته من نصر الى نصر ، على ذلك الحد نفسه الذى لفظه من أوربا ... والقذف به الى موطنه فى الصحارى وبواباته ، واقامة امبراطورية بيزنطية على أنقاضه ، هذه المغامرة

وجدها هى الجديرة بأن تسمى مسيحية ، انها دون غيرها السامية الحكيمة (١٥) » • ولكن ليوبولد شجع الترك على مهاجمة بولنده ، ولويس حرضهم على مهاجمة ليوبولد (١٦) •

ومات أحمد كوبريلى فى ١٦٧٦ وقد أنهك قواه وهو بعد فى الحادية والأربعين الكثير من الهزائم الرائعة ، بعد أن خسر « معارك فاصلة » ومد الأملاك التركية الى أوسع مداها الأوربى • وخلع السلطان محمد الرابع منصب الوزارة على صهره قره مصطفى ، الذى أبهج لويس الرابع عشر بوعده بتجديد الحرب على النمسا (١٧) • وشجع قره نشوب ثورة (١٦٧٨) قام بها الوطنيون المجريون بزعامة امرى توكولى ، الذى ساءه قمع النمسا العنيف للروح القومية وللبروتستنتية فى المجر النمساوية ، حتى حمله هذا على عرض الاعتراف بالسيادة التركية على جميع أرجاء المجر اذا دعم الأتراك ثورته • أما ليوبولد فقد أقلع بعد فوات الوقت ، عن سياسة القمع وأعلن التسامح الدينى فى المجر • وأرسل لويس الرابع عشر المدد المالى الى توكولى (١٨) ، ووعد سوبيسكى بالاستيلاء على سيليسيا والمجر اذا ربط بين بولنده وفرنسا فى حلف ضد الامبراطور • أما ليوبولد فلم يكن فى وسعه أن يعد سوبيسكى بأكثر من آرشيدوقة عروسا لابنه ، وبتعهد بتأييد جهود سوبيسكى لجعل العرش البولندى وراثيا فى فرعه من الأسرة المالكة • ولسنا نعرف على التحقيق دوافع الملك الى المبادرة بمساعدة النمسا على العثمانيين ، وكل ما نستطيعه أن نقول انها كانت من أعجب وأخطر الأحداث فى التاريخ الحديث •

وأحس قره مصطفى أن الخصومات بين الهابسبورج والبوربون ؛ وبين الكاثوليكية والبروتستنتية ، تتيح له فرصة الاستيلاء على فيينا ، وربما على أوربا بأسرها • وكان الترك يفاخرون بأنهم حولوا القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية قلعة اسلامية فى القرن الخامس عشر ، وحولوا كنيسة القديسة صوفيا جامعا • فكذلك أعلنوا الآن أنهم لن يقفوا حتى يفتحوا روما ويربطوا خيلهم فى صحن كنيسة القديس بطرس (١٩) • وفى ١٦٨٣ حشد قره مصطفى فى أدرنة قواته ومؤنه التى أتته من الجزيرة العربية والشام والقوقاز وآسيا الصغرى وتركية أوربا ، وتظاهر أنه يخطط للهجوم على بولنده • وفى ٣١ مارس ١٦٨٣

بدأ السلطان والصدر الأعظم زحفهما الطويل على فيينا . وكان الجيش كلما تقدم يضم اليه الامداد من كل ولاية تركية فى طريقه ، فانضمت اليه فرق من الأفلاق ، وملدافيا ، وترانسلفانيا ، حتى اذا بلغ أوسييك (اسزيك) على الدرافا كان يعد ٢٥٠٫٠٠٠ مقاتل ، ويحوى بين صفوفه الابل والفيلة والمؤذنين والأغوات والحريم (٢٠) . هناك أذاع توكولى اعلانا دعا فيه المسيحيين المحيطين بالمنطقة الى دعم الهجوم على النمسا ، وأمنهم على حياتهم وأملاكهم ، ووعدهم بحرية العبادة فى حمى السلطان . ففتح الكثير من المدن أبوابه للغزاة .

وعاد ليوبولد يستغيث بالامارات الألمانية ولكنها تباطأت . ووضع جنوده البالغ عددهم ٤٠٫٠٠٠ تحت امرة شارل الخامس دوق اللورين، الذى وصفه فولتير بأنه أنبل أمير فى العالم المسيحى (٢١) . وترك شارل حامية من ١٣٫٠٠٠ رجل فى فيينا ، ثم تقهقر الى تولن ، حيث انتظر وصول البولنديين . وفر ليوبولد الى باساو ، ولامه شعبه لأنه لم يعد عاصمة ملكه للحصار المرتقب منذ زمن طويل . فلقد كانت حصونها مهدمة ، وحاميتها لا تبلغ عشر العدد الزاحف . وفى ١٤ يوليو ظهر الأتراك أمام المدينة . وبعث ليوبولد الى سوبيسكى يرجوه أن يأتى فورا قبل أن نصل مشاته البطيئة الحركة قائلا « ان اسمك وحده ، الذى يرهبه العدو كثيرا ، كفيل بالنصر (٢٢) » . وأقبل سوبيسكى بثلاثة آلاف فارس . وفى ٥ سبتمبر وصلت مشاته وعدتهم ٢٣٫٠٠٠ مقاتل . وبعد يومين وصل ١٨٫٠٠٠ مقاتل من الولايات الألمانية ، فاصبح عدد جيش المسيحيين الآن ٦٠٫٠٠٠ . ولكن فيينا كانت آنذاك تتضور جوعا ، وقلاعها تتهاوى تحت نيران المدفعية التركية ، فما هو الا أسبوع آخر من الحصار حتى تسقط المدينة .

وفى صباح ١٢ سبتمبر الباكر ، هاجم المسيحيون — الذين كانوا الآن تحت قيادة سوبيسكى العليا — الأتراك المحاصرين . ولم يكن قره مصطفى يصدق أن البولنديين آتون ، ولا أن القوات المسيحية ستهجم أولا ، فلقد رتب كل شيء للحصار لا للمعركة ، وزين ضباطه خنادقهم بقطع النسيج المرسوم والقرميد ، أما هو فزود خيمته بالحمامات ، والنافورات ، والحدائق ، والمحظيات . وأخذ خيرة جنده على غرة فى خنادقهم ، فمزقوا اربا اربا . وشاعت الفوضى فى جيشه

المخلط الذى جمعه من ولايات لا يثير حماستها ولاء للسلطان البعيد ، أمام المسيحيين الذين ألهمهم الشعور بانهم ينقذون أوربا والمسيحية . وبعد ثمانى ساعات قطع الظلام القتال . فلما بزغ الفجر الجديد وجد المسيحيون الذين مازالوا غير واثقين من النصر - لشدة فرحهم - أن الاتراك قد لاذوا بالفرار مخلفين وراءهم ١٠٫٠٠٠ قتيل ومعظم معدات الجيش فى المعسكر . أما المسيحيون ففقدوا ٣٫٠٠٠ رجل .

وأراد سوبيسكى أن يطادر الترك ، ولكن الجنود البولنديين رجوه أن يسمح لهم بالعودة الى وطنهم بعد أن أدوا مهمتهم . ودخل الملك الظافر فيينا وكتدرائيتها ليقدم الشكر لله ، وفى طريقه هتف له الشعب العارف بصنيعه منقذا من السماء ، وناضل أفراده ليلمسوا ثوبه ويقبلوا قدميه (٢٣) ، وأحسوا أنه ما من شيء فى سجل الفروسية يفوق مأثرته تلك . فلما عاد ليوبولد الى عاصمته (١٥ سبتمبر) لم يلق غير استقبال فاتر من أهلها . وسأل معاونيه هل حدث أن استقبل امبراطور مجرد ملك منتخب ، وما المراسم التى يجب اتباعها فى هذه الحالة . وتباطأ فى لقاء سوبيسكى ، وأخيرا حياه شاكرا له صنيعه شكرا متواضعا ، وقد توجس من أن يكون الدافع للبطل فى رغبته فى مطاردة الترك خطة لاقتطاع مزيد من الملك لنفسه ولأسرته (٢٤) . فلم تبدأ المطاردة الا فى ١٧ سبتمبر ، ولم يلتحم الجيش بالترك المتقهقرين الا بعد ذلك بعشرة أيام . وعند باركانى ، قرب الدانوب ، أحرز سوبيسكى وشارل انتصارا حاسما آخر . ثم قاد الملك جيشه عودا الى بولنده بعد أن أنهكه السير والقتال والدوزنتاريا ، فدخل كركاو فى ليلة ميلاد ١٦٨٣ . وفى اليوم التالى أعدم السلطان قره مصطفى .

وألفت النمسا وبولنده والبندقية ، بالحاح البابا انوسنت الحادى عشر ، عصبة مقدسة لمواصلة الحرب ضد الترك (١٦٨٤) . وفتح فرانشسكو موروزينى المورة (البلوبونيز) للبندقية ، وفى ١٦٨٦ حاصر أثينا واستولى عليها فى ٢٨ سبتمبر ، وأثناء هذا الحصار دمرت مدفعيته البروبيلايا والبارتينون ، اللذين استعملهما الاتراك مخزنا لبارودهم . وقد استعاد الترك أثينا وأتيكا فى ١٦٨٨ ، والمورة فى ١٧١٥ . وفى غضون هذا هزم شارل اللورينى الترك فى جران (ازترجوم) فى ١٦٨٥ ، وفى السنة نفسها ، وبعد عشر أيام من

الحصار ، استولى على بودا ـ عاصمة المجر القديمة ـ التى كانت فى قبضة الأتراك منذ ١٥٤١ . وفى ١٦٨٧ قاد شارل القوات النمساوية الى النصر فى هاركانى ، قرب موهاكس ، حيث استهل انتصار سليمان القانونى عام ١٥٢٦ عصر التفوق العثمانى . وأنهت معركه « موهاكس الثانية » هذه سلطة الأتراك فى المجر ، التى أصبحت الآن ملكا للملكية النمساوية . واعترفت ترانسلقانيا بسيادة الامبراطور الهابسبورجى ، وأدمجت (١٦٩٠) فى الامبراطورية النمساوية ـ المجرية . وفى ١٦٨٨ استولى ماكس ايمانويل البافارى على بلغراد . وأعلن ليوبولد أن الطريق أصبح الآن مفتوحا الى القسطنطينية ، وأنه قد آن الأوان وواتت الفرصة لطرد الأتراك من أوربا .

ولكن لويس الرابع عشر خف لنجدتهم . ذلك ان حرب البوربون مع الهابسبورج كانت فى نظر ذلك « الملك المسيحى جدا » أهم من الصراع بين المسيحية والاسلام . وكان يرقب فى غيرة متزايدة انتصارات العصبة المقدسة واتساع ملك الهابسبورج وعلو مكانتهم . وفى ١٦٨٨ ، استأنف حربه مع الامبراطور ، ضاربا صفحا عن ابرامه هدنة عشرين عاما معه قبل ذلك بأربع سنين فقط ، وأرسل جيشا الى البالاتينات . فأرسل ليوبولد شارل وماكس ايمانويل لملاقاة الهجوم على الراين ، وتوقف الزحف على الترك ، وتجدد الهجوم التركى .

واستوزر السلطان الجديد ، سليمان الثانى ، رجلا آخر من أسرة كوبريلى هو مصطفى أخو أحمد . وهدأ مصطفى خواطر المسيحيين فى تركية أوربا بتوسيعه حرية العبادة ، ونظم جيشا جديدا ، واستولى على بلغراد من جديد (١٦٩٠) . ولكنه قتل بعد سنة ، ودحر الأتراك عند سلانكامين . وتولى السلطان مصطفى الثانى قيادة الجيش بشخصه ، ولكن المسيحيين هزموه فى سنتا (١٦٩٧) وكان يقودهم أوجين أمير سافوى . وطلب مصطفى الصلح ، وأبرم ليوبولد معاهدة كارلوفتز (١٦٩٩) مع تركيا وبولنده والبندقية ، مغتبطا لأن يده أطلقت فى محاربة لويس . ونزلت تركيا عن كل دعاواها فى ترانسلقانيا والمجر (فيما عدا « بنات » تيميسفار) ونزلت عن غربى أوكرانيا لبولنده ، وسلمت المورة ودلماشيا الشمالية للبندقية . واحتفظت بالبلقان كله ـ دلماشيا الجنوبية ، والبوسنه ، والصرب ، وبلغاريا ،

ورومانيا ، ومعظم اليونان ، ولكن المعاهدة عينت نهاية الخطر التركى على العالم المسيحى .

ترى ما الذى هوى بقوة العثمانيين من أوجهـا أيام سـليمان لقانونى ؟ ليس كالنجاح شيء يتعرض للسقوط . لقـد كانت فـرص المتعة التى أتى بها النصر والثروة شديدة الاغراء ، فبدد السلاطين فى الحريم ما كانوا فى حاجة اليه من طاقة وهمة لضبط الجيش والموظفين والوزراء . واتسعت دولتهم اتساعا حال دون ادارتها ادارة فعـالة ، ودون سرعة توصيل الأوامر ونقل الجنود ، وكان يحكم الولايات باشوات جعلهم بعد الشقة بينهم وبين الآستانة مستقلين تقريبا عن السلاطين . ولم يعد الجوع يحفز الترك ، ولا الأعداء يهددونهم ، فترددوا فى مهاوى الكسل والفساد ، وأفسدت الرشوة الحكم وأشاع غش العملة الفوضي فى الاقتصاد والجيش . وتمرد الانكشارية المرة بعد المرة على رواتبهـم المدفوعة بعملة هبطت قيمتها ، واكتشفوا سطوتهم ، فاستغلوها كلما تعاظمت . وظفروا بحق الزواج ، وحصلوا لأبنائهم وغيرهم على الأذن بالانخراط فى سلاحهم الذى كان من قبل وقفا على النخبـة المنتقاة ، وتنكروا للتدريب والنظام الصارمين اللذين جعلا الانكشارية صـفوة المقاتلين فى أوربا . أما قوادهم الذين أصبحوا خبراء فى لذات الجنس ، فقد فشلوا فى ملاحقة العلوم والأسلحة الحربية . وبينما كان الغـرب المسيحى يصنع مدافع أفضل ، ويطور استراتيجية وتكتيكا أرقى ، فى صراع الحياة والموت الذى دار على ساحات حرب الثلاثين ، وجنـد الأتراك ، الذين كانوا تحت امرة محمد الفاتح يملكون أفضل مدفعيـة فى العالم – وجدوا أنفسهم – كما حدث فى ليبانتو – متخلفين فى قوة النيران والاستراتيجية . وأرهقت الحرب ، التى قوت من قبل الدولة العثمانية يوم كان السلاطين يقودون جيوشهم بأنفسهم – هذه الحرب أرهقت الدولة حين آثروا انتصارات الحريم السـهلة على مشـاق المعركة . وكان لسيطرة الايمان القدرى ، غير التقدمى ، على الحيـاة والفكر أثرها فى خنق العلوم الأسلامية التى كان لها القدح المعلى فى العصور الوسطى ، وازدادت المعرفة فى الغرب وتخلفت فى الشرق . وحسن المسيحيون بناء سفنهم وأصلحوا مدفعيتهم وامتدت تجارتهم الى جميع القارات ، تشق لها طرقا جديدة فى العباب ، بينما كانت معظم

التجارة العثمانية تزحف فى قوافل على اليابس • وترك الحكام الكسالى السقايات والقنوات تبلى ، بينما الفلاحون الذين قلبت الحرب حياتهم ينتظرون المطر فى ذل ومسكنة • واتخذ مسار الامبراطورية طريقه غربا ، الى أن وجد نفسه ثانية فى الشرق يوما وهو لا يزال يتحرك غربا •

وكان رد الأتراك على أعقابهم معناه بالنسبة للغرب الدعوة لحرب داخلية طاحنة • ذلك أن النمسا والمانيا تخولتا بعد تحررهما من ضغط الاسلام عليهما لمواجهة أطماع لويس الرابع عشر ، الذى كان يمد ذراعيه فى الأراضي المنخفضة ، وأراضي الراين ، والبلاتينات ، وايطاليا ، وأسبانيا • وأكملت هذه اللطمات الآتية من الغرب تفكك الامبراطورية الرومانية المقدسة ، فلم يبق منها غير الصورة • وانتهى الأمر بالامبرادلور الى النظر الى نفسه على أنه نمساوى لا رومانى ، وحلت الاميراطورية النمساوية ـ المجرية محل الرومانية المقدسة • وجعلت العروش الثلاثة ـ عروش النمسا ، والمجر ، وبوهيميا ـ وراثية فى أسرة هابسبورج (١٧١٣) ، فألغيت حقوق الولايات البوهيمية والمجرية التقليدية فى انتخاب ملوكهم • وعادت المجر الى الثورة (١٧٠٣ ـ ١١) بزعامة فرانسيس راكوكزى الثانى ، ولكن الثورة خمدت ، تاركة الحنين الى الحرية يتردد صداه فى الشعر والأغانى •

وسخرت النمسا اقتصاديات المجر وبوهيميا لمنفعتها الخاصة ، وتمتعت طبقاتها العليا بثراء جديد • وارتفعت القصور الفاخرة للارستقراطية ، وأسكنت الكنائس الجميلة والأديار الضخمة القساوسة والرهبان المنتصرين • وأعاد الأمير بال استرهازى بناء قلعته الكبرى فى ايزتشتات ، حيث سيقود هايدن يوما فرقته الموسيقية ويؤلف ألحانه • وفى فيينا صمم دومنيكو مارتينللى قصر ليشتنشتين ، وقصر بلفدير لأوجين أمير سافوى • وبنى يوهان فيشر فون ايرلاخ لهذا الأمير ذاته قصرا شتويا فاخرا ، ووضع الخطط للمكتبة الملكية ، والقصر الامبراطورى فى شونبرون • وفى ١٧١٥ بدأ أعظم معماريى النمسا هذا

عمله فى كنيسة كارلسكرشي بفيينا ، بطراز كنيسة القديس بطرس بروما .
وعلى ضفاف الدانوب على نحو أربعين ميلا غربى فيينا شـــاد يعقوب برانتاور دير **«كلوسترميلك»** اكبر الأديار البندكتية وأروعها فى الأراضي الألمانية ، وهذا أوج الباروك النمساوى . وفى أعقاب الانتصار صمم يوهان ارنست تون ، رئيس الأساقفة الكفء الوجيه ، حديقة ميرابيل الشهيرة بسالزبورج ، وجملها بمنحوتات من صنع فيشرفون ارلاخ . وهـــكذا تحركت النمسا فى كبرياء وأبهة الى أعظم قرن فى تاريخها .

الفصل الخامس عشر

الجنوب المراح

١٦٤٨ ـ ١٧١٥

١ ـ ايطاليا الكاثوليكيــة

من حكمة الفلاح الصامتة أن فى الامكان اصلاح التربة التى كان يرهقها الثمر الوفير باراحتها فترة ، وربما بحرثها دون زرعها . وهكذا استراحت ايطاليا بعد خصوبة النهضة التى أرهقتها . وأبطأ تدفــق حيويتها العارمة ، وكأنها تستجمع قوتها لمزيد من جلائل الأعمــال . فعلينا اذن الا نتوقع من أيطالية هذا العصر والعصر التـــالى له ـ بين برنينى وبونابرت ـ ثمارا كتلك التى تدفقت من معينها الفيــاض فى قرونها الذهبية . اننا نلم بها هنا مرة أخرى ، قانعين اذا استطعنا بين الحين والحين أن نسمع فى مدنها التى تردد أصداء التاريخ أصـــواتا صغيرة تشهد بحياة لم تنطفىء جذوتها .

وكانت لا تزال كاثوليكية بطبيعة الحال ، فذلك من صميم روحها ، ولا سبيل الى انتزاعه منها دون انتهاك لروحها . كان فقراؤها يظلمهم الأغنياء ، الذين هيمنوا بالطبع على الحكومات وشرعوا القــوانين . وعلل الأغنياء هذا الظلم بأن الفقراء سيصبحون مشاغبين وقحين اذا رفعت أجورهم . أما النساء فكان يستغلهن الرجال والشعب ، الا أن يكن فى ربيع حسنهن . فى هذه الأحوال كانت طبقات الشعب الدنيــا ، والجنس الاضعف آنذاك ، تجد عزاء فى خدمات الكنيسة . وكان ايمانها بالعدل الالهى سندا يعزيها عن قسوة الانسان ، وكانت خطايا ألسنتهم الحادة وجسدهم الوثنى يغتفرها دون تردد القساوســة المتســامحون والرهبان اللطفاء الذين أطعموهم والرجاء يمـــلأ نفوســـهم . وكانوا شاكرين لما تخلل أيامهم المثقلة بالأعباء من أعياد ومهرجانات مريحــة يحتفلون فيها بذكرى قديسيهم الحامين . وآمنوا بأن قديسيهم ، والأم العذراء الرحيمة ، سينقذونهم من أهوال الجحيم بتشفعهم أمام عرش

لله ، وبأن الغفرانات التى توزعها الكنيسة ستفصر مقامهم فى المطهر ، وانهم سيدخلون ، ان عاجلا أو آجلا ، فردوسا - يفوق جمـــاله حتى جمال ابطاليا - لن يكدر صفوه مـــلاك ، ولا ضرائب ، ولا عشــــور ، ولا حرب ، ولا حزن ، ولا ألم ٠

وهكذا احتملوا بصبر ، ومرح ، وغناء ، ابتزازات كهنتهم الذين لم يخل منهم مكان ، والذين التهموا على الاقـل ثلث ايرادات الامة ٠ وأحبوا كنائسهم كأنها جزر من السلام وسط حرب الحياة ٠ وتأملوا بهاء كنيسة القديس بطرس وفخامة الفاتيكان فى فخر لا يخالطه اســـتياء ولا غبظ ، فتلك حصيلة دراهمهم ونتاج فنانيهم ، وهى ملك للفقـــراء أكثر من الاغنياء ، وهى فى نظرهم ليست أفخم من أن تكون مثوى لأول الرسل (بطرس) ، أو مسكنا لزعيم العالم المسيحى ، خادم خـــدام المسيح ٠ واذا كان ذلك الأب الأقدس يعاقب الهجمـات التى توجــه للكنيسة ، فما ذلك الا ليمنع الحمقى من تدمير صرح الاخلاق القائم على العقيدة الدينية ، ليصون ذلك الأيمان الذى جعل من نثر الكد والشقاء ملحمة شعرية ٠

أما ديوان التفتيش الأبطالى فكان رحيما نسبيا فى هذا العصر ٠ وأشهر ضحاياه قس اسبانى يدعى مجـــويل دى مولينوس ٠ ولد فى سرقسطه ، وسكن روما ٠ وفى ١٦٧٥ نشر كتابه « المرشـــد الروحى » الذى يزعم فيه أنه وان كان التعبد للمسيح والكنيسة معينـــا على بلوغ أسمى الحالات الدينية ، الا أنه يجوز للعابد الذى انقطع للاتصـــال المباشر بالله أن يتجاهل وهو مطمئن كل الوساطات الكهنوتية والطقوس الكنسية ٠ وفى نبذة أخرى رأى مولينوس أنه لا حرج على العابد الواثق من تحرره من الخطيئة الأخلاقية فى أن يتناول القربان دون أن يعترف للكاهن قبل التناول ٠ واجتذب « مرشد » مولينوس النساء على الأخص فالتمست نصيحته المئات - ومنهن الأميرة بورجيزى والملكة كرستينا ، وأرسلن له الهدايا ٠ واعتنقت راهبات كثيرات هــذه « الهدوئيـــة » الجديدة ، ونبذن أورادهن ، واستغرقن فى صلة فخور بالله ٠ وشــكا العديد من الأساقفة الايطاليين من هذه الحركة التى قللت من شـــأن الخدمات والتبرعات الكنسية ، وناشدوا البابا انوسنت الحادى عشر أن يقمعها (١) ٠ وهاجم اليسوعيون والفرنسيسكان مولينوس لأنه أكد على

الايمان دون « الأعمال » تاكيدا يكان يكون بروتستنتيا . وبسط عليه البابا حمايته حينا ، ولكن ديوان التفتيش الرومانى قبض عليه فى ١٦٨٥ ، ثم على نحو مائة من أتباعه . وكان قد جمع أربعة آلاف كراون ذهبى (٥٠٫٠٠٠ دولار ؟) يفرضه رسما صغيرا على المشورة التى يبذلها لمراسليه ، ونستطيع الحكم على عدد هؤلاء المراسلين من تكاليف البريد على الخطابات التى تسلمها فى يوم القبض عليه ، والتى بلغت ثلاثا وعشرين دوكاتية (٢٨٧٫٥٠ دولارا ؟) (٢) .

وبعد أن فحص ديوان التفتيش السجناء وضع قائمة بالتهم الموجهة اليهم ، وأهمها أن مولينوس برر تحطيم صور المسيح المصلوب والتماثيل الدينية لأنها تعوق هدوء الاتحاد بالله ، وأنه ثبط همة الأشخاص الذين أرادوا نذر أنفسهم للدين أو الالتحاق بالطرق الدينية ، وأنه قاد تلاميذه الى الاعتقاد بان لا شيء يأتونه بعد بلوغهم الاتحاد بالله يمكن أن يكون خطيئة . ولعله اعترف تحت ضغط السجن ، أو التعذيب ، أو الخوف ، بأنه اغتفر تحطيم الصور ، وبأنه ثنى الأشخاص الذين رآهم لا يصلحون للرهبنة عن نذر أنفسهم لها ، واعترف بأنه ظل سنين كثيرة يمارس « أكثر الأعمال خروجا على اللياقة مع امرأتين » وأنه « لم ير ذلك اثما بل تطهيرا للنفس » ، وأنه بذلك « استمتع باتحاد أوثق مع الله« (٣) . وأدان ديوان التفتيش ثمانى وستين دعوى وجدها فى كتب مولينوس أو رسائله أو اعترافاته ، وفى ٣ سبتمبر ١٦٨٧ وجه اليه الاتهام فى احتفال عام مما يحرق فيه المهرطقون auto — da — fé وحضر جمع كبير ، وطالبوا بحرقه ، ولكن المحكمة قنعت بالأمر بسجنه مدى الحياة . وقد مات فى السجن فى ١٦٩٧ .

ولعلنا نتعاطف أكثر مع « المهرطقين » الألبيين الذين بكاهم ملتن فى سونيتة سماها « حول المذبحة الأخيرة فى بييدمونت » . وبيان ذلك أنه كان يسكن الاودية الرابضة بين بييدمونت السافواوية ودوفينه الفرنسية قوم يدعون الفودوا ، هم حفدة « الفالدنيز » الذين سبقو حركة الإصلاح البروتستنتى وعاشوا بعدها ، والذين احتفظوا بعقيدتهم البروتستنتية خلال عشرات التقلبات التى طرأت على القانون والحكومة

وفى ١٦٥٥ انضم الدوق شارل ايمانويل الثانى أمير سافوى الى لويس الرابع عشر فى تنظيم جيش لاكراه هؤلاء الفودوا على اعتناق الكاثوليكية . وأثارت المذبحة التى أعقبت ذلك سخط كروموبل ، فحصل من مازاران على أمر بوقف هذا الاضطهاد . ولكن بعد موت حامى الجمهورية (كروموبل) والكردينال (مازاران) تجدد الاضطهاد ، فلما ألغى مرسوم نانت استانفت الدولة الفرنسية جهودها فى استئصال شأفة البروتستنتية من الاقليم . وألقى الفودوا السلاح على وعد بالعفو العام ، وما لبث ثلاثة آلاف منهم ، مجردين من السلاح ، وفيهم النساء والأطفال والشيوخ ، أن ذبحوا ذبح الأنعام (١٦٨٦) . وسمح للباقين منهم على قيد الحياة ، الذين أبوا اعتناق الكاثوليكية ، بالهجرة الى أرباض جنيف . ثم جاء دوق آخر لسافوى يدعى فيكتور أمادبوس ، وجد نفسه فى مشكال السياسة حليفا لا لفرنسا بل عليها ، فدعا الفودوا للعودة الى اوديتهم (١٦٩٦) . فعادوا ، وقاتلوا تحت لوائه وسمح لهم بعدها بعبادة المجهول على طريقتهم المؤمنة .

أما الفقراء فكانوا فى الولايات البابوية يعانون فقر اخوانهم فى كل مكان بأيطاليا وكانت الادارة البابوية (الكوريا) ، كأى حكومة ، تفرض الضرائب على رعاياها الى الحد الذى يهبط بعائدها ، فلم يتح لها قط من المال ما يكفى لأغراضها وموظفيها . وقد أنذر الكردينال ساكيتى البابا اسكندر السابع (١٦٦٣) بان جباة الضرائب يفقرون السكان حتى يشرفوا بهم على حافة اليأس ، فقال : « ان أفراد الشعب ، الذين لم يعودوا يملكون من الفضة أو النحاس أو الثياب أو الأثاث ما يشبع جشع الجباة ، سيضطرون الى بيع أنفسهم ليلبوا المطالب الثقيلة التى فرضتها عليهم الكاميرا (الغرفة التشريعية للكوريا (٤) ») . وشكا الكردينال من الرشوة فى القضاء البابوى ، ومن الاحكام التى تباع وتشرى ، والدعاوى التى يطول نظرها سنين عديدة ، والعنف والطغيان يعانيهما الخاسرون الذين يجرءون على استئناف الحكم من موظف أدنى الى آخر أعلى . يقول ساكيتى « ان هذه المظالم أفدح من تلك التى نكب بها بنو اسرائيل فى مصر . فالناس الذين لم يغلبوا بالسيف بل اخضعوا للكرسي البابوى .. .. يعاملون معاملة أكثر وحشية من معاملة العبيد فى سوريا أو افريقيا . فمنذا يستطيع أن يشهد

هذه الأشياء دون أن يذرف عليها دموع الحــزن والأسي (٥) ؟ » وفى وسط فقر الجماهير كان العديد من الأسر النبيلة التى تربطها رابطــة القرابة بالبابوات أو الكرادلة يتــلقى الهبــات الســخية من ايرادات الكنيسة .

أما بابوات هذا العهد فلم يكونوا زهـــادا كبيوس الخامس ، ولا رجال دولة كسيكستوس الخامس ، انما كانوا فى العادة قوما طيبين ، أضعف من أن يتغلبوا على الرذائل البشرية المحيطة بهم ، أو يراقبــوا مئات الثغرات والاركان التى ينفذ من خلالها أو يختبىء فيها الفساد فى ادارة الكنيسة . ولعل أى مؤسسة بلغت هذا المبلغ من الاتســاع وكثرة الواجبات لا يمكن وقايتها من الأخطاء الملازمة لطبيعة الانسان . وقد جاهد انوسنت العاشر ، (١٦٤٤ - ٥٥) ، « النقى الحياة المستقيم المبدأ (٦) » ليخفف من ثقل الضرائب ، ويكبح اســتغلال النبــلاء الجشعين للايرادات البابوية ، ويصون النظام والعــدل فى ولاياته . وتبدو عليه - كما صوره فيلاسكويز - كل مظاهر الخلق القوى ، ولكنه سمح لغيره بأن يحكموا نيابة عنه ، وترك أوليمبيا مايدالكينى ، زوجة أخيه الجشعة الطموح ، تؤثر فى تعييناته وسـياساته ، فكان الكرادلة والسفراء يتذللون أمامها ، وأثرت من هداياهم ثراء صارخا ، ولكن لما مات انوسنت زعمت أنها أفقر من أن تنفق على مأتمه (٧) .

وروى أن كردينالا قال فى مجمع الكرادلة الذى اختار خليفتــه « يجب أن نبحث عن رجل أمين هذه المرة (٨) » . وقد وجــدوه فى شخص فابيو كيجى ، الذى أصبح الاسكندر السابع (١٦٥٥ - ٦٧) . وقد بذل قصاراه ليطهر الادارة البابوية من الفساد وتعطيل الأعمال ، ونفى أبناء أخيه النهمين الى سيينا ، وخفض الدين العــام . غير أن الفساد الذى أحاط به كان أوسع وأعم من أن يستطاع قهــره . فألقى السلاح ، وسمح لابناء اخيه بالعودة الى روما ، وخلع عليهم المناصب المجزية ، فجمع أحدهم بعد قليل ثروة طائلة (٩) . وانتقلت القوة من يدى الاسكندر المتعبتين الى الكرادلة ، الذين طالبوا بالمزيد من السلطة فى حكم الكنيسة . وحلت أرستقراطية من الأمر تفخر بكرادلتها محل الملكية المطلقة التى ثبتها مجمع ترنت من قبل البابوات .

وجدد كلمنت التاسع (١٦٦٧ — ٦٩) الكفــاح ضـــد محاباة الأقرباء . وسمح لأقربائه ببعض الامتيازات المتواضعة ولكنه ولى ظهره لطلاب المناصب . وأقبل المئات من مسقط رأسه بيستويا ، واثقين من أنه سيعينهم على الأثراء ، ولكنه ردهم ، فهجوه هجوا ساخرا ، وهنا أيضا ندرك أن طبيعة البشر واحدة سواء فى الظالم أو المظـلوم ، وان الناس هم أس البلاء المحيط بهم . وكان البابا الجديد رجل سلام وعدل . فبينما أصدر سلفه — بتحريض من لويس الرابع عشر — مرسوما مثيرا للمتاعب ضد الجانسنيين ، عرض كلمنت هدنة فى ذلك النزاع الناشب داخل الكنيسة . ومن أسف أنه مات ولم يقض فى دست الحـــكم غير عامين .

وخلفه كلمنت العاشر (١٦٧٠ — ٧٦) وهو فى الثمانين ، فترك الامور للكرادلة (كما رتبوا الأمر من قبل) ، ولكنه أنهى عهـــده دون عيب يعيبه . وجاء انوسنت الحادى عشر (١٦٧٦ — ٨٩) وكان — كما قال رانكى البروتستنتى — رجلا « تفرد بتواضعه ... غاية فى دماثة الخلق وهدوء الطبع » ، مدققا فى مسائل الأخلاق حازما فى شـئون الاصلاح (١٠) . وقد أبطل « كلية » الموثقين الرســـوليين التى قال مؤرخ كاثوليكى « ان التعيينات فيها كانت تباع وتشرى بانتظام (١١) » وألغى الكثير من المناصب والامتيازات ، والاعفاءات ، (التى لا فائدة منها) ووازن الميزانية البابوية لأول مرة فى ســنوات كثيرة ، وأرسى للنزاهة المالية سمعة مكنت الادارة البابوية من اقتراض المال بفـــائدة لا تزيد على ٣ ٪ . كتب فولتير يقول عنه « كان رجلا فاضلا ، وحبرا حكيما ، ولاهوتيا ضعيفا ، وأميرا شجاعا ، قوى العزيمة ، جليـــل القدر (١٢) » . وقد حاول عبثا أن يخفف من تعجل جيمس الثانى فى كثلكة انجلترة ، وأدان العنف الذى استعمله لويس الرابع عشر ضـــد الهيجونوت ، وقال ، « ان الناس يجب أن يهدوا الى دور العبادة لا أن يجروا اليها جرا (١٣) » ولم يجد ما يدعوه لمحبـــة ذلك الملك المتكبر الذى ادعى لنفسه من السلطة المطلقة على الكنيسة فى فرنسا ما يقـــرب من السلطة التى أكدها هنرى الثامن لنفسه فى انجلتره . ولكى يقلل انوسنت الحادى عشر من الجرائم فى روما الغى حق اللجوء الذى سبق منحه لمساكن السفراء ، وأصر لويس على الاحتفاظ بذلك الحق لمبعوثيه ،

بل للشوارع المجاورة للسفارة الفرنسية ، وفى ١٦٨٧ دخل سفيره روما بفوج من الفرسان ليفرض بالقوة مطلب الملك . ووبخ البابا السفير ، وأوقع حرما على كنيسة القديس لويس التى كان يصلى فيها السفير فى روما . واحتكم لويس الى مجمع عام ، وسجن ممثل البابا فى فرنسا ، واستولى على أقليم افنيون الذى كان ملكا للبابا منذ ١٣٤٨ . ومن هنا نظرة انوسنت الحادى عشر الهادئة المطمئنة الى الحملة التى جردها وليم أورنج الثالث ، البروتستنتى ، لخلع جيمس الثانى الكاثوليكى وادخال انجلترة فى حلف ضد فرنسا . وقد تعاون البابا مع جهود ليبنتز لاعادة الوحدة بين الكاثوليكية والبروتستنتية ، ووافق على تنازلات أعلنت جامعات ألمانيا البروتستنتية رضاءها عنها ، وقد وصفه أحد الانجليز بأنه « بابا بروتستنتى (١٤) » .

وتوفى انوسنت الحادى عشر قبل أن يشهد انتصار أهدافه ، ولكن خلال بابوية الاسكندر الثامن (١٦٨٩ – ٩١) وانوسنت الثانى عشر (١٦٩١ – ١٧٠٠) تخلى السفير الفرنسي عن حق اللجوء ، وردت أفنيون للبابوية ، ونقل الاكليروس الفرنسي ولاءه من الملك الى البابا وأعاد الحلف الأعظم توازن القوى ضد فرنسا العدوانية . وفى حرب الوراثة الاسبانية وجد كلمنت الحادى عشر (١٧٠٠ – ٢١) نفسه وقد تورط فى انقسامات أوربا العنيفة ، فكان يلقى بنفوذه مترددا تارة فى جانب وتارة فى جانب آخر ، وفى النهاية اقتسم الملوك الأسلاب دون أن يستشيروه – حتى صقلية وسردانيا ، وهما – فنيا – اقطاعتان بابويتان . كذلك كانت معاهدة وستفاليا قد تجاهلت احتجاجات انوسنت العاشر . لقد استلزم اشتداد النزعة القومية اضعاف البابوية ، وأسهمت هذه النزعة مع نمو العلم فى تشجيع العلمانية والتهوين من دور الدين فى الحياة الاوربية .

٢ – الفن الايطالى

أحس الفن كما أحست السياسة بهذه المنافسة المشتدة بين شئون الدنيا وشئون الدين . كان رجال الكنيسة لايزالون أغنى رعاة الفن ، يوصون بالمبانى ، والصور والتماثيل ، والزخارف ، ولكن الارستقراطية

استكثرت الآن من القصور بأسرع من الكنائس ، وتوددت الى الاجيال القادمة بالصور ، وأهدتها مجموعات من التحف الفنية . وفى ايطالية القرن السابع عشر جرى تيارا الرعاية هذان جنبا الى جنب فى انحدار بهى من النهضة الأوربية .

وكانت تورين تتخذ طريقها الى الثراء تحت حكم أدواق سافوى . وقد صمم جوارينو جوارينى لكتدرائية سان جوفانى باتيستا « كابيل ديل سانتيسيمو سوداريو » أى كنيسة الكفن الأقدس (الذى اعتقد المؤمنون أن يوسف الرامى كفن فيه جسد المسيح) . وقد انهارت قبة كنيسة سان فيليبو الكبرى ، التى بدأها جوارينى ، قبيل أن تكتمل ، فرممها فيليبو ايوفارا ، الذى ولد سنة ١٦٧٦ قبل موت جوارينى بسبع سنوات . ولعلنا نلتقى بايوفارا مرة أخرى .

وفى جنوة كان أروع بناء شيد فى هذا العهد هو قصر دوراتزو الذي بناه فالكونى وكانتونى فى ١٦٥٠ ، واشتراه بيت سافوى فى١٨١٧ ، واستخدم بعد ذلك قصرا ملكيا للأسرة . وقد تحطمت قاعة مراياه الشهيرة فى الحرب العالمية الثانية ، وكانت رائدة لقاعة مرايا فرساى (١٦٧٨) ، فليس صحيحا اذن أن مارس (اله الحرب) عشق فينوس يوما ما . أما أبرز المصورين الجنوبيين الآن فكان اليساندرو مانياسكو ، وقد نجد انموذجا من فنه فى لوحة « مجمع اليهود » المحفوظة بمعهد الفن بشيكاغو ، أو لوحة « الغداء البوهيمى » المحفوظة باللوفر .

وواصلت البندقية انجابها للأبطال والفنانين . وأى عمل أعظم بطولة من الدفاع عن كانديا ضد ترك ؟ فطوال ربع قرن ظل جنود الباب العالى وبحارته يهاجمون كريت ، وكانت يومها مستعمرة للبندقية ، وهلك فى تلك الحملات العنيفة ١٠٠ر٠٠٠ تركى (١٥) ، ومع أن جيشا عدته ٥٠ر٠٠٠ مقاتل استولى على بعض المدن الصغيرة فى الجزيرة ، فان العاصمة صمدت للحصار عشرين عاما ، وصدت اثنين وثلاثين هجوما . وفى ١٦٦٧ أرسل فرانشسكو موروزينى ليقود الحامية المشرفة على الموت جوعا . وأخيرا سلمت (١٦٦٨) ، ولكن أحدا لم يعد يتكلم على تدهور البندقية . وفى ١٦٩٣ ، عندما تقلد موروزينى امرة الاسطول البندقى ، تقهقر الاتراك حين اقترب منهم وقد روعهم

اسمه فقط . وكان لا يزال من ذلك الطراز من الرجـال الذى صـــوره تنتوريتو وفيرونيزى ــ الشجاعة المجسمة التى لا تعرف الرحمة .

وكان بالداسارى لونجينا رجلا آخر من هذا الطراز السبعينى . فقبل سنوات كثيرة (١٦٣٢) صمم كنيسة « سانتا ماريا ديللا سالوتى » ــ أميرة البحيرات الجليلة ، أما الآن ، وبعد سبعة وأربعين عاما ، فقد شاد قصر بيزارو على القناة الكبرى ــ قصرا متينا بديعـــا بأعمـــدته المزدوجة وكرانيشه المتعددة ، ثم بنى (وهو فى السادسة والسبعين) قصر ريتزونيكو ، الذى سيموت فيه الشاعر براوننج . وهناك نبت آخر، صلب العود ، حمل البذرة البندقية الى نصـف القارة ، وهو سبستيانو ريتشي ، الذى ولد (١٦٥٩) بمدينة بللونو فى اقليم فنيتسيا ، وذهب الى فلورنسة ليزخرف قصر ماروتشيللى ، ثم سار على اقل الدروب ضنكا ــ الى ميلان ، وبولونيا ، وبياتشينزا ، وروما ، وفيينا ، ولندن. وأنفق عشر سنوات فى انجلترة ، ورسم صورا فى مستشفى تشـــلسي ، وبيرلنجتن هاوس ، وقصر هامبتن كورت ، وكاد يظفر بمهمة زخرفة كنيسة القديس بولس الجـــديدة . ثم مضي الى باريس ، حيث انتخب عضوا فى أكاديمية الفنون الجميلة . ولوحته « ديانا والحوريات (١٦) » غلمة كلوحات بوشيه ، لطيفة كلوحات كوريدجو . وعمر ريتشي حتى ١٧٣٤ ، وأسلم مهاراته للقرن الثامن عشر ، ومهـد الطـــريق للعصر الذهبى للتصوير البندقى أيام تييولو .

أما المدرسة البولونية فلم تكن قد استنفدت قوتها تماما . فاشتهر كارلو تشينيانى برسومه الجصية فى كتدرائية فرولى . وكشف جوزيبى ماريا كرسبى (لو سبانيولو) فى « صورته الذاتية (١٧) » عن رجـل مستغرق فى الفن ، متناس كل متاعبه اذا اتيح له أن يرسم . وقد صور جوفانى باتيستا سالفى (« الساسوفيراتو ») فى لوحته « العـــذراء تصلى (١٨) » ما فى المحبـــة من انكار للذات ، وارانا فى لوحتـــه « العذراء والطفل (١٩) » مجرد امرأة بسيطة ، ســـعيدة بوليدهـــا (البامبينو) ، كأى امرأة تراها فى أى يوم بين فقراء ايطاليا .

وقد حكم فلورنسه وبيزا وسيينا خلال هذه الفترة اثنان من كبار أدواق توسكانيا ، فردينلند الثانى وكوزيمو الثالث . وفى ١٦٥٩ بدأت

سيينا مهرجان الباليو (المعطف) المشهور : فكانت أحياؤهـــا العشرة تنظم موكبا بملابس بهية يسير فى شوارع زينت بالعمائر ، والرايات ، والزهور ، ونساء مرحات لابسات ثيابا جذابة ، ثم يتبارى فرســـان الأحياء بجنون فى سباق على معطف السيدة العذراء التى كوست المدينة التقية نفسها وحياتها له منذ أمد بعيد • ولم تملك فلورنســـة الآن من المصورين الا الصغار • وواصل كارلو دولتشي ، بفن أضعف ، صور جيدو رينى العاطفية ، المتأملة فى السماء ، التى رسمها للعذراء والقديسين ، والعالم كله يعرف لوحته « القديسة سيسيليا (٢٠) » • ورسم يوستوس سوسترمانس ، الذى هاجر من فلاندر الى فلورنسة ، لوحات تعد من العجائب التى تشد الانتباه فى قاعة بيتى - وليس أقلها رأس جاليليو الرائع الجليل • كذلك كان يبدو موسي وهو يشرع الناموس ، لا كمـــا نراه فى وحش ميكلانجلو ذى القرون •

وكان الفن فى روما يفيق من قيود الحركة المعارضـــة للأصـــلاح البروتستنتى • فعاد البابوات بقدر أخف الى روح النهضة ، وشجعوا الأدب ، والدراما ، والعمارة ، والنحت ، والصوير • ورمم انوســـنت العاشر الكابيتول وكنيسة سان جوفانى فى لاتيرانو • وكلف الاسكندر السابع برنينى بأن ينحت نطاقا رباعيـــا من حراس مصـــنوعين من الجرانيت حول ميدان القديس بطرس (١٦٥٥ - ٦٧) - فنحت ٢٨٤ عمودا و ٨٨ ركيزة ، ووفق فى صنعها الى تحويل الذهب الى حجر • وفى عهد هذا البابا أعاد بييترو داكورتونا بناء كنيسة سانتا ماريا ديللا باتشي ، حيث كانت عرافات رفائيل لا تزال تتأمل القدر • واشـــترك جيرولامو داينالدى مع ابنه كارلو فى تشييد كنيسة سانتاجنيزى الجميلة فى ميدان نافونا • واشترك الوالد والولد ثانية فى تصميم كنيسة « يسوع ومريم » ، وبنى كارلو هيكل سانتا ماريا فى كامبيتللى ليضم تمثـــالا للعذراء اعتقد الناس أنه أوقف طاعون ١٦٥٦ • وكان الكرادلة والنبلاء يبنون مساكنهم ومدافنهم فى فخامة القصور • وارتفع الآن قصر دوريا وبهو قصر كولونا ذو الزخارف الباروكية المسرفة ، وفى كنيسة « يسوع ومريم » حفر فرانشسكو كافاللينى لأسرة بولونيتى مقبرة لابد أنها أثارت حسد الاحياء للأموات •

وأقام مصورون كثيرون الدليل على أن فنهم مازال حيا فى روما -

وقد خطب أهلها ود كارلو ماراتى ، فى النصف الثانى من القرن السابع عشر ، باعتباره زعيم المصورين فى الباروك الحديث . وصورته لكلمنت التاسع (٢١) كانت مذكرة بصورة فيلاسكويز لانوسنت العاشر ، ولكنها انتهت نهاية طيبة ، وصورته «العذراء مع القديسين فى الفردوس»(٢٢) تكرار لعشرات مثلها ، ولكنها صورة جميلة . وحين أراد كلمنت الحادى عشر ترميم لوحات رفائيل الجصية فى الفاتيكان عهد الى ماراتى بهذه العملية الدقيقة الخطرة على المرمم خطرها على الرسوم ، فأداهـــا بكفاية . واختار اليسوعيون جوفانى باتيسنا جاوللى (الباتشتشو) ليرسم قبو كنيستهم الأم « الجيزو » ، ولكن كان من بين أبناء طريقتهم راهب من أقدر فنانى عصره ، هو أندريا بوتسو ، الذى التحق بالطريقة وهو فى الثالثة والعشرين ، وصـمم فى تلك الكنيســة مذبح القديس اجناتيوس — وهو من روائع الباروك . وفى ١٦٩٢ نشر بوتسو مقـالا عن المنظور فى التصوير والعمارة أثار ضجة فى عدة لغات . واستهواه موضوعه كما استهوى أوتشيللو موضوعه قبل قرنين ، فطور دراســاته للطائف « الخداعية » ، كما يرى فى صوره الجصية فى فراسكاتى . ودعاه الأمير فون ليشتنتشتين الى فيينا ، فأفنى نفســه بكثرة المهـــام التى اضطلع بها ، ومات هناك فى ١٧٠٩ بالغا من العمر سبعة وستين عاما.

كان أعظم المصورين الايطاليين الآن فى نابلى . فكل شيء أينع وازدهر هناك — الموسيقى والفن ، والأدب ، والسياســة ، والدراما ، والجوع ، والقتل ، وشيء آخر لا يكف عنه الرجال الهائجـــون أبدا ، وهو مطاردتهم لجسد المرأة ومفاتنه ، المطـاردة المرحـــة ، العنيفة ، الشجية . وتأثر سلفاتور روزا بكل عناصر الحيـاة هـــذه . وكان أبوه معماريا ، وعلمه عم له التصوير ، وكان زوج أخته تلميذا لريبيرا ، وقد أذن لسلفاتور نفسه فى الوقت المناسب بالالتحاق بذلك المرسم الجليل . وعلمه استاذ آخر تقنية مناظر المعارك الحربية . واشتهر سلفاتور على الأخص بهذه الصور التى ترى فى متحف نابلى القومى أو فى اللوفر . ومن المعارك انتقل الى مشاهد الطبيعة ، ولكن هنا أيضا آثرت روحـــه الوحشية رسم الطبيعة فى سورات غضبها ، كما يرى فى لوحة باللوفر صور فيها الغيوم الكثيفة والأرض المظلمة يضيئها فجـاة برق يحطـــم الصخور ويصوح الأشجار فى طرفة عين . وأقنعه لانفرانكو بالذهاب الى

روما والتودد للكرادلة ، فذهب وأثرى هناك ، ولكنه هـرع قافلا الى نابلى ١٦٤٦ ليشترك فى ثورة مازانيللو . فلما فشلت عاد الى روما ، وصور كبار رجال الكنيسة ، وكتب هجاء ساخرا تهكم فيه بالترف الكنسي . ثم قبل دعوة الكردينال جانكارلو دى مديتشي ليذهب ويعيش معه فى فلورنسة ، وهناك مكث تسع سنوات ، يرسم ، ويعزف الموسيقى ، ويقرض الشعر ، ويشارك فى التمثيليات . وحين عاد الى روما ثانية ، سكن بيتا فى التل البنسي ، حيث عاش بوسان ولوران من قبل . وتقاطر عليه أقطاب الكنيسة ، ليصورهم مغضين عن هجائياته ، مؤثرين فرشاته على قلمه ، وكان احب الفنانين الى الناس فى ايطاليا طوال عشر سنوات . وقد رسم صور القديسين والأساطير المألوفة ، ولكنه فى محفوراته استسلم لعطفه على الجنود المساكين والفلاحين المعذبين ، وهذه المحفورات من أبدع آثاره .

ولم ينافسه فى شهرته غير رجل آخر من أهـل نابلى ، هو لوكا جوردانو . وكان فنانا وهو بعد فى الثامنة ، ثم رسم فى كنيسة سانتا ماريا لانوفا ملاكين بلغا من الجمال والرشاقة مبلغا جعل الحاكم يأخذه العجب حين رآهما ، ويرسل للصبى بعض القطع الذهبية مع توصية لريبيرا . وظل يدرس على يد ذلك الاستاذ الغارق فى تأملاته ، ويدهش كل انسان بسرعة نسخه للروائع وتقليده للأساليب . وتاق للذهاب الى روما وفحص رسوم رفائيل الجصية المشهورة ، ولكن أباه عارض فى ذهابه ، لأنه يرتزق من بيع صور لوكا ورسومه . ففر لوكا سرا ، وسرعان ما أخذ ينسخ بحماسة فى الفاتيكان ، وفى كنيسة القديس بطرس ، وفى قصر فارنيزى . وتبعه أبوه ، وحصل على قوته هنا أيضا ببيع صور ابنه العارضة ، ويروى أن السر فى تلقيبه « فا ـ برستو » هو حث أبيه له على السرعة .

فلما استوعب فن روما مضي الى البندقية ورسم على طريقة تيشان وكوريدجو صورا لا تكاد تختلف عن روائعهما . ولكنه رسم الى ذلك صورا أصيلة ظفرت بالاستحسان ، وفى وسعنا الحكم عليها من لوحته « انزال المسيح عن الصليب » المحفوظة بأكاديمية البندقية . ولما عاد الى نابلى زخرف اثنتى عشرة كنيسة بكفاية وسرعة لم يجد معهما منافسوه حيلة الا أن يتسقطوا له الهنات . ثم دعاه كوزيمو الثالث الى فلورنسة

(١٦٧٩) حيث ظفر بالاستحسان لصورة الجصية فى كنيسة كورسينى.

وأصاب صديقه كارلو دولتشي غم شديد حين رأى ما احرزه لوكا من نجاح ، فمات بعد قليل (٢٣) ، وتروى لنا ايطاليا المحبة لفنانيها من الاساطير الكثيرة عنهم قدر ما ترويه عن قديسيها . وفى رواية أخرى أن نائب الملك الأسبانى فى نابلى أوصي برسم حشوة كبيرة لكنيسة القديس فرانسس زافير ، وثار غضبه حين وجد أن شيئا لم ينجز فى هذا التكليف رغم التأجيلات الطويلة ، وما راعه بعد يومين الا أن يجد العمل كاملا وجميلا . وقال نائب الملك « ان راسم هذه الصورة اما ملاك واما شيطان (٢٤) » .

وطبقت شهرة الملاك الشيطانى الآفاق حتى بلغت مدريد ، وسرعان ما تكاثرت الدعوات على لوكا من شارل الثانى لينضم للبلاط الأسبانى . ومع أن الملك كان مشرفا على الافلاس فانه وصل الفنان بألف وخمسمائة دوكاتيه ، ووضع سفينة ملكية تحت تصرفه للرحلة . فلما بلغ جوردانو مدريد (١٦٩٢) استقبلته ست مركبات ملكية على الطريق . وما لبث أن بدأ العمل فى الاسكوريال وهو فى السابعة والستين . فزين بالصور الجصية سلم الدير الكبير ، وعلى قبو الكنيسة رسم « صورة طبق الأصل » من السماوات ، ترينا شارل الخامس وفيليب الثانى فى الفردوس ــ وقد غفرت ذنوبهما كلها تحية من الثالوث الأقدس لآل هابسبورج . وفى السنتين التاليتين رسم عددا كبيرا من الصور الجصية يعدها مؤرخو الفن الاسبان خير ما رسم فى الاسكوريال (٢٥) . وفى « القصر » بمدريد ، وفى بوين ريتيرو ، وفى كنائس طليطلة والعاصمة ، رسم صورا بلغت من الكثرة ، وأنفق فيها من الجهد ، ما جعل منافسيه يعيرونه بأنه يعمل ثمانى ساعات فى اليوم وفى أيام الأعياد . كذلك ساءهم أنه جمع ثروة بطرق غير لائقة ، وأنه يضيق على نفسه ولكنه يشترى الجواهر الغالية استثمارا آمنا لماله لأن كل شيء فى هذه الدنيا سيتغير ويتبدل الا غرور الانسان . وقد كرمه كل البلاط ، ووصفه شارل الثانى فى لحظة صفاء بأنه أعظم من ملك .

ومات شارل فى ١٧٠٠ ، ومكث جوردانو فى أسبانيا رغم ما تلا

ذلك من حرب الوراثة الاسبانية ، ولما ارتقى العرش فيليب الخامس ظل يتلقى تكليفات سخية عسيرة ٠ ثم عاد الى ايطاليا فى ١٧٠٢ ، وتخلف فى روما ليلثم قدم البابا ، ووصل الى نابلى والغار يكلله ٠ وعلى أسقف التشرتوزا (دير الكرتوزيين) بسان مارينو ، المطل على المدينه ، رسم فى ثمان وأربعين ساعة سلسلة من الصور الجصية أظهرت نشاطا وحذقا لا يكادان يصدقان فى رجل بلغ الثانية والسبعين (١٧٠٤) ٠ وفاضت روحه بعد ذلك بعام وهو يقول متأوها « ايه يا نابلى ، يا نسمة حياتى (٢٦) » ٠

ولم يعدله شهرة عند وفانه فنان آخر فى جيله ٠ ونافس الأعيان الهولنديون الأباطرة والملوك فى شراء صوره ، وفى انجلتره النائية تغنى مافيو برايور بمديح « جوردان الالهى » وأعجب عامة الناس بغنى الوانه ، وبأس أشخاصه ، وجلال أفكاره ، وقوة عرضه ٠ ولكن الفنانين ــ بعد أن أفاقوا من هذا الخدر العام ــ بينوا علامات التعجل فى انتاج لوكا فا ــ برستو ، والخلط المتناقض بين الافكار أو المواضيع الوثنية والمسيحية فى المشهد الواحد ، والمواقف المفتعلة ، والافراط فى الاضاءة الساطعة ، والافتقار الى التناسق والهدوء ٠ ولقد رد لوكا على ناقديه قبل ذلك بزمن طويل ، اذ عرف المصور القدير بأنه ذلك الذى يحبه جمهور الشعب (٢٧) ٠ ومن العسير تفنيد هذا التعريف ما دمنا نفتقر الى معيار موضوعى للامتياز أو سلامة الذوق ، ولكنا قد نجد أدنى محك ذاتى للعظمة فى مبلغ تاثير انسان ما فى الزمان والمكان ، وأدنى مقياس ذاتى للشهرة فى قدرتها على البقاء ٠ ولقد سعد جوردانو بحياة ناجحة ، وهو لا يشعر بأى أذى من جراء شهرته الآفلة ٠

وكان الفنان فرانشسكو سولمينا يناهز الثامنة والاربعين حين مات فا ــ برستو ، ولكن سنى عمره التسعين بلغت بمدرسة الفن النابولية قرابة منتصف القرن الثامن عشر ٠ وكان لوكا قد رسم صحن دير مونتى كاسينو ، ورسم فرانشسكو الخورس ، وتهدم هذا وذاك فى الحرب العالمية الثانية ٠ ولكن المتاحف تحتفظ بفن سولمينا ، ففى فيينا « اغتصاب أوريثيا » وهى نشوة بضة من عضلات الذكر ومنعطفات الانثى ، وفى اللوفر نرى صدى وتحديا لرفائيل فى لوحته « هليودوروس يطرد من الهيكل » ، وفى كريمونا صورة « مادونا

أدولورانا » وبصحب العذراء فيها ملاك فيه من العذوبة ما يجعلنا نتقبل فكرة الخلود اذا كان فى الجنة الكثير من أمثاله .

٣ - أوديسة كرستينا

كانت الفنون الآن مجرد جزء صغير من حياة روما الثقافية . ففيها أيضا مئات من الموسيقيين ، والشعراء ، والمسرحيين ، والعلماء ، والمؤرخين . وقد يسرت المتاحف والمكتبات والكليات كنوز الماضي للطلاب ، وشجعت الأكاديميات الأدب والعلم . وكانت أوهام مارينى الموشاة مازالت عدواها تسرى فى الشعر الايطالى ، ولكن لذع هجائيات تاسونى ، وحرارة نزعة مارينى الحسية ، وتدفق مقاطع تاسو الفوار ، كل أولئك كان قد أعطى الشعر الايطالى حافزا والهاما مازالت تحس بهما النفوس المترنمة بالشعر .

أما أعظم الشعراء الغنائيين فى العصور الحديثة(٢٨) ، اذا صدقنا ماكولى ، فهو فنتشنزو دا فيليكايا . وقد شدا هذا الشاعر بتخليص سوبيسكى لفيينا فى قصائد غنائية شاكرة ، ورحب بمجىء كرستينا الى روما فى نملق نشوان ، ووصف فى خزى ساخط اخضاع وطنه للجيوش الدخيلة ، يقول :

« ايطاليا ، ايه يا ايطاليا ، يا من كتب عليك أن تلبسي تاج الجمال المهلك ، فأصبح سجل الويل والثبور موسوما على جبينك الى الأبد ! ليت ميراثك كان جمالا أقل وبأسا أشد ! حتى يجدك أولئك الذين يستخفهم الطرب لأن حقدهم أذلك ، أكثر ارهابا أو أقل جمالا (٢٩) » .

على أن هنرى هالام ، الذى طوف لغويا خبيرا بكل الآداب الأوربية ، ذهب الى أن كارلو أليساندرو جيدى ، لا فيليكايا ، هو الذى « ارتفع الى أسمى ذروة بلغها أى شاعر غنائى ايطالى » و .. أن « قصيدته الغنائية فى الحظ على الاقل تعدل أى قصيدة غنائية أخرى فى الايطالية (٣٠) » ، ولا يستطيع أحد لم يتمكن بعد من الايطالية أن يحسم هذا الخلاف بين ماكولى وهالام ولا بين جيدى وبترارك ، ولا بين فيليكايا وبيرون أوشلى أوكيتس .

كان جيدى واحدا من شعراء عدة صدحوا بقوافيهم فى صالون كرستينا بروما . وكانت ملكة السويد هذه قد طبقت شهرتها الآفاق لا ملكة على دولة عظمى فحسب ، بل راعية ونموذجا للعلم ، والمضيفة الحفية بسالماسيوس وديكارت . وكان تخليها عن التاج فى سبيل المذهب، وتحولها عن البروتستنتية التى مات أبوها من قبل لينقذها ، ورحلتها الطويلة مارة بقصور ملوك أوربا وأمرائها لتلثم قدمى البابا ـ كانت هذه كلها أحداثا لا تقل عن الحروب والثورات استهواء للذهن الأوربى .

كانت فى ربيعها الثامن والعشرين يوم غادرت السويد (١٦٥٤). وأعطاها ابن عمها شارل العاشر ، الذى اختارته ليتبوأ عرشها ، خمسين ألف كراون تجمل بها رحلتها ، وقرر لها الديت السويدى دخلا كبيرا ، وحقوق ملكة على حاشيتها . فوصلت هامبورج بعد رحلة سريعة فى الدنمرك ، وهناك صدمت مشاعر الأهالى بنزولها ببيت مالى يهودى كان قد أخلص لها الخدمة وهو يعمل وكيلا ماليا لها . وأجتازت هولندة البروتستنتية متنكرة ، ولكنها اتخذت زيها السافر فى أنتورب الكاثوليكية . وهناك استقبلها استقبالا ملكيا الأرشيدوق ليوبولد ، واليزابث ملكة بوهيميا السابقة (وهى ملكة مخلوعة أخرى) ، وابنتها الأميرة اليزابث (وهى تلميذة أخرى لديكارت) . ثم واصلت رحلتها الى بروكسل ، حيث استقبلت بالألعاب النارية ، والصواريخ ، وطلقات المدافع ، والجموع الهاتفة المصفقة . وأسلمت نفسها حينا فى اغتباط للمراقص ومباريات الفروسية ورحلات الصيد والتمثيليات ، وأوفد مازاران فرقة تمثيلية من باريس للترفية عنها ، وفى عشية عيد الميلاد أرتدت سرا عن المذهب اللوثرى ، وأعلنت عزمها على ألا تستمع الى مزيد من المواعظ (٣١) » ، ثم أطالت مكثها فى فلاندر ريثما تعد الكوريا البابوية بروما العدة لاستقبالها رسميا فى الكنيسة وايطاليا . وبعد أن غادرت بروكسل أخترقت النمسا فى رحلة وئيدة . وفى انزبروك جهرت رسميا باعتناقها المذهب الكاثوليكى . وكانت رحلتها فى ايطاليا قاصدة روما أشبه برحلات القياصرة الظافرين عظمة وجلالا. فتزينت المدينة تلو المدينة لتحييها ، ونظمت المهرجانات والعروض تكريما لها فى مانتوا ، وبولونيا ، وفاينزا ، وريمينى ، وبيزارو ،

وأنكونا ، وأخيرا (١٩ ديسمبر ١٦٥٥) دخلت روما وسط مهرجان من الأضواء هزأ بتنكرها . وفى الغد مضت الى الفاتيكان حيث رحب بها البابا اسكندر السابع . وبعد أن مكثت بروما ثلاثة أيام غادرتها مصحوبة بحرس الشرف لتدخلها ثانية ذلك الدخول الرسمى الذى رتبه لها كبار رجال الكنيسة ، فمرت بقوس نصر ، وبالبورتا ديلبوبولو (باب الشعب) ، الى المدينة ممتطية صهوة جواد أبيض يخطر على مهل ، بين صفوف الجند وحشود الاهالى وكأنما شعرت الكنيسة القديمة أن حركة الاصلاح البروتستنتى بأسرها قد أطاح بها ارتداد امرأة واحدة عن البروتستنتية .

فلما اكتمل هذا كله ، سمح لكرستينا بأن تتصرف فى وقتها كما تشاء ، تستقبل الأساقفة ، والحكام ، والعلماء ، وتزور المتاحف ، والمكتبات ، والأكاديميات ، والأطلال ، وتدهش مرشديها بمعلوماتها فى تاريخ ايطاليا وآدابها وفنونها . وأغرقتها كبار الأسر بالولائم والهدايا والتحيات ، ووقع الكردينال كولونا فى غرامها وهو فى الخمسين ، وعزف لها ألحان حبه ، ولم يكن بد من نفيه انقاذا لكرامة الكنيسة . وما لبثت أن وجدت نفسها وقد تورطت فى منافسات الحزبين الفرنسي والأسبانى فى البلاط البابوى . وقطعت السويد دخلها المقرر لها حين وجدت مشقة فى تمويل حربها مع بولنده ، فرهنت مجوهراتها ، وتلقت قرضا من البابا .

وفى يوليو ١٦٥٦ خرجت فى زيارة لفرنسا . وهناك أيضا لقيت ما تلقى الملكات من تكريم . ودخلت باريس على جواد أبيض مطهم ، وخرج ألف فارس لاستقبالها ، وهتفت لها الجموع ، وكاد كبار الموظفين يخنقونها بازهارهم الخطابية ، ووصفها دوق جيز ذلك العهد ، الذى أوفده مازاران لمرافقتها ، بهذه العبارات :

« ليست طويلة ، ولكن لها خصرا ممتلئا وشفتين كبيرتين وذراعين حلوتين ، ويدا بضة حسنة التكوين ، ولكنها أقرب الى يد الرجل منها الى يد المرأة ... ووجهها كبير دون أن ينتقص ذلك من مظهره ... وأنفها معقوف ، وفمها كبير نوعا ولكنه ليس منفرا ... وعيناها بديعتان تشعان نارا ... وعلى رأسها غطاء عجيب جدا ...

باروكة رجل ، كثة عالية ... ترتدى جذاء رجل ، ولها نبرات صـوت الرجل وكل تصرفات الرجل تقريبـــا ، ـ تتظاهر بلعب دور المـــرأة المسترجلة (الأمازونة) .. وهى غاية في التأدب والمجاملة ، وتتكلم ثمانى لغات ، لا سيما الفرنسية ـ وكأنها ولدت فى باريس ، انهـــا تعرف أكثر مما تعرف أكاديميتنا ، مضافا اليها الصوربون ، وتفهـــم التصوير فهما جديرا بالاعجاب ، وكذلك تفهم كل ما عداه . انهـــا لشخصية غاية فى الغرابة (٣٢) » .

وأنزلت جناح الملك فى اللوفر . ثم صـــحبها دوق جيز بعد ذلك الى كومبيين ، حيث استقبلها لويس الرابع عشر ، وكان يومهـــا فتى وسيما فى الثامنة عشرة . والتفت سيدات القصر حولها كالفراشـات ، ولكن أربكهن استرجالها فى اللباس والحديث . وذهبت مدام دموتفيل الى انها « تبدو لأول وهلة وكأنها احدى الغجريات سيئات السيرة » ولكن « بعد ذلك ... بدأت آلف لباسها .. ولاحظت أن عينيها جميلتان متألقتان ، وأن فى وجهها رقة ، ولطفا يمتزج بالكبرياء . وأخيرا أدركت فى دهشة أنها أرضتنى (٣٣) » . على انه يمكن القول عموما أن النساء اللاتى وشين ما فى المجتمع الفرنسي من عادات وأزياء وبهجة وكياسة ورشاقة ، هؤلاء ساءهن اهمال كرستينا لملبسـها ، و « افراطهـــا فى الضحك ، وتحررها فى حديثها سواء عن الدين أو عن المواضـيع التى تتطلب أصول اللياقة عند النساء مزيدا من التحفظ فيها .. وقد جهرت بأنها تحتقر جميع النساء لجهلهن ، ووجدت لذة فى التحـــدث الى الرجال سواء فى المواضيع الطيبة أو الخبيثة . وضربت بالقواعد كلها عرض الحائط (٣٤) » . ويرى فولتير أن نساء المجتمع الفرنسي قسون فى الحكم على هذه الملكة المتمردة لأنها لم تسر على الجـــادة . قال « لم يكن فى البلاط الفرنسي امرأة واحدة وهبت ذكاءها (٣٥) » . أما كرستينا فقد حكمت على سيدات البلاط بأنهن شديدات التكلف ، وعلى الرجال بأنهم شديدو التخنث ، وعلى الفريقين بالافتقار الى الاخلاص. وفى سنليس ، فى طريقها عائدة من كومبيين الى باريس ، طلبت أن ترى « آنسة تدعى نينون (دلانكلو) ، مشهورة بالرذيلة ، والتهتك ، والجمال ، والذكاء . ولم تبد أى علامة من علامات الاحترام الا لهذه المرأة وحدها ، دون سائر النساء اللائى رأتهن فى فرنسا (٣٦) » . وقد

وجدت نينون جبيسة مؤقتا فى دير للراهبات . وتحدثت اليها كرستينا فى مرح ، واقرتها على امتناعهـــا عن الزواج (٣٧) . ثم عادت الى ايطاليا بعد أن زارت مؤسسات فرنسا الثقافيـــة وأهم آثارها الفنيـــة (نوفمبر ١٦٥٦) .

وفى سبتمبر ١٦٥٧ زارت فرنسا ثانيـــة . ولم تســـتقبل ذلك الاستقبال الرسمى السابق ، ولكنها أنزلت فونتنبلو بما يقرب من الحفاوة بالملوك . وهناك روعت فرنسا بما خالته استعمالا مشروعا لحقوقهـــا الملكية على حاشيتها . وتفصيل ذلك أن ياورها المركيز مونالديســـكى اشترك فى مؤامرة ضدها كشفتها باعتراض رسائله . وزاد الموقف سوءا باتهامه رجلا آخر من حاشيتها بالتآمر عليها . فواجهته برسائله التى تثبت التهمة عليه ، وأمرت قسيسا أن يسمع اعترافه ويمنحه غفـــران الكنيسة ، ثم أصدرت الامر لحراسها فاعدموا المركيز . وصعقت فرنسا ، وحتى أولئك الذين اعترفوا بما منحها الديت السويدى من حقوق على أتباعها صدمهم هذا الاستعمال الفجائى التعسفى لسلطتها فى مســـكن يملكه ملك فرنسا . وسمح لكرستينا بأن تنفـق الشـــتاء فى باريس ، وتستمتع بالتمثيليات وحفلات الرقص ، ولكن البلاط تنفس الصعداء حين رحلت الى ايطاليا (مايو ١٦٥٨) .

وقد سبب لها قطع الدخل الذى يأتيها من الســـويد من الحـــرج الشديد ما جعلها فيما روى تطلب الى الامبراطور ليوبولد الاول جيشا تقوده بنفسها ضد شارل العاشر ، ولكن ثناها عن هذه المغامرة العسكرية معاش سنوى من اثنى عشر ألف سكودى قرره لها البـــابا الاســـكندر السابع . وقد زارت السويد مرتين (١٦٦٠ ، ١٦٦٧) لتستعيد دخلها، وربما تاجها . ورد اليها دخلها ، ولكنها لم تلق ترحيبا فى استكهولم ، واتهمها رجال الدين اللوثريون بانهـــا تتآمر لتحـــول الأمـــة الى الكاثوليكية ، ومنعت من الاستماع الى القداس فى مسكنها . وكانت بعد كل زيارة من هاتين الزيارتين تعتكف فى هامبورج . ومنها أرســـلت مندوبين الى وارسو فى ١٦٦٨ ليعرضوا ترشيحها نفسها لعرش بولنده الذى خلا باعتزال يوحنا كازيمير . وعزز البابا كلمنت السابع مطلبها ، ولكن الديت البولندى رفضها لأسباب كثيرة ، منها رفضها أن تتزوج . وقد قالت ان امبراطورية العـــالم بأسرها لن تحملهـــا على الرضـــا

بالزواج (٣٨) . ثم عادت الى ايطاليا فى ١٦٦٨ ، ومكثت بها حتى ماتت .

وكانت تلك السنوات العشرون الأخيرة أجمل سنى عمرها . وأصبح جناحها فى قصر كورسينى أهم الصالونات فى روما ، وملتقى الاساقفة ، والعلماء ، والملحنين ، والنبلاء ، والدبلوماسيين الأجانب . هناك رحبت بأليساندرو سكارلاتى ، وتلقت من أركانجلو كوريللى اهداء أول سوناتاته المنشورة . وزينت حجراتها بالصور والتماثيل وغيرها من التحف المنتقاة بذوق كان مثار اعجاب الخبراء ، أما المخطوطات التى جمعتها فقد عدت فيما بعد من خيرة ما ضمنته مكتبة الفاتيكان من مخطوطات . وكانت تثبط الاسلوب المتكلف الذى نما فى الشعر الايطالى ، وأثرت على جيدى ليتزعم حركة تعود الى نقاء اللغة ، واستقامة التعبير ، اللذين سادا فى أيام أسرة مديتشي . وكانت مذكراتها مثالا للكلام البسيط القوى ، و « أقوالها المأثورة » . آراء جادة سديدة لامرأة خبيرة بالدنيا ، لم تسمح لتقواها بأن تفسد استمتاعها بالحياة . ولم تكن متعصبة ، فقد أدانت عنف الكاثوليك الفرنسيين فى تنفيذ قانون فسخ مرسوم نانت ، وكتبت تقول « انى أنظر الى فرنسا نظرتى الى مريضة بتر ذراعاها وساقاها علاجا لمرض كانت تشفى منه تماما بممارسة اللطف والصبر (٣٩) » . وذهب بيل الى أن هذه العواطف بقية متخلفة من تربيتها البروتستنتية ، فوبخته على هذا التفسير ، فكتب اليها معتذرا ، فغفرت له شريطة أن يوافيها بكتب جديدة أو غريبة (٤٠) .

وماتت عام ١٦٨٩ بالغة الثالثة والستين ، ودفنت فى كنيسة القديس بطرس . وبعد موتها بثلاث سنوات أسس جوفانى ماريا كريسكمبينى تخليدا لذكراها « الاكاديمية الاركادية » وأكثر أعضائها الاوائل ممن اجتمعوا تحت جناحها . وواصلوا الصلة القديمة بين الشعر والرعوية ، وسموا أنفسهم رعاة ، واتخذوا أسماء ريفية ، وعقدوا اجتماعاتهم فى الحقول . وأنشأوا فروعا فى مدن ايطاليا الرئيسية ، ومع احتفاظهم بالحيل البارعة فى بنيان قصائدهم ، فانهم أنهوا تسلط الأوهام على الشعر الايطالى .

٤ - من مونتيفردى الى سكارلاتى

كانت الموسيقى فى ذلك المجتمع المرح ، مجتمع ايطاليا القرن السابع عشر ، نغمة الحياة ونسيمها . لقد خاض هذا الشعب المشبوب العاطفة الحروب فى الأوبرات ، وحارب معارك الحب فى أغانيه الشعرية ، بعد أن ألزمته أسبانيا والبابوية السلام رغم ارادته .

واتخذت الآلات الموسيقية عشرات الأشكال . وأصبح الأرغن الآن منفاخا مزينا له لوحتا مفاتيح لليدين ولوحة للقدمين ، بالأضافة الى أنابيب متنوعة ، وكان هناك بالطبع أراغن متنقلة للشارع . وفى تاريخ مبكر (١٥٩٨) نسمع بآلة أخرى لها لوحات مفاتيح سميت « البيانو أى فورتى » (أى الخافت والقوى) ورد ذكرها فى قائمة الآلات التى يملكها ويعزف عليها الدوق الفونسو الثانى فى مودينا ، ولكنا مازلنا نجهل الفرق بينها وبين « البيلن القيثارى » بنوعيه elavicembalo (الهاربسيكورد) و spinetta . وينقضي قرن قبل أن نسمع بالبيانو فورت ثانية . وفى ١٧٠٩ عرض بارتولوميو كريستوفورى آلة موسيقية سماها gravicemblo col pianoe forte ، وكان صانع الآلات الموسيقية لأمير عاشق للموسيقى يدعى فرديناند دى مديتشي بفلورنسة . وكانت هذه الآلة تختلف اختلافا هاما وان كان طفيفا عن الهاربسيكورد . فالنغمة تصدرها مطرقة صغيرة ترتفع لتقرع وترا ، وفى الامكان خفض الصوت أو رفعه بتنويع لمس الأصابع للمفتاح - بينما النغمات فى الآلات السابقة ذات لوحات المفاتيح تنبعث بواسطة ريشة (من ريش الطير أو الجلد القاسي) ترتفع لتنقر الوتر ، ولا يمكن أحداث تنويع فى قوة الصوت × . وحل البيانوفورت بالتدريج محل الهاربسيكورد فى القرن الثامن عشر ، لا لأنه يستطيع أن يعزف الأصوات « الخافته والعالية » فحسب ، بل لأن مطارقه كانت تبلى بسرعة أقل مما يبلى ريش الطير .

أما الكمان فقد تطور من القيثارة (الليرة lyre) فى القرن

× فى متحف المتروبولتان للفنون بنيويورك احد بيانات كريستوفورى الذى يرجع تاريخه الى ١٧٢٠ .

السادس عشر ، لاسيما فى بريشا × • فجلب أندريا أماتى فن صنع الكمان الى كريمونا ، وهناك تفوق حفيده نيكولو على جميع منافسيه فى هذه الحرفة ، الى أن تفوق عليه هو ذاته تلميذاه أندريا جارنيرى وأنطونيو ستراديفاى • وآل جارنيرى مثال آخر من الأسر التى جرى فيها النبوغ فى نفس الحرفة ، فهناك أندريا وولداه بييترو « دى مانتوا » وجوزيبى الأول ، وحفيده بييترو الثانى « دى فينيتسيا » وحفيد أخيه جوزيـ الثانى « ديل جيزو » ـ الذى جعل باجانينى يؤثر الكمان على سائر الآلات الموسيقية • وأقدم كمان يحمل توقيع ستراديفارى يرجع تاريخه الى ١٦٦٦ ، حين كان فى الثانية والعشرين ، وقد كتب عليه « أنطونيوس ستراديفاريوس ألومنوس نيكول أماتى فاتشيبات آنو ١٦٦٦ » ويلى هذا شعاره الشخصي ـ وهو صليب مالطى والحرفان الأولان من اسمه ، أ • س ، داخل دائرة مزدوجة • وكان يوقع فيما بعد ببساطة يشوبها الفخر « سترافيداريوس » • وقد ألف العمل دون انقطاع ، والقصد فى الطعام ، وعاش ثلاثة وتسعين عاما ، وجمع من الثروة بفضل ما تميزت به آلاته من روعة الجمال والبناء والنغم والصقل ما أصبحت معه عبارة « غنى مثل ستراديفارى » مرادفا كريمونيا للثراء العريض • والمعروف أنه صنع ١١٦ر١ كمانا ، وفيولا ، وفيولنسيلو ، وبقيت منها على قيد الحياة ٥٤٠ كمانا ، بيع بعضها بعشرة آلاف دولار (٤١) • وقد ضاع سر الطلاء الذى كان يصقل به آلاته •

وشجع هذا التحسن فى الآلات تطور الاوركسترا ، وتأليف الموسيقى الآلاتية وأداءها • واكتشف المؤلفون والعازفون فى الكمان مرونة فى الحركة وتنوعا فى النغم يستحيلان على الصوت البشرى ، اذ كان فى استطاعتهم أن يصعدوا ويهبطوا على السلم الموسيقى بيسر يفوق الوصف فعلا ، وأن يبنوا التنويعات ويتلاعبوا بها ، وأن يهربوا من روتين اللحن ويقتحموا الجديد من الايقاعات ، والتطويرات ، والتجارب • وأمكن بعد الجمع بين الآلات الكثيرة تحرير التأليف من الرقص ومن الأغنية على السواء ، واستطاع التأليف أن يحلق على

× زعم فلودزيميرز كامينسكى فى ١٩٦١ أنه وجد أوصافا للكمان فى مخطوطات بولندية ترجع للقرن الرابع عشر ـ لوس أنجيليس تايمز ، ١١ أغسطس ١٩٦١ •

جناحيه هو فى الجديد من المتتاليات ، والتجميعات ، والأشكال . وكان تومازو فيتالى سباقا بسوناتات الكمان التى لم يعرف لها مثيل من قبل فى عنى الابتكار ، والتى أعانت على ارساء تعاقب الحركات السريعة والبطيئة والبسيطة . أما أركانجيلو كوريللى ، فقد مهد الطريق بوصفه مؤلفا وعازفا ماهرا ، للموسيقى الحجرية التى شاعت فى القرن الثامن عشر بسوناتاته التى وضعها للكمان ، وكان له هو وفيتالى فى ايطاليا ، وكوناو وهينريش فون بيبر فى المانيا ، الفضل فى اعطاء السوناتا بناء وشكلا باعتبارها قطعة « تعزف » بالآلات فقط ، مقابل « الكانتاتات » التى هى مؤلفات تغنى بالصوت . وكوريللى هو الذى قـــرر شـــكل « الكونشرتو جروسو » ــ كمانان وفيولنتشيللو واحدة تقود أوركسترا وتريا ــ بألحان بسيطة مشجيه مثل « كونشرتو عيد الميلاد » (١٧١٢) ، ففتح بذلك طريقا لكونشرتو فيفالدى وهندل ومتتابعات باخ الأوركسترية وقد احتفظت ألحان كوريللى بشعبيتها فى القـــرن الثـــامن عشر فترة طالت حتى لقد خيل لبيرنى وهو يكتب حوالى عام ١٧٨٠ أن شـــهرتها ستبقى «ما بقى النظام الحالى للموسيقى مبعث بهجة لآذان البشر(٤٢)»

وكما أصبح كوريللى المؤلف المفضل للكمـــان ، فكذلك هيمـــن أليساندرو شترادیللا على موسيقى هذا العصر الصوتية ، بالأصـــوات الفردية ، والثنائية ، والثلاثية ، والأوراتوريوات . وكانت حياته ذاتها دراما فى الموسيقى ، وقد حولت الى تمثيلية وأوبرا . ذلك أنه أحرز فى عمله مدرسا للغناء بالبندقية نجاحا محزنا . فقد فرت معه لروما احدى تلميذاته الأرستقراطيات ، واسمها أورتنسيا ، مع أنهـــا كانت مخطوبة لعضو الشيوخ البندقى ألفيزى كونتاريني . وأرسل عضـــو الشيوخ فتاكا ليقتلوه . ولكن حين سمعه هؤلاء القتلة المرهفو الحس يرتل الدور الرئيسي فى لحنه « أوراتوريو دى سان جوفانى باتيستا » فى كنيسة سان جوفانى باللاتيرانو ، تأثروا بالموسيقى (كما تقـــول القصة) تأثرا جعلهم يقلعون عن القيام بما كلفوا به ، ويحذرونه هـــو ورفيقته ليلتمسا مخبأ آمنا . وفر العشيقان الى تورينو ، ولكن سرعان ما أشتهر أليساندرو هناك بمؤلفاته وصوته شهرة هددته بالخطر . وأرسل كونتاريني فاتكين لا يهويان الموسيقى ليقتلاه ، فهاجماه ، وتركاه وهما

يحسبانه قد مات . ولكنه أفاق ، وتزوج أورتنسيا ، ورحـل معها الى جنوه . وهناك عثر عليهما مأجورو عضو الشيوخ ، فطعناهما طعنات أودت بحياتهما (١٦٨٢) (٤٣) . وظل الأوراتوريو الذى قيل انه أنقذ حياته محتفظا بشعبيته قرنا كاملا ، وقد مهد السبيل أمام هندل .

وغدت الأبرا الآن هوسا فى ايطاليا . فالبندقية وحدها كان بها ست عشرة دارا للأوبرا فى ١٦٩٩ ، وقد استمعت الى قرابة مائة أوبرا مختلفة بين عامى ١٦٦٢ و ١٦٨٠ (٤٤) . كذلك أقبلت نابلى على هذه الفرجة المشجعة بما يقرب من هذا التهافت . أما فى روما فقد أصبحت الأوبرا رمزا على حركة علمنة الموسيقى السائرة قدما ، وقد ألف كلمنت التاسع نفسه بعض الفكاهيات الموسيقية قبل أن برتقى عرش البابوية (٤٥) . وكان هناك أضمحلال مؤقت فى جودة الأوبرا الايطالية بعد مونتفردى ففقدت الحبكات بعض وقارها ودلالتها ، وازدادت سخفا وعنفا . وطور فرانشسكو كافاللى ، أحد تلاميذ مونتفردى ، اللحن المنفرد باعتبـاره أحلى جزء من العرض ، وسرعان ما طالبت الجماهير بسلسلة من الالحان الدرامية ، وكانت تحتمل فترات الاستراحة بصبر نافد . وقام الخصيان من الغلمان أو الرجال بكثير من أدوار السوبرانو أو الكونترالتو ، ولكن البريمادونات بدأن الآن ينافسن الملكات . ووجه ملتن أغنيات لاتينيـة الى ليونورا بارونى ، وخرجت نابلى على بكرة أبيها لترحب بأم ليونورا ، أدريانا بازيلى ، أعظم المغنيات السوبرانو اثارة للأحاسيس فى زمانها ـ ولعل أجهزة المسرح الآلية بلغت فى هذا العصر الغاية التى ما بعدهـا غاية . يقول مولمنتى أن مسرح سان كاسيانو ، فى بندقية القرن السابع عشر ، كان يستطيع عند الطلب أن يعرض قصرا ملكيـا ، وغـابة ، ومحيطا ، وجبل أوليمب ، والجنة ، ومرة علقت قاعـة رقص كاملة الاضاءة ، بكل أثاثها وراقصيها ، فوق المسرح الثابت ، وكانت تخفض لتستقر عليه أو ترفع لتوارى عن الأنظار حسب مقتضيات القصة (٤٦) . وحاول ماركانطونيو تشستى أن ينقذ الأوبرا من الاغنية ، فأعطى مزيدا من الاتساع والبروز للاستهلال ، ومن المنطق والرصانة للرواية ، ثم نوع الغنـاء يالريستاتيف . وكان تشستى وكوريللى كلاهمـا مبعـوثين موسيقيين ، حملا الأوبرا الايطالية الواحد الى باريس على عهد لويس الرابع عشر ، والآخر الى فيينا على عهد ليوبولد الأول . وهكذا كانت

أوربا شمال جبال الألب ، فى فن الاوبرا ، مستعمرة ايطالية (٤٧) ٠

وكان أبرز ملحنى الاوبرا الآن أليساندرو سكارلاتى ٠ ولقد طغت شهره ابنه دومنيكو اليوم على شهرته ، ولكن اسم « سكارلاتى » كان الى عهد قريب يعنى أليساندرو ، وكان دومنيكو أشبه بتوقيع متعاقب سريع على وتر اسم مشهور ٠ وقد وفد اليساندرو على روما وهو فى الثالثه عشرة ، ودرس حينا على كاريسيمى ، ولحن للكانتاتات ، وحفز همته فن ستراديللا وسيرته ، وفى العشرين أخرج أولى أوبراته المعروفة L'errore innocente (الغلطة البريئة) وقد أعجبت الأوبرا كرستينا ملكة السويد ، فبسطت جناحها على اليساندرو ، وأخرجت أوبراته التالية على مسرحها الخاص ٠ وفى ١٦٨٤ قبل وظيفة « المايسترو دى كابللا » لنائب الملك الأسبانى فى نابلى ، وظل يشغلها ثمانية عشر عاما ، يخرج الاوبرات فى تتابع سريع حتى بلغت عند وفاته على الاقل ١١٤ ، لا يعيش منها اليوم سوى نصفها ، ولعل سوليمينا رسم فى هذه الفترة اللوحة الممتازة التى ترى فى كونسرفاتوريو نابلى الموسيقى — وجه نحيل ، يفيض حساسية ، وتركيزا ، وعزيمة ٠

وجاءت حرب الوراثة الاسبانية فكدرت صفاء نابلى ، وتأخر صرف راتب سكارلاتى كثيرا حتى اضطر للرحيل الى فلورنسة مع زوجته وأسرته ، ولحن وأخرج الأوبرات تحت رعاية الأمير فرديناند ٠ وبعد عام انتقل الى روما رئيسا لفرقة مرتلى الكنيسة للكردينال بييترو أوتوبونى ، وكان كنسيا مرحا مثقفا ، خلف كرستينا قطبا وراعيا للفنون فى روما ، ووزع طاقاته الدنيوية على الفن والأدب والموسيقى والخليلات (٤٨) ٠ وفى ١٧٠٧ ذهب اليساندرو الى البندقية حيث أخرج رائعته Mitridate Eupatore وهى أوبرا تتميز بخلوها تماما من تشويق الحب ٠ فى ذلك العام دانت نابلى للحكم النمساوى ، فدعا نائب الملك سكارلاتى ليعود الى سابق وظيفته ، فوافق ، وأنفق هناك العقد الأخير من حياته ، حين بلغ أوج شهرته ٠

وقد قررت أوبراته أسلوبا دام نصف قرن ٠ جعل الاستهلال مؤلفا هاما لا يرتبط بالأوبرا ، وقسمه الى ثلاث حركات ظلت قياسية حتى

مجيء موتسارت : الالليجرو ، والاداجيو ، والالليجرو . أما اللحـن (الاريا) فأعطاه سيطرته النموذجية فى القرن الثامن عشر وشـكله الاعادى da capo ، الذى يعيد فيه القسم الثالث الأول ، ونفث فيه الحرارة العاطفة ، والحنان ، والتلوين الرومانسي ، وجعله أداة لابداعات المغنين فى العزف والارتجال ، ولكن تكراره قطع الوجدان والحـركة قطعا مفتعلا . وقد قاوم حينا طلب الجماهير للألحـان العاطفيـة ، وأخيرا أذعن ، وظلت دراما الموسيقى خمسين عاما تحظى بألف انتصار دون أن تنتج آثارا قادرة على مغالية تقلبات الذوق . واضمحلت الأوبرا حتى أيقظها جلوك لحياة وشكل جـديدين ، فى فيينـا (١٧٦٢) وباريس ، بجمال أوبرا Orfeo ed Euridice المقيم .

٥ – البرتغال : ١٦٤٠ – ١٧٠٠

حين توج دوق براجانزا ملكا باسم يوحنا الرابع (١٦٤٠) بدأت البرتغال حربا امتدت ثمانية وعشرين عاما لتدافع عن استقلالها الذى استردته من أسبانيا . وقدمت لها فرنسا يد المعونة حتى ١٦٥٩ ، حين وافق مازاران فى صلح البرانس على أن يكف عن مساعدة البرتغال . واتجه الفونسو السادس الى انجلتره طالبا العون . وأوفـدت كاترين أميرة براجانزا الى لندن عروسا لتشارلز الثانى (١٦٦٣) ، حـاملة معها صداقا هو بومباى ، وطنجه ، و ٥٠٠٫٠٠٠ جنيه . وأرسـلت انجلترة الجند والسلاح مقابل ذلك . وبهذه المعونة وغيرها ، وبجهود البرتغاليين وقيادتهم وحسن نظامهم قبل كل شيء ، راحـوا يردون جيوش أسبانيا على أعقابها الواحد تلو الآخر ، حتى اعترفت أسبانيا رسميا بمقتضي معاهدة لشبونة (١٦٦٨) باستقلال البرتغال .

وعزز بيدرو الثانى العـلاقات مع انجلترة بمعـاهدة ميثوين (١٧٠٣) . فوافقت كل من الأمتين على أن تمنح الأخرى تعريفـات تفضيلية ، وعلى أن تستورد البرتغال السلع المصـنوعة من انجـلترة وتستورد النبيذ والفاكهة من البرتغال . وهكذا شربت انجلترة القـرن الثامن عشر نبيذ البورت من أوبورتو ، بدلا من الكلاريت « الصـافى clear » من بوردو . وقد وفر هذا التحالف الاقتصادى للبرتغـال ...اتها الباقية حماية دائمة من أسبانيا وفرنسا .

وفى ١٦٩٣ كشفت مناجم ذهب ميناس جيرايس فى البرازيل ، وسرعان ما غلت لبيدرو الثانى من سبائك الذهب ما أتاح له أن يحكم بعد ١٦٩٧ دون حاجة لدعوة الكورتيز (المجلس التشريعى) للموافقة على منحه المال ، وأن يحتفظ فى لشبونه ببلاط من أفخم البلاطات فى أوربا • على أن الذهب الأمريكى تمخض فى البرتغال عن نفس النتائج التى تمخض عنها فى أسبانيا : فقد استعمل لشراء السلع المصنوعة من الخارج بدلا من تمويل المشاريع الصناعية فى الداخل ، وظل الاقتصاد الوطنى اقتصادا زراعيا كسولا ، وحتى الكروم المحيطة بأوبورتو وقعت فى قبضة الانجليز الذين اشتروها بالذهب البرتغالى الذى حصلوا عليه من التجارة الانجليزية •

وواصل المؤلفون البرتعاليون تنشيط الأدب بالأعمال • من ذلك ان فرانشسكو مانويل دى ميلو اللشبونى التحق بالأفواج الأسبانية الذاهبة الى فلاندر بعد أن درس فى كلية أنتاو اليسوعية ، وخاض معارك عدة كتبت له فيها الحياة ، وقاتل فى صف ملك أسبانيا فى التمرد القتلونى وألف تاريخا له (تاريخ حرب قتلونيا) فى كتاب من عيون الأدب الكثيرة التى أسهم بها البرتغاليون فى الأدب الأسبانى • فلما أعلنت البرتغال تحررها من ربقة أسبانيا عرض خدماته على يوحنا الرابع ، ولقى عرضه ترحيبا ، وجهز أسطولا برتغاليا وتولى قيادته ، ثم وقع فى غرام كونتيسة فيللانوفا الساحرة ، فقبض عليه بايعاز من زوجها ، وقضى تسع سنين فى السجن • فلما أطلق سراحه شريطة أن ينفى الى البرازيل ، ذهب ليعيش فى باهيا (بايا) ، حيث كتب Apologos dialogaes • وسمح له بالعودة فى ١٦٥٩ • فأصدر فى السنين السبع الباقية فى أجله مؤلفات فى الأخلاق والأدب ، وبعض الشعر ، وتمثيلية سبق بها موضوع وفكاهة تمثيلية موليير « البورجوازى مدعى النبل » • ومع أنه كتب بالاسبانية ، فان البرتغال تحسبه بحق أبنا من ألمع أبنائها •

وكاتب آخر هو أنطونيو فييرا ، الذى ولد فى لشبونه (١٦٠٨) ، وأخذ فى طفولته الى البرازيل ، وتلقى العلم على يد اليسوعيين فى باهيا ، وانضم الى طريقتهم ، وأدهش الناس جميعا حين اقترح فى مواعظ وكتيبات بليغة على الحكومات أن تمارس المسيحية • فلما

بعث فى مهمة الى البرتغال (١٦٤١) أثر فى يوحنا الرابع بنزاهة خلقه وتنوع مواهبه تأثيرا حدا به الى تعيينه عضوا فى المجلس الملكى، وهناك شارك بنصيب غير صغير فى التخطيط للانتصارات التى ردت لوطنه استقلاله . ثم هز الافكار الراسخة بالمطالبة باصلاح ديوان التفتيش ، وفرض الضرائب على جميع الناس دون اعتبار للطبقة ، والسماح لليهود بدخول البرتغال ، والغاء التمييز بين « المسيحيين القدامى » و « المسيحيين الجدد » (أى اليهود الذين اعتنقوا المسيحية) . وكان مثالا ، من أمثلة كثيرة ، على حيوية اليسوعيين وتعدد قدراتهم ونزعتهم التحررية المتكررة الظهور .

فلما عاد الى البرازيل (١٦٥٢) ، أرسل مبعوثا الى مارانهاو ، ولكن نقده الصارم لهمجية سادة العبيد وأخلاقهم حملهم على السعى حتى نفى الى البرتغال (١٦٥٤) . ودافع أمام الملك عن قضية الهنود المظلومين ، وحصل على شيء من التخفيف عنهم . فلما عاد الى أمريكا الجنوبية (١٦٥٥) ، أنفق ست سنوات كان فيها « رسول البرازيل » ، يقطع مئات الأميال على الأمازون وروافده ، ويخاطر بحياته كل يوم بين القبائل المتوحشة وأهوال الطبيعة ، ويعلم الوطنيين فنون الحضارة ، ويدافع عنهم ضد سادتهم فى شجاعة حملت هؤلاء أيضا على الحصول على أمر بنقله الى البرتغال (١٦٦١) . وهناك قبض عليه ديوان التفتيش متهما اياه بأن كتاباته تحتوى على هرطقات خطرة وتطرفات تستحق الادانة (١٦٦٥) . وهالته الاحوال فى سجون الديوان ـ اذ رأى خمسة رجال محشورين فى زنزانة عرضها تسعة أقدام وطولها أحد عشر ، لا يدخلها الضوء الطبيعى الا من شق فى السقف ، ولا تغير فيها الأوانى الا مرة فى الأسبوع (٤٩) . وأطلق سراحه بعد سنتين ، ولكنه منع من الكتابة أو الوعظ أو التعليم . فذهب الى روما (١٦٦٩) ، وهناك رحب به كلمنت العاشر وكرمه ، واستهوى الكرادلة والعامة بفصاحته . وعبثا التمست منه كرستينا ملكة السويد السابقة أن يكون مرشدها الروحى . وقد عرض على البابا اتهاما مفصلا لديوان التفتيش باعتباره وصمة على جبين الكنيسة ونكبة على رفاهية البرتغال . وأمر كلمنت بأن تحال الى روما كل القضايا المعروضة.

على ديوان التفتيش البرتغالى ، وعطل انوسنت الحادى عشر تلك الهيئة خمس سنوات .

وأحس فييرا بوحشة للهنود رغم انتصاراته ، فابحر مرة أخرى الى البرازيل (١٦٨١) ، وجاهد هناك معلما ومرسلا يسوعيا حتى أدركته الوفاة وهو فى التاسعة والثمانين . وتحتوى مؤلفاته التى يضمها سبعة وعشرون مجلدا ، على الكثير من الألغاز الغيبية ، ولكن عظاته النى فورنت بعظات بوسوية ، وضعته فى صف « فحول اللغة البرتغالية (٥٠) » ، وخدماته وطنيا ومصلحا حملت الشاعر البرونستنتى صذى على أن يسلكه فى عداد أعظم ساسة وطنه وزمانه (٥١) .

٦ ـ انهيار أسبانيا : ١٦٦٥ ـ ١٧٠٠

كانت أسبانيا فى ١٦٦٥ لا تزال أعظم الامبراطوريات فى العالم المسيحى . حكمت الأراضي المنخفضة الجنوبية ، وسردانيا ، وصقلية ، ومملكة نابلى ، ودوقية ميلان ، ومساحات شاسعة فى أمريكا الشمالية والجنوبية . ولكنها كانت فد فقدت القوة البحرية والحربية اللازمة للسيطرة علىتجارة هذا الملك المبعثر ومصيره . وكانت أساطيلها الثمننة قد دمرها الانجليز (١٥٨٨) والهولنديون (١٦٣٩) ، وهزمت جيوسها هزائم فاصلة فى روكروا (١٦٤٣) ولينز (١٦٤٨)، واعترف دبلوماسيوها فى صلح البرانس (١٦٥٩) بانتصار فرنسا ، وكان اقتصادها يعنمد على ندفق الذهب والفضة من أمريكا ، وهذا التدفق كان يقطعه المرة بعد المرة الأسطول الهولندى أو الانجليزى . ونقلصت تجارتها وصناعاتها لاعتمادها على الذهب الأجنبى واحتقار شعبها للمتاجرة . وكان الكثبر من التجارة الاسبانية يحمل فى سفن أجنبية . ونقص عدد السفن الاسبانية العاملة بين أسبانيا وأمريكا ٧٥ ٪ فى عام ١٧٠٠ عنه فى عام ١٦٠٠ . وكانت البضائع المصنوعة تستورد من انجلتره وهولنده ، ويدفع ثمن جزء منها فقط بتصدير النبيذ أو الزيت أو الحديد أو الصوف ، والباقى يدفع سبائك ذهبية ، ومعنى ذلك أن الذهب الامريكى انما كان يمر مرورا بأسبانيا والبرتغال فى طريقه الى انجلتره وفرنسا والاقاليم المتحدة . وكانت قرطبة وبلنسية

فى حالة اضمحلال واع برم بعد شهرتها الماضية بحرفها . وكان طـرد المغاربة قد آذى الزراعة ، وغش العملة المرة بعد المرة أربك المالبـة . وبلغت حال الطرق من السوء وحال النقل من التخلف مبلغا وجدت معه المدن القريبة من البحر ، أو الواقعة على أنهار صالحة للملاحـة ، أنه أرخص لها أن تستورد البضائع ، حتى الغلال ، من الخـارج عن أن تجلبها من مصادرها فى أسبانيا . وحاولت الضرائب الباهظة ، بمـا فيها ضريبة بيع ارتفعت الى ١٤ ٪ ، أن تمول حروب أسبانيا ضد أعداء استعصت هزيمتهم الى حد لا يصدق ، رغم الافتراض بأنهم ملعونون من الله . وهبط مستوى المعيشة هبوطا حمل أعدادا لا تحصي من الاسبان على هجر مزارعهم ومتاجرهم وأخيرا وطنهـم . وارتفعت وفيـات الأطفال ، ويبدو أنه كان هناك بعض التحديد الماكر لعـدد أفـراد الأسرة . فقد أصبح آلاف الرجال والنساء رهبانا عقيمين أو راهبـات وانطلقت آلاف أخرى للمغامرة فى أراض نائية . وفقدت اشـبيليه ، وطليطلة ، وبرجوس ، وسقوبية بعض سكانها . وهبط سـكان مدريد فى القرن السابع عشر من ٠٠٠ر٤٠٠ الى ٠٠٠ر٢٠٠ (٥٢) لقد كانت أسبانيا تموت من مرض الذهب .

وفى وسط الفقر المنتشر المتكاتف كدست الطبقات العليا ثروتهـا وعرضتها على الأنظار . وأمسك النبلاء ، الذين طال اثراؤهم باستغلال الأهالى أو بالكنوز المستوردة ، عن استثمار ثروتهم فى الصـناعة أو التجارة ، وراحوا يبهرون أبصار بعضهم البعض بالجواهر والمعـدن النفيس ، وبالملاهى الغالية والأثاث الفخم . من ذلك أن دوق ألفا كان يملك ٢٠٠ر٧ من صحاف الفضة و ٦٠٠ر٩ من الآنية الفضية الأخرى ، وأن أمير ستليانو صنع لزوجته محفة من الذهب والمرجان بلغ ثقلهـا حدا لم يسمح باستعمالها . كذلك احتفظت الكنيسة بغناها ، واستكثرت منه (٥٣) ، وسط الفاقة المحيطة بها . ورأى رئيس أساقفة سـنتياجو أن يبنى كنيسة كاملة من الفضة ، فلما ثنـوه عن ذلك بناهـا كلهـا بالرخام (٥٤) . لقد كان دم الشعب تربة الثروة ومجد الله .

أما ديوان التفتيش فكان على عهدنا به من شدة البأس ، بل أشد بأسا من الحكومة . وقلت الإحتفالات التى يصدر فيها الحـكم بالموت على المهرطقين عن ذى قبل ، لا لشيء الا لأن الهرطقة كانت قد أبيدت

حرقا . وكانت القيود التى أعجزت الكاثوليك فى انجلتره لا تقاس بما يلقاه البروتستنت من أخطار فى أسبانيا . وعجز كromويل عن حماية التجار الانجليز هناك . وقبض ديوان التفتيش فى ١٦٩١ على الخادم البروتستنتى للسفير الانجليزى ، وفى تلك السنة نبش الشعب جثة القسيس الأنجليكانى الخاص بالسفير ومثل بها تمثيلا . واستمر حرق اليهود المتنصرين الذين اتهموا بأنهم يضمرون يهوديتهم . وبنى ديوان التفتيش لنفسه فى ميورقه قصرا جميلا من الثروة التى صادرها فى تحقيق واحد (٥٥) . وكانت الجماهير تؤيد بحرارة هذه المحرقات وان حاول كثير من النبلاء تثبيطها . فلما أعرب شارل الثانى فى ١٦٨٠ عن رغبته فى أن يشهد احتفالا بحرق المهرطقين ، تطوع صناع مدريد بأن يبنوا مدرجا للمشهد المقدس ، وفى أثناء قيامهم بالعمل كانوا يشجعون بعضهم بعضا على الاسراع والاجتهاد بألوان من الحض الدينى ، لقد كان حقا جهدا من جهود المحبة . وحضر شارل وعروسه الشابة فى كل أبهة الملك ، وحوكم ١٢٠ سجينا ، وأحرق واحد وعشرون حتى الموت فى مرجل فى الميدان الكبير ، وكان هذا أعظم وأفخم احتفال بحرق المهرطقين فى تاريخ أسبانيا ، ونشر كتاب من ٣٠٨ صفحة يصف الحدث ويخلد ذكراه (٥٦) . وفى ١٦٩٦ عين شارل « هيئه كبرى » لفحص مفاسد ديوان التفتيش ، فقدمت تقريرا أماط اللثام عن شرور كثيرة وأدانها ، ولكن الرئيس العام للديوان اقنع الملك بأن يلقى بهذا « الاتهام الرهيب » فى زوايا النسيان . فلما طلبه فليب الخامس فى ١٧٠١ لم يعثر على نسخة منه (٥٧) . على أن الديوان خفف من غلوائه بعد ذلك وقلل من حرائقه .

أما الكنيسة فقد حاولت آن تفتدى ثروتها وتدعم الايمان بتمويلها للفن. وفى ١٦٧٧صمم فرانشسكو دى هيريرا ايلموزو كتدرائية سرقسطة الثانية التى سميت « ديل بيلار » لأنها تفاخر بعمود اعتقد الناس أن العذراء نزلت عليه من السماء . وجاءت العمارة الباروكية الآن الى أسبانيا ، وبين عشية وضحاها تحول المزاج الاسبانى من الاكتئاب القوطى الى الاسراف الزخرفى . وأشهر المعماريين هنا خوزى شوريجويرا ، وقد أصبح لفظ « شوربجويريسكا » حينا علما على الباروك الاسبانى . ولد فى سلمنقه عام ١٦٦٥ ، وأبدى نشاطا مفرطا

فى العمارة والنحت وصناعة الاثاث والتصوير • فلما وفد على مدريد فى الثالثة والعشرين دخل فى مسابقة لتصميم نعش لجنازة الملكة ماريا لويزا ، ففاز بالجائزة ، وتوطدت شهرته بالبراعة الزخرفية العربية بفضل هذا البناء المختلط (٥٨) ، المؤلف من أعمدة عجيبة الشكل وكرانيش مكسرة ، والمزين بالهياكل العظمية والعظام المتقاطعة والجماجم • ثم عاد الى سلمنقة حوالى ١٦٩٠ ، وظل يكد فيها عشر سنين ، يزخرف الكتدرائية ، ويبنى المذبح العالى فى كنيسة القديس اسطفان ، والبهو الفخم فى مجلس المدينة • وفى مدريد صمم قرب ختام حياته واجهة كنيسة القديس توما ، ولما مات (١٧٢٥) ترك استكمال البناء لولديه جيرونيمو ونيقولا ، وفى أثناء اشتغالهما بهذه العمليات سقطت القبة فوق رءوس الكثير من العمال والمصلين فسحقتهم • وهاجر الى المكسيك لون معتدل نوعا ما من باروك شوريجويرا ، وهناك أثمر بعض المبانى التى تعد من أجمل ما شيد فى أمريكا الشمالية •

وظل النحت تعبيرا قويا عن الروح الاسبانية • وكان مصدر هذه القوة أحيانا واقعية شاذة ، كما نراها بتفصيل دموى فى رأس يوحنا المعمدان أو غيره من القديسين مقطوعى الرءوس • وكان متحف بلد الوليد يحتفظ برأسين من هذا النوع للقديس بولس (٥٩) • وظلت حجب المذبح لونا أثيرا من ألوان الفن ، فنرى بيدرو رولدان ينحت الحجب الكبرى فى كنيسة الأبرشية الملحقة بالكتدرائية ، وفى مستشفى دى لا كاريداد فى اشبيلية ، وابنته لويزا رولدانا ، مثاله أسبانيا الفذة تنحت فى كتدرائية قادس مجموعة تماثيل تتركز حول « نوسترا سينورا دى لاس أنجوستياس » (سيدة الأحزان) • وهيمن بيدرو دى مينا على العصر بتماثيل عراياه (وما أندرها فى الفن الاسبانى) ، وتماثيل السيدة العذراء ، ومقاعد المرتلين فى كتدرائية ملقا ، ويعد تمثاله « سا نفرانسسكو » فى كتدرائية اشبيلية من أروع أمثلة النحت الأسبانى • وحوالى نهاية القرن السابع عشر أدرك هذا الفن ما أدرك غيره من تدهور عام • فأثقلت الحشوات بالزخارف ، وزودت التماثيل بأجهزة آلية لتحريك الرأس والعينين والفم ، وأضيف الشعر والملابس الحقيقية ، واللون دائما ، فى جهد للوصول الى أبسط التصور والذوق الجماهيريين •

وولى عصر العمالقة فى التصور الاسبانى ، ولكن

بقى الكثير من صغار الأبطال . فكان خوان كارينو دى ميراندا ، الذى خلف فيلاسكويز مصورا للبلاط ، محبوبا كسلفه تقريبا ـ رجلا متواضعا لطيفا ، يبلغ به الاستغراق فى عمله مبلغا ينسيه أحيانا هل أكل أو لم يأكل . وقد سرت صوره لشارل الثانى وحاشيته الملك الشاب حتى عرض عليه لقب الفروسية وصليب سنتياجو ، ولكن كارينو رفض هذا التشريف لأنه رآه فوق ما يستحق . وفى تلك الأيام ابتهجت مدريد بقصة « الكنتاريللو دى مييل » (برطمان العسل) . وتفصيل ذلك أن فنانا مغمورا يدعى جريجوريو أوتاندى رسم لوحة للراهبات الكرمليات طلب عليها أجرا مائة دوكاتية ، فاستكثرن عليه الأجر ، ولكن وافقن على تحكيم كاربنو . وقبل أن يسمع كارينو بالأمر ، أهداه أوتاندى برطمان عسل ، ورجاه فى أن يضع اللمسات الأخيرة للوحة . ففعل ، وتحسنت الصورة كثيرا . ودهش كارينو حين طلبت اليه الراهبات تقييمها . فرفض ، ولكن فنانا ثالثا قدرها بمائتى دوكاتية ، وكتم السر حتى دفع الثمن .

وفى ختام حياته يسر كارينو سبيل النجاح لأحد خلفائه ، وهو كلوديو كويللو ، الذى ظل يرسم آناء الليل وأطراف النهار دون أن يحقق نتائج ذات بال . فصادقه كارينو ، وحصل له على اذن بأن يدرس وينسخ أعمال تنسيانو وروبنز وفانديك فى قاعات الفن الملكية . وأعانت هذه التجربة كلوديو على النضج ، وفى ١٦٨٤ ، وقبل موت كارينو بعام ، عين كويللو مصورا للملك . وقد أحرز الشهرة فى وطنه بلوحته « ساجرادا فورما » أى القربانه المقدسة ، التى ظهرت فيها هده القربانة تقدم الى شارل الثانى لوضعها على مذبح فى الاسكوريال. والاسطورة التى من وراء الصورة تعبر عن مزاج أسبانيا . تقول الرواية انه فى أثناء الحرب مع الهولنديين داس بعض الكلفنيين الفجرة قطعة من خبز القربان المقدس تحت أقدامهم ، وسالت من القربانة المصابة قطرات من دم ، هدت للتو أحد مدنسيها الى الكاتوليكية ، وحملت القربانة التى استنقذت الى فيينا فى احترام واجلال ، وأرسلت هدية الى فيليب الثانى ، ومنذ ذلك التاريخ وهى تعرض دوريا ، ملطخة بدم المسيح على العابدين الخاشعين . وصور كويللو الملك وكبار حاشيته راكعين فى تعبد أمام الخبز المعجز . وظهر فى الصورة نحو خمسين

شخصا ، كلهم تقريبا صاحب شخصية متميزة ، وقد رتبوا فى منظور ذى عمق خداع للبصر بشكل ملحوظ (٦٠) • بعد هذا العمل الذى اقتضاه الفراغ منه عامين ، أصبح كويللو سيد الفنانين قاطبة فى العاصمة غير منازع • وبعد ست سنوات (١٦٩٢) حجبه بغته وصول لوكا فاريريستو جوردانو من ايطاليا ، وكلف لوكا على الفور بالدور الأول فى زخرفة الاسكوريال من جديد • وزاد لوكا الطين بلة بامتداحه صور كلوديو • وأنهى كويللو الصور التى كلف بها ، ولكنه ألقى فرشاته جانبا • وبعد عام من وصول جوردانو مات كويللو وهو بعد فى الحادية والخمسين ، وفيل قهرا وغيرة (٦١) •

وخلال ذلك شهدت اشبيلية ميلاد ووفاة (١٦٣٠ - ٩٠) آخر فنان عظيم فى التصوير الأسبانى قبل جويا ، وهو خوان دى فالديس ليال • وكان مثل كويللو برتغالى الأبوين أسبانى المولد • وبعد أن أنفق سنوات فى قرطبة ، رحل الى اشبيلية ليتحدى تفوق موريللو • وكان فيه من الكبرياء ما لم يسمح له بأن يقدم لرعاته الجمال الناعم لعذارى (مادونات) محتشمات • وقد صور العذراء فى صعودها ، ولكنه وضع قلبه وقوته فى صور أخرى لا تعرف هوادة فى الغض من لذات الحياة والايماء الى الموت الذى لا مهرب منه • فرسم القديس انطونيوس يتولى فى هلع عن فتنة النساء (٦٢) • وصورت لوحته « ان اكتو أوكولى » (أى فى طرفة عين) الموت هيكلا عظميا يطفىء شمعة الحياة التى يكشف ضوءها القصير الأجل ، فى فوضى إختلطت على أرض الحجرة ، عدة الاطماع الدنيوية ومجد العالم - الكتب ، والسلاح ، وتاج أسقف ، وتاج ملك ، وسلسلة لطائفة « الفروة الذهبية » • وفى صورة مغايرة تدور حول هذه الفكرة أرانا ليال حفرة مقبرة تبعثرت فيها الجثث والهياكل والجماجم ، ومن فوقها كلها يد جميلة تمسك بميزان تحتوى احدى كفتيه على شعارات فارس ، والأخرى على شارات أسقف ، والكفة الأولى كتب عليها « نيماس » أى لا أكثر ، والثانية « نيمينوس » أى لا أقل - فرجال الدنيا ورجال الدين على السواء وجدوا ناقصين فى موازين الله • ورأى موريللو أول الصورتين ، فقال لفالديس « انها أيها الزميل صورة لا يستطيع المرء أن ينظر اليها دون أن يمسك بأنفه (٦٣) » - وهى عبارة يمكن أن تفسر بأنها ثناء على واقعية المصور ، أو رد فعل عقل سليم للفن المنحط •

ذلك أن الانحطاط كان سمة للعهد ، فلم يشرفه أديب عظيم ، ولم تعرض على مسرحه تمثيلية فذة ٠ أما الجامعات فكانت تنزوى وسط الخراب والظلامبة السائدين ، ففى جامعة سلمنقة هبط عدد الطلاب فى هذه الفترة من ٧٫٨٠٠ الى ٢٫٠٧٦ (٦٤) ٠ وجاهد ديوان التفتيش وقائمة الكتب المحرمة بنجاح ليقصيا عن أسبانيا كل أدب يسيء الى الكنيسة ، وظلت أسبانيا طوال قرن توصد أبوابها كأنها صومعة عابد فى وجه حركات الذهن الأوربى ٠ وتربع الانحطاط بشخصه على عرش الملك رمزا للعهد ٠

وبيان ذلك أن شارل الثانى أصبح ملكا وهو بعد فى الرابعة (١٦٦٥) وفى سنى حداثته كانت أمه الملكة ماريانا تحكم البلاد اسما ، أما حاكمها الفعلى فكان كاهن اعترافها اليسوعى يوهانز ابرهارد نيذارد ، ثم عشيقها فرناندو فالنزويلا ٠ وتفاقمت الفوضى ، وكانت الوزاره الكفء التى تولاها دون خوان نمساوى آخر ، أقصر أجلا من أن توقف الانحلال ٠ وفى ١٦٧٧ تقلد الملك ذو الستة عشر عاما الحكم وجلس عاجزا على قمة هذا الصرح المنهار ٠ ولعل التزاوج المتصل بين أفراده أسرة هابسبورح أسهم فى ضعف بدنه وعقله ٠ وكانت الذقن الهابسبورجية فى شارل بارزة بروزا أعجزه عن مضغ طعامه ، ولسانه من الكبر بحيث لم يكد كلامه يفهم ٠ وظل الى العاشرة يعامل كأنه طفل يحمل بين الذراعين ٠ وكان لا يكاد يستطيع القراءة ، ولم يتلق من التعليم الا القليل ، وكان أعز ميراثه خرافات مذهبه وأساطيره ٠ ويصفه مؤرخ أسبانى كبير بأنه « عليل ، أبله شديد التعلق بالخرافات» ، وكان « يعتقد انه ممسوس ، وكان ألعوبه لأطماع كل من أحاطوا به (٦٥) » ٠ وقد تزوج مرتين ، ولكن « كان من المعروف للجميع أنه لا يستطيع توقع الخلف (٦٦) » ٠ هذا القصير الأعرج ، المصروع ، الخرف ، المصلع تماما قبل أن يبلغ الخامسة والثلاثين ، كان دائما على شفا الموت ، ولكنه حير العالم المسيحى المرة بعد المرة ببقائه على قيد الحياة ٠

وأصبح تفكك أوصال أسبانيا الآن مأساة أوربية ٠ فقد ازدادت الحكومة اقترابا من الافلاس برغم الضرائب والتضخم واستغلال المناجم

الامريكية حتى عجزت عن دفع فوائد دينها ، وحتى المائدة الملكيـــة اضطرت الى التقتير فى خدمة الملك . أما البيروقراطية الادارية التى قلت رواتبها فكانت فاسدة متراخية . واستبد الفقر بالناس حتى كانوا يقتتلون للحصول على الخبز ، وسطت عصابات من الجياع على البيوت لتسرق وتقتل ، وكان عشرون ألف شحاذ يجوبون شوارع مدريد . أما رجال الشرطة العاجزون عن الحصول على رواتبهم فقد تشتتوا وانضموا الى المجرمين .

ووسط الفوضي والقلق والخراب واجه الملك المسكين ، الكسيح ، نصف المعتوه ، الشاعر بدنو أجله ، فى حيرة وتذبذب ، مشكلة الفصل فى وراثة عرشه . واذ كان سلطانه من الناحية النظرية مطلقا ، فان سطرا واحدا بخطه كان يكفى للتوصية بامبراطوريته التى تمتد رقعتها في أربع قارات ، اما للنمسا واما لفرنسا . وانتصرت أمه للنمسا ، ولكن شارل كان يكره تآمرها كما يكره جشع زوجته الالمانية الخبيث . وذكره السفير الفرنسي بأنه ما دام صداق عروس لويس الرابع عشر الأسبانية لم يدفع بعد ، فان تنازلها عن الوراثة قـد بطـــل ، وكان لويس يلح مطالبا بحقوقها ، ويملك القوة لفرض مطلبه . فلو أن شارل داس هذه الحقوق لا شتعلت أوربا بنيران الحرب ، وربما تمزقت أسبانيا اربا فى هذا الصراع . وانهار شارل تحت وطأة اتخاذ القرار ، وبكى واشتكى من أن ساحرة قد ابتلته بخطوب لا قبل له بتحملها . وبينما كان يستمع الى الحجج التى زادته اختلاطا حاصر مثيرو الشغب قصره صائحين فى طلب الخبز .

وفى سبتمبر ١٧٠٠ لزم شارل فراش الموت وكسب الحزب الفرنسي، وهو أحد الأحزاب التى أحاطت به ، رئيس أســاقفة طليطلة - وكان كبير أساقفة أسبانيا - الى صفه ، وقد لازم الملك المحتضر ليل نهـار ، وذكره بأن لويس الرابع عشر وحده يملك من القوة ما يتيح له الحفاظ على الامبراطورية الاسبانية سليمة واســتخدامها معقــلا للكنيســة

الكاثوليكية . ونصح البابا انوسنت الثانى عشر شارل بتفضيل فرنسا ، وذلك تحت الحاح لويس . وخيرا أذعن شارل ، ووقع الوصية المشئومة التى خلف فيها كل ممتلكاته لفيليب دوق أنجو ، حفيد ملك فرنســـا (٣ اكتوبر ١٧٠٠) . وفى أول نوفمبر مات شارل ، غير متجـــاوز التاسعة والثلاثين ، وكأنه شبخ فى الثمانين . وهكذا كانت خاتمة فرع الهابسبورج الاسبانى فى غروب شاعت فيه حمرة الحرب الداهمة .

الفصل السادس عشر

الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية
١٥٦٤ ــ ١٧١٥

١ ــ الصـــفارديم ×

ان بقاء اليهود أحياء بعد تسعة عشر قرنا من الشدة والثأر أشبه بلحن كئيب فى تاريخ الجهل ، والكراهية ، والشجاعة ، والمرونة . ذلك أنهم بعد أن حرموا الوطن ، وأكرهوا على التماس الملجأ فى جيوب عنصرية بين أعداء عتاة ، وتعرضوا فى كل لحظة للاهانة والظـــلم ، وللمصادرة أو الطرد و المذابح الفجائيـة ، دون أن يكون لهم ســـلاح يدافعون به عن أنفسهم سوى سلاح الصـــبر والمكر والتصميم اليـائس والايمان بدينهم ــ فانهم عاشوا مغالبين خطوبا وشدائد لم يقـــو على مغالبتها شعب آخر فى التاريخ ، ولم تتحطم ارادتهم قط ، ومن فقرهم وحزنهم أنجبوا شعراء وفلاسفة بعثوا ذكرى المشـــترعين والأنبيـــاء العبرانيين الذين وضعوا الاسس الروحية للعالم الغربى .

وكان استئصال شأفة اليهود فى أسبانيا الآن كاملا تقريبا ، فلم يكن لهم من بقاء الاكتيار مختبىء فى الدم الاسبانى ، حتى أن أسقفا أسبانيا استطاع أن يعرب عام ١٥٩٥ عن ارتياحه لأن اليهـود المتنصرين أمكن استيعابهم بنجاح بطريق التزاوج بينهم وبين المسيحيين ، وأن أخلافهم الآن مسيحيون أتقياء (٢) . ولكن ديوان التفتيش لم يوافقه على رأيه هذا ففى ١٦٥٤ أحـرق عشرة رجـــال فى كوينكا واثنـــا عشر فى غرناطة ، وفى ١٦٦٠ قبض على واحد وثمانين فى اشبيلية ، وأحرق سبعة ، بتهمة التمسك سرا بالشعائر اليهودية (٣) .

× ترد لفظة « صفارد » فى النوراة (١) اسما لاقليم فى غربى آسيا انزل فيـه المنفيون اليهود بعد استيلاء البابليين على أورشليم . وفى تاريخ لاحق أصبحت الكلمة اصطلاحا عبريا على أسبانيا ، فاصبح اليهود من أصـــل اســـبانى أو برتغالى يسمون الصفارديم .

وفى البرتغال ، علي الأخص ، واصل الكثير من المتنصرين فى الظاهر (الكونفرسو conversos أو المارانو) ممارسة اليهودية ونقلها فى عزلة بيوتهم ، ووقع أكثر من مائة منهم ضحايا لديوان التفتيش لأنهم مرتدون (relapsos) بين عامى ١٥٦٥ و ١٥٩٥ (٤) — ووجد اليهود المتسرون مكانا قلقا فى الحياة البرتغالية كتابا ، وأساتذة ، وتجارا ، وماليين ، بل ورهبانا وقسيسين ، على الرغم من كل أخطار الكشف عن حقيقتهم . وكان ألمع الأطباء يهودا متخفين ، وفى لشبونة طورت أسرة منديس شركة مصرفية من أعظم الشركات فى أوربا .

وبعد أن اندمجت البرتغال فى أسبانيا (١٥٨٠) ، زاد نشاط ديوان التفتيش البرتغالى ، ففى السنين العشرين التالية أقيم خمسون احتفالا لادانة المهرطقين ، وحكم على ١٦٢ بالاعدام ، وعلى ٢٫٩٧٩ تائبا بالعقوبات التكفيرية ، وأحرق فى لشبونة (١٦٠٣) راهب فرنسسكانى يدعى دبوجودا أسومساو ، يبلغ الخامسة والعشرين ، بعد أن اعترف باعتناقه اليهودية (٥) . وهاجر الى أسبانيا الكثير من المارانو بعد أن وجدوا ديوان التفتيش البرتغالى أشد وحشية من نظيره الأسبانى . وفى ١٦٠٤ ، بفضل رشوة قدرها ١٫٨٦٠٫٠٠٠ دوكاتية دفعوها لفيليب الثالث ، ورشا أقل لوزرائه ، أقنعوا الملك بأن يحصل من البابا كلمنت الثامن على مرسوم يأمر فيه قضاة التفتيش البرتغاليين بأن يفرجوا عن جميع المارانو المسجونين ويفرضوا عليهم عقوبات روحية فقط . فأطلق فى يوم واحد (١٦ يناير ١٦٠٥) سراح ٤١٠ من هؤلاء الضحايا . ولكن مفعول هذه الرشا وأمثالها كان يضعف بمضي الوقت . ولم يلبث الارهاب البرتغالى أن عاد سيرته الاولى عقب موت فيليب الثالث (١٦٢١) . ففى ١٦٢٣ قبض على مائة من « المسيحيين المحدثين » فى بلدة مونتمور أو نوفو . وفى كوامبرا ، مركز المملكة الثقافى ، قبض على ٢٤٧ فى ١٦٢٦ ، وعلى ٢١٨ فى ١٦٢٩ ، وعلى ٢٤٧ فى ١٦٣١ . وخلال عشرين عاما (١٦٢٠ — ٤٠) أحرق ٢٣٠ يهوديا برتغاليا شخصيا ، و ١٦١ دمية تمثلهم بعد أن هربوا ، و « صولح » ٤٫٩٩٥ بعقوبات أخف (٦) . وفر آلاف المارانو من البرتغال كما فروا من قبل من أسبانيا ، مخاطرين بحياتهم وتاركين ثروتهم خلفهم الى أركان المسكونة كلها .

والتمست الكثرة العظمى من منفيبى الصـــفارديم ملاذا فى بلاد المسلمين ، وكونوا أو انضموا الى مستوطنات يهودية فى شمال أفريقية وسالونيك ، والقاهرة ، والآســتانة ، وأدرنة ، وأزمير ، وحلب ، وايران . فى هذه المراكز تعرض اليهود لقيود سياسية واقتصادية ، ولكن ندر أن تعرضوا لاضطهاد بدنى . وبلغ اليهود مكانة مرموقة لا بوصفهم اطباء فحسب ، بل مشاركين فى شئون الدولة . من ذلك أن يوســف ناصي ، أحد المارانو كان مقربا لســليم الثانى ، وكان بصــفته دوق ناكسوس (١٥٦٦) يتسلم ايراد عشر جزر فى الأرخبيل(٧) . وكان يهودى ألمانى يدعى سليمان بن ناتان أشكنازى ســفيرا لتركيــا فى فيينا فى ١٥٧١ ، ودخل فى مفاوضات هناك لابرام صلح أنهى الحرب حينا مع الباب العالى .

أما فى ايطاليا فان حظوظ اليهود كانت بين صعود وأفول تبعــا لحاجات الادواق والبابوات وأمزجتهم . ففى ميلان ونابلى ، وكلاهمــا كانت تحكمه أسبانيا ، كادت الحياة تستحيل عليهم ، وفى عام ١٦٦٩ طردهم مرسوم صريح من جميع الممتلكات الاســبانية . أما فى بيزا وليفورنو (لجهورن) فقد منحهم كبار الأدواق التوسكانيون الحــرية الكاملة تقريبا ، لحرصهم على تنمية تجارة هذين الثغرين الحرين . وصدر فى ١٥٩٣ مرسوم للتجار فى هاتين المدينتين كان فى حقيقتــه دعوة موجهة للمارانو « نود الا يقوم أى ... تحقيق دينى ، أو افتقاد ، أو تنديد ، أو اتهام . ضدكم أو ضد أسركم ، حتى ولو كانوا فيما مضى يعيشون خارج أملاكنا متخفين كمســيحيين ، أو تســموا بأســماء المسيحيين (٨) » ونجحت الخطة ، وازدهرت ليفورنو ، واشــتهرت جاليتها اليهودية - التى لم تفقها عددا سوى حالبتى رما والبندقيــة - بثقافتها كما اشتهرت بثرائها .

أما مجلس شيوخ البندقية فكان يطرد اليهود المرة بعد المرة خوفا من علاقاتهم بتركيا ، ويسمح لهم المرة بعد المرة بالعودة باعتبارهــم عنصرا ذا قيمة لا فى التجارة والمالية فحسب بل فى الصناعة أيضــا ، فقد استخدمت المشاريع اليهــودية فى البندقيــة أربعــة آلاف عامل مسيحى (٩) . واستوطنها اليهود الألمان والشرقيون كما اســتوطنها اليهود الصفارديم ، وبسط مجلس الشيوخ عليهم حمايتــه من ديوان

التفتيش • وكانوا كلهم تقريبا يعيشون فى حى اليهود ، « الجوديكا »، ولكنهم لم يلزموا بسكناه ، وكان هذا « الغيت ghetto » يضم الكثير من الأسر الغنية ، والبيوت الجميلة ، ومجمعا مؤثثا تاثيثا فاخرا بنى فى ١٥٨٤ ، ثم أعيد بناؤه فى ١٦٥٥ باشراف المعمارى الشهير بلداسارى لونحينا • وكان يهود البندقية الستة الآلاف أرقى ثقافة من أى جالية يهودية فى هذا العصر •

واستقرت فى فرارا حوالى ١٥٦٠ مستوطنة من المارانو القادمين أصلا من البرتغال ، ولكنها شتتت فى ١٨٥١ بأمر البابا ، الذى فعل هذا تحت ضغط ديوان التفتيش البرتغالى • وفى مانتوا كان أدواق جونزاجو يحمون اليهود ، ولكنهم يسلبونهم دوريا بالتبرعات و « القروض » ؛ وفى ١٦١٠ أجبر جميع يهود مانتوا على مسكنى حى مسور لليهود تقفل بواباته عند الغروب وتفتح فى الفجر (١٠) • فلما تفشي الطاعون فى مانتوا اتهم اليهود بأنهم هم الذين جلبوه اليها ، وحين استولى جنود الامبراطور على المدينة ابان حرب الوراثة المانتوية ، نهبوا حى اليهود تماما ، واغتصبوا ٨٠٠ر٠٠٠ سكودى جواهر ونقودا ، وأمروا اليهود أن يرحلوا عن مانتوا خلال ثلاثة أيام غير آخذين من مقتنياتهم الا ما يستطيعون حمله (١١) •

أما فى روما ، حيث درج البابوات من قبل على حماية اليهود ، فانهم بعد عام ١٥٦٥ (باستثناء سيكستوس الخامس) أصدروا سلسلة طويلة من المراسيم المعادية لهم • فأمر بيوس الخامس (١٥٦٦) جميع السلطات الكاثوليكية بأن تطبق تطبيقا كاملا كل ما فرض على اليهود من قيود وحدود دينية • فلا بد منذ الآن أن يقصروا على أحياء معزولة عزلا ماديا عن السكان المسيحيين ، وعليهم أن يلبسوا شعارا أو ثوبا مميزا ، ولاحق لهم فى تملك الأرض ، ولا فى أن يكون لهم أكثر من مجمع واحد فى أية مدينة • وفى ١٥٦٩ ، بمقتضي مرسوم بابوى اتهم اليهود بالربا ، والقوادة ، والشعوذة ، وفنون السحر ، أمر بيوس الخامس بطرد جميع اليهود من الولايات البابوية فيما عدا مدينتى أنكونا وروما (١٢) • وحرم جريجورى الثالث عشر (١٥٨١) على المسيحيين استخدام الأطباء اليهود ، وأمر بمصادرة الكتب العبرية ، ووجدد (فى ١٥٨٤) الزام اليهود بالاستماع الى مواعظ هدفها هدايتهم

الى المسيحية . وأنهى سبكسنوس الخامس هذا الاضطهاد بعض الوقت . ففتح حى اليهود (١٥٨٦) ، وسمح لليهود أن يسكنوا أنى شاءوا فى الولايات البابوية ، وأعفاهم من ارتداء أى شارة أو لباس مميز ، وأذن لهم بطبع التلمود وغيره من المؤلفات العبرية ، ومنحهم حرية العبادة كاملة ، وأمر المسيحيين بان يعاملوا اليهود ومجامعهم بالاحترام والرأفة (١٣) . ولكن هذه البابوية المسيحية كانت قصيرة الأجل ، فقد جدد كلمنت الثامن مرسوم الطرد (١٥٩٣) . وما حل عام ١٦٤٠ حتى كان جميع يهود ايطاليا تقريبا يسكنون الغيت ، فاذا بارحوه كان عليهم أن يلبسوا شارة تدل على سبطهم ، وحرموا من الاشتغال بالزراعة أو الانتماء الى الطوائف الحرفية . وقد وصف مونتينى أثناء جولته فى روما عام ١٥٨١ كيف كان اليهود فى السبت يلزمون بارسال ستين من شبابهم الى كنيسة ستانجبلو فى بسكيريا ليستمعوا الى عظات تحضهم على اعتناق المسيحية (١٤) . وقد شهد جون ايفلين احتفالا كهذا فى روما (٧ يناير ١٦٤٥) ، ولاحظ أن « الاهتداء أمر نادر جدا » وكان كثير من خصائص اليهود المنفرة ، سواء البدنية والخلقية ، نتيجة لطول الحبس والذل والفقر .

أما فى فرنسا فقد كان اليهود من الناحية النظرية خاضعين لجميع القيود التى طلب بيوس الخامس فرضها عليهم ، أما من الناحية الفعلية فقد أكسبتهم أهميتهم فى الصناعة والتجارة والمالية تسامحا صامتا . وقد أكد كولبير فى أحد أوامره المزايا التى تحصل عليها مرسيليا من مشروعات اليهود التجارية (١٥) . واستقر لاجئو المارانو فى بوردو وبايون ، وبلغ اسهامهم فى الحياة الاقتصادية لجنوب غربى فرنسا مبلغا حمل السلطات على السماح لهم بممارسة شعائرهم اليهودية فى تخف يقل شيئا فشيئا . ولما غزا جيش من المرتزقة بوردو فى ١٦٧٥ ، خشي مجلس المدينة أن يعطل نزوح اليهود المرتاعين فى أعداد كبيرة عن المدينة ثراءها ، فبدونهم - كما قال ناظر ملكى فى تقريره - ستخرب لا محالة تجارة بوردو والاقليم بأسره (١٦) » . وبسط لويس الرابع عشر حمايته على الجالية اليهودية فى متز ، فلما عذب القضاة المحليون يهوديا حتى الموت (١٦٧٠) لاتهامه بقتل طفل قتلا طقسيا أدان الملك اعدام الرجل قائلا انه جريمة قتل ارتكبها القضاء ، وأمر

ـأن تعرض بعد ذلك الاتهـامات الجنائيـة لليهـود على المجلس الملكى (١٧) . وقرب ختام حكم لويس ، حين أفضت حـرب الوراثة الاسبانية بالحكومة الفرنسية الى شفا الافلاس ، وضع المالى اليهـودى صموئيل برنار ثروته تحت تصرف الملك ، ودان الملك المتكبر بالشكر المعونه « أعظم مصرفى فى أوربا (١٨) » .

٢ – أورشليم الهولنـدية

لعبت هجرة اليهود من أسبانيا والبرتغال دورا (مبالغا فيـه احيانا) (١٩) فى انتقال الزعامة التجـارية من هاتين الدولتين الى الأراضي المنخفضة . هناك قصد اليهود المنفيون أنتـورب أولا ، ولكن فى ١٥٤٩ أمر شارل الخامس بأن يطـرد من الأراضي المنخفضـة كل المارانو الذين دخلوها من البرتغال فى السـنوات الخمس الاخيرة . والتمس عمد أنتورب الاستثناء من هذا المرسوم ، ولكنه نفذ ، واستأنف المهاجرون الجدد بحثهم عن وطن يلجأون اليه . وفقدت أنتورب تفوقها التجارى لا نتيجة لهذه الهجرة الجزئيـة ، بل للخطـوب التى ألمت بالمدينه فى حرب التحرير ومعاهدة وستفاليا ، التى أقفلت الشلت فى وجه الملاحة .

واجتذبت حرية العبادة فى الاقاليم المتحـدة ، تلك الحـرية المتزايدة رغم ما شابها من نقص ، اليهود الى المدن الهولنـدية – الى لاهاى ، وروتردام ، وهارلم ، وأهم من ذلك كله أمستردام . هنـاك ظهر يهود المارانو فى ١٥٩٣ ، وبعد أربع سنين افتتحوا مجمعا لهم . وكانت العبرية لغة عبادتهم ، والاسبانية أو البرتغالية لغتهم فى حياتهم اليومية . وفى ١٦١٥ ، وبعد تقرير وضعه هوجو جروتيوس ، أقرت سلطات المدينة رسميا وجود الجالية اليهودية ، ومنحتها حرية العباده ، ولكنها منعت اليهود من التزاوج مع المسيحيين ومن التهجم على الدين المسيحى (٢٠) ، ومن هنا هذا الذعر الذى استولى على رؤساء المجمع حين مست هرطقات أوريل أكوستا وباروخ سـبينوزا أسس العقيـدة المسيحية .

وكان من بين اليهود نفر من أغنى التجار فى الثغـر المزدهـر وكانوا يدبرون قسما هاما من التجارة الهولندية مع شـبه الجـزيرة

الاسبانية ، ومع جزر الهند الشرقية والغربية • وفى احدى المناسبات ، فى زفاف فتاة يهودية ، كان أربعون من الضيوف يمتلكون ثروات جملتها أربعون مليون فلورين (٢١) • وفى ١٦٨٨ ، حين كان رئيس الدولة وليم الثالث يخطط لحملته التى قام بها ليظفر بتاج انجلترة ، أقرضه اسحاق سواسو - فيما روى - مليـــونى فلورين دون فائدة قائلا « اذا حالفك الحظ ستردها الى ، والا فانى راض بأن أخسرها (٢٢) » •
وكان بعض هذا الثراء لافتا للنظر فوق ما ينبغى ، مثال ذلك أن داود بنتو أسرف فى تزيين بيته اسرافا حمـــل الســـلطات المدنيـــة على توبيخه (٢٣) ، على أننا يجب أن نضيف أن آل بنتو تصدقوا بالملايين على مشروعات البر اليهودية والمسيحية (٢٤) • وكان من وراء هـذه الواجهة الاقتصادية حياة ثقافية نشطة ، حفلت بالعلمـــاء والاحبـــار والأطباء والشعراء والرياضيين والفلاسـفة • وكانت المدارس توفـــر التعليم ، وأصدرت مطبعة عبرية أسسها منسي بن اسرائيـل فى ١٦٢٧ عددا كبيرا من الكتب والنشرات ، وسوف تكون أمستردام طوال القرنين التاليين مركز التجارة اليهـــودية فى الكتب • وفى ١٦٧١ - ٧٥ دلت الجالية البرتغالية - اليهودية على ثرائها بتشييد المجمع البـديع الذى ما زال أحد معالم امستردام ، وقيل ان المسيحيين ساهموا فى تكريمه• لقد كانت لحظة سعيدة فى حياة اليهود المحدثين •

على أن هذه الشمس كان يشوبها الكلف • فحوالى ســـنة ١٦٣٠ وفد اليهود الأشكنازيم (أى الشرقيون ×) على أمستردام من بولنده والمانيا • وكانوا يتكلمون لهجتهم الألمانية ، وأنشأوا مجمعا خاصا بهم ، وتكاثروا سريعا ، وأثاروا الكثير من العداء بين يهود الصفارديم ، الذين كانوا فخورين بما يزوهم به من لغة ، وثقافـــة ، ولباس ، وثروة ، ونظروا الى التزاوج مع اليهود الاشكنازيم كانه مروق عن الدين • وتكون داخل جماعة الصفارديم انقسام طبقى ، فكان صغار الحرفيين والفقراء

×يظهر لفظ « اشكنازى » لاول مرة فى الاصحاح العاشر والعدد الثالث من سفر التكوين اسما لحفيد بعيد من أحفاد نوح ، وفى الاصحاح ١١ والعـــدد ٢٧ من سفر أرميا اطلق على مملكة فى غرب آسيا ، واطلقه الاحبار فى العصـــور الوسطى على المانيا لأسباب نجهلها ، وأصبح لفظ « الاشكنازيم » مرادفا ليهود المانيا ، وبولنده ، وروسيا •

المتكاثرون يندددون بـ « أصحاب الملايين » الذين يسيطرون على سياسة المجمع وموظفيه • وقد ورد فى هجاء معاصر .« ان الريال يحل ويربط ، وهو يرفع الجهال الى أكبر المناصب فى المجتمع (٢٥) » • وكان القادة الفكريون ـ شارل ليفى مورتيرا ، واسحاق أبوآب دا فونسيكا ، ومنسي بن اسرائيل ـ رجالا ذوى كفاية ونزاهة ، ولكنهم كانوا محافظين بحذر فى شئون السياسة والدين والاخلاق • وأصبحوا متزمتين تزمت الأسبان الذين اضطهدوا أسلافهم ، ومارسوا التفتيش اليقظ عن الهرطقات المحتملة (٢٦) •

وترك منسي بن اسرائيل بصمته على التاريخ بفتح انجلتره لليهود من جديد • ولد فى لاروشيل لأبوين من المارانو وصلا حديثا من لشبونة ، وأخذ الى امستردام فى طفولته ، وانقطع لدرس العبرية والاسبانية والبرتغالية واللاتينية والانجليزية ، واختير وهو فى الثامنة عشرة واعظا لمجمع نيفه شالوم • وقد سر المسيحيين واليهود على السواء بتأليفه « ال كونسليادور » ليوفق بين التناقضات المزعومة فى التوراة • وكان له الكثيرون من المراسلين والاصدقاء المسيحيين ـ هويت ، وجروتيوس ، وكرستينا ملكة السويد ، وديونيسيوس فوسيوس الذى ترجم كتابه الى اللاتينية ، ورمبرانت الذى حفر صورته فى ١٦٣٦ • وأهم من ذلك أنه أثار اهتمام الحالمين من المسيحيين لأنه بشر بقرب مجىء « مسيا » يحكم الأرض •

ذلك أن منسي كان قبلانيا ومثاليا صوفيا يحلم بقرب العثور على أسباط اسرائيل العشرة المفقودة وتوحيدها ، وبأنهم ربما كانوا الهنود الامريكيين ، وبأن اليهود سيسمح لهم بالعودة الى انجلتره واسكندناوه، وبأن الارض المقدسة ستعاد عندئذ لاسرائيل فى كل مجد المسيا • وراسله البيورتان من شيعة الملكية الخامسة فى انجلتره ، ومع أن مسيحهم المنتظر لم يكن مسيحه ، فانهم رحبوا بآرائه فى قرب مجىء ملكوت الله • واذ وجد هذا التشجيع فانه نشر (١٦٥٠) رسالة عن تطلعات اسرائيل ، يناشد فيها السلطات أن ترد اليهود الى انجلتره • وقدم لترجمة لاتينية للكتاب بمقدمة موجهة الى البرلمان الانجليزى ، وبين أن عودة اليهود الى وطنهم سيسبقها طبقا لنبوات الكتاب المقدس تشتتهم فى جميع الاقطار ، ورجا الحكومة الانجليزية أن تعين على

تحقيق هذا الشرط الاولى بقبول اليهود فى انجلتره والسماح لهم بممارسة دينهم وبناء مجامعهم . وأعرب عن أمله فى أن يؤذن له بالمجىء الى انجلتره ليساعد فى تكوين مجتمع عبرى .

وكان كرومويل ميالا لاجابة هذا الطلب ، فقال « ان تعاطفى عطيم مع هذا الشعب المسكين الذى اختاره الله وأعطاه ناموسه (٢٧) ». وبعث اللورد مدلسكس ، ربما ممثلا للبرلمان برسالة اقرار بالجميل وشكر « لأخى العزيز ، الفيلسوف العبرى ، منسي بن اسرائيل » . وزار السفير الانجليزى فى هولنده منسي ، فاستقبل بالموسيقى والصلاة العبريتين (أغسطس ١٦٥١) . ولكن فى أكتوبر أقر البرلمان قانون ملاحة وجه بشكل ظاهر ضد التجارة الهولندية ، وأفضت المنافسة التجارية الى الحرب الهولندية الاولى (١٦٥٢ - ٥٤) ، وكان على منسي أن يتريث حتى تواتيه الفرصة ، وتلقى « برلمان بيربون » (١٦٥٣) بالرضا طلبه المجدد ، وأرسل اليه اذنا بدخول انجلتره فى أمان ، فلما وضعت الحرب أوزارها أيد كرومويل الدعوة ، وفى أكتوبر ١٦٥٥ عبر منسي وابنه البحر الى انجلتره .

٣ - انجلتره واليهود

لم يكن مسموحا لليهود بالعيش فى انجلترة فى الفترة بين طردهم منها فى ١٢٩٠ وتقلد كرومويل السلطة فى ١٦٤٩ . وربما ظهر بعض الباعة اليهود المتجولين فى القرى ، وبعض تجارهم وأطبائهم فى المدن، ولكن كل ما كان يعرفه الاليزابيثى تقريبا عن اليهود أو يراه فيهم كان مصدره الأقاويل أو المؤلفات المسيحية . من هذين المصدرين استقى مارلو شخصية باراباس وشكسبير شخصية شيلوك .

وظن بعض النقاد (٢٨) أن شكسبير كتب « تاجر البندقيه » استجابة لاقتراح من فرقته بالافادة من عاصفة العداء للسامية التى أثارتها فى انجلترة حديثا قضية رودريجو لوبيز ، الذى أعدم عام ١٥٩٤ لما قبل من محاولته تسميم الملكة اليزابث . وقد ولد لوبيز هذا فى البرتغال لأبوين يهوديين ، وأقام بلندن فى ١٥٥٩ ، وشق طريقه الى التفوق فى مهنة الطب . واستخدمه ايرل ليستر طبيبا له ، فاتهم

مساعدته على التخلص من أعدائه بالسم ، وفى ١٥٨٦ أصبح كبير أطباء الملكة . وقد عالج فيمن عالج ايرل اسكس الثانى ، ولكنه أثار عداءه لأنه إفتي سر علله . وحوالى ١٥٩٠ انضم الى فرانسس والسنجهام فى دسائس مع بلاط أسبانيا ضد دوم أنطونيو ، المطالب بعرش البرتغال ، وتلقى خاتما من الماس قدر يومها بمائة جنيه ، من عملاء فيليب الثانى فيما يبدو . وفى ١٥٩٣ قبض على اسطفان داجاما فى بيت لوبيز بتهمة التآمر على أنطونيو ، وقبض على آخرين ، واتهمت بعض الاعترافات لوبيز بالاشتراك فى مؤامرة ضد اليزابث . ونزعم انهام الطبيب اسكس ، الذى كان يؤيد أنطونيو ، فلما وضع لوبيز على دولاب التعذيب ، اعترف بأنه تلقى وتكتم عرضا بخمسين ألف دوكاتية ليدس السم للملكة ، ولكنه زعم أنه لم يقصد الا لسلب مال ملك أسبانيا . فشنق هو واثنان آخران وأفرغت أحشاؤهم وقطعوا أرباعا . وقد أعلن وهو يلفظ أنفاسه أنه يحب الملكة ويحب المسيح ، وهو ما أثار احتقار المتفرجين (٢٩) . وأخرج شكسبير ، الميال الى اسكس ، « تاجر البندقية » بعد هذا الأعدام بشهرين ، ولا بد أن كثيرا من المستمعين للمسرحية لاحظوا أن اسم الضحية التى أراد شيلوك البطش بها كان انطونيو .

وقد خفف انتشار الكتاب المقدس ، الذى عجلت به ترجمة الملك جيمس ، من حده العداء لليهود لأنها وثقت معرفة انجلترة بالعهد القديم . وتغلغلت أفكار العبرانيين القدماء ومشاعرهم فى فكر البيورتان وعباراتهم . وبدت لهم حروب اليهود صورة سابقة لحروبهم مع تشارلز الاول ، وكان يهوه رب الجنود ـ على نحو ما ـ أنسب لحاجاتهم من ملك السلام الذى جاء وصفه فى العهد الجديد . ورسم الكثير من الكتائب البيورتانية أسد يهوذا على راياتهم ، وسار أعوان كرومويل « ذوو الجوانب الحديدية » الى المعركة وهم يتغنون بأغانى كتابية . واذ قبل البيورتان أدب التوراة الرائع على أنه كلمة الله بحذافيرها ، فانهم أحسوا بأنهم مضطرون الى الاعتراف باليهود مختارين من الله ليكونوا المتسلمين المباشرين لوحيه ، وأخبر واعظ منهم شعب كنيسته أن اليهود ينبغى أن يظلوا مكرمين باعتبارهم مختارى الله ، وسمى بعض جماعة « المسوين » أنفسهم يهودا (٣٠) . وشعر كثير من البيورتان أن تأكيد المسيح الصريح لناموس موسي يرجح رفض بولس اياه ، وحملوا جميع

المسيحيين المتمسكين بالكتاب المقدس على الالتزام بممارسة ذلك الناموس . واقترح احد قادة البيورتان ، وهو اللواء توماس هاريسون ، وكان من الصق مساعدى كromويل به ، جعل الشريعة الموسوية جزءا من القانون الانجليزى (٣١) . وفى ١٩٤٩ قدم مشروع قانون لمجلس العموم بتغيير يوم الرب من الاحد الوثنى الى السبت اليهودى . فالانجليز أيضا هم الآن ــ فى زعم البيورتان ــ شعب الله المختار .

وكانت جماعة صغيرة من المارانو سكنت لندن على عهد جيمس الأول (١٦٠٣ ــ ٢٥) . وكانوا أول الأمر يتخلفون الى الصلوات المسيحية ، ولكنهم بعد ذلك لم يعبأوا باخفاء ولائهم لليهودية . وشارك الماليون اليهود أمثال انطونيو كارفاجال فى تلبية حاجات البرلمان الطويل والجمهورية للمال (٣٢) . فلما تقلد كرومويل السلطة استخدم التجار المارانو مصادر للمعلومات الاقتصادية والسياسية المتصلة بهولندة وأسبانيا ، ولاحظ فى شيء من الحسد ما أصابته التجارة الهولندية من توفيق يرجع بعضه الى تدفق اليهود وعلاقاتهم الدولية .

وبعد أن وصل منسي بن اسرائيل الى انجلترة بقليل استقبله كرومويل ، ووضع مسكنا فى لندن تحت تصرفه . وقدم منسي ملتمسا ، ونشر عن طريق الصحف « اعلانا » بالمبررات الدينية والاقتصادية الداعية للأذن اليهود بدخول انجلترة . وبين السبب فى أن اليهود اضطرتهم القيود القانونية ، وعدم أمنهم المادى والمالى ، الى الزهد فى الزراعة والاقبال على التجارة . وأشار الى أن يهود أمستردام يرتزقون من الاستثمار فى التجارة لا من اقراض المال ، وأنهم لا يتعاملون بالربا بل يضعون أموالهم السائلة فى مصارف ويقنعون بفائدة قدرها خمسة فى المائة على ودائعهم . ودلل على انعدام أى اساس للأسطورة التى زعمت أن اليهود يقتلون الاطفال المسيحيين ليستعملوا دمهم فى الشعائر الدينية . وأكد للمسيحيين أن اليهود لا يبذلون محاولات ليفتنوا الناس عن دينهم . واختتم بطلب السماح لليهود بدخول انجلترة ، شريطة أن يقسموا يمين الولاء للملكة ، وبأن يمنحوا الحرية الدينية ، والحماية من العنف وأن يقضي أحبارهم وقوانينهم فى خلافاتهم دون اضرار بالقانون والمصالح الانجليزية .

وفى ٤ ديسمبر ١٦٥٥ ، جمع كرومويل فى هوايتهول مؤتمرا من الفقهاء وكبار الموظفين ورجال الدين للبحث فى قبول اليهود ٠ ودافع هو شخصيا عن الفكرة بقوة وفصاحة ، مؤكدا الجانب الدينى والاقتصادى اذ لا بد من تبشير اليهود بالانجيل الطاهر ، ولكن « أنستطيع تبشيرهم اذا لم نحتمل عيشهم بين ظهرانينا (٣٣) ؟ » ولم تلق حججه تعاطفا كثيرا ٠ وأصر رجال الدين على أن لا مكان لليهود فى دولة مسيحيه واعترض ممثلو التجارة بأن التجار اليهود سينتزعون التجارة والثروة من أيدى الانجليز ٠ وقرر المؤتمر أن اليهود لا يستطيعون المقام فى انجلترة « الا بأذن خاص من سموه (٣٤) » ٠

لقد كان الرأى العام معاديا لقبولهم عداء طاغيا ٠ وذاعت شائعات زعمت أن اليهود اذا سمح لهم بدخول انجلترة سيحولون كتدرائية القديس بولس الى مجمع يهودى ٠ وأصدر وليم برين (١٦٥٥ - ٥٦) كتابا سماه « اعتراض موجز » جدد فيه الاتهامات القديمة لليهود بأنهم يزيفون العملة ويقتلون الاطفال ، وكان قد أثار زوبعة قبل ذلك بعشرين سنة بهجومه على المسرح الانجليزى فى كتابه Historiomastix ورد بيورتانى متحمس يدعى توماس كوليز على برين ، ولكنه أضعف حججه بمطالبته باكرام اليهود باعتبارهم شعب الله المختار ٠ ونشر منسي نفسه (١٦٥٦) « دفاعا » ناشد فيه روح الانصاف فى الشعب الانجليزى ٠ وقال أيستطيعون حقا أن يصدقوا «تلك الفرية العجيبة الرهيبة ٠٠٠ التى تزعم أن اليهود اعتادوا الاحتفال بعيد الفطير، بتخميره بدم بعض المسيحيين الذين قتلوهم لذلك الغرض ؟ » وقال كم من مرة فى التاريخ افترى شهود الزور بمثل هذه التهم أو لم يؤيدها غير اعترافات انتزعت بالتعذيب ، وكم من مرة وضحت براءة اليهود المتهمين بها بعد اعدامهم ٠ ثم اختتم بايمان وحرارة مؤثرين قائلا :

« والى الشعب الانجليزى الأكرم أرفع رجائى المتواضع بأن يعيدوا قراءة حججى دون تحيز ، ٠٠٠ مسلما نفسي تماما الى فضلهم ورضاهم، متضرعا الى الله بحرارة أن يتفضل ويعجل بالوقت الذى وعد به (النبى) صفنيا ، يوم نخدمه تعالى جميعا برأى واحد ، وبطريقة واحدة ، ويكون لنا كلنا رأى واحد ، وأنه بما أن اسمه واحد ، فكذلك تكون مخافته واحدة ، ونرى جود الرب (تبارك اسمه الى الابد) وتعزيات صهيون (٣٥) » ٠

ولكن الدعاء لم يكسب الشعب الانجليزى ، ولم يظفر منسي بقبول رسمى لليهود . وطرح كروموبل المشكلة جانبا فى غمرة جهوده لحماية حكومته وحياته ، ولكنه أجاز منسي بمعاش سنوى قدره مائة جنيه (لم يدفع قط) من الخزانة العامة . وفى سبتمبر ١٦٥٧ مات ابن منسى . وأعانته منحة من حامى الجمهورية على نقل جثة ولده الى هولنــــده لدفنها ، ولكن « الرسول المبعوث الى انجلترة » مات فى مدلبــورج فى ٢٠ نوفمبر بعد أن أعياه السفر وهده الحزن ، غير مخلف من المال ما يكفى لتشبيع جنازته .

على أنه فى واقع الامر لم يفشل فى مهمتـــه . كتب ايفلين فى « يوميته » تحت يوم ١٤ ديسمبر ١٦٥٥ « الآن فبل اليهود » لم يبح عودتهم الى انجلترة شرعا أى مرسوم من حامى الجمهوربة ، أو قانون من البرلمان ، ولكن أعدادا منزايدة دخلت بموافقة كروموبل الصامتة . وفى ١٦٥٧ سمح ليهود لندن ببناء مقبرتهم الخاصة بوصفهم يهـــــودا لا مسبحيين ، وما لبثوا أن افتتحوا مجمعا ومارسـوا شـــعائرهم فى هدوء . فلما عادت الملكية الى انجلترة ، تذكر تشارلز الثانى الدعـــم المالى الذى تلقاه فى منفاه بهولندة من منديس دا كوســـتا وغيره من العبرانيين ، وأدرك المنافع التى حصلت عليها انجلترة من المشروعات التجاربة التى اضطلع بها يهود لندن ، فأغضي عن المزيد من الهجـرة اليهودية لانجلترة . وواصل وليم الثالث هذا الموقف المتسامح وهو يذكر كذلك معونة اليهود ، وذلك برغم شكاوى التجار ورجال الدبن الانجليز المتكررة . واكتسب سليمان مدينا أول لقب فروسية يهودى بخـــدماته متعهدا للجبس لوليم الثالث ومليره (٣٦) . وما أقبلت سنة ١٧١٥ حتى كان السماسرة اليهود يعملون فى سوق لندن المالية ، والماليون اليهــود قوة صعبرة فى البلاد . وفى عام ١٩٠٤ احتفـــل اليهـــود الانجـلبز بالذكرى الثلاثمائة لمولد منسي .

٤ ــ الأشـــكنازيم

فى سنة ١٥٦٤ كانت بقية لا يستهان بها من المستوطنات اليهودية باقية فى ألمانيا لا سيما فى فرانكفـورت ــ أم ــ مين ، وهامبـــورج ، وفورمز ، برغم الحملات الصليبية الوسيطة ومئات التقلبات . غير أن

حركة الاصلاح البروتستنتى لم تكن قد خففت من تلك الكراهيـــة التى أحس بها المسيحيون نحو شعب غريب لم يستطع أن يقبل المسيح عـلى أنه ابن الله ، بل زادتها حدة . ففى فرانكفورت حرم على اليهود أن يبرحوا حيهم الا لأمر عاجل ، ولم يكن مباحا لهم استضافة زوار من خارج المدينة دون علم القضاة ، وكان عليهم أن يضعوا على ملابســهم شعارا أو لونا خاصا ، وأن تحمل بيوتهم علامات مميزة كثيرا ما كانت غريبة قبيحة المنظر . وقد اشترت رشوة موظفى المدينة أحيانا الاعفاءات من هذه القيود المذلة ، ولكن عداء أفراد الشعب البسطاء كان خطرا دائما يتهدد حياة اليهود وممتلكاتهم . مثال ذلك ما حدث فى سبتمبر ١٦١٤ حين اقتحم جمع مسيحى باب حى اليهود بينما كان معظـــم يهـــود فرانكفورت يقيمون الصلاة ، وبعد أن اســـتمتعوا بليـــلة من النهب والتدمير ، أجبروا ١٣٨٠ يهوديا على مبارحة المدينة دون أن يحملوا من المتاع الا ما على أجسادهم من ثياب . وأطعمت عدة أسر مسيحية اللاجئين وآوتهم ، وألزم رئيس أساقفة مينز بلدية فرانكفورت بردهم لبيوتهـــم ، وتعويضهم عن خسائرهم ، وشنق زعيم الغوغاء (٣٧) . وبعد سنة قامت حركة مماثلة فى فورمز ، فطردت اليهود من المدينة وانتهكت حرمـــة مجامعهم ومدافنهم ، ولـــكن رئيس أســـاقفة فورمـــز وأمير هسي – دارمشتات قدما الملجأ للمنفيين ، وبسط عليهم ناخب بالاتين حمايته فى رجوعهم . ويمكن القول عموما ان كبار الاكليروس وأفراد الطبقـــات العليا كانوا مبالين للتسامح ، ولكن صغار الاكليروس وجماهير الشعب كان من السهل اثارتهم واشعال نار الحقد فى نفوسهم . وكانت القيود القديمة – حتى بعد تخفيفها – مصـــلتة أبدا فـــوق رءوس اليهـــود ، واحتمالات الاهانة والأذى ماثلة فى أى يوم . وكان بعض المســيحيين الغيورين يخطفون الاطفال من فوق صدور أمهاتهـــم ويعمـــدونهم بالاكراه (٣٨) . حقا لولا الجهل لما كان للتاريخ وجود .

وتركت حرب الثلاثين يهود ألمانيا فى سلامة نسبية . فقد استغرق البروتستنت والكاثوليك فى قتل بعضهم البعض استغراقا كاد ينسيهم أن يقتلوا اليهود ، حتى ولو كانوا أقرضوهم مـــالا . وكان الامبراطـــور فرديناند الاول قد فرض لوائح ثقيلة على يهود النمسا ، وطردهـــم من بوهيميا (١٥٥٩) ، ولكن فرديناند الثانى حماهم ، وسمح لهم بأن

حبنوا مجمعا فى فيينا الكاثوليكية وأن يخلعوا شعاراتهم ، وأباح رجوع اليهود الى بوهيميا . وتعهد يهود بوهيميا بدفع أربعين ألف جولدن كل عام اسهاما منهم فى القضية الامبراطورية فى تلك الحـــرب الكبيرة . ورغبة فى تهدئة خواطر المسيحيين الذين تذمروا من سياسة فرديناند الثانى المتسامحة ، أمر (١٦٣٥) بأن يستمع يهود براغ كل أحد للعظات المسيحية ، وفرض الغرامات عقابا للتهرب أو النوم أثناء العظات .

واتسعت المستوطنات العبرية فى ألمانيا بسرعة بعد صلح وستفاليا. فقد سوأت فظائع الحرب الى حد ما سمعة التعصب والاصطهاد . وأقبل عتات اليهود من بولنده بعد المذابح المنظمة التى تلت ثورة القوزاق التى نشبت فى ١٦٤٨ . وفيمـــا بين عامى ١٦٧٥ و ١٧٢٠ كان يختلف الى أسواق ليبزج من التجار اليهود كل سنة ٦٤٨ تاجرا فى المتوســـــط . واستعان الامراء الالمان بالمهارة اليهودية فى ادارة مالياتهم وتنظيـــم تموين جيوشهم وقصورهم . مثال ذلك أن صموئل أو بنهايمر أشرف على المالية الامبراطورية خلال الحملات التى اختتم بها القرن السابع عشر ، وأشرف سمسون فرتايمر على القوميسارية الامبراطورية فى حرب الوراثة الاسبانية . وكان من أثر نفوذ الامبراطورة مارجريت تريزا ، الاســـبانية المولد اليسوعية الروح ، على زوجها ليوبولد الاول أنه أمر بنفى اليهود من النمسا ، ولكن الناخب الأكبر فردريك وليم رحب بكثير من المنفيين فى براندنبورج ، ونمت الجالية اليهودية فى برلين حتى غدت من أكبر الجاليات فى أوربا .

ومنذ القرن الثانى عشر كان يهود وسط أوربا يطورون لهجتهـــم « البيدية Yiddish » المؤلف معظمها من ألفاظ ألمانية مع اضافات عبرية وسلافية ، والمكتوبة بأحرف عبرية . وواصل اليهود المتعلمون دراســة العبرية ، ولكن المطبوعات العلمانية التى نشرها الأشكنازيم أصـــبح معظمها باليبدية . وظهر أدب ييدى ، غنى بالفكاهة المرة والعاطفـــة البيتية ، فى قصص شعبية منقولة عبر القرون والحدود ، وفى تمثيليات قصيرة Purimspiele لمهرجان الربيع المرح ، وفى أمثال من الحكمة البسيطة (كقولهم « أب واحد يعول عشرة أبناء ، ولكن عشرة أبنـــاء لا يعولون أبا واحدا » (٣٩)). وقبل ١٧١٥ لم يكن فى استطاعة هذا الادب أن يفاخر الا بمؤلف مرموق واحد ، هو أبليا بوشر ، وهو عالم

ى العبرية وشاعر باليبدية ، كتب رومانسيات غريبة فى مقطـوعات
ـمانية من الشعر ottava rima وترجم المزامير الى لغة الشعب ٠
وظهرت ترجمة يبدية للاسفار الموسوية الخمسة فى ١٥٤٤ ، بعد خمسة
عشر عاما فقط من ترجمة لوثر الالمانية للكتاب المقدس ، ونشرت ترجمة
يدية للعهد القديم كله بأمستردام فى ١٦٧٦ ــ ٧٩ ٠ لقد كان اليهــود
الألمان فى طريقهم الى زعامة شعبهم الثقافية ٠

وفى القرن العاشر دخل اليهود بولنده من المانيا وزكوا وتكاثروا
تحت حماية الحكومة رغم المذابح العارضة ٠ وفى ١٥٠١ كان هنا نحو
خمسين ألف يهودى فى بولنده ، وفى ١٦٤٨ نصف مليــون (٤٠) ،
وناصر الاعيان szlachta الذين يهيمنــون على مجلس الأمــة
اليهود ، لأن الملاك تبينوا فيهم كفاية خاصة فى جمع الايجارات وجباية
الضرائب وادارة الضياع ، وكان حكام بولنده فى القرنين السادس عشر
والسابع عشر ، فيما عدا قلة منهم ، من أكثر ملوك زمانهم تسامحا ٠ فأصدر
ستيفن باتورى مرسومين يؤكدان الحقوق التجارية لليهود ، ويدمغـان
تهم القتل الطقسي التى يرمى بها اليهود بأنها « افتراءات » قاسـية
لا يسمح بها فى المحاكم البولندية (١٥٧٦) (٤١) ٠ ولكن عداء الشعب
لليهود لم يخف ٠ فلم ينقض عام واحد على هذين المرسومين حتى هاجم
جمع من الغوغاء الحى اليهودى فى بوزنان ، ونهبوا البيوت ، وقتلوا
كثيرا من اليهود ٠ وفرض باتورى غرامة على موظفى المدينة لفشلهم فى
وقف الشغب ٠ وواصل سجسمند الثالث سياسة التسامح الملكى ٠

وتضافر عاملان لانهاء هذا العهد الذى توافرت فيه حسن نيـــة
الحكومة قبل اليهود ٠ أولهما أن التجار الألمان فى بولندة كرهوا منافسة
اليهود لهم ، فاشعلوا ثورات شعبية فى بوزنان وفيلنــو ، حيث هــدم
مجمع لليهود ونهبت بيوت اليهود (١٥٩٢) ، وقدموا للملك ملتمسا
de non tolerandis Judaeis بعدم التسامح مع اليهود (١٦١٩)٠
وانضم الى الحملة لوقف التسامح اليسوعيون الذين استقدمهم باتورى
وما لبثوا أن تولوا القيادة الفكرية للكاثوليك فى بولنده ٠ وظفــرت
اتهامات اليهود بالقتل الطقسي باعتراف الحكومة بهـا الآن ٠ ففى ١٥٩٨
عثر فى لوبلن على جثة صبى فى مستنقع ، فاكره ثلاثة يهود بالتعذيب
على الاعتراف بانهم قتلوه ، ثم شنقوا وانتزعت أحشاؤهم وقطعــوا

أرباعا ، وأصبح جثمان الصبى الذى حفظ فى كنيسة كاثوليكية محل الاجلال الدينى . وازدادت المؤلفات المعادية للسامية ضراوة عن ذى قبل .

وفى ١٦١٨ نشر سبستيان مبشنسكى الكراكاوى كتيبا اسمه « من للناج البولندى » اتهم فيه اليهود بقتل الاطفال ، والسحر ، والسرقة ، والنصب ، والخيانة ، ودعا مجلس الامة لطرد جميع اليهود من بولنده . وأثار الكتيب الشعور العام اثارة حملت سجسموند على مصادرته . واتهم طبيب من بولندى الأطباء اليهود بتسميم الكاثوليك بشكل منظم (١٦٢٣) وأمر الملك لاديسلاس الرابع السلطات البلدية بأن تحمى اليهود من الثورات الشعبية ، وحاول التخفيف من عداء المسيحيين لهم بمنع اليهود من السكنى فى الاحياء المسيحية ، أو بناء مجامع جديدة ، أو فتح مدافن جديدة ، دون ترخيص ملكى . وألزم برلمان ١٦٤٣ جميع التجار بألا تتجاوز أرباحهم ٧ ٪ ان كانوا مسيحيين ، و٣ ٪ ان كانوا يهودا ، وكانت النتيجة أن المسيحيين أقبلوا على الشراء من اليهود فأثروا وأثاروا مزيدا من الحقد .

وتكاثر اليهود البولنديون برغم الكراهية والقيود والشدائد والفقر وبنوا المعابد والمدارس ، وتناقلوا تقاليدهم وأخلاقهم ونواميسهم التى أعانتهم على الاستقرار ، وصانوا ايمانهم المعزى . ونظم المدارس الأولية معلمون خصوصيون ينقدهم الآباء أجورهم بواقع التلميذ والفترة ، أما التلاميذ العاجزون عن الدفع فان معظم الجاليات اليهودية أنفقت على مدرسة خاصة بهم من الاموال العامة . وكان حضور المدرسة الأولية الزاميا على الصبية من السادسة الى الثالثة عشرة . ووفر التعليم العالى فى كلية (يشيبا) يشرف عليها الأحبار . وفيما يلى وصف للنظام بقلم حبر معاصر (١٦٥٣) :

« كانت كل جالية يهودية تعول طلاب الكلية (الباهور) وتمنحهم قدرا من المال كل أسبوع ... ويكلف كل طالب من هؤلاء الباهور بتعليم صبيين على الأقل ... فالجالية ذات الخمسين أسرة يهودية تعول ما لا يقل عن ثلاثين من هؤلاء الشباب والصبيان ، فتوفر الأسرة الواحدة الطعام لطالب كلية وتلميذيه ، ويجلس الطالب الى مائدة الأسرة كواحد

من أبنائها ... وندر أن وجد بيت ... لم تدرس فيه التوراه ، أو لم يكن رب البيت ، أو ابنه ، أو صهره ، أو طالب الكلية الذى يتنـــاول الطعام على مائدته ، خبيرا فى الثقافة اليهودية (٤٢) » .

ونحن اذا نظرنا الى تعليم اليهود البولنديون وأدبهم من وجهة نظرنا الحديثة والعلمانية ، وجدناهما ربانيين بشكل ضيق ، لأنهمـــا يكادان يقتصران على التلمود ، والتوراة ، والقبلانيــة ، والعبرية ، ولكن لما كان التلمود مشتملا على الشريعة اليهودية اشتماله على الدين والتاريخ اليهوديين ، فقد صلح أداة لضبط الذهن ضبطا صارما متعمقا . وما من ريب فى أن الجاليات المطاردة شعرت بانه لا يولد فيهـم القوة على احتمال التعيير والاضطهاد والشدائد والمخاطر المتصلة غير الايمان الدينى الحار ، والدراسة التى تمد جذورها فى تقاليد الشعب اليهودى وعاداته . وقد ظل اليهود البولنديون يعيشون كأنهم فى العصور الوسطى حتى اصبحت الحداثة حديثة بقدر يكفى لاعطائهم الحرية - أو الموت .

وجاءهم عام ١٦٤٨ بتذكير رهيب لهم بوضعهم القلق فى العالم المسيحى . ذلك أن الثورة التى تفجرت آنذاك بين القوزاق ضد ملاكهم البولنديين و اللتوانيين وقعت وطأتها على كاهل اليهـود الذين كانوا يعملون وكلاء للضياع أو جبـــاة للضرائب . فذبح الآلاف منهـــم فى بيريياسلاف ، وبيرياتين ، ولوبنى ، وغيرها من المدن ، ســـواء كانوا يخدمون النبلاء أو لا يخدمونهم . واحتفظ بعضهم بحياتهم اما باعتناقهم مذهب الروم الارثوذكس ، واما بالالتجاء الى التتـــار الذين باعوهم عبيدا . وقد اشتط غيظ القوزاق المكبوت فاتسم بشراسة لا تصـــدق . يقول مؤرخ روسي :

« كان القتل مصـــحوبا بضروب من التعـذيب الهمجى : فكان الضحايا تســـلخ جلودهـــم أحيـــاء ، أو يمزقون اربا ، أو يضربون بالهراوات حتى يموتوا ، و يشوون على الجمر ، أو يحرقون بالمـــاء المغلى ... على أن أبشع ألوان القسوة أصاب اليهود . فقد حكم عليهـــم بالأبادة الكاملة ، وكانت أقل علامة على الرأفة بهم تعتبر خيـــانة . وانتزع القوزاق لفافات الشريعة من المجامع وراحوا يرقصون عليها وهـــم

يشربون الوسكى . ثم طرحوا عليها اليهود وذبحوهم بغير رحمة .
وألقى الاف الأطفال اليهود فى الآبار أو أحرقوا أحياء (٤٣) » .

وروى أن ٦٠٠٠ر٦ يهودى هلكوا فى هذه الثورة فى مدينة واحدة هى نيميروف . وفى تولشيمن حوصر ١٥٠٠ر١ يهودى فى حديقة عامة وخيروا بين اعتناق المسيحية أو الموت ، واذا جاز لنا أن نصدق المؤرخ الأخبارى اليهودى فان ١٥٠٠ر١ اختاروا الموت . وقيل ان ١٠٠٠٠ر١٠ (؟) يهودى فى مدينة بولونوى قتلهم القوزاق أو أسرهم التتار . ونشبت فى مدن أوكرانية أخرى مذابح منظمة أقل شأنا . ولما تحالف القوزاق مع روسيا بعد أن تصدى لهم الجيش البولندى (١٦٥٤) ، انضم الجنود المسكوفيون الى القوزاق فى قتل أو طرد يهود موجيليف ، وفيتيبسك ، وفيلنو ، وغيرها من المدن التى انتزعت من اللتوانيين أو البولنديين .

وفى ١٦٥٥ خلق غزو شارل العاشر ملك السويد لبولنده مشكلة أخرى لليهود . ذلك أنهم ككثيرين من البولنديين قبلوا الفاتح السويدى دون مقاومة ، منقذا لهم من الروس المرهوبين . فلما قام جيش بولندى جديد وطرد السويديين ، ذبح البهود فى جميع أرجاء ولايات بوزنان ، وكاليتس ، وكراكاو ، وبيوتركوف ، فيما عدا مدينة بوزنان ذاتها . وعلى الجملة كانت هذه الكوارث التى منى بها اليهود من ١٦٨٤ الى ١٦٥٨ فى بولنده ولتوانياوروسيا ، حتى عصرنا الحاضر ، أدمى الكوارث فى تاريخ اليهود الأوربيين ، ففاقت فى هولها وضحاياها مذابح الحروب الصليبية ، والموت الاسود . وقد حسب تقدير متحفظ أن ٧١٩ر٣٤ يهوديا ماتوا ، و ٥٣١ جالية يهودية أبيدت (٤٤) . هذا العقد الفاجع هو الذى بدأ هجرة اليهود الجماعية من الاراضي السلافية الى أوربا الغربية وأمريكا الشمالية ، مما أسفر عن توزيع جديد كامل للسكان البهود على سطح الارض .

وفى بولنده عاد من بقى من اليهود على قيد الحياة الى بيوتهم وأعادوا فى صبر بناء جالياتهم التى دمرت . وأعلن الملك يوحنا كازيمير عن عزمه على تعويض رعاياه اليهود قدر استطاعته عن النكبات التى تحملوها ، فمنحهم مراسيم جديدة بالحقوق والحماية ، واعفاء مؤقتا من الضرائب فى تلك المراكز التى اشتد كربها . ولكن العداء الشعبى

واللاهوتى ظل قائما ، تخفف منه المواساة المسيحية بين الحين والحين. ففى ١٦٦٠ أعدم حبران بالتهمة القديمة التى طالما استنكرها البابوات، وهى تهمة القتل الطقسي ، وفى ١٦٦٣ لقى صيدلى يهودى فى كركاو الموت بتهمة لم تثبت عليه ، وهى أنه كتب هجاء يندد فيه بعبادة مريم العذراء ، وكان موته بالترتيب الهمجى الذى قضت به المحكمة : فبترت شفتاه ، وأحرقت يده ، وقطع لسانه ، وأحرق جسده على الخازوق(٤٥) . وارسل قائد الطريقة الدومنيكية من روما (٩ فبراير ١٦٦٤) رسالة يحض فيها الرهبان الدومنيكان فى كركاو « على الدفاع عن اليهود التعساء ضد كل فرية تفترى عليهم (٤٦) » . وفى لفوف غزا تلاميذ أكاديمية يسوعية حى اليهود ، وقتلوا مائة منهم ، وهدموا البيوت ، وانتهكوا حرمة المحامع (١٦٦٤) ، ولكن الطلبة اليسوعيين فى فيلنو حموا اليهود من الغوغاء محدثى الشغب (١٦٨٢) (٤٧) . وحاول سوبيسكى السمح الكريم (١٦٧٤ - ٩٦) جاهدا أن يطيب خاطر يهود بولنده ، فأكد من جديد حقوقهم المنتهكة ، وحررهم من قضاء السلطات البلدية الخاضعة لعواطف الجماهير ، واستمع فى تعاطف الى المندوبين الذين قدموا التماسات اليهود الى بلاطه . فما اختتم حكمه حتى كان اليهود البولنديون قد أفاقوا ، عدديا ، من ذلك العقد القاسي ، ولكن أهواله ظلت عالقة أجيالا بذاكرة اليهود .

لم يكن فى روسيا ، قانونا ، يهود قبل ١٧٧٢ . وقد أبدى ايفان الرهيب رأيه فيهم فى جوابه على طلب رجاه فيه سجسموند الثانى أن يسمح لليهود اللتوانيين بدخول روسيا للمتاجرة (١٥٥٠) :

« ليس من المناسب السماح لليهود بالمجىء الى روسيا بسلعهم لأن شرورا كثيرة تنجم عنهم . ذلك أنهم يدخلون الاعشاب السامة الى مملكتنا ، ويفتنون الروس عن المسيحية . اذن ينبغى له (أى الملك) الا يعيد الكتابة عن هؤلاء اليهود (٤٨) » .

ولما احتل الجيش الروسي مدينة الحدود البولندية بولوتسك (١٥٦٥) ، أرسل ايفان أوامره بتحويل اليهود المحليين الى المسيحية ، أو اغراقهم . وحين نشبت الحرب بين روسيا وبولنده فى ١٦٥٤ أدهش الروس أن يجدوا مدنا كثيرة فى لتوانيا وأوكرانيا بها

أقسام كاملة آهلة باليهود . فقتلوا بعض هؤلاء « المهرطقين الخطرين »، وأخذوا بعضهم أسرى الى موسكو ، حيث أصبحوا نواة لمستوطنة يهودية صغيرة غير شرعية . وفي ١٦٩٨ تلقى بطرس الأكبر وهو في هولنده عن طريق عمدة أمستردام ، ملتمسا مقدما من بعض اليهود يرجونه فيه السماح لهم بدخول روسيا ، وكان جوابه :

« عزيزى ويتسن ، انك تعرف اليهود ، وتعرف أخلاقهم وعاداتهم ، وكذلك تعرف الروس . وأنا أعرف الاثنين ، وصدقنى أن الوقت لم يحن للجمع بين القوميتين . فقل لليهود انى شاكر لهم اقتراحهم ، واننى مدرك كم ستفيدنى خدماتهم ، ولكنى مشفق عليهم ان يعيشوا بين ظهرانى الروس (٤٩) » .

وظلت هذه السياسة الروسية ، سياسة ابعاد اليهود ، معمولا بها حتى الملتمس البولندى الأول (١٧٧٢) .

٥ ـ الهامات الايمان

لابد لكى نفهم عداء المسيحيين لليهود أن ننفذ الى ذهن كاثوليك العصور الوسطى وبروتستنت حركة الاصلاح الدينى . لقد تذكروا صلب المسيح ، ولكنهم لم يتذكروا جموع اليهود العريضة التى استمعت فى فرح الى المسيح ورحبت به فى دخوله أورشليم . وآمنوا بيسوع ذلك « الممسوح » ، ابن الله ، ولكن اليهود لم يستطيعوا أن يروا فى المسيح ذلك المسيا الذى وعدهم به أنبياؤهم ، والمخلص الذى سيحررهم من رقهم ويجعلهم من جديد شعبا حرا مرفوع الرأس . وكان عسيرا على المسيحيين ان ينظروا نظرة التسامح الأخوى الى قلة لم تكن وحدانيتهم منافسا بعيدا كوحدانية الاسلام ، بل صرخة حارة ، تسمع من مجامع نتكاثر فى قلب العالم المسيحى ـ « أصغ يا اسرائيل ! الرب الهنا واحد ! » وشعر المسيحيون أن العقيدة السامية المتكبرة هى تحد ماثل أبدا للايمان المسيحى الاساسي ، الايمان بأن ابن الانسان الذى مات على الصليب هو فى كل الحق ابن الله ، الذى كفرت ذبيحته غير المحدودة عن خطايا الانسان ، وفتحت له أبواب الفردوس . أيمكن أن يكون فى الحياة شيء أثمن وأعظم تشديدا للنفوس من ذلك الايمان ؟

ولكى يحمى مسيحيو أوربا ذلك الايمان حاولوا عزل اليهود بالحواجز الجغرافية ، والقيود السياسية ، والرقابة الفكرية ، والاغلال الاقتصادية · فلم يسمح لهم بالمواطنة الكاملة وبحقوقها فى أى بلد فى أوربا المسيحية قبل الثورة الفرنسية ـ ولا حتى فى أمستردام · وحيل بينهم وبين الوظائف العامة ، والجيش ، والمدارس والجامعات ، والاشتغال بالقانون فى المحاكم المسيحية · وفرضت عليهم الضرائب الباهظة ، وتعرضوا للقروض الاجبارية ، ولمصادرة ثروتهم فى أى وقت · وأبعدوا عن الزراعة بقيود على ملكية الأرض ، وبانعدام الأمن الذى ما برح ملازما لهم والذى أكرههم على وضع مدخراتهم فى النقد أو السلع المنقولة · وحرموا من الانضمام للطوائف الحرفية لأنها كانت من بعض الوجوه دينية شكلا وهدفا ، واشترطت اليمين والشعائر المسيحية · واذ قصر نشاطهم على الصناعات الصغيرة ، وعلى التجارة والمالية ، فانهم وجدوا أنفسهم مطاردين حتى فى هذه الاشغال بتحريمات خاصة تتفاوت بتفاوت المكان وتتغير فى أى وقت · ففى اقليم حرم عليهم أن يكونوا باعة متجولين ، وفى آخر أن يتجروا فى دكاكين ، وفى ثالث أن يتعاملوا فى الجلد أو الصوف (٥٠) · ومن ثم عاش أكثر اليهود تجارا صغارا ، و باعة متجولين ، أو تجارا فى البضائع المستعملة أو الثياب القديمة ، او خياطين ، أو خداما لمواطنيهم الأغنياء ، أو صناعا يصنعون السلع لليهود · ومن هذه الاشغال ، ومن ذل العيش فى الغيت ، اكتسب فقراء اليهود عاداتهم تلك فى الملبس والحديث ، وحيل التجارة وخصائص الذهن التى مجتها الشعوب الأخرى والطبقات العليا من الناس ·

ومن فوق هذه الكثرة المتواضعة كان الاحبار ، والاطباء ، والتجار ، والماليون · وقد لعب نشاط المصدرين والمستوردين اليهود دورا هاما فى ثراء هامبورج وأمستردام · وكان جزء على اثنى عشر من تجارة انجلترة الخارجية يمر بأيدى اليهود فى النصف الأول من القرن السابع عشر (٥١) · وغلب العنصر اليهودى فى استيراد الجواهر والمنسوجات من الشرق · وانتفع اليهود فى التجارة الدولية من علاقاتهم الأسرية فى مختلف الدول ، ومن اجادتهم للغات ، وكان لهم مسالكهم التى تصلهم منها المعلومات ، فهدتهم بين الحين والحين الى توقعات

نافعة فى السوق المالية (٥٢) • ومكنتهم هذه الاتصالات الأجنبية من تطوير خطابات الاعتماد والكمبيالات • ولم يكن اليهود بالطبع مخترعى الرأسمالية الحديثة ، فقد رأينا ذلك النظام ينمو مستقلا تمام الاستقلال عنهم ، وفى الصناعة أكثر منه فى المالية ، وكان دورهم حتى فى المالية صغيرا اذا قورن بدور آل مديتشي الفلورنسيين ، أو آل جريماليرى الجنوبين ، أو آل فوجير الأوجزبورجيين • وكان مقرضو المال اليهود يتقاضون فوائد عالية ، ولكنها لم تكن أعلى مما يتقاضاه المصرفيون المسيحيون الذين يواجهون أخطارا معادلة •

واكتسب الذهن اليهودى ، الذى شحذته الشدائد والظلم والدراسة، فى التجارة والمالية مقدرة مرهفة على الكسب لم يغتفرها لليهود منافسوهم قط • ولم تر أخلاقيات اليهود فى الثروة أى عيب أو وصمة عار ، شأنها فى ذلك شأن أخلاقيات البيورتان • ورأى فيها الاحبار دعامة البر ، وعصب المجمع ، والملجأ الأخير اذا أريد الخلاص من أذى الملوك او الجماهير المضطهدة • ومع ذلك فصحيح انه وجد فى الجاليات اليهودية فى هولنده وألمانيا وبولنده وتركيا رجال جعلوا جمع المال مسرة نفوسهم لا مجرد أداة لحماية شعبهم ، واستعملوا فى جمعه الحيلة أكثر مما استعملوا الضمير ، واظهروا بنى جلدتهم بذلك المظهر المزعج مظهر الثراء العريض يلوثه الترف الواضح ، ولا تكفر عنه أعمال البر الكبيرة الا جزئيا • ومن حولهم فى الغيت كان ثلث اخوانهم يعيشون فى فقر ، لا يحول دون تصورهم جوعا غير الصدفات (٥٤) •

ولقد عانى دين اليهود كما عانت أخلاقهم من فقر الحياة فى الغيت وانطوائها وهوانها • فالأحبار الذين كانوا فى العصور الوسطى رجالا ذوى شجاعة وحكمة ، أصبحوا فى هذا العصر أتباع صوفية تهرب من جحيم الاضطهاد والفاقة الى جنة الاحلام التعويضية • وقد حل التلمود فى العصور الوسطى محل التوراة روحا لليهودية ، اما الآن فقد حلت القبلانية محل التلمود • وزعم مؤلف فرانكفورتى من كتاب القرن السابع عشر انه كان فى أيامه أحبار كثيرون لم يروا توراة قط (٥٥) • وكان سليمان لوريا (١٥١٠ — ٧٢) علامه عينت هذا الانتقال ، فقد بدأ بالتلمود ، وبنى عليه كتابه « يم شيل شلومو » (بحر سليمان) ، ولكن حتى ذهنه المرهف استسلم آخر الامر للقبلانية ، فقد كانت

« التقليد السرى » لمتصوفة اليهود فى العصر الوسيط ، الذين اعتقدوا أنهم وجدوا وحيا الهيا مستترا فى رمـزية الاعـداد ، والحـروف ، والألفاظ ، لا سيما فى الحروف التى يتألف منها اسم يهوه الذى لا ينطق به . وكان العالم تلو العالم فى الغيت يضل فى هذه الأوهـام ، حتى لقد صرح أحدهم بأن من يهمل حكمـة القبلانيـة السرية يسـتحق الحرم(٥٦) . يقول أكبر المؤرخين اليهود المحدنين انه فى القـرنين السادس عشر والسابع عشر « خنقت القبلانية الطفيلية حياة اليهـود الدينية بجملتها . وكل الاحبار وقادة الجاليات اليهودية تقريبـا ... وقعوا فى شراكها » من أمستردام الى بولنده الى فلسطين (٥٧) .

وكان سند الحياة فى نظر اليهود المشتتين على هذا النحـو ، والذين كثيرا ما كانوا معدمين مفترى عليهم ، هو الايمان بأنه فى يوم قريب سيأتى المسيا الحقيقى لينتشلهم من وهدة تعاستهم وعارهم ويرفعهم الى مكان القوة والمجد . ومن المؤسف أن نرى كيـف كان دجـال أو متعصب يظهر القرن بعد القرن فيقبله اليهود على أنه هذا المخلص الذى طال ارتقابهم له . ولقد رأينا فى موضع سابق من هذا الكتاب كيف أن داود روبينى العربى هلل له عبرانيو البحر المتوسط فى ١٥٢٤ على أنه المسيا ، مع أنه هو نفسه لم يدع هذا . وها هو ذا يهودى من أزمير يدعى سبتاى زيفى ، يظهر عام ١٦٤٨ ويزعم أنه الفادى الموعود .

لقد بدا هذا المختار ، من الناحيه الجسمية ، اختيارا جـديرا بالاعجاب . فهو رجل طويل القامة ، حسن التكوين ، مليح الوجه ، له شعر الشاب الصفاردى ولحيته السوداوان (٥٨) « اجتذبته كتـابات سليمان لوريا الى القبلانية ، فأخضع ذاته لنظام صارم من النسك أمـلا فى أن يصبح بهذا جديرا بالتقليد السرى » فى أكمـل اعلانه . فأذل جسده ، وأكثر من الاستحمام فى البحر فى جميع الفصـول ، وغالى فى الاحتفاظ بنظافته حتى لقد احتفل اتباعه برائحة لحمه الزكية . ولم يشعر بميل للنساء ، وقد تزوج فى شبابه الباكر امتثالا للعرف اليهودى، ولكن زوجته ما لبثت أن طلقته لفشله فى أداء واجباته الزوجية . ثم تزوج ثانية ، بنفس النتيجة . والتف الشبان من حـوله ، معجبين بصوته الرخيم وهو يرتل التراتيل القبلانية ، متسائلين أليس هذا قديسا مبعوثا من السماء . وكان أبوه أحد جماعة آمنت بقرب مجىء المسيا -

وبأن ذلك لن يتجاوز سنة ١٦٦٦ . وسمعهم سبتاى يتنبأون بأن الفداء العظيم سيأتى على يد رجل طاهر النفس شـديد الورع ، ملم بأسرار القبلانية ، قادر على جمع شمل كل الابرار ليعيشوا فى عصر السـلام الموعود . وخبل اليه ، بعد أن طهره الزهد ، أنه الفادى الالهى . وكان « الظهر » ، وهو نص فى القبلانية يرجع الى القـرن الثالث عشر ، قد حدد السنة اليهودية ٥٤٠٨ (١٦٤٨ الميلادية) فاتحه لعصر الفداء . فى تلك السنة أعلن سبتاى أنه المسيا ، وكان آنئذ فى الثانية والعشرين.

وصدقه رهط من مريديه . فادانتهم حاخامية أزمير باعتبـارهم مجدفين ، ولكنهم أصروا ، فنفوا من المدينة . وانتقل سـبتاى الى سالونيك ، وهناك أقام احتفالا قبلانيا زوج فيه نفسه للتوراة ، فطرده احبار سالونيك ، فمضي الى أثينا ، ثم الى القاهرة ، حيث ضم اليه تابعا غنيا يدعى رفائيل شلبى ، تم انتقل الى أورشليم ، وهناك وقع زهده موقعا طيبا حتى فى نفوس الاحبار . وأوفدت الجالية اليهـودية فى أورشليم سبناى ليلتمس المعونة فى القاهرة بعد أن أفقرها انقطـاع الصدقات من يهود أوكرانيا المنكوبين . فعاد الى أورشليم مصـحوبا لا بالمال بل بزوجة ثالثة تدعى ساره ، أضفى حسـنها الاشراق عـلى دعاواه وفى غزة - التى مر بها فى طريقه - انضم اليه تابع غنى آخر يسمى ناتان غزاتى ، أذاع أنه هو ذاته ايليا ، ولد من جديد ليقـوم الطريق أمام المسبا ، وأنه لن ينقضي عام حتى يسقط المسيا السـلطان العثمانى ويقيم ملكوت السماوات . وصدقه آلاف اليهـود ، وأذلوا أجسادهم ليكفروا عن ذنوبهم ويصبحوا جديرين بالفردوس الأرضي . فلما عاد سبتاى الى أزمير ، دخل عام ١٦٦٥ المجمع فى رأس السنة اليهودية ، واعلن نفسه المسيا مرة أخرى . وقبله هذه المرة جمع غفير أخذته نشوة الفرح . فلما رماه حبر عجوز بأنه دجال نفاه سـبتاى من أزمير .

وانتشر نبأ مجىء المسيا فى أرجاء عربى آسيا فكهرب الجاليـات اليهودية . وحمل البشرى تجار مصر وأيطاليا ، وهولنده ، والمانيا ، وبولنده ، الى بلادهم ، وخبروا بالمعجزات التى نسبت الى سبتاى فى عدد متزايد . وتشكك بعض اليهود ، ولكن الآلاف صدقوا بعد أن أعدتهم لذلك النبوءات القبلانية والآمال الحارة . لا بل ان بعض المسـيحيين

شاركوهم الابتهاج ، وقالوا ان مسيا ازمير هو حقا المسيح المولود من جديد . ذكر هنرى أولدنبرج فى رسالة من لندن الى سبينوزا (ديسمبر ١٦٥٥) أن « كل العالم هنا يتحدث عن شائعة عودة الاسرائيليين المشتتين منذ أكثر من الفى عام الى وطنهم . وقليلون يصدقون الخبر ، وكثيرون يتمنونه ... فاذا تأكد ، فربما أحدث ثورة فى كل شيء (٥٩) » . وفى أمستردام أعلن أحبار بارزون ايمانهم بسبتاى ، واحتفل فى المجمع بمجيء الملكوت بالموسيقى والرقص ، وطبعت كتب الصلوت لتعلم المؤمنين ضروب التكفير والتراتيل الممهدة لدخول أرض الميعاد . ففى مجمع هامبورج راح العائدون اليهود من جميع الأعمار يثبون ويطفرون ويرقصون وفى أيديهم درج الناموس . وفى بولنده هجر يهود كثيرون بيوتهم وأملاكهم ورفضوا أن يشتغلوا قائلين ان المسيا آت بشخصه سريعا وسيقودهم فى موكب النصر الى أورشليم(٦٠). واتخذ آلاف اليهود أهبتهم للرحيل الى فلسطين ــ كان منهم أحيانا جاليات بأكملها ، كجالية أفنيون . واقترح بعض المتحمسين فى أزمير، الذين أثار عواطفهم ذلك الولاء العالمى لزعيمهم ، أن توجه الصلوات اليهودية منذ الآن ، لا الى يهوه ، بل الى « ابن الله البكر ، سبتاى زيفى ، المسيا والفادى » (وكذلك كان المسيحيون يصلون للمسيح أو العذراء أكثر مما يصلون لله) . وأرسل أمر من أزمير بأن يحتفل منذ الآن بأيام الحداد المقدسة عند اليهود أعيادا للفرح ، وبأن كل فروض الناموس المضنية ستبطل سريعا فى أمن الملكوت وسعادته .

ويلوح أن سبتاى ذاته انتهى الى الايمان بقواه المعجزة . فاعلن أنه ماض الى الآستانة ، ولعل هدفه كان تحقيق نبوءة غزانى بأن المسيا سيأخذ فى هدوء تاج الدولة العثمانية (بما فيها فلسطين) من السلطان. (على أن بعضهم زعم أن القاضي التركى فى أزمير أمره بالمثول بين أيدى كبار موظفى الدولة فى العاصمة) . وقبل أن يبرح سبتاى أزمير قسم العالم وحكومته بين أخلص معاونيه . ثم انطلق الى الاستانة فى أول يناير ١٦٦٦ وبرفقته نفر من مريديه . وكان قد تنبأ بتاريخ وصوله ، ولكن عاصفة عطلت سفينته . وقلب رفاقه خطأه الحسابى هذا الى برهان جديد على الوهيته ، وقالوا انه أسكت العاصفة بكلمة الهية منه .

وما ان رسا على ساحل الدردنيل حتى قبض عليـه ، وجيء به الى الاستانة مكبلا بالاغلال ، وزج به فى السجن . وبعد شهرين نقل الى سجن أرحم فى أبيدوس . وسمح لزوجته أن تلحق به ، ووفد عليه أصدقاؤه من كل فج ليواسوه ، ويقدموا له الولاء ، ويأتوه بالمال . ولم يفقد أتباعه ايمانهم به ، فزعموا ان أوثق النبوءات تنبأت بأن المسيا سيرفض أولا من رؤساء هذا العـالم ، الذين سـيوقعون به ألوانا من العذاب والهوان . وتوقع اليهود فى كل أرجاء أوربا الافراج عنه فى أى لحظة ، وأنه سيحقق نبوءات أسعد . وعلق حرفا اسمه الاولان ، س ، ز فى المجامع . وفى أمستردام ، ولجهورن ، وهامبورج ، كادت أعمال اليهود التجارية تتعطل تماما ، فقد اشتد ايمان اليهود هناك بأنهم عائدون جميعا عما قريب الى الارض المقدسة . وتعرض من أعرب من اليهود عن شكوكهم فى أن سبتاى هو المسيا لخطر الموت كل يوم .

وحير السلطات التركية ذلك الهياج الذى اضطربت له الحيـاة الاقتصادية لكثير من المجتمعات العثمانية ، ولكن الترك خشوا أنهم لو أعدموا سبتاى بوصفه ثائرا ودجالا لعملوا بذلك على تقديسه شهيدا ، ولحولوا حركته الى تمرد يكلفهم ثمنا غاليا ، لذلك قرروا أن يجـربوا حلا سلميا . فأخذ سبتاى الى أدرنه . وهناك أخبر بأن أمرا قضى بأن يسحل فى الشوارع ويعذب بالمشاعل الموقدة ، ولكن فى استطاعته أن يتفادى هذه النهاية وأن يظفر بأسباب التكريم الكبير فى الاسـلام لو اعتنق دين محمد (صلى الله عليه وسلم) ، فقبل ، وفى ١٤ سبتمبر مثل أمام السلطان ، وأكد مروقه عن دينه بخلع ملابسه اليهودية وارتداء الزى التركى . وخلع عليه السلطان اسم محمد أفندى ، وعينه حاجبا لبابه براتب كبير . ونالت سارة ، التى اعتنقت الاسلام هى أيضا ، الهدايا الثمينة من السلطانة .

وقوبل نبأ هذا الارتداد بالتكذيب من يهود آسيا وأوربا وافريقيا ، ولكن حين تأكد النبأ آخر الامر كاد ينفطر له قلب العالم اليهـودى . فكاد الحاخام الاكبر فى أزمير يموت خزيا وهو الذى قبل سبتاى بعد تشكك كثير . وأصبح اليهـود فى كل مكان أضـحوكة المسـلمين والمسيحيين . وحاول أعوان سبتاى مواساة أتباعه بأن بينوا لهم أن اعتناقه الاسلام انما هو جزء من خطة ماكرة ليكسب المسـلمين الى

صفوف اليهود ، وأنه عما قريب عائد الى الظهور يهـــوديا والعـــالم الاسلامى كله فى ركابه . وحصل سبتاى على اذن بتبشير يهود أدرنه ، مؤكدا للسلطات التركية أنه سيهدى سامعيه الى الاسلام ، وأصدر فى الوقت نفسه رسائل سرية لليهود قال فيها انه مازال المسيا ، وان عليهم الا يفقدوا ايمانهم به . ولكن لم يبد على اليهود ، لا فى أدرنه ولا فى أى مكان آخر ، أى علامة على قبولهم الاسلام . فلما خاب أمل الحكومة العثمانية رحلت سبتاى الى أولسينج فى البانيا ، حيث لا يوجد يهود . وهناك مات المسيا المحطم فى ١٦٧٦ . وظل المؤمنون به نصـــف قرن يواصلون حركته ، ويؤكدون قداســـته ، ويعـــدون بقيامتـه من بين الاموات .

٦ ـ المهرطقـــون

كان الاحبار عليمين بان الدين فى المجتمعات اليهـــودية التى يطوقها أعداء عتاة هو دعامة الحياة ، وحياة الشريعة ، لذلك زهدوا اليهود فى الدراسة العلمانية التى قد تفتح ثغرة للتشكك فى الدين . من ذلك أن يوئيل سركيس ، الحاخام الاكبر فى كركاو ، أدان الفلسفة لانها أم الهرطقة ، و « العاهرة » المهلكة التى قال فيها سليمان « كل من دخل اليها لا يؤوب (٦١) » ورأى حرم أى يهودى فى قضائه يدمـن الفلسفة . وفزع يوسف سليمان ديلميديجو لخلو منهاج الدراسة والقراءة عند اليهود من العلوم ، وكان قد وفد على بولنده (١٦٢٠) من ايطاليا التى مازالت تجيش بحرارة النهضة ، وكتب يقول « ها هى ذى الظلمة تغشي البلاد والجهلة كثيرون ... وهم يقولون ان الرب لا يبتهج بالسهام المشحوذة فى أيدى النحاة والشعراء والمناطقة ، ولا بمقاييس الرياضيين ولا بحسابات الفلكيين (٦٢) » .

وكان ديلميديجو هذا حفيدا بعيدا لايليا ديلميديجو ، الذى كان يعلم العبرية فى أوساط آل مديتشي . وبدأ انحرافاته بتعلم اليونانية كما تعلم التلمود من أبيه ، وكان حاخاما فى كريت ، وحصل على بعض التربية العلمية فى جامعة بادوا التقدمية ، حيث كان جاليليو معلمه المشرف على دراسته ثم امتهن الطب الذى يسر له الرزق وخلع عليـــه إسمه الايطالى ، ولكن العلم ـ لا سيما الرياضـــة ـ ظل يفتنــه ، وفى

سبيل طلبه نفض عنه بعض ايمانه الدينى ، وتغيير الاهاب القديم على هذا النحو يخلف جلدا حساسا ، وقد يزعزع الخلق حينا . لذلك راح يوسف يتنقل من بلد الى بلد مقتلع الجذور لا يستقر على حال . وانضم مؤقتا وهو فى القاهرة والاستانة الى شيعة القرائين ، وهم يهود رفضوا التقاليد والتنقيحات الكهنوتية (كالبروتستنت) وتمسكوا بالتـــوراة مصدرا أوحد للاهوتهم . وفى هامبورج وأمستردام وجد معلوماته الطبية أشد تخلفا من معلومات الاطباء اليهود هناك ، حتى لقد تحـــول فى سبيل الرزق سنيا ، والتحق بالحاخامية ، وأخيرا دافع عن القبــلانية ومات طبيبا مغمورا فى براغ (١٦٥٥) .

أما لبو بن اسحاق مودينا فكان انسانا أكثر رهافه وعمقا . اتخذ اسمه الايطالى من المدينة التى هاجرت اليها اسرته عند طرد اليهود من فرنسا . وكان أعجوبة بين الاطفال ، فقرأ الانبياء فى الثالثة ، ووعظ فى العاشرة ، وألف أول كتبه المنشورة فى الثالثة عشرة . والكتاب حوار ضد القمار ، الذى كان ليو حجة فيه ، لأنه ظل وفيا له الى نهـــاية حياته . وكان أعظم مقامراته زواجه فى ١٥٩٠ وهو فى التاسعة عشرة. أما أبناؤه الثلاثة فقد مات أحدهم فى السادسة والعشرين ، وقتل الثانى فى عراك ، انصرف الثالث الى حياة الفجور ثم اختفى فى البرازيل . وماتت احدى بنتيه وهو حى ، أما الأخرى فبعد أن فقدت زوجهـــا أصبحت عالة على أبيها الذى اصيبت زوجته بالجنون . ووسط هـــذه الصدمات حرم ليو لتماديه فى لعب الورق . وكتب رسالة تثبت أن الاحبار تجاوزوا الناموس فى قرارهم ، الذى عدلوا عنه سريعا .

وكان أثناء ذلك قد ملك ناصية أدب التوراة والتلمود الربانى ، ودرس الفيزياء والفلسفة ، وكتب بالعبرية والايطالية شعرا لا بأس به . علما قبلته الحاخامية فى البندقية ، ألقى خطبا ايطالية كان فيها من العلم والبلاغة ما اجتذب كثيرا من المسيحيين الى سماعه . وكلفه احد أصدقائه المسيحيين ، وكان نبيلا انجليزيا ، بأن يكتب عرضا للشعائر اليهودية . وقد انتهى ليو فى كتابه هـــذا Historia dei riti ebraici « تاريخ الشـــعائر العبرية » (١٦٣٧) الى أن كثيرا من المراســـم التقليدية التى بعدت الآن عن هدفها الاصلى قـــد فقـــدت الكثير من دلالتها . وفى كتاب غفل من اسم المؤلف « قول صقل » اقترح تنقيح

الصلوات والطقوس العبرية وتبسبطها ، والغاء قوانين الصوم ، وخفض عدد الايام المقدسة والتخفيف من صرامتها . وفى هذا الكتاب انتقد اليهودية الربانية لأنها مجموعة من التعقيدات التى لا مبرر لها أضيفت الى الشريعة اليهودية الأصلية ، وطالب بالرجوع من التلمود الى التوراة ، ولكنه مد هرطقاته الى التوراة ذاتها ، بل الى الوحى الموسوى بأكمله . وقد ترك هذا التصريح الثورى دون نشر ، فلما عثر عليه بين أوراقه بعد وفاته (١٦٤٨) ، كان مصحوبا برسالة مرافقة تدافع عن اليهودية السنية . ولم ير أحد الكتابين النور حتى عام ١٨٥٢ . ولو أن ليو اجترأ على نشر « قول صقل » فى حياته ، لبدأت حركة الاصلاح اليهودية نشاطها فى القرن السابع عشر ، ولكنه كان أشد ذكاء من أن يسبق التاريخ .

أما أشقى المهرطقين اليهود فهو أوريل أكوستا الامستردامى . كان أبوه ينتمى لأسرة من المارانو أقامت فى أوبورتو ولاءمت تماما بين نفسها وبين المذهب الكاثوليكى . وتلقى جابرييل - وهو اسمه فى البرتغال - العلم على يد اليسوعيين الذين روعوه بمواعظهم عن الجحيم، ولكنهم شحذوا ذهنه بالفلسفة الكلامية . فلما درس الكتاب المقدس أثر فيه اعتراف الكنيسة بالعهد القديم كلمة لله ، وقبول المسيح ورسله الاثنى عشر لناموس موسي . وانتهى الى أن اليهودية من الله ، وتشكك فى حق القدس بولس فى سلخ المسيحية عن اليهودية ، وصمم أن يعود الى دين أجداده فى أول فرصة . فأقنع أمه واخوته (وكان أبوه قد مات) بالانضمام اليه فى محاولة للروغان من ديوان التفتيش والهروب من البرتغال . ووصلوا أمستردام بعد أن جازوا مخاطر كثيرة (حوالى ١٦١٧) وهناك غير جابرييل اسمه الى أوريل ، وأصبحت الاسرة أعضاء فى مجمع اليهود البرتغاليين .

بيد أن هذه الروح ذاتها التى حدت به الى ترك الكنيسة ، روح التقصي والتفكير المستقل ، جعلته قلقا لا يحس بالاطمئنان النفسي داخل عقائد المجمع التى لا تقل صرامة عن عقائد الكنيسة ، فقد صدمه ادمان الاحبار ، حتى أحبار أمستردام المثقفين ، لسخافات القبلانية الفكرية، فوبخ شركاءه الجدد بجرأة على تلك الطقوس والنظم التى ليس لها اساس ظاهر فى التوراة ، والتى رآها تتعارض أحيانا تمام التعارض

مع طرق التوراة • واذ لم يؤت من الحاسة التاريخية الا القليل ، فقد خيل اليه أنه كان خطأ كبيرا أن تتغير الشعائر والمعتقدات اليهودية على مدى تسعة عشر قرنا • وكما رجع قبل ذلك من العهد الجديد الى القديم ، فكذلك طالب الآن بالرجوع من التلمـــود الى التـــوراة • وكان قد نشر فى ١٦١٦ بهامبورج نشرة برتغالية عنوانها « حجج ضد التقاليد » التى بنى عليها التلمود • فأرسل نسخة منها الى مجمع اليهـــود بالبندقية ، فاعلن المجمع حرمه (١٦١٨) ، وطلب الى ليو مودينا ، وهو ذاته مهرطق ، بحكم منصبه فى الحاخامية ، أن يفند دعوى أكوستا بأن أوامر الاحبار فى كثير من الحالات ليس لها سند من الاسفار المقدسة • وأنذر أحبار أمستردام أكوستا بأنهم هم أيضا سيحرمونه ما لم يعدل عن آرائه ، وكان قد رماهم بالفريسية • فأبى ، وضرب بنظم المجمع عرض الحائط جهارا ، فاعلن حرمه (١٦٢٣) ، وهو حرم يقطع كل صلة له بأخوانه اليهود ، فتجنبه الآن حتى أقرباؤه • ولم يكن قد تعلم الهولندية بعد ، فوجـــد نفسه بغير صديق واحد • وراح الاطفال يرجمـــونه بالحجـــارة فى الشوارع •

وفى مرارة عزلته تقدم (كما تقدم سبينوزا بعده بقـــرن) الى هرطقة هاجمت معتقدا أساسيا لكل شخص تقريبا فى أوربا • فجاهر بأنه برفض الايمان بخلود النفس لأنه غريب جدا على العهد القديم ، فالنفس فى رأيه انما هى الروح الحية المتدفقة فى الدم ، وهى تموت مع الجسد (٦٣) • وحاول طبيب يهودى يسمى صموئيل داسيلفا الرد على آراء أكوستا • فنشر بالبرتغالية « رســـالة فى خـــلود النفس » (١٦٢٣) وصف فيها أكوستا بأنه جاهل ، عاجز ، أعمى • ورد أوريل بكتاب سماه « فحص للتقاليد الفريسية ••• ورد على صموئيل داسيلفا ، المفترى الكذاب » (١٦٢٤) • ورغبة فى حماية الحرية الدينية للجالية اليهودية ، أعلم زعماؤها قضاة امستردام بأن أكوستا بانكاره الخلود انما يقوض المسيحية كما يقوض اليهودية • فقبض عليـــه القضـــاة ، وغرموه ثلاثمائة جولدن ، وأحرقوا كتابه • وما لبث أن أفرج عنـــه ، ويبدو أنه لم يلحق به أذى بدنى •

على أن عقابه كان عقابا اقتصاديا واجتماعيا • ذلك أن اخـــوته الصغار أصبحوا معتمدين عليه ، واذن فعلى حريته — المحرمة الآن —

في الدخول فى علاقات اقتصادية مع اخوانه . ولعل هذا السبب ، فضلا عن رغبته في الزواج ثانية ، هو ما دعا أوريل الى أن يقرر الخضوع للمجمع ، وانكار هرطقاته ، وأن يصبح « قردا بين القردة (٦٤) » على حد تعبيره . وقبل انكاره (١٦٣٣) وعاش الشكاك المتحمس حينا فى سلام نسبى . ولكن هرطقاته استمرت فى الخفاء واتسعت . كتب فى فترة لاحقة بقول « لقد خامرنى الشك فى ناموس موسي ، أهو حقا ناموس الله ، ثم انتهيت الى أنه من مصدر بشرى (٦٥) » . ونبذ الآن الدين كله ، اللهم الا ايمانا غامضا باله هو والطبيعة واحد (كما كان ايمان سبينوزا فبما بعد) . وأهمل الممارسات الدينية الثقيلة المفروضة على اليهودى السنى . فلما جاءه مسيحيان يعلنان عن رغبتهما فى اعتناق اليهودية ثناهما وحذرهما من النير الثقيل الذى سيضعانه فوق عنقيهما . فأنهيا ذلك الى المجمع . فاستدعاه الاحبار واستجوبوه ، ووحدوه غير نادم ، فأوقعوا عليه الآن حرما آخر أشد صرامة من سابقه (١٦٣٩) . وعاد أقرباؤه يقصونه عن حياتهم ، وشارك اخوه يوسف فى اضطهاده (٦٦) .

واحتمل هذه العزلة سبع سنين ، ثم عرض الخضوع حين وجدها تؤذيه اذى بليغا فى رزقه وأمام القانون . واذ أسخط القادة اليهود طول مقاومته وما حرت عليهم من متاعب ، فقد حكموا عليه بضرب من الانكار والتكفير نقلوه عن ديوان التفتيش البرتغالى (٦٧) . فأكره ، على طريقة احتفالات الديوان بادانة المهرطقين ، على أن يرقى منصة فى المحمع ، ويتلو أمام جمهور كبير من المصلين اعترافا بأخطائه وذنوبه ، ويتعهد بأغلظ الايمان أنه منذ الآن سيمتثل لكل نظم الجماعة ويعيش عيشة اليهودى الصالح . ثم خلعت ثيابه الى خصره ، وجلد تسعا وثلاثين جلدة . وأخيرا أجبر على ان يطرح نفسه على عتبة المجمع ، وخطا من فوقه الحاضرون وهم يغادرون المكان وفيهم أخوه الذى كان يناصبه العداء .

وقام من هذه العقوبة المذلة لا مذعنا بل ناقما ساخطا . فمضي الى بيته ، وأغلق على نفسه باب مكتبه عدة أيام وليال ، وكتب آخر وأمر تنديداته باليهودية التى ضحى بالكثير فى سبيل اعتناقها ، والتى لم يفهم قط فى تعاطف تاريخها الانطوائى ، وصرامتها الواقية التى

فرضتها عليها قرون من الظلم . وفى كتابه هذا « مثال من حياة البشر » فص سيرته الفكرية مثالا على ما يصيب الانسان المفكر . وقد أحس بأن « كل الشرور تنجم عن عدم أتباع العقل الرشيد وقانون الطبيعة (٦٨) » وقابل بىن الدين « الطبيعى » والدين الموحى ، وزعم أن هـــذا بعلم الناس البغضاء ، أما ذاك فيعلمهم المحبة . فلما فرغ من مخطوطته ، حشا طبنجتين ، وترصد بجوار نافذته لأخيه يوسف حتى مر ، وأطلق عليه النار فأخطأه (٦٩) . ثم أطلق على نفسه الرصاص (١٦٤٧ ؟) .

وحاول المجتمع اليهودى أن يدفن هذه الفاجعة فى صمت ، ولكن لابد ان بعض أفراده وجدوا نسيانها عسيرا . وكان سبينورا غلاما فى الخامسة عشرة حين أوقع على أكوستا طقس الحرم ، ولعله كان بين جماعة العابدين الذين رأوه بوقع عليه ، ولعله مشى فى رهبة وارتياع فوق جسد المهرطق المطروح أرضا . وعن طـــريق ذلك الفتى ، دخلت رؤيا أكوستا ترات الفلسفة بعد أن نطهرت مما علق بها من سخط (٧٠) .

الكتاب الرابع

المغامرة الفكرية

١٦٤٨ — ١٧١٥

الفصل السابع عشر

من الخرافة الى العلم

١٦٤٨ ـ ١٧١٥

١ ـ المعـوقات

كانت الطبيعة كما تصورها كل الأوربيين فى القرن السابع عشر ـ فيما عدا قلة قليلة منهم ـ نتاجا ، أو ساحة قتال ، لكائنات خارقة ، خيرة أو شريرة ، تسكن أجساد البشر نفوسا ، أو تسكن الأشجار والغابات والانهار والرياح أرواحا محيية ، أو تدخل الكائنات الحية ملائكة أو شياطين ، أو تجوب الهواء عفاريت خبيثة . وليس من هذه الارواح ما يخضع لقانون لا يمكن خرقه ، أو يمكن حسابه ، فأى روح منها يستطيع أن يتدخل بطريقة معجزة فى حركات الاحجار أو النجوم أو البهائم أو البشر ، وكانت الأحداث التى لا تنجم بشكل مرئى عن المسلك الطبيعى أو المنتظم للاجسام أو العقول ، تنسب لهذه القوى الخارقة التى تقوم بدور غامض خفى فى شئون هذه الدنيا ، ينذر بشر أو ينبىء بخير أو يتنبأ بالمستقبل . وكل الاشياء الطبيعية ، وكل الكواكب وسكانها ، وكل الأبراج والمجرات ، ان هى الا جزر لا حول لها ولا قوة فى بحر خارق للطبيعة .

وقد مرت بنا ألوان من الخرافة فى العصور السابقة لهذا القرن . وعمر أكثرها بعد مجىء العلم الحديث على يد كوبرنيق وفيساليوس وجاليليو ، وازدهر بعضها حتى فى نيوتن نفسه ، لقد استمر اضمحلال التنجيم والخيمياء (الكيمياء القديمة) ، ولكن المنجمين كانوا عديدين فى بلاط لويس الرابع عشر (١) ، وفى فيينا « كان هناك عدد هائل من المشتغلين بالخيمياء (٢) » كما روت الليدى مارى ورتلى مونتاجيو فى ١٧١٧ . وكان البريطانيون الاشداء لا يزالون يؤمنون بالأرواح ، ويتطيرون ، ويدفعون ثمنا للطوالع ، ويأخذون أحلامهم على أنها نبوءات ، ويحسبون أيام السعود والنحوس ، أما البريطانيون الأضعف منهم فيلتمسون من الملك ابراء الداء الخنازيرى الذى ابتلوا به بلمسة

منه . وقد ورد فى العدد السابع من صحيفة « سبكتاتور » وصف للانقلاب الذى يحدثه فى أسرة بريطانية قليل من الملح يتناثر ، أو سكين وشوكة توضعان متقاطعتين على صحن ، أو ثلاثة عشر شخصا يجمعون فى حجرة أو جماعة (ويلاحظ عدم وجود طابق ثالث عشر فى بعض فنادق القرن العشرين) . وفى فرنسا أصبح جاك ايمير بطل زمانه (١٦٩٢) لأنه كان يستطيع (فى اعتقاد الكثيرين) بشد أملود بندق يمسكه بيده أن يكتشف قرب مجرم منه (٣) .

وفى المانيا كانوا يستعملون عصا سحرية لوقف النزف وشفاء الحروح وجبر العظام (٤) . وفى السويد اتهم شتيرنهيلم بالسحر حين أحرق لحية فلاح بمرآة مكبرة ، ولم ينقذ صاحب التجربة من الموت غير تدخل الملكة كرستينا (٥) .

كان المتشككون فى السحر يتزايد عددهم ، ولكن الراجح أن المؤمنين به كانوا أكثر منهم بكثير . وكانت حاشية تشارلز الثانى لا تأبه كثيرا بأى عفاريت قد تفسد عليهم لهوهم ، ولكن « الكثرة الساحقة » وأبرز المؤلفين بين رجال الدين الانجليز ، كانوا لا يزالون يؤمنون بأن البشر يستطيعون أن يتحالفوا مع الشيطان فينالوا بهذا التحالف قوى خارقة (٦) . وقد ذهب جوزف جلانفيل ، وهو قس أنجليكانى راجح العقل قوى الاسلوب ، فى كتابه « خواطر فلسفية حول الساحرات والسحر » (١٦٦٦) الى أنه من العجب العجاب أن « رجالا فيهم ذكاء وحذق فى غير هذا الامر ، يتوهمون أنه ليس هناك شيء اسمه ساحرة أو شبح » ونبه قراءة الى أن شكوكا من هذا النوع تفضي الى الالحاد . كذلك رمى قسيس مشهور آخر اسمه رالف كدورث فى كتابه « نظام الكون الفكرى الصحيح » (١٦٧٩) بالكفر كل من ينكر وجود الساحرات (٧) . وقد دافع أفلاطونى كمبردج ، هنرى مور ، فى كتابه « ترياق الألحاد » (١٦٦٨ ؟) دفاعا حارا عن قصة « ساحرة » تزوجت الشيطان ثلاثين عاما ، ورآه تجديفا كبيرا أن يتشكك متشكك فى قدرة الساحرات على اثارة العواصف بالتعزيم ، أو ركوب الهواء على مكنسة (٨) .

وخف اضطهاد الساحرات تثيا فشيئا ، ولكن رجال الدين

الاسكتلنديين تفردوا بغيرتهم المحرقة . مثال ذلك أن ست نساء فى مدينة ليث عذبن بشتى ضروب التعذيب عام ١٦٥٢ لحملهن على الاعتراف بالسحر ، فعلقن من أباهمهن ، وجلدن ، ووضعت الشموع الموقدة تحت أقدامهن وفى أفواههن التى فتحت عنوة ، ومات أربعة من الستة من التعذيب (٩) . وفى عام ١٦٦١ كان هناك أربع عشرة محكمة تحاكم الساحرات فى اسكتلنده ، وفى ١٦٦٤ أحرق تسع نساء معا فى ليث . واستمرت أحكام الاعدام هذه فى اسكتلندة على نحو متقطع حتى ١٧٢٢ . وفى انجلترة شنقت ساحرتان سنة ١٦٦٤ فى بورى سانت ادموندر ، وأعدمت ثلاث فى ١٦٨٢ ، وعدد غير مؤكد فى ١٧١٢ . وقوضت الحجج التى أتى بها وير ، وسبى ، وهوبز ، وسبينوزا ، وغيرهم ، شيئا فشئيا وهم السحر فى أوساط العلمانيين المثقفين ووقف المحامون والقضاة بدرجة متزايدة فى وجه اللاهوتيين ، ورفضوا الاتهام أو الادانة بالسحر . وفى ١٧١٢ قضت هيئة محلفين من الانجليز البسطاء على جين وينهام بأنها مذنبة بالسحر ، ولكن القاضي رفض الحكم عليها ، فندد به رجال الدين المحليون (١٠) ، ولكن لم يعدم أحد بتهمة السحر فى انجلترة بعد ذلك التاريخ . وفى فرنسا حصل كولبير على مرسوم من لويس الرابع عشر (١٦٧٢) بمنع أحكام الادانة بتهمة السحر (١١) . واحتج برلمان روان بأن هذا المنع انتهاك للأمر الوارد فى التوراة ، « لا تدع ساحرة تعيش » (خروج ٢٢ — ١٨) ، وأفلح بعض الحكام المحليين فى حرق سبع « عرافات » فى فرنسا فيما بين عامى ١٦٨٠ و ١٧٠٠ ، ولكنا لا نسمع بأحكام اعدام بعد ١٧١٨ . واستمر الايمان بالسحر حتى الانتصار المؤقت الذى أحرزته العقلانية فى حركة تنوير القرن الثامن عشر ، ومازال موجودا فى أماكن متفرقة هنا وهناك .

وتعاونت الرقابة والتعصب مع الخرافة على الحد من نمو المعرفة وانتشارها . وفى فرنسا حالت الصراعات التى احتدمت بين الملوك والبابوات ، وبين الكنيسة الفرنسية والبابوية ، وبين الجانسنيين واليسوعيين ، وبين الكاثوليك والهيجونوت — هذه الصراعات حالت دون وحدة الرقابة . وثباتها ودقتها ، وهى الرقابة التى عزلت أسبانيا فى هذا العصر عن حركات العقل الأوربى . ووجد المؤلفون المهرطقون

طرقا للروغان من الرقباء ، ولعل الذكاء الفرنسي قد شـحذته ضرورة التعبير عن الافكار بطريقة تدق على فهم موظفى الرقابة . وفى كولونيا الكاثوليكية فرض رئيس الاساقفة الناخب الرقـابة على الاحاديث أو المطبوعات الدينية . وفى براندنبورج البروتستنتية أمر الناخب الأكبر برقابة دقيقة ليهدىء الصراع الدينى . وفى انجلترة واصلت الحكومة سجن المؤلفين البغيضين وحرق الكتب المهرطقة رغم صدور قانون التسامح (١٦٨٩) (١٢) . على أن تنوع الملل والنحل فى الدول البروتستنتية جعل الرقابة فيها أقل حدوى منها فى الدول الكاثوليكية ، ولعل هـذا بعض السبب فى تفوق انجلترة وهولندة فى العلم والفلسفة فى القـرن السابع عشر .

لقد اتفقت المذاهب المتنافسة على التعصب . وحاجت الكنيسـة الكاثوليكية فى اقناع بأنه ما دام كل المسيحيين تقريبا يقبلون الكتـاب المقدس على انه كلمة الله ، وبما أن ابن الله أسس الكنيسـة كما نص الكتاب ، فواضح اذن أن من حقها وواجبها أن تقمع الهرطقة وانتهت المذاهب البروتستنتية الى استنتاج مماثل وان كان أقل تعطشا للدماء . فما دام الكتاب كلمة الله ، فكل من يحيد عن تعاليمـه (حسبما تفسر رسميا) يجب على الأقل أن يقمع ، وأن يكون شاكرا لانه لم يقتـل . واعترفت معاهدة وستفاليا (١٦٤٨) بمذاهب شرعية ثلاثة فى المانيا : الكاثوليكية ، واللوثرية ، والكلفنية ، وترك كل حاكم حرا فى أن يختار أيا منها ، وأن يفرضه على رعاياه . أما الدول الاسكندنافية فلم تسمح بغير اللوثرية . وأما سويسرة فأباحت لكل ولاية تقـرير عقيـدتها . وافتتحت فرنسا الطريق الى التسامح باصدارها مرسوم نانت (١٥٩٨)، تم طريق العدول عنه بالغاء المرسوم (١٦٨٥) . أما انجلترة فقد خففت بعد ١٦٨٩ من القيود المفروضة على المنشقين من البروتستنت ، واستمرت تفرضها على الكاثوليك ، وأبادت ثلث الكاثوليك فى ارلندة . ووافق العقلانى هوبز البابوات على ضرورة عدم التسامح .

ولكن التسامح كان فى ازدياد . وبدأت الدراسة الناقدة للكتـاب المقدس فى هذا العصر تجعل الناس أحرارا فى الاعجاب به أدبا والتشكك فيه علما ، وجعل تعدد المذاهب النظام الاجتماعى أعسر فأعسر بدون التسامح المتبادل . وفى « انجلترة الحديثة » أعلن روجـر وليمـز

(١٦٤٤) أنها « ارادة الله وأمره » أن « تباح لجميع النـــاس ، فى جميع الأمم ، أشد المعتقدات والعبادات وثنية ، أو يهودية ، أو تركية ، أو عداء للمسيح (١٣) » وطالب جون ملتن بـ « النشر دون رخصــة » (١٦٤٤) ، ودافع جيريمى تيلور عن « حرية التنبؤ » (١٦٤٦) . وأجاز جيمس هارنجتن (١٦٥٦) الحرية الدينية بغير حدود فقال : « حيث تكون الحرية المدنية كاملة ، فانها تشتمل على حرية الضمير ، وحيث تكون حرية الضمير كاملة ... فان للانسان حسبما يملى عليه ضميره الحق فى الممارسة الكاملة لدينه دون أن يكون ذلك عائقا لترقيته أو توظيفه فى الدولة (١٤) » . أما فى الدول التجارية مثل هولندة ، وحتى فى البندقية الكاثوليكية ، فقد اقتضت ضرورات التجارة التسامح مع شتى أديان التجار القادمين من بلاد أجنبية . وهولندة المتحررة هى التى نشر سبينوزا فيهـــا فى « الرســـالة اللاهوتيـــة السياســـية » (Tractatus theologico – Politicus) (١٦٧٠) دعوة للتســامح الكامل مع الأفكار المهرطقة ، وفى هولندة دافع بيل عن التســامح فى كتـــابه « تعقيب فلسفى على الآية : ألزمهم بالدخول » (١٦٨٦) ، وبعد سنين من الاقامة فى هولندة نشر لوك كتابه « رسائل فى التسامح » (١٦٨٩). وازدادت المطالبة بالحرية الفكرية عقدا بعد عقد ، حتى اذا بلغ القرن السابع عشر ختامه لا نجد كنيسة تجرؤ على صنع ما صنعته الكنيســة ببرونو فى ١٦٠٠ ، أو بجاليليــو فى ١٦٣٣ « ومع ذلك فهى تـــدور " Eppur si muove

٢ ـ التعـــليم

كانت المعرفة تنتشر فى بطء عن طريق الصحف ، والمجـــلات ، والنشرات ، والكتب ، والمكتبـــات ، والمـــدارس ، والأكاديميـات ، والجامعات . وأصبحت الأنباء فى القرن السابع عشر ســـلعة تبـــاع وتشترى ؛ أولا للمصرفيين ، ثم للحكام ، ثم لأى انسان . وفى ١٧١١ كان مجموع ما وزع من الصحف البريطانية اليوميـــة أو الاســـبوعية ٤٤ر٠٠٠ (١٥) .

وأدركت « الجورنال دى سـافان » (صحيفة العلمـــاء) التى تأسست فى ١٦٦٥ أن الأحداث فى عالم الأدب والعـلم يمكن أن تكون أيضا أنباء ، فما لبثت أن رسخت اقدامها وسيطا دوليا بين الدارسـين

والعلماء والأدباء . ولم تمض سنوات قليلة حتى ظهر لها منافسون ، « الجورنالى دى ليتراتى » فى روما ، (١٦٦٨) ، و « الجورنالى فينيتو » فى البندقية (١٦٧١) و « الاكتـــا ايروديتورم » فى ليبزج (١٦٨٢) . وأسس بيل مجلة مشهورة بروتردام فى ١٦٨٤ تسمى « أنباء جمهورية الأدب » ، وبعد عامين بدأ جان لكلير مجلة « المكتبة العالمية» الشهيرة ، وقد احتوت هذه الدوريات على آراء من أهم ما صـــدر عن لوك وليبنتز .

وكان تداول الكتب يزداد بسرعة . ففى ١٧٠١ كان هنـــاك ١٧٨ من كبار تجار الكتب فى باريس، منهم ستة وثلاثون طباعا وناشرا (١٦). وكانت المكتبات قديمها وحديثها تجعل كنوزها ميسرة لعـــدد أكبر من القـــراء . وفى عام ١٦١٠ حصـــل السر تومـــاس بودلى من « شركة الوراقين » على منحة تحصل مكتبة بودلى التى أنشأها فى أكسفورد (١٥٩٨) بمقتضاها على نسخة من كل كتـــاب ينشر فى انجلترة ، وهكذا أصبحت فى ١٩٣٠ تملك ١٫٢٥٠٫٠٠٠ مجلد . وفى ١٦١٧ قضي مرسوم أصدره لويس الثالث عشر بأن تودع فى المكتبة الملكية (القومية الآن) نسختان من كل مطبوع جديد فى فرنسا . وفى ١٦٢٢ أصـــبح مجموع كتب هذه المكتبة ٦٫٠٠٠ محلد ، وفى ١٧١٥ زاد الى ٧٠٫٠٠٠ ، ومعظم الفضل فى هذه الزيادة يرجع الى غيرة كولبير ، وفى ١٩٢٦ بلغ ٤٫٤٠٠٫٠٠٠ . وأسس ناخب براندنبورج الأكبر مكتبة قومية ببرلين فى ١٦٦١ . وفى ذلك العام أوصي مازاران بمكتبته الثمنية التى ضمت ٤٠٫٠٠٠ مجلد للويس الرابع عشر وفرنسا ، وفى ١٧٠٠ حول حفدة السر روبرت بروس كوتون ملكية المكتبة الكوتونية للمتحف البريطانى . وافتتح توماس تنسن عام ١٦٩٥ بلندن أول مكتبة انجليزية مفتـــوحة لعامة الشعب .

أما التعليم فكان يجاهد لتعويض الخسائر التى تكبدها من جراء الحروب الدينية فى فرنسا ، والحرب الاهلية فى انجلترة ، وحـــرب الثلاثين فى ألمانيا . ولم تعد المدارس والآداب الألمانية الى مكانتها التى بلغتها أيام لوثر ، وأولريش فون هتن ، وملانكتون قبل قرنين ، الا حين جاء ليسنج (١٧٢٩ — ٨١) . فى هذه الفترة ظلت اللاتينية غير الممتازة لغة غريبة مقتصرة على القلة المتعلمة ، فى حين أصبحت الألمانية مجرد

اداة سوقية بعد أن بلغت عنفوانها فى لوثر ، ولم يرق كاتب ألمانى واحد الى مقام الشهرة الدولية خلال هذا التكفير الطويل عن جيل من حرب التقتيل بين الاخوة . أما النبلاء الالمان ، الذين احتقروا الحذلقة اللاتينية للجامعات ، فقد أرسلوا أبناءهم الى « مدارس الفرسان Ritterakademien » أو كلفوا معلمين خصوصيين ليعدوا الشباب العريق النسب لما تتطلبه القصور الأميرية من واجبات ولطائف . وفى الطرف الآخر من السلم الاجتماعى نظم أوجست فرانكى ، التقوى ، فى هاله معاهده التى سماها Stiftungen ، وهى مؤسسات خيرية هزأ منها الساخرون ووصفوها بـ « المدارس المهلهلة » ، وظل طوال اثنين وثلاثين عاما (١٦٩٥ - ١٧٢٧) يطعم فيها أبناء الفقراء ويكسوهم ويعلمهم . ولم يلبث أن أضاف اليها مدرسة أعلى توفر التعليم الثانوى لألمع فتيانه ومدرسة نظيرها لألمع فتياته . وهذه المدارس كلها كانت تخصص نصف وقتها للدين .

ووجدت الروح العلمانية فى ألمانيا معبرا عنها فى شخص كرستيان توماسيوس . وسنشيد بذكره فيلسوفا فى موضع لاحق ، أما الآن فنراه أعظم المعلمين الألمان فى جيله . فبعد أن طرد من موطنه فى ليبزج لهرطقاته ، رحل الى هاله فى دولة براندنبورج - بروسيا الناهضة (١٦٩٠) ، وأدت محاضراته هناك الى انشاء الجامعة ، وقد أصبح اشهر أساتذتها ، والمناضل الذى جعل منها أول جامعة « حديثة » . وقد هزأ بالسكولاستيه ، وأحل الألمانية محل اللاتينية لغة للتعليم ، وأصدر مجلة ألمانية ، وأدخل البرامج العلمية فى المنهج ، وكافح فى سبيل حرية المعلمين والطلاب فى التفكير . ولقبه فردريك الأكبر أبا التنوير الألمانى .

وجعل التعليم الأولى عاما والزاميا للجنسين فى دوقية فورتمبرج عام ١٥٦٥ ، وفى الجمهورية الهولندية عام ١٦٩٨ ، وفى دوقية فيمار فى ١٦١٩ ، وفى اسكتلنده عام ١٦٩٦ ، وفى فرنسا عام ١٦٩٨ ، وفى انجلترة عام ١٨٧٦ . وكان تخلف انجلترة راجعا الى الانتشار الواسع للتعليم الأهلى بفضل الهيئات الدينية الخاصة ، والى شعور الطبقات الحاكمة بان تعليم الفقراء فى النظام الاقتصادى السائد آنئذ غير ضرورى بل ربما كان غير مرغوب فيه . وقد بدأت « جمعية تشجيع

المعرفة المسيحية » فى ١٦٩٩ تنشيء « مدارس خيرية » للأطفال الفقراء، لنشر اللاهوت والتهذيب المسيحيين بصفة خاصة ، واشترط أن يكون مدرسوها كلهم أعضاء فى الكنيسة الانجليزية ، وأن يحصلوا على ترخيص من الاسقف . وندد بهذه المدارس بزنارد ماندفيل ، الذى أحدث ضجة فى ١٧١٤ بكتابه « خرافة النحل » ، وقال انها مضيعة للمال ، وان الآباء اذا كانوا أفقر من أن يدفعوا نفقات تعليم أبنائهم « فان من الوقاحة أن يتطلعوا الى ما فوق قدراتهم (١٧) » .

أما فى فرنسا فقد فرض على كل أبرشية أن تمول مدرسة أولية . وكان المدرس عادة علمانيا ، يختاره الأسقف ويشرف عليه ، وكان التعليم كاثوليكيا لا تهاون فيه . أما « المدارس الصغيرة petites écoles التى أنشأها البور — رويال فلم تصل الا لقلة منتقاة من الصبيان . وفى ١٦٨٤ أسس جان باتيست دلاسال « اخوة المدارس المسيحية » ، التى عرفت بعد قليل بالاخوة المسيحيين Frères Chrétièns . وقد جعل لاسال ، ذلك القس الزاهد ، الدين جوهر التعليم الذى وفره هؤلاء « الاخوة المسيحيون » مجانا لأبناء الفقراء . وخصص للممارسات الدينية أربع ساعات فى اليوم ، واضيفت القراءة والكتابة والحساب ، ولكن الهدف الذى لم يغب عنهم قط كان تدريب الكاثوليك الأوفياء ، وتخليص النفوس من طيش الحياة الدنيا ومن النار الأبدية . ووجد أن الجلد نافع لهذه الأغراض . وكان المعلمون يحضون على التعليم بالقدوة أكثر من المبدأ . وفى ١٦٨٥ افتتح الاخوة المسيحيون مؤسسة لعلها كانت أول مؤسسة حديثة لتدريب معلمى المدارس الأولية .

وظل التعليم الثانوى بفرنسا فى أيدى اليسوعيين ، وكان لا يزال حير تعليم فى البلاد المسيخية . وغيرت كليتهم اليسوعية الواقعة وراء الصوريون مباشرةاسمها الى «كلية لويس الأكبر "Collège Louis -le- Grand بعد أن حضر الملك مسرحية أخرجها هناك التلاميذ فى ١٦٧٤ . وافتتح لويس الرابع عشر فى ١٦٨٦ ، تحت الحاح مدام دمانتنون ، فى سان — سير (على ثلاثة أميال من فرساى) أول مدرسة داخلية فرنسية للبنات . وكانت الاديار توفر التعليم العالى لبنات الصفوة ممن يدفعن نفقاته ، مع التركيز دائما على الدين . وأجمعت السلطات الكاثوليكية

والبروتستنية على أن الطبيعة البشرية تتنافر أشد التنافر مع ضوابط الحضارة بحيث لم يكن سبيل لترويضها على الفضيلة والنظام الا سبيل مخافة الله . وما زالت محاولة تهذيب الخلق دون معونة من الدين في مرحلتها التجريبية .

اما الجامعات فكانت الآن في دور الاضمحلال ، وذلك باستثناء الجمهورية الهولندية ، فالمذاهب الدينية المنتصرة تقوم بتطهيرها من المخالفين ، والطلبة المشاغبون ينشرون فيها الفوضي ، والخلافات اللاهوتية تسيطر عليها . وكانت الدرجات الجامعية في فرنسا والمانيا تباع بالمال . ولم يكن بين أساتذتها أحد من أفذاذ فلاسفة العصر ، الا قلة من كبار العلماء ، وكان هوبز ، وليبنتز ، وبيل ، يتحدثون عن الاساتذة باحتقار لا يغتفر ضغوط الجماهير على الموظفين العموميين . وفتحت في هذه الفترة بعض الجامعات الجديدة : جامعة دويسبرج (١٦٥٥) ، ودرم (١٦٥٧) ، وكيل (١٦٦٥) ، ولند (١٦٦٦) ، وانسبروك (١٦٧٣) ، وهاله (١٦٩٤) ، وبرسلاو (١٧٠٢) . وكان أكثرها مؤسسات صغيرة قل ان زاد أساتذتها على العشرين وتلاميذها على الأربعمائة . وفي معظمها كان المنهج قد تجمد بمرور الزمن ، واشتراطات السنية شلت حركة الطلاب والمعلمين على السواء ، وقد شكا ملتن من أن الجامعات الانجليزية « تسلب الشبان استعمال عقولهم بتعاويذ من الميتافيزيقا ، والمعجزات ، والتقاليد ، والأسفار السخيفة » . وقال انه يشعر أنه ضيع شبابه في كمبردج محاولا أن يهضم « وليمة حمير كلها اشواك وعليق فاسد » وغير ذلك من « الهراء السفسطائي (١٨) » وقد استمر قيد التقاليد هذا في اكسفورد وكمبردج الى أن حفز مثال « الجمعية الملكية » ، وأستاذية نيوتن بكلية ترنتي (١٦٦٩ — ١٧٠٢) . جامعة كمبردج على أن تفسح للعلم صدارة جريئة .

وكافح الشعراء والقساوسة ، والصحافيون ، والفلاسفة ، ليبعثوا النشاط والحيوية في التعليم . ولقد لخصنا من قبل « رسالة ملتن الى مستر هارتلب » (١٦٤٤) عن المدرسة المثالية . ولكن لم يكن لوصفاته أي تأثير في التعليم الفعلي . أما في فرنسا فكان أمتع ما كتب في هذا الباب رسالة فنيلون « في تعليم البنات » (١٦٨٧) . وكانت مدام دبوفلييه قد طلبت اليه أن يجمل بعض المبادىء التي يهتدى بها في

تعليم بناتها . وأكد الكاهن بالطبع تقوية الناموس الاخلاقى بالدين ، ولكنه استنكر ما شاب التعليم الديرى من تقشف وعزلة . وقال انه يشعر أن أديار الراهبات « لا تهيىء للحياة فى هذه الدنيا ، وهى حياة تدخلها خريجة الدير وكأنها خرجت من كهف لتقابل ضوء النهار الساطع(١٩) » وطالب بالطرق اللينة فى التعليم ، فيجب أن يوائم التعليم بين نفسه وبين طبيعة الطفل وميوله وحساسيته ، لا أن يخضع التلاميذ كلهم لقاعدة جامدة واحدة . فلنعلم بالطريقة التى تعلم بها الطبيعة ـ لا بالتجريدات، بل بهداية الطفل الى لب الاشياء ، ولتكن ألعابهم وميولهم الطبيعية وسيلة التعليم (ها هنا بيداجوجيه روسو ، وتعليم القرن العشرين « التقدمى » يشرحه كاهن من كهنة القرن السابع عشر) . ويريد فنيلون أن تقرأ البنات الآداب القديمة ، بلغاتها الاصلية ان استطعن ، وينبغى أن يتعلمن شيئا من التاريخ ، ومن القانون ما يكفى لادارة ضيعة ، ولكن لا شأن لهن بالعلم ـ فعلى الفتاة أن تبدى « بعض الحياء فى العلم » (une pudeur sur la sciemce) . لقد كان الكاهن الوسيم حساسا لمفاتن الأنثى ، ولم يرد لهذه المفاتن أن تكتسي بعلم الجبر ، وما كان ليفهم قط غرام فولتير بمدام دوشاتليه ، أستاذة الميكانيكا النيوتنية .

وبعد مقال فنيلون هذا بعشر سنوات ، نشر ديفو دعوته لتعليم النساء تعليما عاليا . فالبنات الانجليزيات فى القرن السابع عشر لم تتح لهن الا فرص ضئيلة فى التعليم الثانوى ، اذا استثنينا البيوت الغنية . فكان عليهن أن يعتمدن على المدرسين الخصوصيين ، كما كان شأن استر جونسن مع جوناثان سويفت ، أو أن يختلسن المعرفة بجهدهن الخاص كما فعلت ابنة ايفلين الأثيرة لديه . وعند ماكولى أن « نساء ذلك الجيل (١٦٨٥ - ١٧١٥) الانجليزيات ، حتى فى أرقى الطبقات ، كن قطعا أسوأ تعليما منهن فى أى فترة أخرى منذ حركة احياء العلوم » (٢٠) . وقد قدر سويفت أنه لا تكاد توجد امرأة راقية واحدة فى كل ألف لقنت القراءة أو الهجاء (٢١) ، ولكن ذلك الكاهن المتشائم كان يزكو على المبالغات . على أى حال كان رأى ديفو أن اهمال تعليم المرأة ظلم همجى « لست أعتقد أن الله تعالى جعل النساء مخلوقات غاية فى الرقة والنبل ، وجملهن بهذه المفاتن ... ليكن مجرد مدبرات لبيوتنا ، وطاهيات ، واماء » . لذلك اقترح أن يكون للبنات أكاديمية شبيهة بالمدارس الخاصة فى انجلترا ، يتعلمن فيها ـ بالاضافة الى الموسيقى والرقص ـ « اللغات،

خصوصا الفرنسية والايطالية ، وأنا أجرؤ على تقديم اقتراح مؤذ ، هو تعليم المرأة أكثر من لسان واحد » . وينبغى أن يتعلمن التاريخ ، ويكتسبن كل آداب الحديث ولطائفه . واختتم الروائى الغزل بقوله : ان امرأة أحسنت تربيتها وتعليمها ، وزودت بفضائل اضافية من المعرفة والسلوك، لهى مخلوق لا نظير له . أبدع وأرق ما فى خليقة الله » ، وان « الرجل الذى كانت مثل هذه المرأة من نصيبه ليس عليه الا أن يغتبط بها ويكون شاكرا » (٢٢) .

كان كتاب جون لوك « خواطر فى التعليم » (١٦٩٣) (٢٣) ، الى حد كبير ، أعمق الابحاث التى كتبت فى النظرية التربوية فى عصر لويس الرابع عشر وأعظمها نفوذا ، وقد كتبه المؤلف بعد أن مارس التعليم مدرسا خصوصيا عدة سنوات فى أسرة ايرل شافتسبرى الأول . واقترح الفيلسوف - مترسما بادرات مونتينى - أن يكون هدف المعلم أولا صحة الجسد وعافيته ، فالجسم السليم شرط لا غنى عند للعقل السليم . لذلك كان على تلاميذه أن يتناولوا الطعام البسيط ، ويعودوا أنفسهم على اللباس القليل ، والفراش القاسي ، والجو البارد ، والهواء الطلق ، والرياضة الكثيرة ، والنوم المنتظم ، والامتناع عن النبيذ أو الخمر ، وعلى « قليل جدا من الدواء أو لادواء اطلاقا » . ويأتى بعد ذلك فى الزمان ولكنه يتقدم عليه فى الأهمية تكوين الاخلاق ، فكل التعليم سواء الجسدى أو العقلى أو الخلقى يجب أن يكون تدريبا على الفضيلة . وكما أن الجسم يجب تدريبه على الصحة باحتمال المشاق ، فكذلك يجب تشكيل الخلق بغرس نكران الذات فى جميع الاشياء التى تتعارض مع العقل الناضج . « ينبغى أن يعود الاطفال على اخضاع رغباتهم ، والاستغناء عن مشتهياتهم ، حتى وهم فى المهد » . فضبط الشهوات أشبه بالعمود الفقرى للخلق . ويجب أن يجعل هذا الضبط سارا ما أمكن، ولكن لا بد من الاصرار عليه فى مراحل التربية كلها . ولن تكفى فى ذلك الافعال الطيبة المفردة ، اذ لا بد من تربية الطالب بتكرار الافعال الطيبة لتكون « عادات » طيبة ، لأن « العادات تعمل بثبات ويسر أكثر من العقل ، الذى قل أن يستشار بنزاهة ونحن أحوج ما نكون اليه ، وندر أن يطاع » . ويتردد لوك بين أرسطو وروسو . فهو يؤثر تعليما تحرريا على تعليم يتجاهل ميل الطفل وفرديته ، وينبغى أن تجعل الدروس مشوقة ، والنظام رحيما ، ولكنه يقبل الفكرة القائلة بأنه من المرغوب فيه بين

الحين والحين توقيع العقوبات البدنية على سوء السلوك المتعمد . يضاف الى هذا « أن تعويد الاطفال فى لطف على تحمل درجات الألم دون احجام سبيل لاكساب أذهانهم الثبات وارساء أساس للشجاعة والعزيمة فى مستقبل حياتهم » .

وتربية العقل ينبغى أن تكون تدريبا على طرائق التفكير ومشقة الاستدلال ، لاخلاصة للآداب القديمة أو تراشقا باللغات . ويجب أن تعلم الفرنسية واللاتينية للاطفال فى سن مبكرة ، وبالحديث لا بالنحو . أما اليونانية والعبرية والعربية فتترك للدارسين المحترفين ويحسن افراد وقت للجغرافيا والرياضة والفلك والتشريح ، وفى مرحلة تالية للأخلاق والقانون ، وأخيرا للفلسفة . « ليست مهمة التعليم أن يمكن الصغار من علم بعينه ، بل أن يفتح أذهانهم ويشكلها بحيث يتيح لهم القدرة على اتقان أى علم حين يعكفون عليه فى مستقبل أيامهم » وكما أن الفضيلة تعلم بالعادة فكذلك يعلم الفكر بالاستدلالات المتكررة :

« ولا سبيل الى هذا خير من الرياضة ، التى أرى بناء عليه وجوب تعليمها لكل من يتاح لهم الوقت والفرصة ، لا لجعلهم رياضيين بل لجعلهم مخلوقات مفكرة ... فقد ولدنا لنكون ـ اذا شئنا ـ مخلوقات مفكرة ، ولكن سبيلنا الى هذا هى الممارسة والتمرين ، والواقع أننا لن نتجاوز فى هذا ما أوصلنا له جهدنا وعكوفنا ... وقد ذكرت الرياضة وسيلة لتقر فى الذهن عادة الاستدلال بدقة وتسلسل ، ... ، فاذا اكتسبوا طريقة الاستدلال التى توصل تلك الدراسة الذهن اليها ، استطاعوا نقلها الى ما يتاح لهم من أقسام أخرى من المعرفة (٢٤) » .

وقد قصد لوك برسالته ضربا من « التعليم المتحرر » ـ أى الذى يعنى أساسا بالفنون والأدب والسلوك، والذى يهدف الى انتاج «الجنتلمان» أى الانسان « الكريم » المولد ، الذى لن يضطر أبدا لكسب قوته بعرق جبينه × . ومع أن منهاجه يسمح ببعض العلوم ، فانه على العموم

× كلمة « جنتلمان » أصلها اللاتينى gens ، وهى العشيرة أو الأسرة من الأحرار . والتعليم الحر أو المتحرر liberal كان فى الاصل التعليم الموضوع للرجال الاحرار (liberi)

يلتزم « الانسانيات » - وهى الدراسات التى حبذها انسانيو النهضة الاوربية · وقد اشتمل كذلك على الرقص وركوب الخيل ، والمصارعة والمثاقفة ، وحتى « حرفة يدوية ، بل حرفتين أو ثلاثا » ، معوانا على الصحة والخلق ، لا سببا للرزق · أما الفنون فتعلم على سبيل الترويح لا الاحتراف ، وعلى الشباب ألا يأخذ هذه الامور مأخذ الجد الشديد ، عليه أن يستمتع بالشعر ، ولا ينظمه الا للتسلية ، ويجب أن يعلم الاستمتاع بالموسيقى دون أن يحاول اتقان العزف على أية آلة ، فهذا يقتضيه الكثير جدا من الوقت ، كما أنه يلقى بالشاب فى « صحبة غريبة جدا » ، وهكذا كانت رسالة لوك تجمع بين المحافظة والتحرر ، فهى فى استنكارها الاستغراق السكولاستى فى اللغات القديمة ، وتقليلها من التركيز على الدين واللاهوت ، واهتمامها بالصحة والخلق، وجهدها فى اعداد الشباب العريق الاصل للحياة والخدمة العامتين ، كانت تومىء الى المستقبل ، وكان لها تأثير هائل فى انجلترة وأمريكا· وقد شاركت فى تكوين الجانب البدنى والخلقى للتربية فى المدارس الخاصة " public " الانجليزية · فلما ترجمت الرسالة الى الفرنسية (١٦٩٥) طبعت منها خمس طبعات فى خمسين سنة ، وأوحت الى روسو بالكثير من الآراء · أما تلميذ لوك ، ايرل شافتسبرى الثالث ، الذى سنلتقى به ثانية ، فقد شرف نظريات استاذه وخلقه ·

٣ - الدارسون

واصل كبار الدارسين صياغة المستقبل بانارة الماضي ، وذلك برغم ما بدأ من انشغالهم باللغات المحتضرة والمناظرات الميتة ، ووجد بعضهم أنفسهم مشتبكين فى صراع المسيحية مع الفكر الحر ·

ومن صغار الأدباء والعلماء من يستحق منا لفتة اجلال عابرة · مثال ذلك شارل دوفريسن ، سيد كانج ، الذى أدهش معاصريه - وقد عرفوه محاميا فى برلمان باريس - باصداره (١٦٧٨) قاموسا للاتينية الحديثة والوسيطة فى ثلاثة مجلدات ، بلغت من دقة الدراسة مبلغا يجعلها الى اليوم الحجة فى بابها · أما بيير أوويه فقد اكتشف وحقق مخطوطة هامة لأوريجانوس ، وتعلم السريانية والعربية ، والكيمياء ، وأجرى ثمانمائة تشريح ، وكتب الشعر والقصة ، واشترك

مع مدام داسييه العالمة فى نشر الطبعة « الدلفية » الشهيرة ذات الستين مجلدا للآداب اللاتينية ، وذلك لتعليم الدوفان (ولى العهد) ، وقد عين رئيسا لأساقفة آفرانش ، وحين مات خلف مكتبته التى هى الآن جزء ثمين من المكتبة القومية . وواصل أتباع بولاند من اليسوعيين نشر موسوعتهم المئينية Acta Sanctorum (أعمال القديسين) وفى باريس ، وتحت قيادة جان مابيون ، صنف مجمع سان - مورالبندكتى (١٦٦٨ - ١٧٠٢) تاريخا من عشرين مجلدا للقديسين البندكتيين ، وألقوا بهذا الضوء الهام على حوليات فرنسا الوسيطة وآدابها . وأعطى مابيون نفسه شكلا جديدا للطريقة القديمة لكتابة اللاتينية بمؤلفه De Re diplomatica (١٦٨١) ، الذى لم يكن كتيبا فى الدبلوماسية بل رسالة فى تاريخ المراسيم والمخطوطات القديمة وطبيعتها وحجيتها . كتب مابيون بعد أن أتم جزءا من أجزائه الضخمة، « ليت الله لا يؤاخذنى على أننى أنفقت هذه السنين الطوال فى دراسة أعمال القديسين ، دون أن أشابههم الا قليلا » (٢٥) .

أما عملاق التبحر فى الدراسات القديمة فى هذا العصر فكان رتشرد بنتلى - الناظر الصارم لكلية ترنتى (بكمبردج) طوال اثنين وأربعين عاما . فلقد أفنى شبابه فى استيعاب المكتبة البودلية ، وكان وهو بعد فى التاسعة والعشرين من أكبر علماء أوربا تفقها فى آداب اليونانية واللاتينية والعبرية وآثارها . وفى ذلك العام (١٦٩١) نشر رسالة فى مائة صفحة Epistola ad Millium موجهة الى « جون مل » سابق ، بلغ من دقتها وعمقها العلميين أنها أذاعت صيته فى طول أوربا وعرضها . واختير فى الثلاثين ليلقى أول سلسلة من المحاضرات التى دبر لها المال ووضع لها الاسم فى وصية الكيميائى الورع روبرت بويل . وقد استجاب بتقديم الحجج القوية على أن النظام الكونى الذى كشف سره فى كتاب نيوتن « المبادىء » (Principia) الحديث الصدور يثبت وجود الله . وكان هذا عزاء عظيما لنيوتن الذى اتهم من قبل بالالحاد . وعين بنتلى فى وظيفة الامين الملكى للمكتبة ، وأعطى مسكنا فى قصر سانت جيمس . وهناك كان يلتقى مرارا بنيوتن ، وايفلين ، ورن ، ومن قلعته تلك خاض معركة من أشهر معارك العلم البريطانى .

أما المعركة فنجمت عن مشاركة الانجليز فى الجدل القائم حول

مزايا الأدب القديم تجاه الجديد . بدأ السر وليم تمبل المعركة بمقالته « فى العلم القديم والجديد » (١٦٩٠) التى دافع فيها عن القديم . ولعل بنتلى كان مثنيا على المقالة لولا اشادتها بفالاريس مثالا على علو كعب اليونان فى الأدب. أما فالاريس هذا فكان دكتاتورا حكم أجراجاس (أجريجنتو) فى صقلية اليونانية فى القرن السادس قبل الميلاد . وقد وصفه التاريخ أو وصفته الاساطير بأنه كان يشوى أعداءه فى بطن ثور نحاسى ، ولكن التاريخ كرمه راعيا للأدب ، وقد انحدر الينا عبر القرون ١٤٨ خطابا قيل انها بقلمه . ونشر هذه الخطـابات عام ١٦٩٥ طالب فى كلية كرايست تشيرش بأكسفورد يدعى تشارلز بويل . وطلب وليم وتون الى بنتلى الفصل فى حجية الخطابات ، اذ كان يعد طبعة ثانية (١٦٩٧) لكتابه « تأملات فى العلم القديم والحديث » الذى عارض فيه تمبل . ورد بنتلى بأن نسبتها الى فالاريس خطأ وأنها كتبت فى القرن الثانى للميلاد ، ثم أشار عرضا الى بعض الهفوات فى طبـــعة تشارلز بويل ، ونشر بويل ومعلموه دفاعا حارا عن صحة نسبة الخطابات لفالاريس . ودخل جوناثان سويفت ، سكرتير تمبل ، المعركة فى صف أستاذه بأن هزأ ببنتلى فى كتابه « معركة الكتب » . وظاهـــر رأى الأدباء العام بويل ، وحزن أصحاب بنتلى على ما بدا من انهيــــار سمعته . ولكن رده عليهم جدير بأن نتذكره : « ان أحدا من الناس لم تخسف سمعته الا بيده » (٢٦) . وفى ١٦٩٩ أصدر كتابا مطولا عنوانه « رسالة فى خطابات فالاريس » . ولم يثبت الكتاب صواب رأيه فحسب، بل ألقى من الضوء على تطور اللغة اليونانية ما جعل دنيا العلم والادب تشيد به علامة جـــديرا بأن يقف على قـدم المســـاواة مع كازوبون وسلاماسيوس سكاليجر . وقال بنتلى انه حتى أسلوب الخطابات ينم على القرن الذى كتبت فيه ، وأضاف :

« كل لغة حية لا تكف عن الحركة والتغيير ، شأنها فى ذلك شأن أجسام الكائنات الحية التى تفرز العرق ، فبعض الألفاظ تذبل وتصبح مهجورة ، وغيرها يدخل اللغة ويزداد استعماله شيئا فشيئا ، أو قد تحول ذات الكلمة الى معنى ومفهوم جديدين ، يحدثان بمضي الزمن من التغيير الملحوظ فى جو اللغة وملامحها ما يحدثه الزمن فى خطوط الوجه وسحنته . وكل الناس يحسون هذا فى لغاتهم القومية ، حيث

الاستعمال الدائم يجعل من كل انسان ناقدا ، فأى انجليزى لا يأنس فى نفسه ، من مجرد صياغة الأسلوب وزيه ، القدرة على التمييز بين الأنشاء الانجليزى الجديد وانشاء قديم انقضي عليه مائة عام ؟ ومثل هذه الفروق الواقعية المحسوسة موجودة فى عهود اللغة اليونانيــــة العديدة ... ولكن القلة القليلة هى التى أتيح لها من التفقه والمرانة على تلك اللغة ما يبلغها تلك الرهافة فى الذوق » (٢٧) .

ها هنا أديب قادر على كتابة الانجليزية قــدرته على قــراءة اليونانية .

وفى ١٦٩٩ رقى بنتلى الى نظارة كلية ترنتى بكمبردج باجماع الأساقفة الستة الذين عينهم وليم الثالث لترشيح من يشغل الوظيفــة الشاغرة . فأحكم ضبط الطلبة ، وأصلح المنهج ، وبنى مختبرا للكيمياء ومرصدا للفلك . ولكنه نفر هيئة التدريس والآداب بالكلية بغطرسته وعتوه وولعه بالمال ، حتى لقد حكم برفته مرتين ، ولكنه ناضل للرجوع الى وظيفته ، واحتفظ بها الى النهاية . ونشر خلال ذلك عددا كبيرا من الدراسات اليونانية واللاتينية ، وشجع ومول الطبعة الثانية منكتاب نيوتن « المبادىء » وهدم أنطونى كولنز فى كتابه « ملاحظات على مقال حديث فى الفكر الحر » (١٧١٣) ، وغامر فى تهور بالخــروج من ميدانه ، بأن علق على قصيدة ملتن « الفردوس المفقود » بتصحيحات متقعرة لنحو ملتن ونصه . وجلب على نفسه عداء الشاعر ألكسندر بوب اذ قال فى ترجمة بوب للالياذة « قصيدة جميلة يا مستر بوب ، ولكن يجب ألا تسميها هومر » . روى بنتلى أن « الشبل المنذر بالشر » لم يصفح عنه قط . وهزأ به بوب فى « ملحمة المغفلين » The Dunciad (ابريل ١٧٤٢) ببيتين من الشعر قال فيهما :

« المعلق الجبار ، الذى سـفهت تحقيقاته المضــنية هوراس ، وحقرت قوافى ملتن » (٢٨) .

وفى يوليو مات بنتلى بعد أن اصطلح عليه بوب وذات الجنب . لقد كان أعظم وأنقل أديب أنجبته انجلترة .

وفى هذه الأثناء مد انجليزى آخر يدعى توماس ستانلى آفـاق

الذهن البربطانى بأول كتاب انجليزى فى « تاريخ الفلسفة » (١٦٥٥ - ٦٢) ، وأدهش قراءه بتخصيص آخر مجلداته الاربعة للفلسفة الكلدية (العربية) . لقد أخذ العلم يجرؤ على تجاوز روما القديمة واليونان الى الشرق الأدنى والأوسط ، وكان لهذه الجرأة نتائج مزعجة. فاكتشف ادورد بوكوك وحقق أربع ترجمات سريانية لرسائل العهد الجديد (١٦٣٠) ، وأنشأت أكسفورد لأجله أول كرسي للغة العربية فبها ، وفتحت محاضراته فبها عيون الانجليز على الحضارة الاسلامية. أما فى فرنسا فان الموسوعة التى أفنى فبها بارتلمى ديربيلو عمره ، وهى « المكنبة الشرقية » الضخمة (١٦٩٧) - التى وضع لها عنوانا فرعيا هو « قاموس عالمى شامل بصفة عامة لكل ما يتصل بمعرفة .... الشرق » - هذه المكتبة كانت كشفا عن التاريخ والعلم العربيين ، ولعبت دورا فى توسيع الآفاق الفكرية توسيعا حطم كل القيود فى حركة تنوير القرن الثامن عشر . وتعجب الطلاب من ذلك الغنى فى شعر العرب وتاريخهم وفلسفتهم وعلومهم ، ولاحظوا كيف حافظ العرب على علم اليونان وفلسفتهم فى الوقت الذى طواهما فيه النسيان ابان عصور غربى أوربا المظلمة، وعرفوا أن محمدا لم يكن مجرد دجال أفاك بل كان حاكما ذكيا وسياسيا أريبا ، وحيرهم ألا يجدوا فى العالم الاسلامى جرائم أكثر ولا فضائل أقل مما فى العالم المسيحى . وأصبحت نسبية الاخلاق واللاهوت خميرة مذيبة فى الذهن المسيحى .

وكان من أثر الدراسات للتاريخ الشرقى - بما فيه المصرى والصينى - تقويض الحساب اليهودى الذى أرخ خلق العالم بسنة ٣٧٦١ قبل الميلاد ، والحساب الذى وضعه جيمس أشر ، رئيس الاساقفة الانجليكانى لأرما - بأرلنده - (١٦٥٠) وقرر فيه أن الخلق حدث « فى بداية الليلة السابقة ليوم الاثنين ٢٣ أكتوبر ٤٠٠٤ ق .م (٢٩) وكان سبينوزا - كما سنرى بعد قليل - يستهل (١٦٧٠) حركة « النقد الأعلى » للكتاب المقدس - أى دراسته بوصفه انتاجا بشريا ، غنيا فى العظمة والسمو ، وفى الاخطاء والسخافات .

وقد جلب أعلم ناقد الكتاب المقدس فى القرن السابع عشر على رأسه غضب بوسويه وسخطه فى محاولته الرد على سبينوزا ، لأنه سلم فى النهاية بالكثير مما زعمه الفيلسوف . وهذا الناقد ، واسمه ريشار

سيمون ، وأبوه كان حدادا ، التحق بالمصلى فى باريس ، ورسم قسيسا (١٦٧٠) وكتب فى ذلك العام نشرة دافع فيها عن يهود متز الذين اتهموا بقتل طفل مسيحى . وفى ١٦٧٨ ، بعد سنوات من البحث شملت دراسات مع عدة أحبار يهود ، أعد العدة لنشر كتابه « تاريخ نقدى للعهد القدمبم » . ورأى ، فى الطريق ، أن يفند حجج سبينوزا ضد الوحى الالهى للاسفار المقدسة . فسلم بأن أسفار العهد القديم ليست تماما من عمل المؤلفين الذين نسبت لهم ، وأنه لا يمكن أن يكون موسي قد كتب الاسفار الخمسة كلها (التى ورد فيها وصف لموت موسي) ، وأن أسفار الكتاب عراها التغيير الكتير عن صورتها الأصلية بأقلام الكتبة والناسخين الذين نقلوها الى الخلف . وناضل سيمون للاحتفاظ بسلامة عقيدته وبرخصة طبع كتابه ، فزعم أن هؤلاء المراجعين كانوا هم أيضا يعملون بالوحى الالهى ، ولكنه اعترف بأن جميع نسخ العهد القديم الموجودة شوهتها التكرارات والتناقضات والالتباسات وغيرها من الصعوبات بحيث لا تتيح الا أساسا واهيا للاهوت عقائدى . ورأى أن يهاجم البروتستنت بهذه النقطة ، فقال ان ايمانهم بالوحى الشفوى للاسفار المقدسة يتركهم عاجزين أمام النقد النصي فى حين يستطيع الكاثوليكى الموالى لكنيسته أن ينجو من أذى هذه الدراسة الناقدة بقبوله التفسير الذى وضعته كنيسة روما للنص . واختتم سيمون بالقول بأن الوحى الالهى للكتاب المقدس لا يصدق على أى حال الا على أمور الايمان .

ووافق رئيس المصلى على نشر كتاب سيمون . وبينما كانت أصوله فى المطبعة وقعت بعض صفحات تجارب الطبع فى يد أرنو « الكبير » رجل البور - رويال ، فروعه ما قرأ . وأطلع بوسويه على التجارب ، فندد هذا على الفور بالكتاب باعتباره « نسيجا من الكفريات ومعقلا للالحاد ... سيهدم سلطان الاسفار القانونية (٣٠) » وناشد بوسويه السلطات الزمنية أن تمنع نشر الكتاب . فصادرت الطبعة بأكملها ، وقوامها ألف وثلثمائة نسخة ، وعجنتها عجنا واعتكف سيمون خوريا مغمورا فى نورمنديه ، ولكنه وجد السبل لطبع مخطوطته فى روتردام (١٦٨٥) وبعد أربع سنوات نشر كتابه «تاريخ نقدى للعهد الجديد» وأراد أن يتوج جهوده بترجمة جديدة للكتاب المقدس ، وفرغ من ترجمة

العهد الجديد ، ولكن بوسويه الذى أفزعته الحرية التى تناول بها سميون النص المقدس أقنع المستشار بمصادرة الكتاب (١٧٠٣) . وتخلى سيمون عن مشروعه ، وأحرق أوراقه ، ومات (١٧١٢) .

وأثارت ترجمته للعهد الجديد أربعين اعتراضا نفند هده الترجمة وتبين عصمته . على أنها ما زالت هى وكتاب سبينوزا « رسالة لاهوتية سياسية » من المعالم فى الدراسة الحديثة للكتاب المقدس . وقد حذر ليبنتز - بعد أن قرأ هذه الابحاث النقدية الاولى - من أن هذا الانجاه فى التحقيق لو استمر سيدمر المسيحية (٣) . ولم يحن الوقت بعد للقول هل كان مصيبا أم مخطئا فى زعمه هذا .

الفصل الثامن عشر

البحث العلمى

١٦٤٨ ـ ١٧١٥

١ ـ دوليـــة العلم

كان مزاج أوربا يتغير فى بطء ـ سواء كان التغيير خيرا أو شرا ـ من الايمان بالخوارق الى النزعة العلمانية ، ومن اللاهوت ، ومن آمال الجنة ومخاوف الجحيم الى خطط توسيع المعرفة وتحسين حياة البشر . فأما الطبقات العليا التى واصلت أساليب حياتها الابيقورية فلم تعترض كثيرا على ايمان دينى كانت تراه مفيداً للجماهير الشقية التى حرمت فردوس الحسب والنسب ، ولكن كان هناك نفر ، حتى من بين هذه القلة المميزة ، ممن تلهوا بالعلم ، ووازنوا المعادلات ، وأحرقوا أصابعهم أو نشقوا بأنوفهم فى المختبرات ، أو تفرسوا بدهشة فى النجوم المتكاثرة . ففى باريس مثلا تزاحمت سيدات المجتمـع العصريات على محاضرات ليميرى فى الكيمياء ، وعلى شروح دوفرنيه فى التشريح ، ودعا كونديه لبميرى الى صالونه الخاص جدا ، وعين لويس الرابـع عشر دوفرنيه ليساعد فى تعليم الامير الوارث للعرش . وفى انجلترة كان لتشـــارلز الثانى « مختبر كيميائى » خاص به ، وحاول البارونات ، والاساقفة ، والمحامون القيام بالتجارب ، وأقبلت الخليلات الانيقات فى مركباتهن ليشهدن عجائب المغناطيسية ، وهوى ايفلين الفيزياء ، وأراد انشـــاء معهد للبحث العلمى ، ووجد بيبس وقتا ـ وسط شغله بالمراكب والنساء ـ لاستعمال المكروسكوب ، ومضخة الهواء وسكين التشريح ، وأصـــبح رئيسا للجمعية الملكية .

وتخلفت الجامعات عن الشعب فى هذا الاهتمام الجديد ، ولكن الأكاديميات الخاصة التقطته . ويلوح أن البادىء كان « أكاديمية أسرار الطبيعة » بنابلى (١٥٦٠) ، ثم أكاديمية « دى لنتشي » بروما (١٦٠٣) التى كان جاليليو ينتمى اليها ، ثم أكاديميـــة «ديل تشيمنتو»، التى أنشأها تلميذاه تفيانى وتوريتشيللى فى فلورنســـة (١٦٥٧) . وقد

كرس هذا المعهد بحكم اسمه للتجارب ، واتخذ الشك الديكارتى منطلقا له ، فلا شيء يجب التسليم به بالايمان ، ولا بد من بحث كل مشكلة دون نظر الى أى ملة أو فلسفة موجودة (١) . ولم يعمر بعض هذه الأكاديميات طويلا ، ولكنها كانت تترك خلفاء لها بعد موتها . وأنشئت الاكاديميات فى شفينفورت (١٦٥٢) ، والتدورف (١٦٧٢) ، وأوبسالا (١٧١٠) ، وفى ١٧٠٠ ، وبعد ثلاثين سنة قضاها ليبنتز فى الالحاح ، خرجت أكاديمية برلين الى النور ، كذلك يرجع الفضل الى ليبنتز فى انشاء أكاديمية سانت بطرسبورج (١٧٢٤) .

وتطورت « أكاديمية العلوم » فى فرنسا من اجتماعات (١٦٣١ – ٣٨) مرسين ، وروبرفال ، وديزارج ، وغيرهم من العلماء فى بيت والد بسكال فى باريس ، أو فى صومعة مرسين . وقد صاغت برنامجا « للعمل على تحسين العلوم والآداب ، والبحث عموما عن كل ما يمكن أن يجلب المنفعة أو الراحة للنوع الانسانى » ، كذلك قررت أن « تحرر العالم من كل الأخطاء الشائعة التى انطلى زيفها على الناس منذ زمن طويل » ولكنها نصحت أعضاءها بأن يجتنبوا الخوض فى الدين أو السياسة (٢) . وفى ١٦٦٦ ظفرت الأكاديمية بمرسوم ملكى ، وبحجرة فى المكتبة الملكية ، وفى فرساى ترى الى اليوم لوحة كبيرة بريشة تيستيلان يقدم فيها لويس الرابع عشر هذا المرسوم لجماعة يرأسها كرستيان هويجنز وكلود بيرو . وكان كل عضو من أعضائها الواحد والعشرين يتلقى من الحكومة راتبا سنويا ، فضلا عن مبلغ يغطى النفقات ، وقد أصبحت الأكاديمية من الناحية الفعلية مصلحة من مصالح الدولة . وكان لويس يخص الفلكيين بعطفه . فدعا كاسينى من ايطاليا ، ورويمر من الدنمرك ، وهويجنز من هولنده ، وشاد مرصدا فخما . وحين التهمت النيران المكتبة الثمينة التى يقتنيها هيفيليوس الدانزجى ، والذى تفرد بدراساته للقمر ، نفحه الملك بعطاء سخى ليعوض خسارته (٣) . وقد نسب لابلاس الفضل للأكاديمية فى معظم ما أحرزت فرنسا من تقدم علمى ، ولكن اعتمادها على ملك وثيق التحالف مع الكنيسة كان ضارا بتقدم العلم الفرنسي (٤) ، بينما مضي الانجليز فى هذا الطريق قدما .

ومن سمات انجلترة أن أكاديمياتها العلمية كانت مؤسسات أهلية لا تدين للحكومة الا بفضل عارض ، يقول جون واليس انه حوالى عام

١٦٤٥ ، تعرف فى لندن الى « نفر من فضلاء القوم ، المحبين للاستطلاع فى الفلسفة الطبيعية وغيرها من فروع العلم الانسانى ، لا سـيما ... الفلسفة التجريبية (٥) » . واتفقوا على الاجتماع مرة كل اسبوع لمناقشة الرياضة ، والفلك ، والمغنطيسية ، والملاحة ، والفيزياء ، والميكانيكا ، والكيمياء ، والدورة الدموية ، وغير ذلك من الموضوعات . وقد اسنوحت هذه « الكلية غير المنظورة » ـ كما كانت تسمى آنئذ ـ « بيت سليمان » الوارد فى كتاب بيكون « آطلانطيس الجديدة » فلما انتقـل واليس الى اكسفورد أستاذا للرياضة ، انقسمت الجمعية قسمىن ، يجتمع أحدهمـا فى مسكن روبرت بويل بالجامعة ، والآخر فى كلية جريشام بلندن ، وكان رن وايفلين من أول الاعضاء هناك . وفطع هذه الاجتماعات اللـدنيـة ما وقع من اضطراب سياسي بين موت كرمويل وعـودة الملكيـة ، ولكن سرعان ما استؤنفت عقب تولى تشارلز الثانى العرش ، وفى ١٥ يوليـو ١٦٦٢ منح الملك « جمعية لندن الملكية لترقية المعـرفة الطبيعية » براءة رسمية . وكان « الزملاء الأصليون » البالغ عددهم ثمانيـة وتسـعين لا يشملون علماء من أمثال بويل وهوك فحسب ، بل شعراء كدرايدن ووالر ، ورن المعمارى ، وايفلين ، وأربعة عشر نبيلا ، وعدة أساقفة . وفيما بين عامى ١٦٦٣ و ١٦٨٦ ضم اليها نحو تلاثمائة زميل اضـافى . ولم يكن هناك فوارق طبقية تقسمهم ، فكان الادواق والعامة سواسية فى هـذا المشروع ، وأعفى الاعضاء الفقراء من رسوم العضوية (٦) . وفى ١٦٧٣ صرح ليبنتز ، الذى سمح له بالعضوية ، بأن الجمعية الملكية أعظم الهيئات الفكرية احتراما فى أوربا . وفى تاريخ باكـر (١٦٦٧) نشر توماس سبرات كتابه الممتاز « ناريخ الجمعية الملكية » وقد ناثر هو أيضـا ، ، بالانسام البيكونيه التى كانت تهب على انجلتره ، وذلك برغم نرفيته أسقفا لروتشستر .

وشكا بعض اللاهوتيين من أن المعهد الجديد سـيقوض الاحترام للجامعات والكنيسة الرسمية ، ولكن اعتدال الجمعية وحذرها لم يلبثا أن هدءا من معارضة رجال الكنيسة وروحت تجاربها الغريبة عن الحاشية والملك ، الذى ضحك حين سمع أنها تزن الهواء وتفـكر فى الطيران الميكانيكى . وقد هجاها سويفت فى قصة « رحلات جليفرز » وسماها أكاديمية لاجادو العظمى ، وجعل أعضاءها يضعون الخطط لاسـتنباط

ضوء الشمس من الخيار ، ولبناء البيوت ابتداء من الاسقف فما دون ، وذكر صموئيل بطلر ، مؤلف « هوديبراس » كيف أن ناديا من العلماء هاج وماج لاكتشافه فيلا فى القمر ، ثم تبين أنه فأر فى تلسكوبهم (٨) . ولكن رعاية الجمعية الملكية هى صاحبة الفضل فى تحسين ايفلين للزراعة الانجليزية ، وارساء السر وليم بتى علم الاحصاء ، وتقدم العلم والطب الانجليزيين بخطى نجاوزت كل ما عـرف فى فرنسـا أو ألمانيـا المعاصرتين ، وانشاء علم الكيمياء تقريبا ، واحـداث راى ثورة فى علم النبات ، وودوارد فى الجيولوجيا ، ونيوتين فى الفلك . وأجـرت الجمعية آلاف التجارب فى الكيميـاء والفيزياء ، وكانت تتسلم جثث المجرمين الذين أعدموا وتشرحها وتدرسها ، وأصبحت مستودعا للتقارير الطبية تتلقاها من الاطباء فى جميع أرجاء البلاد ، وجمعت تقـارير التطورات التكنولوجية ، وكانت على صلة بالبحث العلمى فى خـارج انجلترة . وسده تأكيدها على العمليـات الطبيعية والنامـوس الطبيعى الخرافة واضطهاد السحر .

وفى عام ١٦٦٥ بدأ سكرتيرها هنرى أولدنبرج اصدار مجلة « الاعمال الفلسفية للجمعية الملكية » التى استمرت الى يومنا هذا . وقد طلبت وتلقت المقالات من خارج البلاد . وكانت من أوائل طابعى اكتشافات مالبيجى وليوفنهويك . أما أولدنبرج هذا فقد وفد على انجلترة فى ١٦٥٣ ليفاض فى ابرام معاهدة تجارية لوطنه بريمن ، فبقى بها ، وأصبح صديقا لملتن ، وهوبز ، ونيوتبن ، وبويل ، وراسل بنشاط العلماء والفلاسفة فى جميع أنحاء العالم . وقال ان أعضاء الجمعية الملكية « يمتحنون الكون كله (٩) » ، وكتب لسبينوزا يقول :

« اننا على ثقة من أن أشكال الاشياء وصفاتها يمكن تعليلهـا أفضل تعليل بأصول الميكانيكا ، وأن كل آثار الطبيعة تحدثها الحركة والشكل ، والنسيج ، والارتباطات المختلفة لهذه كلها ، وأنه لا حاجة بنا لان نلجأ الى الاشكال التى لا تفسير لها أو الصفات السحرية ملاذا من الجهل (١٠) ».

وبفضل هذه « الأعمال الفلسفية » الانجليزية و « مجلة العلماء» الفرنسـية ، و « الجـورنالى دى لتيـراتى » الايطاليـة ،

و « الأكتا ايروديتورم » الالمانية استطاع العلماء والدارسون الاوربيون أن يتغلبوا على الحدود القومية ، ويكونوا على اتصال بأعمال بعضهم البعض وكشوفهم ، ويؤلفوا جيشا متحدا يزحف فى مغامرة خلاقة هائلة . وكانوا وهم عاكفون بمنأى عن الانظار فى مكاتبهم ، ومختبراتهم ، وبعثاتهم ، متجاهلين أو منتصرين على جلبة السياسة ، وزحف الجيوش ، وطنين العقائد الدينية ، وضباب الخرافة ، وعملاء الرقابة المدنية أو الكنسية المتطفلين - كانوا وسط هذا كله يكبون على النصوص ، وأنابيب الاختبار ، والمكرسكوبات ، ويخلطون المواد الكيماوية فى فصول ، ويقيسون القوى والاحجام ، ويضعون المعادلات والرسوم البيانية ، ويتفحصون أسرار الخلية ، وينبشون طبقات الارض ، ويرسمون حركات النجوم ، حتى بدت حركات المادة وكأنها تنتظم فى قانون ، وبدت ضخامة الكون الهائلة وكأنها تمتثل للذهن البشرى المذهل . ففى فرنسا كان فيرما ، وبسكال ، وروبرفال ، وماريوت ، وبيرو ، وفروع بأكملها من آل كاسينى وفى سويسرة كان آل برنويى، وفى ألمانيا كان جويريكى، وليبنتز، وتشرنهاوس، وفارنهايت، وفى هولندة كان هويجنز وليوفنهويك، وفى ايطاليا كان فيفيانى وتورب تشيللى ، وفى الدنمرك كان سنينو ، وفى اسكتلنده كان جيمس وديفد جريجورى، وفى انجلترة كان واليس، ولستر، وبويل، وهوك، وفلامستيد، وهالى ، ونيوتن : هؤلاء كلهم وغيرهم كثيرون ، كانوا فى هذه الحقبة القصيرة من تاريخ أوربا من ١٦٤٨ الى ١٧١٥ ، يكدون فرادى وجماعات منعزلين ومتعاونين ، ليبنوا يوما فيوما ، وليلة فليلة ، صرح الرياضة ، والفلك ، والجيولوجيا ، والجغرافيا ، والفيزياء ، والكيمياء ، والاحياء، والتشريح ، والفسيولوجيا - هذه العلوم التى قدر لها أن تحدث ثورة مصيرية فى النفس الحديثة . أما أولدنبرج ، الذى أحس دولية العلم هذه ، ولم يخطر بباله قط أن القومية قد تجعل العلم نفسه أداة حزبية ومدمرة ، فقد رأى فى هذا التعاون الملهم بشيرا بحياة أفضل . وكتب لهويجنز يقول « أرجو أن يأتى الوقت الذى تتعانق فيه كل الامم ، حتى المتخلفة فى الحضارة ، عناق الرفاق الاعزاء ، وأن تتضافر قواها الفكرية والمادية لاقصاء الجهل ، وتغليب الفلسفة الصحيحة النافعة(١١) » . ومازال هذا رجاء العالم الى اليوم .

٢ - الرياضيات

بدأت الدولية الجديدة بشحذ أدواتها · فطور بسكال وهوك وجويريكى البارومتر ، واستطلعت مضخة جويريكى الهوائية امكان احداث الفراغ ، وصنع جريجورى ونيوتن وغيرهما تلسكوبات أفضل من تلسكوبات كبلر وجليليو ، واخترع نيوتن آلة السدس ، وحسن هوك الميكروسكوب المركب ، الذى أحدث انقلابا فى دراسة الخلية ، وأصبح الترمومتر أوثق وأدق على يد جويريكى وأمونتونز ، وفى عام ١٧١٤ أعطاه فارنهايت شكله الانجليزى - الامريكى باستخدامه الزئبق بدلا من الكحول وسيطا متمددا ، وقسم مقياسه عند الصفر ، و ٣٢ درجة و ٩٦ درجة (التى افترض انها حرارة جسم الانسان الطبيعية)·

أما أعظم الادوات قاطبة فكانت الرياضيات ، لأنها أضفت على التجربة شكلا كميا ومعايرا ، ومكنتها بمئات الطرق من التنبؤ بالمستقبل بل السيطرة عليه · قال بويل « ان الطبيعة تلعب دور الرياضي » وأضاف ليبنتز « ان العلم الطبيعى ليس الا الرياضة التطبيقية (١٢) » · ويشيد مؤرخو الرياضيات بالقرن السابع عشر لأنه كان وافر الثمر فى ميدانهم على الاخص ، فهو قرن ديكارت ، ونابيير ، وكافالييرى ، وفيرما ، وبسكال ، ونيوتن ، وليبنتز ، وديزارج · وكانت السيدات المعطرات بالنبالة يختلفن الى محاضرات الرياضة ، وقالت « صحيفة العلماء » مازحة ان بعضهن جعلن تربيع الدائرة الجواز الوحيد لرضائهن (١٣) ، ولعل هذا أن يفسر جهود هوبز الملحة فى حل تلك المعضلة المحيرة ·

وأنجب بيير دفيرما النظرية الحديثة للاعداد (دراسة أنواعها ، وخصائصها ، وعلاقاتها) وتخيل الهندسة التحليلية مستقلا عن ديكارت - وربما قبله ، واخترع حساب الاحتمالات مستقلا عن بسكال ، وسبق نيوتن وليبنتز الى حساب التفاضل · ومع ذلك عاش مغمورا بعض الشيء فى عضويته ببرلمان تولوز ، ولم يدل باسهاماته فى الرياضة الا فى خطابات لاصدقائه - لم تنشر الا سنة ١٦٧٩ ، بعد موته بأربعة عشر عاما · وفى أحد هذه الخطابات نستشف انتشاءه

بالرياضة . « لقد عثرت على عدد كبير جدا من النظريات الجميلة جدا (١٤) » وكان يطرب لكل حيلة جديدة أو انتظام مدهش فى الاعداد . وقد تحدى رياضي العالم « ان يقسموا المكعب الى مكعبين ، وربع القوة الى ربعى القوة » ، الخ ، وكتب يقول « لقد اكتشفت برهانا عجيبا حقا لما يعرف الآن بـ «آخر نظريات فيرما » ، ولكن لا برهانه ولا أى برهان قاطع عليها قد وجد الى الآن . وفى عام ١٩٠٨ أوصي استاذ ألمانى بمائة ألف مارك لأول شخص يبرهن على فرض فيرما ، ولم يطالب أحد الى الآن بالجائزة ، وربما ثبط همته هبوط قيمة المارك .

وكان كرستيان هويجنز أبرز علماء هذا العصر ، باستثناء عالم واحد فقط ، فكان التالى مباشرة لنيوتن . وكان أبوه قسطنطين هويجنز من ألمع شعراء هولندة وساستها . ولد كرستيان فى ١٦٢٩ ، وبدأ فى الثانية والعشرين نشر الابحاث الرياضية . وما لبثت كشوفه فى الفلك والفيزياء أن أذاعت شهرته فى أوربا ، فانتخب زميلا للجمعية الملكية بلندن فى ١٦٦٣ ، وفى ١٦٦٥ دعاه كولبير للانضمام الى أكاديمية العلوم بباريس ، فانتقل الى العاصمة الفرنسية ، وتلقى معاشا سخيا ، ومكث بها حتى ١٦٨١ ، ثم عاد الى هولندة لضيقه بالحياة فى ظل ملك تحول مضطهدا للبروتستنت . وكان تراسله بست لغات مع ديكارت ، وروبرفال ، وميرسين ، وبسكال ، ونيوتن ، وبويل ، وكثير غيرهم ، دليلا على الوحدة المتزايدة التى تربط الأخوة العلمية. قال « ان العالم وطنى ، والنهوض بالعلم دينى (١٥) » . ومن عجائب زمانه عقله السليم فى جسمه السقيم ـ فقد كان جسمه عليلا أبدا ، وعقله خلاقا حتى موته فى السادسة والستين . وكان انتاجه فى الرياضة أقل جزء فى انجازاته ، ومع ذلك فان الهندسة ، واللوغاريتمات ، وحساب التفاضل والتكامل ـ كلها أفادت من جهوده . وفى ١٦٧٣ أثبت « قانون المربعات العكسية » (أى ان جذب الاجسام بعضها لبعض يتناسب تناسبا عكسيا مع مربع المسافة بينها) وهو القانون الذى أصبح بالغ الاهمية لفلك نيوتن .

وكان نيوتن الآن بالطبع أسطع نجم تكند سماء العلم البريطانى ، وهو جدير بأن نفرد له فصلا خاصا ، ولكن كان لنجمه أقمار توابع .

ومنهم صديقه جون واليس ، القسيس الانجليكانى ، الذى أصبح استاذا « سافيليا » للهندسة فى اكسفورد عام ١٦٤٩ وهو فى الثالثة والثلاثين ، وشغل ذلك الكرسي أربعة وخمسين عاما . وقد صرف النحو والمنطق واللاهوت قلمه عن العلم ، ومع ذلك فانه كتب بحوثا ذات أثر فى الرياضة والميكانيكا ، والسمعيات والفلك ، والمد والجزر ، والنبات والفسيولوجيا ، والجيولوجيا ، والموسيقى ، ولم يعوزه سوى بعض الحب والحرب لتكتمل شخصيته . ورسالته « فى تاريخ الحبر وممارسته » (١٦٧٣) لم تسهم بأفكار أصيلة فى ذلك العلم فحسب ، بل كانت أول محاولة جدية فى انجلترة لكتابة تاريخ الرياضة . وقد ابتهج معاصروه بالجدل الطويل بينه وبين هوبز حول حساب تربيع الدائرة ، وانتصر واليس ، ولكن الفيلسوف العجوز واصل الكفاح الى نهاية سنيه الواحدة والتسعين . ويذكر التاريخ واليس على الاخص بكتابه « حساب اللانهائيات » (١٦٥٥) الذى طبق طريقة كافالييرى فى اللامنقسمات على حساب تربيع المنحنيات ، وبهذا مهد لحساب التفاضل المتناهى الصغر .

أما كلمة calculus فكانت تعنى أصلا حجرا صغيرا استعمله الرومان القدامى فى العد ، ولكن لا يستطيع تعريف حساب التفاضل على وجه الصحيح الآن غير الراسخين فيه × . وقد لمحه أرخميدس من بعيد ، واقترب منه كبلر ، واكتشفه فيرما ولكنه لم ينشر كشوفه ، وحمل كافاليرى وتوريتشيللى فى ايطاليا ، وبسكال وروبرفال فى فرنسا ، وجون والس واسحاق بارو فى انجلترة ، وجيمس وديفد جريجورى فى

× أما بالنسبة لنا نحن غير الخبيرين به ، فيمكن وصفه بانه حساب المقادير القابلة للتغير ، كمقادير الوزن ، أو المسافة ، أو الزمن ، فمنسوب الماء الذى يسكب بسرعة متماثلة فى مخروط مقلوب يرتفع بسرعة أقل فاقل ، وحساب التفاصيل يحدد مبلغ ارتفاع المنسوب فى أى وحدة زمنية معلومة . فالجسم الساقط فى « وسط خال من المقاومة » يزيد من سرعة سقوطه مع كل زيادة فى الزمن ، وحساب التفاضل يبين مدى سقوطه فى أى فترة معينة . وأشكال هذا الحساب الاكثر تعقيدا تتناول انشاء المماسات للمنحنيات ، والمساحات المحاطة بمنحنى ، وتقريب الخطوط المستقيمة المضاعفة لا نهائيا الى الدائرة . وحساب التفاضل المتناهى الصغر يحسب مقدارا قابلا للتغير باختزاله دون حد الى جزء دقيق جدا بحيث يمكن اهمال معدل التغير . وحساب التكامل يحسب مقدارا ما من واقع العلم بسرعة تغيره . وقد تبين أن جميع طرق الحساب هذه بالغة الفائدة للاعمال الهندسية .

اسكتلندة ـ هؤلاء كلهم حملوا لبنات للبناء فى تعاون القـــارة المدهش هذا • وأوصل نيوتن وليبنتز العمل الى التمام •

واقترح لفظة calculus على ليبنتز رجل يدعى يوهان برنويى أحد افراد أسرة نفردت بوراثة النبوغ الاجتماعية تفرد آل باخ ، وبروجل وكوبرين • وكان نيقولاوس برنويى (١٦٢٣ ـ ١٧٠٨) كأسلافه تاجرا • وارتقى الحساب التجارى عند ولده يعقوب برنويى الاول (١٦٥٤ ـ ١٧٠٥) الى أشكال أرقى من الحساب • واتخذ يعقوب هذا شـــعارا له القول المأثور « اننى أدرس النجوم مخالفا ارادة أبى » ، فهوى الفلك ، وأسهم فى الهندسة التحليلية ، وحسن حســـاب التغبيرات ، وأصبح أستاذا للرياضيين فى جامعة بازل • وقد آتت دراســـاته للمنحنيـــات الكتينية (وهى المنحنيات التى ترسم بسلســـلة منتظمة معلقـــة بين نقطتين) ـ هذه الدراسات آتت أكلها فى فترة لاحقة فى تصميم الكبارى المعلقة وخطوط النقل العالية الفولت • واتخذ أخوه يوهان (١٦٦٧ ، ١٧٤٨) الطب مهنته ـ مخالفا خطط أبيه هو أيضا ـ ثم الرياضة ،وخلف يعقوب أستاذا فى بازل ، واسهم فى الفيزياء ، والبصريات ، والكيمياء والفلك ، ونظرية المد والجزر ، ورياضة القلوع ، وابتكر حساب التفاضل الأسي ، وأنشأ أول نظام لحساب التكامل ، وأدخـــل استعمال كلمـــة integral بهـذا المعنى • ونال أخ آخر لهمـــا يدعى نيقولاوس الاول (١٦٦٢ ـ ١٧١٦) درجة الدكتوراه فى الفلسفة وهو بعد فى السادسة عشرة ، وفى القانون وهو فى العشرين ، ودرس القانون فى برن والرياضة فىسانت بطرسبورج• وسنلتقى بستة رياضيين آخرين من آل برنويى فى القرن الثامن عشر ، وكان منهم اثنان آخران فى القرن التاسع عشر ، وهنا كفت البطاريات البرنويية عن عملها •

ومن مآثر هذا العصر ارساء الاحصاء علما أو ما يشبه العلم • ذلك أن خردجيا بدعى جرونت كان يتسلى بجمع سجلات الدفن المحفـــوظة بأبرشيات لندن ودراستها • وكانت هذه السجلات تذكر عادة الســـبب المتناقل لموت الميت ، مثل « مات جـوعا فى الشارع » و « أعدم وعصر حتى الموت » و « داء الملك » (الخنازيرى) و « مات جوعـا عنـــد مرضعته» و « قتلوا أنفسهم (١٦) » وفى ١٦٦٢ نشر جرونت كتـابا سماه « ملاحظات طبيعية وسياسية ••• على سجلات الوفيـــات » ،

والكتاب بداية علم الاحصـــاء الحديث ، وقد خلص من جداوله الى أن ستة وثلاثين فى المائة من الاطفال يموتون قبل بلوغهم السادسة ، وأربعة وعشرين فى المائة فى العشر السنوات التالية ، وخمسة عشر فى المائة فى العشر التالية . الخ (١٧) ، وتبدو نسبة الوفيات فى الاطفال مغالى فيها كثيرا هنا ، ولكنها تومىء الى جهد الحب فى ملاحقة ملاك الموت . قال جرونت « من الوفيات العديدة ما يحمل نسبة ثابتة الى جمـلة المدفونين ، وأعنى الوفـــاة بالامراض المزمنـــة ، والامراض التى يعظـــم تعـــرض المدينة لها ، كالسل ، والاستسقاء ، واليرقان ، الخ (١٨) » ، ومعنى هذا أن أمراضا معينة ، وظواهر اجتماعية أخرى ، وان تعذر التنبؤ بها فى الافراد ، الا انه يمكن حسابها مسبقا بدقة نسبية فى الحماعة الكبيرة وهذا المبدأ الذى صاغه جرونت هنا أصح أساسا للتنبؤ الاحصائى . وقد لاحظ أن وقائع الدفن فى لندن فى سنوات كثيرة فاقت وقائع العماد ، وانتهى الى أن لندن تنميز بوفرة احتمالات الموت ، كالموت من همـــــوم العمل ، و « الدخان ، والروائح العفنة ، والهواء الفاسد » و « الافراط فى الطعام » ولكن بما أن سكان لندن كانوا يتزايدون رغم هـذا ، فان جرونت عزا الزيادة الى وفود المهاجرين من الريف والمدن الصغيرة - وقدر سكان العاصمة فى عام ١٦٦٢ بنحو ٣٨٤ر٠٠٠ نسمة .

وطبق السر ولبم بتى ، صديق جرونت ، الاحصاء على السياسة . وهنا أيضا مثال آخر على تعدد فى القدرات يستحيل العثور عليه اليوم فى فرد واحد ، فان بتى بعد أن تلقى العلم فى كان ، وأوترخت ، وليدن وأمستردام ، وباريس ، درس التشريح فى أكسفورد ، والموســيقى فى كلية جريشام بلندن ، وجمع ثروة ونال لقب الفروسـية باشتغاله طبيبا للجيش الملكى بارلندة × . وفى ١٦٧٦ ألف كتابا هو العمدةالثانى فىعلم الاحصاء الانجليزى ، وهو « الحساب السياسى » فالسياسة فى رأى بتى لا يمكن أن تصبح علما أو كالعلم الا اذا بنت استنتاجاتها على قياســات كمية . لذلك طالب بتعداد دورى يسجل الميلاد ، والجنس ، والحـالة

× يقول أوبرى انه فى اكسفورد « كان يحتفظ بالجثة .. مخللة أو مملحة » وكانت أحدى الحثث التى جىء بها اليـــه لتشريحها جثـــة نان جـــرين ، التى قتلت ابنها غير الشرعى ، ووجدها بنى لا تزال تتنفس ، وردها الى الحيـــاة ثانية (١٩) .

الزوجية ، والالقاب ، والمهنة ، والدين ، الخ • لكل شــخص يسـكن انجلترة • واعتمادا على قوائم الوفيات ، وعدد البيوت ، وزيادة المواليد على الوفيات سنويا ، قدر أن سكان لندن فى ١٦٨٢ يبلغون ٦٩٦٫٠٠٠ ، وسكان باريس ٤٨٨٫٠٠٠ ، وسكان أمستردام ١٨٧٫٠٠٠ ، وسكان روما ١٢٥٫٠٠٠ • ورأى بتى ما رآه جوفــانى بوتيرو فى ١٥٨٩ وتوماس مالثوس فى ١٧٩٨ ، وهو أن عدد السكان ينحو الى الزيادة بأسرع من موارد الرزق ، وأن هذا يفضى الى الحرب ، وأنه لن تحل سنة ٣٦٨٢ حتى تكتظ الارض الصالحة للسكنى بأهلها اكتظاظا خطرا ، اذ يعيش شخص فى كل فدانين (٢٠) •

وأفادت شركات التأمين من الاحصاء فحولت عملها فنـا وعلمـا آخذا فى حسابهما كل شيء الا التضخم • ومن واقع تقارير الوفيات فى برسلاو أعد ادموند هالى (١٦٩٣) جدولا بالوفيات المتوقعة فى جميع الاعمار من عمر سنة الى أربع وثمانين ، وعلى أساس الجدول حسـب احتمالات وفاة الافراد فى سن معينة خلال السنة الشمسية ، واستخرج السعر المنطقى لبوليصة التأمين • وانتفعت أولى شركات التـأمين على الحياة التى أسست بلندن فى القرن الثامن عشر بجداول هالى ، وأحالت الرياضة ذهبا •

٣ ـ الفـلك

أخضعت النجوم للعلم فى عشرات الاقطار • ففى ايطاليا اكتشف الفلكى اليسوعى ريتشولى (١٦٥٠) أول نجم مزدوج ـ أى نجم يبـدو للعين المجردة واحدا ولكنه يرى بالتلسكوب نجمين واضح أنهما يدوران الواحد حول الآخر • وفى دنزج بنى يوهان هيفيليوس مرصدا فى بيته ، وصنع آلاته الخاصة ، وصنف ١٫٥٦٤ نجما ، واكتشف أربعة مذنبات ، ورصد مرور المشترى ، ولاحظ ترجحات القمر (وهى التناوبات الدورية فى رؤية أجزائه) ، ورسم سطحه ، وسمى عددا من تضاريسه بأسماء مازالت تظهر على خرائط القمر الى يومنا هذا • فلما أذاع على راصدى النجوم فى أوربا أن فى استطاعته تمييز مواقع النجـوم باسـتعمال «ديوبتر» (رصد يستعمل عدسة واحدة أو منشورا واحدا) بنفس الدقة التى يميز بها هذه المواقع باستعمال تلسكوب مركب ، تحدى روبرت هـوك

دعواه هذه ، وسافر هالى من لندن الى دنزج ليحقق فى الأمر ، ثم قرر أن هيفيليوس صادق (٢١) ٠

ووفر لويس الرابع عشر المال لبناء وتجهيز مرصد فى باريس (١٦٦٧ - ٧٢) بعد أن نبين أهمية الفلك للملاحة ٠ ومن ذلك المركز قاد جان بيكار البعثات أو أرسلها لدراسة السماء من نقط مختلفة على الأرض ٠ وذهب الى أورانيبورج ليلاحظ الموقع المضبوط الذى رسم منه تيكو براهى خريطته المشهورة للنجوم ، واستطاع بمختلف الرصود التى امتدت من باريس الى أميان أن يقيس درجة طولية بدقة عظيمة (لا تختلف الا بضع باردات عن الرقم الحالى وهو ٦٩٫٥ ميلا) حتى أنه من المعتقد أن نيوتن استخدم نتائج بيكار ليقدر كتلة الارض ويتحقق من نظرية الجاذبية ٠ وبأرصاد مماثلة حسب ببكار القطر الاستوائى للأرض فكان ٧٫٨٠١ ميلا - وهو تقدير غير بعيد من تقديرنا الحالى وهو ٧٫٩١٣ ميلا (٢٢) ٠ وقد يسرت هذه الكشوف للمراكب فى عرض البحر أن تحدد مواقعها بدقة لم يسبق لها نظير ٠ وهكذا حفز توسع أوربا التجارى وتطورها الصناعى الثورة العلمية وانتفعا بها ٠

وعملا باقتراح من بيكار دعا لويس الرابع عشر الى فرنسا الفلكى الايطالى جوفانى دومنيكو كاسينى ، الذى ذاع صيته فى أوربا بفضل اكتشافه شكل المشترى الكروانى ، ودوران المشترى والمريخ الدورى ٠ فلما وصل الى باريس (١٦٦٩) استقبله الملك كأنه أمير من أمراء العلم (٢٣) ٠ وفى ١٦٧٢ أوفد ، هو وبيكار ، جان ريشيه الى كايين بأمريكا الجنوبية ليرصد المريخ فى أقصي « مواجهة » له مع الشمس وقرب من الارض ، ورصد كاسينى نفس المواجهة من باريس ٠ وقد أعطت المقارنة بين هذين الرصدين الآتيين من نقطتين منفصلتين قيما جديدة وأكثر دقة لاختلاف منظر المريخ والشمس وبعدهما عن الأرض ، وكشفت عن أبعاد فى المجموعة الشمسية أعظم مما قدر من قبل ٠ وبما أن الفلكيين تبينوا أن بندولا فى كايين يبطىء عن نظيره فى باريس ، فقد انتهوا الى أن الجاذبية قرب الاستواء أخف منها فى العروض العليا ، وأوحى هذا بأن الارض ليست دائرة كاملة ، ورأى كاسينى أنها تفرطحت عند خط الاستواء ، ورأى نيوتن أنها تفرطحت عند القطبين ، وأيد المزيد من البحث رأى نيوتن ، واكتشف كاسينى أثناء ذلك أربعة أقمار

جديدة لزحل (ساتورن) ، وانقسام حلقة زحل الى قسمين (وهو الانقسام الذى يطلق عليه اسم كاسينى الآن) • وبعد موته عام ١٧١٢ خلفه فى مرصد باريس ابنه جاك ، الذى قاس قوس الزوال من دنكرك الى بربنيان ، ونشر أول جداول لأقمار زحل •

وقد أسهم كرستيان هويجنز فى لهاى اسهامات هامة فى الفلك قبل ان ينضم الى فريق العلماء العالمى فى باريس • فوفق هو وأخوه قسطنطين الى طريقة جديدة لشحذ العدسات وصقلها ، واستعان بها فى تركيب تلسكوبات أقوى وأصفى من أى تلسكوبات عرفت من قبل ، وبفضلها اكتشف (١٦٥٥) القمر السادس لزحل ، وحلقة هذا الكوكب الغامضة • وبعد عام قام بأول تحديد للمنطقة اللامعة (التى تحمل اسمه الآن (فى سديم أوريون وكشف عن الطابع المتعدد لنجمه النووى •

أما أعظم منافس لفلكيى باريس فهو الفريق الممتاز تجمع اكثره حول هالى ونيوتن فى انجلترة • وقد قدم جيمس جريجورى الأدنبرى المعونة من بعيد بتصميمه أول تلسكوب عاكس (١٦٦٣) — أى التلسكوب الذى تركز فيه أشعة الضوء المنبعثة من الجسم بوساطة مرآة منحنية بدلا من العدسة ، وقد حسنه نيوتن فى ١٦٦٨ • وفى ١٦٧٥ وجه جول فلامستيد وآخرون الى تشارلز الثانى مذكرة يلتمسون فيها تمويل بناء مرصد قومى ، حتى تهتدى السفن الانجليزية التى تمخر عباب البحر بطرق أفضل لحساب خطوط الطول • ودبر الملك المال للبناء ، الذى شيد فى بلدة جرينيتش قرب القسم الجنوبى الشرقى من لندن ، واستعمل هذا نقطة لطول الصفر والزمن القياسي • وقدم تشارلز لفلامستيد راتبا صغيرا على عمله مديرا ، ولكنه لم يقدم مالا تدفع منه رواتب مساعديه أو ثمن الآلات • أما فلامستيد ، الهزيل العليل ، فقد بذل حياته لذلك المرصد • فقبل تلاميذ يعلمهم ، واشترى الآلات من جيبه الخاص ، وتلقى المال هدية من أصدقائه ، وعكف فى صبر على رسم الخرائط للسماء كما ترى من جرينيتش • وقبل أن يموت (١٧١٩) كان قد أتم أوسع وأدق قائمة نجوم عرفت من قبل ، وقد ادخلت تحسينات كثيرة على القائمة التى تركها تيكوبراهى لكبلر فى ١٦٠١ • وكان فلامستيد يشقى بالافتقار الى المساعدين ، ويضطر للقيام

بنفسه باعداد الاوراق التى تترك عادة للمساعدين ، فاغضب هالى ونيوتن بتعطيله حساب نتائجه واذاعتها ، وأخيرا نشرها هالى دون أذن من فلامستيد ، فثار الفلكى العليل ثورة عارمة هزت النجوم فى أفلاكها .

ومع ذلك فان ادموند هالى كان أعظم أفراد الفريق تهذيبا . كان تلميذا متحمسا لدراسة السماء ، فنشر فى العشرين بحثا عن أفلاك الكواكب ، وفى تلك السنة (١٦٧٦) خرج فى رحلة ليتبين كيف تبدو السماء من نصف الكرة الجنوبى . ومن جزيرة القديسة هيلانة رسم خرائط تبين مسلك ٣٤١ نجما . وعشية عيد ميلاده الحادى والعشرين قام بأول رصد كامل لعبور عطارد . فلما عاد الى انجلترة انتخب زميلا بالكلية الملكية وهو لم يجاوز الثانية والعشرين . وقد تبين عبقرية نيوتن ، وموّل الطبعة الاولى من كتابه « المبادىء » الغالى النفقة ، وقدم له بتقريظ فى شعر لاتينى رائع اخره بيت يقول « غير مسموح لأى بشر فان بأن يقترب من الآلهه » (٢٤) . وحقق هالى النص اليونانى لكتاب أبللونيوس البرجاوى « المخاريط » ، وتعلم العربية ليترجم الأبحاث اليونانية المخطوطة فى العربية دون سواها .

وقد سجل اسمه فى قبة السماء بنبوءة من أنجح النبوءات فى التاريخ. وكان بوريللى قد مهد لها الطريق باكتشافه الشكل القطعى المكافىء لمسالك المذنبات (١٦٦٥) . فلما ظهر مذنب فى ١٦٨٢ وجد هالى فى مسلكه نظائر مع مذنبات سجلت فى ١٤٥٦ ، و ١٥٣١ ، و ١٦٠٧ ، وقد لاحظ أن هذا الظهور حدث فى فترات من نحو خمسة وسبعين عاما ، وتنبأ بظهور آخر فى ١٧٥٨ . ولم يفسح له فى الأجل ليرى تحقيق نبوءته ، ولكن حين عاد المذنب الى الظهور أطلق عليه اسمه ، واضاف الى مكانة العلم المتزايدة . وكان الرأى فى المذنبات حتى أخريات القرن السابع عشر أنها من فعل الله مباشرة ، وانذار للنوع الانسانى بالويل والثبور وعظائم الامور ، ولكن مقالات بيل وفونتنيل، ونبوءة هالى ، قضت على هذه الخرافة . وطابق هالى بين مذنب آخر شوهد فى ١٦٨٠ ومذنب شوهد فى السنة التى مات فيها المسيح ، وتتبع تكرار ظهوره كل ٥٧٥ سنة ، ومن هذا الانتظام الدورى حسب

فلكه وسرعته حول الشمس • وتعقيبا على هذه الحســـابات ، خلص نيوتن الى أن « أجسام المذنبات صلبة ، متماسكة ، ثابتـــة ، متينة ، كأجسام الكواكب » وأنها ليست « أبخرة ، أو دخـــانا من الارض ، والشمس ، والكواكب ، وغبرها (٢٥) » • ×

وفى ١٦٩١ حيل بين هالى والكرسي الساقيلى للفلك بأكسفورد للظن بأنه مادى النزعـــة (٢٦) • وفى ١٦٩٨ ، بتكليـــف من وليم الثالث ، أبحر موغلا فى الاطلنطى الجنوبى ، ودرس اختــــلافات البوصلة ، ورسم خرائط للنجوم كما ترى فى القارة القطبية الجنوبية (قال فولتير : ان رحلة ملاحى سفينة جاسون (الأرجونوت ، الباحثين عن الفروة الذهبية) اذا قيست بهذه الرحلة لم تكن أكثر من عبـــور مركب من ضفة نهر الى أخرى) (٢٧) • وفى ١٧١٨ قـــرر هـــالى أن عدة نجوم من المفروض أنها « ثابتة » قد غيرت مواقعها منـــذ أيام اليونان ، وأن نجما منها وهو الشعرى اليمانية Sirius ، قد تغير منذ أيام براهى ، وبعد أن أخذ أخطاء الرصد فى حسابه ، خلص الى أن النجوم تغير مواقعها بالنسبة لبعضها البعض فى فترات كبرى ، وهذه « الحركات الخاصة » تقبل الآن على أنها حقيقية • وفى ١٧٢١ عين خلفا لفلامستيد فى منصب فلكى الملك ، ولكن فلامستيد كان قد مات فى فقر مدقع ، فاستولى دائنوه على آلات رصده ، ووجد هالى أن عمله يعطله نقص الأجهزة وتناقص نشاطه ، ومع ذلك بدأ وهو فى الرابعة والستين يرصد ويسجل ظواهر القمر خلال دورته الكاملة ذات الثمانية عشر عاما • ومات فى ١٧٤٢ وقد بلغ السادسة والثمانين ، بعد أن شرب بحكمة قدحا من النبيذ مخالفا أوامـــر طبيبه • فالحيـــاة ، كالنبيذ سواء بسواء ، يجب ألا يسرف فى تعاطيها •

× قبيل ذلك كان درايدن فى قصته الشعرية « أبشالوم وأخيتوفل » (١٦٨١) قد وصف المذنبات بأنها « تنبعث من الابخرة الارضية قبـــل أن تسطع فى السماوات » •

٤ — الأرض

كان هالى فى ولعه بالعلم قد غامر بالخوض فى مجاهل الارصاد الجوية بمقال (١٦٩٧) فى الرياح التجارية ، وخريطة رسمت لأول مرة حركات الهواء • وقد عزا هذه الحركات لفروق فى درجات حرارة الجو وضغطه ، فالشمس فى حركتها الظاهرية الى الغـــرب تحمـــل الحرارة معها ، لا سيما على طول مناطق العالم الاستوائية ، والهواء الذى تخلخل بفعل هذه الحراره يجتذب هواء أقل تخلخلا من الشرق ويحدث الرياح الاستوائبة السائدة التى اعتمد عليها كولمبس فى ابحاره من الشرق الى الغرب • وكان فرانسس بيكون قد أومأ الى تفسير شبيه بهذا • وسيطوره جورج هالى فى ١٧٣٥ باضافة هذا الرأى وهـو أن السرعة الاكبر لدوران الارض الى الشرق عند خط الاستواء تحدث تدفقا عكسيا للهواء نحو الغرب •

وقد جعل تطور البارومتر والترمومتر من الارصاد الجوية علما • فبارومتر حويريكى تنبأ تنبؤا صحيحا بعاصفة شـديدة فى ١٦٦٠ • واخترعت « مراطيب » مختلفة فى القرن الســادس عشر لقيـــاس الرطوبة • واستعملت « الاكاديميا ديل تشيمنتو » اناء مدرجـا يتلقى الرطوبة المتساقطة من خارج مخروط معدنى مملوء بالثلج • ووصـل هوك فرشاة حبوب ، أو « لحية » — تنتفخ وتنحنى مع زيادة الرطوبة فى الهواء — بأبرة مؤشرة تتحرك عند انتفاخ الفرشاة • كذلك اخترع هوك مقياسا للريح ، وبارومترا ذا عجلة ، وساعة جوية • وهذه الساعة التى صممها بناء على تكليف من الجمعية الملكية (١٦٧٨) كانت تقيس وتسجل سرعة الريح واتجاهه ، وضغط الجو ورطوبته ، ودرجة حرارة الهواء ، وكمية المطر ، وتبين الوقت فوق ذلك • وشرعت المحطـــات فى مختلف المدن ، بعد أن سلحت بالآلات المحسنة ، تسجل وتقـارن بين أرصادها الآنية ، كما حدث بين باريس واستكهولم فى ١٦٤٩ • وأرسل الدوق الاكبر فرديناند الثانى أمير توسكانيا ، وراعى أكاديمية التشيمنتو ، البارومترات ، والترمومترات ، والمراطيب ، الى راصدين مختارين فى باريس ، ووارسو ، وانزبروك ، وغيرها ، ومعها تعليمات بتسجيل البيانات الرصدية يوميا ، وارسال نسخة منها الى فلورنســة

للمقارنة ٠ وأقنع ليبنتز المحطات الجوية فى هانوفر وكيل بأن تحتفظ بسجلات يومية من ١٦٧٩ الى ١٧١٤ ٠

أما هوك ، الذكى الذى لم يحسم عملا ، فقد فتـــح عشرات من مسالك البحث المبشرة بالنجاح ، ولكن افتقاره الى المال والصبر أعجزه عن المضي فيها الى نهايات مشهورة ٠ فنحن نجـــده فى كل مكان فى تاريخ العلم البريطانى فى النصف الثانى من القرن السابع عشر ٠ كان ابن وزير « مات بتعليق نفسه (٢٨) » ، وأرهص بتنوع مواهبه ذلك التنوع المتذبذب ، فرسم الصور ، وعزف على الأرغن ، وابتكر ثلاثين طريقة مختلفة للطيران ٠ وفى أكسفورد انصرف لدراسة الكيميـــاء ، وعمل مساعدا لروبرت بويل ٠ وفى ١٦٦٢ عين « أمينا للتجارب » فى الجمعية الملكية ، وفى ١٦٦٥ كان أستاذا للهندسة بكلية جريشام ، وفى ١٦٦٦ ، بعد حريق لندن الكبير ، اشتغل بالعمارة وصمم عدة مبـــان كبيرة ـ كبيت مونتاجيو ، وكلية الاطباء ، ومستشفى بيت لحـــم (« بدلام ») ٠ وبعد طول اكباب على الميكروسكوبات ، نشر رائعته «ميكروجرافيا» (١٦٦٥) الذى احتوى على عدد من الافكار الموحية فى علم الأحياء ٠ وعرض نظرية فى الامواج الضوئية ، وساعد نيوتن فى البصريات ، وكان سباقا الى قانون المربعات العكسية ونظرية الجاذبية ٠ وكشف النجم الخامس فى أوريون ، وقام بأول المحاولات ليحدد بالتلسكوب اختلاف منظر نجم ثابت ٠ ثم عرض نظرية حركية للغازات فى ١٦٧٨ ، ووصف نظاما للتلغراف فى ١٦٨٤ ٠ وكان من أوائل من استعملوا الزنبرك فى ضبط الساعات ، وأرسي مبدأ آلة السدس لقياس الأبعاد الزاوية ، وصنع اثنتى عشرة آلة علمية ٠ وأغلب الظن أنه كان أعظم العقول أصالة فى كوكبة العباقرة التى جعلت من الجمعية الملكية حينا محدد الخطـــوة للعلم الاوربى ، ولكن طبيعته المكتئبة العصبية حالت بينه وبين ما كان جديرا به من ثناء ومديح ٠

وقد كان له حتى فى الجيولوجيا لحظة صدق ٠ فقد زعـــم أن المتحفرات تدل على قدم الارض والحياة قدما يتعارض تماما مع سفر التكوين ، وتنبأ بأن تاريخ الحياة على الارض سيحسب يوما ما على أساس المتحفرات المختلفة فى الطبقات المتعاقبة ٠ وكان أكثر كتـــاب القرن السابع عشر لا يزالون يقبلون قصة الخلق الكتابيـــة ، وكافـــح

بعضهم للتوفيق بين سفر التكوين وكشوف الجيولوجيا المتفرقة . وفى مقال « نحو تاريخ طبيعى للارض » (١٦٩٥) ، أعاد جون وودوارد، بعد دراسة طويلة لمجموعته الكبيرة من المتحفرات ، تفسير ليوناردو دافنتشي لها بأنها بقايا نباتات أو حيوانات عاشت يوما ما على الارض، ولكنه هو أيضا ذهب الى أن توزيع المتحفرات نتيجة لطوفان نوح . ثم اقترح قسيس أنجليكانى يدعى توماس بيرنيت (١٦٨٠) التوفيق بين سفر التكوين والجيولوجيا بمده « أيام » أسطورة الخليفة كما وردت فى سفر التكوين الى حقب ، وتقبل الناس هذه الحيلة ، ولكن حين استجمع توماس أطراف شجاعته وراح يفسر قصة آدم على أنها رمز ، وجد نفسه محروما من الترقية للمناصب الكنسية .

وكان أثناسيوس كيرشر يسوعيا تقيا وعالما فذا ، وسنراه يلمع فى ميادين عديدة . وقد رسم كتابه ، عالم ما تحت الأرض « (١٦٦٥) خرائط لتيارات المحيط ، ورأى أن المجارى الباطنية يغذيها البحر ، وعزا ثوران البراكين والعيون الساخنة لنيران باطنية ، وبدا هذا تأكيدا للاعتقاد الشائع بان الجحيم فى مركز الأرض . أما بيير بيرو (١٦٧٤) فقد رفض الفكرة القائلة بأن العيون والانهار لها منابع باطنية ، وقال بالرأى المقبول الآن ، وهو أنها نتاج الامطار والثلوج . وعلل مارتن لستر ثوران البراكين بأنه نتيجة سخونة الكبريت فى كبريتور الحديد والانفجار المترتب على السخونة ، وأظهرت التجربة أن خليطا من برادة الحديد ، والكبريت ، والماء ، مدفونا فى الارض ، أصبح ساخنا وشقق الارض من فوقه ، ثم تفجر لهيبا .

أما ألمع العلماء فى جيولوجية ذلك العصر فقد عرفته الدنمرك باسم نيلز ستينسن ، وعرفته دولية العلم باسم نيقولاوس ستينو . ولد فى كوبنهاجن ، ودرس الطب فيها وفى ليدن ، حيث سلك سبينوزا فى زمرة أصدقائه (٢٩) . ثم هاجر الى ايطاليا ، واعتنق الكاثوليكية وأصبح طبيب البلاط لفرديناند الثانى فى فلورنسة . وفى ١٦٦٩ نشر مجلدا صغيرا اسمه De solido intra solidum naturaliter contento عده أحد الطلبة « أهم وثيقة جيولوجية فى ذلك القرن (٣٠) » وكان هدفه تأكيد الرأى الجديد فى المتحفرات ، ولكن على سبيل التمهيد له

وضع ستينو لأول مرة أسسا تشرح تطور القشرة الارضية . وقد وجد بدراسة جيولوجية توسكانيا ست طبقات متعاقبة . وحلل تركيبها ومحتوياتها ، وتكوين الجبال والاودية ، وأسباب البراكين والزلازل ، وشواهد المتحفرات على مستويات الانهار والبحار التى كانت أعلى فيما سبق من الأزمنة . وكان فى الشهرة التى حظى بها الكتاب ، وفى الدراسات التشريحية التى قام بها ستينو ، ما حمل الملك كرستيان الرابع على أن يعرض عليه كرسي التشريح فى جامعة كوبنهاجن . فقبله ، ولكن كاثوليكيته الغيور أحدثت شيئا من الاحتكاك ، فعاد الى فلورنسة ، وانتقل من العلم الى الدين ، واختتم حياته أسقفا لتيتوبوليس ونائبا رسوليا لشمالى أوربا .

وكانت الجغرافيا خلال ذلك تنمو ، عادة بوصفها نتاجا جانبيا للمشروعات النبشيرية أو العسكرية أو التجارية ، وقد أخلص اليسوعيون للعلم اخلاصهم للدين أو السياسة تقريبا ، وكان كثير منهم ينتمون الى جماعات علمية رحبت بتقاريرهم الجغرافية والأثنوغرافية . وقد تغلغلوا فى بعثاتهم الدينية فى كندا والمكسيك والبرازيل والتبت ومنغوليا والصين وجمعوا وأرسلوا الكثير من المعارف العلمية ، ورسموا أفضل الخرائط للمناطق التى زاروها . وفى ١٦٥١ نشر مارتينو مارتينى « الاطلس الصينى » وهو أرقى وصف حغرافى للصين طبع الى ذلك التاريخ ، وفى ١٦٦٧ أصدر أثناسيوس كيرشر كتابه الرائع « الصين المصورة » . وأوفد لويس الرابع عشر علماء يسوعيين مزودين بأحدث الآلات لرسم خريطة الصين ثانية ، وفى ١٧١٨ أصدروا خريطة هائلة فى ١٢٠ فرخا تغطى الصين ومنشوريا ومنغوليا والتبت ، وقد ظلت مدى قرنين الاساس لكل ما تلاها من خرائط لتلك المناطق . أما أعجوبة العصر الخرائطية فهى الخريطة التى بلغ قطرها أربعة وعشرين قدما ، والتى رسمها جوفانى كاسينى ومساعدوه بالجير على أرضية مرصد باريس (حوالى ١٦٩٠) ، وبينوا عليها بالضبط مواقع جميع الاماكن الهامة على الكرة الارضية بخطوط العرض والطول (٣١) .

وينتمى لهذه الفترة بعض مشاهير الرحالة . وقد ألمنا من قبل

بكتاب تافرنييه « ست رحلات من أوربا لآسيا » (١٦٧٠) وكتاب شاردان « رحلات فى فارس » (١٦٨٦) . كتب تافرنييه يقول « فى رحلاتى الست ، وأثناء سفرى بطرق مختلفة ، أتيح لى من الفراغ والفرص ما مكننى من مشاهدة تركيا كلها ، وفارس كلها ، والهند كلها ... وفى المرات الثلاث الاخيرة جاوزت نهر الجنج الى جزيرة جاوة ، وهكذا قطعت فى اربعين عاما اكثر من ستين الف فرسخ بالبر (٣٢) » . أما شاردان فقد سبق بعبارة واحدة « روح قوانين » مونتسكيو . قال : « ان مناخ كل جنس ... هو دائما السبب فى ميول شعبه وعاداته (٣٣) » . وفى ١٦٧٠ - ٧١ نشر فرانسوا برنييه وصفا لرحلاته ودراساته فى الهند ، وقد اتهم بأنه نفض عنه مسيحيته فى الطريق (٣٤) . وغامر وليم دامبييه بالرحلة فى عشرات الاقطار والبحار ، وكتب « رحلة جديدة حول العالم » (١٦٩٧) وأعطى اشارة البدء لديفو حين روى كيف قاد فى احدى رحلاته الاخيرة السفينة التى انقذت الكسندر سيلكرك من جزيرة لابسكنها غيره (١٧٠٩) .

ولعبت الجغرافيا دورها فى الغض من اللاهوت المسيحى . فكلما تجمعت الاخبار عن القارات الاخرى لم تملك الطبقات الأوربية المتعلمة الا العجب من اختلاف الاديان على ظهر الأرض ، والتشابه بين الخرافات الدينية ، ووثوق كل دين من صدق عقيدته ، والمستوى الخلقى للمجتمعات الاسلامية أو البوذية ، ذلك المستوى الذى أخزى من بعض الوجوه تلك الحروب الدامية وذلك التعصب القتال الذى يشين شعوبا وهبت الايمان المسيحى . وروى البارون دلاهونتان أنه فى رحلته فى كندا عام ١٦٨٣ لقى عنتا من جراء نقد الوطنيين الهنود للمسيحية (٣٥) ، واستشهد بيل المرة بعد المرة بعادات الصينيين أو اليابانيين وأفكارهم فى نقده المعتقدات وأساليب العيش الأوربية . وأصبحت نسبية الأخلاق من البديهيات فى فلسفة القرن الثامن عشر ، ووصف أحد الظرفاء اسفار « جاك سيدان » الخنثى ، الذى ابتهج حين وجد بلدا كل أهله لوطيون ، ينظرون الى الأوربيين الذين يشتهون الجنس الآخر نظرتهم الى هولاء فاسقة مقززة .

٥ ـ الفيزيــاء

كان اصطدام الفيزياء والكيمياء بالعقيدة القديمة أقل ظهورا من اصطدام الجغرافيا والاحياء بها ، لأنهما تتناولان الجوامد والسوائل والغازات التى تبدو انها لا علاقة لها باللاهوت ، ولكن تقدم العلم ـ حتى فى ذلك المضمار المادى ـ كان ينشر حكم القانون ويضعف الايمان بالمعجزات • واعتمدت دراسة الفيزياء على الحاجات التجارية والصناعية لا على الاهتمامات الفلسفية •

وبعد أن أقنع الملاحون الفلكيين برسم خرائط للسماء بدقة أكثر ، عرضوا الآن المكافآت على من يضع ساعة تعين على ايجاد خط الطول رغم اضطرابات البحر • وكان فى الامكان تحديد خط الطول فى البحر بمقارنة لحظة شروق الشمس أو الزوال بالزمن الذى تظهره فى تلك اللحظة ساعة ضبطت على وقت جرينتش أو باريس ، ولكن ما لم تكن الساعة دقيقة فان الحساب يخطىء خطأ خطرا • وفى ١٦٥٧ توصل هويجنز الى صنع ساعة يعتمد عليها بوصل بندول بترس شاكوش مسنن، ولكن ساعة كهذه عديمة النفع فى مركب يعلو ويهبط× • وبعد محاولات كثيرة ، ركب هويجنز ساعة بحرية ناجحة باحلاله محل البندول ترس توازن يديره زنبركان • وكانت الفكرة من بين الاقتراحات المنيرة التى فصلها فى كتاب من عيون العلم الحديث « ساعة البندول » ، وقد نشره فى باريس عام ١٦٧٣ • وبعد ثلاث سنوات اخترع هوك شاكوش الساعات الكبيرة المثبت ، واستعمل الزنبرك اللولبى على ترس توازن الساعات ، وشرح حركة الزنبرك على أساس مبدأ « كما يكون الشد تكون القوة » ومازال هذا يسمى قانون هوك • وأمكن الآن أن تصنع ساعات الجيب صناعة أكفأ وأرخص من ذى قبل •

وقد درس هويجنز فى كتاب « ساعة البندول Horologium

× رسم ليوناردو دافنشي حوالى عام ١٥٠٠ رسوما لبندول وشاكوش، ساعة ووضع جاليليو بعض قوانين البندول ، وتصور فكرة ساعة البندول فى ١٦٤١ ، ولكنه مات قبل أن يطبق الفكرة عمليا • وفى ١٦٥٦ صنع كاميرينى ساعة صغيرة ببندول قبل هويجنز ببضعة شهور فقط •

وفى كتيب خاص قانون القوة المركزية الطاردة ـ ومؤداه أن كل جزىء فى جسم دائر لا يقع فى محور الدوران معرض لقوة طرد مركزية تزداد مع بعده عن المحور ومع سرعة الدوران ٠ وصنع كرة من طفـــل تدور بسرعة ، ووجد أنها تتخذ شكلا كروانيا مفرطحا عند طرفى المحور ٠ وعلى مبدأ الطرد المركزى هذا فسر فرطحة المشترى عند قطبيه ، وقياسا على ذلك استنتج أن الأرض أيضا لابد أن تكون مفرطحة فرطحة طفيفة عند القطبين ٠

وواصل كتاب **هويجنز** Tractatus de Motu Corporum ex Percussione (١٧٠٣) الذى نشر بعد موته بثمانى سنوات ، الدراسات التى قام بها جاليليو ، وديكارت ، ووواليس فى مشكلات التصادم (impact) التى تناولت أسرارا مثيرة للفضول ، من لعب البليـــارد الى تصـــادم النجوم ٠ فكيف تنتقل القوة من جسم متحرك الى جسم يضربه ، ولم يحل هويجنز اللغز ،ولكنه قرر مبادىء أساسية :

١ – اذا كان هناك جسم ساكن وصدمه جسم مساو له ، فان هذا ينتهى الى السكون بعد الصدمة ، فى حين يكتسب الجسم الذى كان فى البدء ساكنا سرعة الجسم الذى صدمه ٠

٢ – اذا اصطدم جسمان متساويان بسرعتين مختلفتين ، فانهما يتحركان بعد الصدمة بسرعتين متبادلتين ٠

١١ – اذا تصادم جسمان فان مجموع حاصل ضرب الكتلتين فى مربعى سرعتيهما واحد قبل الصدمة وبعدها ٠

وقد عبرت هذه القضايا التى صاغها هويجنز فى ١٦٦٩ تعبير جزئيا عن أشمل أساس من أسس الفيزياء الحديثة ، وهو عدم فنـــاء الطاقة ٠ على أنها كانت صادقة من الناحية المثالية أو النظرية فقط ، لأنها أفترضت المرونة التامة فى الاجسام ٠ ولمـــا لم يكن فى الطبيعة جسم مرن مرونة كاملة ، فان السرعة النسبية للاجسام الصادمة تتناقص حسب المادة التى تتألف منها ٠ وقد حدد نيوتين معدل التناقص هـــذا فى الخشب ، والفلين ، والصلب ، والزجاج ، فى التعليق التمهيدى للجزء الاول من كتابه « المبادىء » (١٦٨٧) ٠

وتدفق نهر آخر من أنهار البحث العلمي من التجارب التى اجراها توريتشللى وبسكال على الضغط الجوى ، فقد أعلن بسكال فى ١٦٤٧ أن « أى اناء مهما كان كبره ، يمكن افراغه من كل مادة معروفة فى الطبيعة ومدركة بالحواس (٣٧) » وقد ظلت الفلسفة الأوربية مئات السنين تعلن أن « الطبيعة تكره الفراغ » ، وحتى الآن أخبر أستاذ باريسي بسكال أن الملائكة ذاتها لا تستطيع أن تحدث فراغا ، وقال ديكارت بازدراء ان الفراغ الوحيد الموجود هو فى رأس بسكال . ولكن حدث حوالى عام ١٦٥٠ أن أوتو فون جويريكى ركب فى مجدبورج مضخة هوائية أحدثت فراغا كاملا تقريبا ، حتى لقد أدهش كبار مواطنيه وأقطاب العلم بتجربة شهيرة اسمها « نصفا كرة مجدبورج » (١٦٥٤) . ففى حضرة الامبراطور فردينانـد الثالث والديت الامبراطورى فى راتزيون قرب محارتين نصف كرويتين من البرونز الواحدة من الاخرى بحيث أحكم خنمهما دون أن يوصلا آليا عند حافتيهما وضخ كل الهواء تقريبا من داخليهما الملتصقين ، ثم أرى الحاضرين أن القوة المجتمعة لستة عشر حصانا ـ ثمانية منها تشد فى اتجاه ، وثمانية فى اتجاه مضاد ـ لا تستطيع فصل نصفى الكرة ، ولكن حين فتح محبس فى أحد النصفين فأدخل الهواء ، أمكن فصل المحارتين باليد .

وكان جويريكى شغوفا بتبسيط الفيزياء للأباطرة . فاستطاع بتفريغ كرة نحاسية من الماء والهواء أن يجعلها تسقط بفرقعة عالية مفزعة ، وبهذه الطريقة أوضح ضغط الهواء . ووازن بين كرتين متساويتين ، وأسقط احداهما بتفريغه الهواء من الاخرى ، وهكذا أثبت أن للهواء وزنا ، واعترف بأن كل الفراغات ناقصة ، ولكنه أثبت أن فى فراغاته الناقصة تلك تنطفىء الشعلة ، وتختنق الحيوانات ، وتسكت الساعة الدقاقة ، وهكذا مهد للكشف عن الاوكسجين ، وبين أن الهواء ناقل الصوت . واستعمل امتصاص الفراغ لضخ الماء ورفع الأثقال ، وأسهم فى التمهيد للآلة البخارية . فلما أصبح عمدة مجدبورج آخر نشر كشوفه حتى عام ١٦٧٢ ، ولكنه أبلغها لكاسبار شوت أستاذ الفيزياء اليسوعى بفورتزبورج ، الذى طبع وصفا لها فى ١٦٥٧ . وهذا المطبوع هو الذى حفز بويل الى بحوثه التى أفضت الى قانون الضغط الجوى .

أما روبرت بويل فكان عاملا هاما فى ازدهار العلم الانجليزى فى النصف الثانى من القرن السابع عشر . كان أبوه رتشرد بويل ، ايرل كورك ، قد اقتنى ضيعة كبيرة فى ارلنده ، ورث روبرت معظمها وهو فى السابعة عشرة (١٦٤٤) ، وفى زياراته المتكررة للندن تعرف الى واليس ، وهوك ، ورن ، وغيرهم من أعضاء « الكلية غير المنظورة »، فلما افتتن بجهودهم وتطلعاتهم انتقل الى اكسفورد وبنى بها مختبرا (١٦٥٤) . وكان رجلا ذا حماسات حارة وورع لا قبل لعلم من العلوم بتدميره . فقد رفض أن يمضي فى الاتصال بسبينوزا (عن طريق أولدنبورج) حين علم أن الفيلسوف يعبد « الجوهر » باعتباره الله ، ولكنه وضع قدرا كبيرا من ثروته فى خدمة العلم وأعان الكثيرين من أصحابه . كان طويلا ، نحيلا ، هزيلا معتلا أكثر الوقت ، ولكنه أوقف الموت على مبعدة منه بالحمية والتقشف الصارمين ، وقد وجد فى مختبره « ماء نهر النسيان ، ذلك الماء الذى ينسينى كل شيء الا بهجة اجراء التجارب (٣٨) » .

وبعد أن سمع بويل بمضخة جويريكى الهوائية ، صمم بمساعدة هوك (١٦٥٧) « آلة هوائية » لدراسة خواص الغلاف الغازى . وبهذه الآلة وما تلاها من مضخات أثبت أن عمود الزئبق فى البارومتر يسنده الضغط الجوى ، وقاس بالتقريب كثافة الهواء . وزاد على تجربة جاليليو المزعومة فى بيزا باثباته أن حزمة الريش تسقط بنفس سرعة سقوط الحجر ، حتى فى فراغ غير كامل . وبرهن على أن الضوء لا يتأثر بالفراغ ، واذن فهو لا يستمعل الهواء كما يستعمله الصوت وسيطا لانتقاله ، وأيد برهان جويريكى على أن الهواء لا غنى عنه للحياة (فحين أغمى على فأر فى الحجرة المفرغة ، أوقف التجربة وأنعشه بادخال الهواء) . ونحن نرى دولية العلم فى تحركها حين نعلم أن جويريكى حفزته جهود بويل ليصمم مضخة هوائية أفضل ويستأنف دراساته العلمية ، وأن هويجنز ، بعد زيارته لبويل عام ١٦٦١ ، أغرى بصنع آلات شبيهة والقيام باختبارات مماثلة .

ومضي بويل فى أبحاثه الخلاقة فى الانكسار ، والبللورات ، والاوزان النوعية ، والهيدروستاتيكا ، والحرارة . وتوج اسهاماته فى الفيزياء بصياغته القانون الذى يحمل اسمه : وهو أن ضغط الهواء أو

أى غاز يتناسب تناسبا عكسيا مع حجمه - أو أن ضغط الغاز مضروبا فى حجمه يكون ثابتا عند درجة حرارة ثابتة . وقد أذاع هذا المبدأ أول مرة فى ١٦٦٢ ، وفى سماحة وكرم نسب الفضل فيه الى تلميذه وتشرد تاونلى . وكان هوك قد توصل الى الصيغة ذاتها فى ١٦٦٠ بتجارب مستقلة ، ولكنه لم يذعها الا فى ١٦٦٥ . وتوصل قس فرنسي يدعى ادمى ماريوت فى نحو الوقت الذى توصل فيه بويل الى نتيجة مماثلة ، وهى « ان الهواء ينضغط حسب الثقل الواقع عليه » ، ونشر هذا فى ١٦٧٦ ، واسمه لا اسم بويل هو المرتبط فى القارة بقانون الضغط الجوى . وأيا كان صاحب الفضل فى القانون ، فانه كان من أسلاف الآلة البخارية والثورة الصناعية .

وتابع بويل وهوك رأى بيكون فى ان « الحرارة حركة تمدد لا فى الجسم كله بشكل منتظم ، بل فى أجزائه الصغرى (٣٩) » . وقد وصف هوك الحرارة بأنها « خاصية تنشأ فى جسم ما من حركة أجزائه أو هيجانها » ، وميز بينها وبين النار واللهب ، اللذين نسبهما الى فعل الهواء فى الاجسام المحماة . قال « كل الاجسام لها درجة ما من الحرارة فيها » وذلك لأن « أجزاء جميع الاجسام وان لم تكن شديدة الصلابة الا أنها تتذبذب قطعا (٤٠) » ، أما البرودة فليست الا مفهوما سلبيا . وسلى ماريوت أصحابه حين أراهم أن « البرودة » يمكن أن تحترق ، فبلوح مقعر من الثلج ركز ضوء الشمس على البارود فانفجر . وقد أذاب الكونت ايرنفريد فالتر فون تشيرنهاوس ، صديق سبينوزا ، الخزف الصينى والريالات الفضية بتركيزه ضوء الشمس عليها .

وفى فيزياء الصوت برهن انجليزيان - هما وليم نوبل وتوماس بيجوت - كل على حدة (نحو ١٦٧٣) على أن أجزاء مختلفة من الوتر ، لا الوتر كله فحسب ، قد تتذبذب بنغمات توافقية ، تجاوبا مع وتر قريب ومتصل ، ينقر أو يضرب أو يثنى . وقد اقترح ديكارت هذا على ميوسين ، وعملا بهذه الفكرة توصل جوزف سوفير ، مستقلا الى نتائج شبيهة بما توصل اليه الانجليزيان (١٧٠٠) ، ويجدر بنا أن نشير هنا الى أن سوفير ، الذى كان أول من استعمل كلمة acoustics « السمعيات » ، كان أصم أبكم منذ ولادته (٤١) . وفى ١٧١١ اخترع

جون شور الشوكة الرنانة . وقام بوريللى ، وففيانى ، وبيكار ، وكاسينى ، وهويجنز ، وفلامستيد ، وبويل ، وهالى ، ونيوتن ، بمحاولات فى هذه الفترة لايجاد سرعة الصوت . وكان أقرب تقدير لتقديرنا الحالى هو تقدير بويل ، الذى قرر أنها تبلغ ١٢٦ر١ قدما فى الثانية . وقرر وليم ديرام (١٧٠٨) أن هذه المعرفة يمكن الانتفاع بها فى حساب بعد العاصفة بملاحظة الفترة بين وميض البرق والصاعقة .

ولعل النصف الثانى من القرن السابع عشر أزهى فترة فى تاريخ فيزياء الضوء ، فأولا ، ما هذا الضوء ؟ لقد غامر هوك ، وهو المستعد دائما للتنقيب عن الصعوبات ، برأى يزعم أن الضوء « ليس الا حركة خاصة لأجزاء الجسم المضىء (٤٢) » - أى أن الضوء لا يختلف عن الحرارة الا فى الحركة الاسرع التى تتحركها الجزيئات× المكونة للجسم . ثانيا ، ما مدى سرعة تحركه ؟ لقد افترض العلماء الى ذلك الحين أن سرعة الضوء غير محدودة ، وحتى هوك المغامر قال انها على أية حال أكبر من أن تقاس . وفى ١٦٧٥ برهن فلكى دنمركى يدعى أولاوس رويمر ، استقدمه بيكار الى باريس ، على سرعة الضوء المحدودة، اذ لاحظ أن فترة خسوف أقرب التوابع الى قلب المشترى تتفاوت حسب اقتراب الارض أو ابتعادها من ذلك الكوكب . وقد أثبت بحسابات مبنية على زمن دورة التابع وقطر فلك الارض ، أن التفاوت فى زمن الخسوف الملحوظ راجع الى الزمن الذى يستغرقه الضوء من التابع ليقطع فلك الارض ، وعلى هذا الاساس الهزيل حسب سرعة الضوء بنحو ١٢٠٫٠٠٠ ميل فى الثانية (وتقديرنا الحالى يبلغ ١٨٦٫٠٠٠ ميل) .

ولكن كيف ينتقل الضوء ؟ أيتحرك فى خطوط مستقيمة ، اذا كان الأمر كذلك فكيف يدور حول الزوايا ؟ لقد اكتشف فرانشسكو جريمالدى ، الاستاذ اليسوعى ببولونيا ، (١٦٦٥) ظاهرة الانحراف

× قارن المفهوم الحالى للضوء ، وهو أنه طاقة مشعة مرئية . فكل الاجسام يعرض أنها ترسل باستمرار طاقة مشعة . والاشعاع من أجسام أدفأ من جسم الانسان نحس بها الجلد حرارة ، ولكن اذا زيدت درجة حرارة الجسم زيادة كافية أصبح مضيئا - أى أن بعض اشعاعه المنبعث تحسه العين ضوءا .

وسماها – وهى أن أشعة الضوء المارة من نقب صغير الى حجرة مظلمة تنتشر على الحائط المواجه باتساع أكبر مما تتيجه الخطوط المستقيمة من المصدر الى الحائط ، وأن أشعة الضوء تنحرف انحرافا طفيفا عن الخط المستقيم حين تمر بأطراف جسم معتم ، وقد أفضت هذه الكشوف وغيرها بجريمالدى الى قبول الرأى الذى ألمع اليه ليوناردو دافنشي ، وهو أن الضوء يتحرك فى موجات متسعة • ووافق هوك ، ولكن هويجنز هو الذى أثبت نظرية الموجات التى مازالت شائعة بين الفيزيائيين • وفى كتاب آخر من عيون العلم الحديثة بدعى « رسالة فى الضوء » (١٦٩٠) أورد هويجنز النتائج التى توصل اليها من دراسات بدأت قبل اثنتى عشرة سنة : وهى أن الضوء تنقله مادة افتراضية سماها « الأثير » (عن المرادف اليونانى للسماء) ، وتصور أنها تتألف من أجسام صغيرة ، قاسية ، مرنة ، تنقل الضوء فى موجات دائرية متعاقبة تنتشر خارجة من المصدر المضيء • وعلى هذه النظرية أسس قوانين الانعكاس ، والانكسار المزدوج ، وعزا للحركة المغلفة للأمواج قدرة الضوء على الحركة حول الاركان والاجسام المعتمة ، وفسر الشفافية بأن افترض أن جزيئات الاثير من الدقة بحيث تستطيع أن تسافر حول الجزيئات التى تؤلف السوائل والجوامد الشفافة وبينها • ولكنه اعترف بعجزه عن تعليل الاستقطاب ، وهذا من أسباب رفض نيوتن لفرض الموحات وتفضيله نظرية الجريئات الضوئية •

ولم يحرز القرن السابع عشر غير تقدم متواضع فى دراسة الكهرباء بعد العمل الذى قام به جلبرت وكيرشر فى ميدان المنغنطيسية ، وكابيو فى التنافر الكهربى • وقد درس هالى تأثير المغنطيسية الارضية فى ابر البوصلة ، وكان أول من تبين الصلة بين مغنطيسية الأرض والفجر الكاذب *aurora borealis* (١٦٩٢) • ووصف جويريكى فى ١٦٧٢ بعض تجاربه فى كهرباء الاحتكاك • فالكرة من الكبريت ، بعد أن أديرت على يده ، جذبت الورق ، والريش ، وغيرهما من الاجسام الخفيفة ، وحملتها معها فى دورانها ، وقد ربط بين هذا وبين حركة الارض اذ تحمل معها الاجسام التى على سطحها أو بقربه • وتحقق من التنافر الكهربى اذ أثبتت أن الريشة اذا وضعت بين الكرة المكهربة وأرضية الحجرة تقفز الى أعلى وأسفل من الواحدة الى الاخرى • وكان رائدا فى دراسة التوصيل ، اذ برهن على أن الشحنة الكهربية تستطيع

أن تسافر على خيط من الكتان ، وان الأجسام يمكن أن تتكهرب بتقريبها من الكرة المكهربة . وقد ابتكر فرانسس هوكسبى ، عضو الجمعية الملكية (١٧٠٥ — ٩) طريقة افضل لتوليد الكهرباء بادارته كرة زجاجية مفرغة دورانا سريعا ، ثم وضعها على يده ، وقد انبعث من الاحتكاكات شرر طوله بوصة أحدث ضوءا يكفى للقراءة . وشبه انجليزى آخر يدعى وول ، صوت وضوء شرر مماثل أحدثه ، بالرعد والبرق (١٧٠٨) . وعقد نيوتن نفس المقارنة فى ١٧١٦ ، وأكد فرانكلن العلاقة فى ١٧٤٩ . وهكذا نرى الكون الهائل المستغلق ، سنة بعد سنة ، وعقلا بعد عقل ، يفضي بنتفه مغرية من سره المكنون .

٦ — الكيمياء

شهد هذا القرن الرائع علم الكيمياء يتطور من تجارب الخيمياء وأوهامها . وكانت الصناعة منذ زمن تجمع المعرفة الكيميائية عن طريق عمليات صهر الحديد ، ودبغ الجلود ، ومزج الاصباغ ، وتخمير الجعة ، ولكن فحص المواد فى تركيبها ، واتحادها ، وتحولها ، كان فى أغلبه متروكا للمشتغلين بالخيمياء الباحثين عن الذهب ، أو للصيادلة المجهزين للعقاقير . أو للفلاسفة — من ديموقريطس الى ديكارت — الحائرين فى تركيب المادة . وقد حاول اندرياس ليبافيوس فى ١٥٩٧ ، وجان فان هيلمونت فى ١٦٤٠ ، الدخول الى علم الكيمياء ، ولكن كلا الرجلين شارك الخيميائيين أملهم فى تحويل المعادن « الخسيسة » ذهبا . وقام بويل نفسه بتجارب بهذا الهدف . ففى ١٦٨٩ حصل على الغاء لقانون انجليزى قديم ضد «تكثير الذهب والفضة (٤٣) » ، وعند وفاته (١٦٩١) خلف لمنفذى وصيته كمية من التراب الاحمر وتعليمات بمحاولة تحويلها الى ذهب (٤٤) . والآن وقد أصبح تحويل المعادن « كلشيها » للكيمياء ، فان فى وسعنا ان نشيد بالعلم الذى انطوت عليه الخيمياء بينما ندين اللهفة على الذهب ونخفيها .

وكانت أعظم لطمة وجهت الى الخيمياء هى نشر كتاب بويل « الكيميائى الشكاك » (١٦٦١) وهو أول كتاب من عيون تاريخ

الكيمياء . وقد اعتذر فيه عن « السماح » لبحثه هذا « بأن يذاع وهو مبتور ناقص على هذا النحو (٤٥) » . ولكنه ـ وهو يعانى من علل كثيرة ـ عديم الثقة فى أنه سيعمر طويلا . على أن مما يعـــزيه « أن يلحظ أن الكيمياء بدأت أخيرا تحظى بما هى جديرة به حقا من رعاية العلماء الذين كانوا من قبل يحتقرونها (٤٦) » . ووصف كيمياءه بأنها شكاكة لأن من رأيه رفض جميع التفسيرات الغيبية والخصائص السحرية لأنها « محراب الجهل » وهو مصمم على الاعتماد على « التجـارب لا الأقيسة المنطقية (٤٧) » . وقد هجر ذلك التقسيم التقليدى للمادة الى العناصر الاربعة ، الهواء ، والنار ، والماء ، والتراب : وقال ان هذه مركبات لا عناصر ، أما العنـــاصر الحقيقية فهى على الأصـــح « أجسام معينة بدائية وبسيطة ، أو غير مختلطة اطلاقا ، ولأنها ليست مؤلفة من أى أجسام أخرى أو من بعضـــها البعض » فهى المكونات لجميع المركبات ، ويمكن ن تحلل اليهاكل المركبات . ولم يقصـد أن العناصر هى المكونات النهائية للمادة ، فهـــذه العناصر الطبيعيـة المتناهية الصغر هى فى رأيه جزيئات دقيقة لا ترى بالعين المجردة ، مختلفة شكلا وحجما ، كذرات لوكيبوس . ومن تنوع هذه الجزيئات وتحركها ، ومن اتحادها فى « كريات » ، تنشأ كل الاجسام ، وكل صفاتها وأحوالها ، كاللون ، والمغنطيسية ، والحـــرارة ، والنار ، وذلك بطرق وقوانين ميكانيكية خالصة .

وقد استهوت النار العلماء استهواءها للحالمين عند المدافىء . فما الذى يجعل المادة تحترق ؟ وما تفسير هذه الالسنة الدائمة التغير من اللهب الجميل ، العاتى ، الرهيب ؟ فى سنة ١٦٦٩ رد كيميائى ألمانى يدعى يوهان بيشير كل « العنـاصر » الى عنصرين ـ المـــاء والتراب ، وسمى شكلا من أشكال التراب ، « التراب الزيتى »، الذى اعتقد بوجوده فى جميع الاجسام القابلة للاشتعال ، وهـذا هو الذى يحترق . وفى القرن الثامن عشر سنرى جيورج شتال ـ الذى اتبـع هذا الرأى الخاطىء ـ ينحرف بالكيمياء عشرات السنين بنظـــرية مماثلة هى نظرية اللاهوب phlogiston . على أن بويل ســلك مسلكا آخر . فقد لاحظ أن مواد محترقة مختلفة تكف عن الاحتراق فى الفراغ ، فاستنتج أن « فى الهواء جوهرا حيويا صغيرا ... يعين

على انعاش حيويتنا واسترجاعها (٤٨) » • وتقدم معاصره الاصغر جون مايوو ، وكان هو أيضا ينتمى للجمعية الملكية ، (١٥٤٧) صوب نظريتنا الحالية عن النار بأن افترض أن من بين مكونات الهواء مادة تتحد بالمعادن حين تتكلس (تتأكسد) ، واعتقد ان مادة مماثلة تدخل أجسامنا فتغير الدم الوريدى الى دم شريانى • وكان لابد أن تنقضي مائة عام قبل أن يكتشف شيل وبريستلى الأوكسجين نهائيا •

وحوالى عام ١٦٧٠ اكتشف كيميائى ألمانى يدعى هينيج براند أن فى استطاعته أن يحصل من بول الانسان على مادة كيميائية تتوهج فى الظلام دون تعريض تمهيدى للضوء • وعرض كيميائى من درسدن يدعى كرافت هذا النتاج الجديد أمام تشارلز الثانى بلندن فى ١٦٧٧ • ولم يستطع بويل أن يستخلص من كرافت المتكتم الا الاعتراف بأن المادة المضيئة « شيء ينتمى الى جسم الانسان (٤٩) » • وكان فى الاشارة ما يكفى ، فسرعان ما حصل بويل على كميته من الفوسفور ، وأثبت بسلسلة من التجارب كل ما نعرفه الى الآن عن توهج ذلك العنصر • وكان النتاج الجديد يكلف المشترين ست جنيهات (٣١٥ دولارا ؟) للأوقية رغم وفرة مصدره •

٧ ـ التكنولوجيا

كانت الصناعة ـ الى القرن التاسع عشر ـ تحفز العلم أكثر مما يحفز العلم الصناعة ، وكانت المخترعات الى القرن العشرين تخترع فى المختبر أقل مما تخترع فى المتجر أو الحقل • ولعل العمليتين سارتا جنبا الى جنب فى أهم الحالات جميعا ، وهى تطوير الآلة البخارية •

وقد صنع هيرو الاسكندرى ، فى القرن الثالث الميلادى أو قبله ، عدة آلات بخارية ، ولكنها على قدر علمنا كانت تستعمل لعبا أو عجائب تسلى الجماهير أكثر منها أجهزة تحل محل الطاقة البشرية • وفى أوائل القرن السادس عشر وصف ليوناردو دافنتشي بندقية تستطيع بضغط البخار أن تدفع مسمارا جديديا مسافة ألف ومائتى ياردة ، ولكن مخطوطاته العلمية لم تنشر الا عام ١٨٨٠ • وقد ترجمت بعض كتابات هيرو اليونانية الى اللاتينية فى ١٥٧٥ ، والى الايطالية فى ١٥٨٩ •

وذكر جيروم كاردان (١٥٥٠) وجامباتستا ديللا بورتا (١٦٠١) أن فى الامكان احداث فراغ بتكثيف البخار ، ووصف بورتا آلة لاستخدام ضغط البخار لرفع عمود من الماء . ومثل هذه الاستخدامات للبخـــار المتمدد اقترحها سالومون دكاوس بباريس فى ١٦١٥ وبرانكا بروما فى ١٦٣٠ . وحصل ديفد رامسي من تشارلز الاول ملك انجلترة على براءة بآلات « لرفع الماء من الحفر المنخفضة بالنار ... وتشغيل أى نوع من المصانع على المياه الساكنة بالحركة المستمرة ، دون مساعدة من الرياح أو الاثقال أو الخيل (٥٠) » . وفى ١٦٦٣ حصل ادوارد سومرست ، مركيز ورستر ، من البرلمان على احتكار مدته تسعة وتســـعون عاماً لـ « أعجب عمل فى العالم كله » ـ وهو « آلة تتحكم فى الماء » ترفع الماء لارتفاع أربعين قدما (٥١) ، وبهذه الآلة أراد أن يشغل المصـــانع المائية لجزء كبير من لندن ، ولكنه مات قبل أن ينفذ خطته . وحوالى ١٦٧٥ اخترع صموئيل مورلاند ، كبير ميكانيكية تشارلز الثانى ، المضخة الكابسة ، وفى ١٦٨٥ نشر أول وصف دقيق لقوة تمدد البخـــار . وفى ١٦٨٠ صنع هويجنز أول آلة غازية باســطوانة ومكبس تدار بالقـــوة المددة للبارود المتفجر .

وذهب دنى بابان ، المســاعد الفرنسي لهويجنز ، الى انجلترة واشتغل مع بويل ، ونشر عام ١٦٨١ وصفا لـ « مهتضمة " digester " ـ وهى حلة ضغط لتطرية العظم بماء يغلى فى اناء مقفل . ولكى يمنع انفجار الاناء وصل بقمته انبوبة يمكن ان تفتح اذا بلغ الضغط نقطـــة معينة ، وقد لعب « صمام الأمن » الأول هذا دورا منقـــذا فى تطوير الآلة البخارية . وزاد بابان على ذلك بأن أثبت أن قوة البخـــار يمكن نقلها غازيا بأنبوبة من مكان لآخر ، ولما انتقل الى ماربورج بالمانيـــا عرض (١٦٩٠) أول آلة استعمل فيها تكثيف البخار ، الذى يحـــدث فراغا ، لدفع مكبس . وقد ألمع الى قدرات هذه الآلة على قذف القنابل ، ورفع المياه من المناجم ، ودفع المراكب بعجلات تغديف ، وفى ١٧٠٧ (أى قبل قرن بالضبط من ابحار سفينة فولتون « كليرمون » مصـــعدة على نهر هدسون) استخدم آلته البخـــارية فى تســـيير زورق بدولاب تغديف على نهر فولدا بكاسل (٥٢) . ولكن الزورق تحطـــم ، وثبط الحكام الالمان تطوير القوة المكنيـــة لاطمئنانهم الى الاوضاع الراهنـــة آنئذ ، وربما لخوفهم من انتشار البطالة .

وعرض توماس سافوى على مجلس البحرية بانجلترة جهازا مماثلا حوالى ١٧٠٠ ، ولكن الجهاز رفض بهذا التعليق - فيما روى - « أى شأن للمتطفلين الذين لا صلة لهم بنـــا بتصميم أو اخـــتراع أشـــياء لنا ؟ (٥٤) » وقدم سافوى عرضا لاختراعه على نهر التيمـــز ، ولكن البحرية رفضته ثانية ٠ وفى ١٦٩٨ سجل أول آلة بخارية استعملت فعـلا فى ضخ الماء من المناجم ٠ وفى ١٦٩٩ منح براءة خولت له لمدة أربعـة عشر عاما « احتكار استعمال اختراع جديد ٠٠٠ لرفع المـاء واحـداث الحركة بقوة النار الضاغطة ، سيكون ذا فائدة كبرى فى نزح المناجم ، وتوفير المياه للمدن ، وتشغيل المضانع بجميع أنواعها (٥٥) » على أنه تبين أن آلات سافوى غالية وخطرة ٠ فقد كان لها صنابير للقياس ولكن لم يكن لها صمامات أمن ، وكانت عرضة لانفجارات الغلايات ، ومع أنها استخدمت فى بعض المناجم لتزح الماء منها ، الا أن أصحاب المناجـم عادوا سريعا الى استخدام الخيل فى هذه المهمة ٠

عند هذه النقطة من القصة نلتقى مرة أخرى بروبرت هـــوك ٠ ويروى معاصر موثوق بروايته أنه حوالى ١٧٠٢ كان يتبادل الرســائل مع تاجر حديد وحداد يدعى توماس نيوكومن حول امكان استخدام مبدأ المضخة الهوائية فى احداث القوة المكنية ٠ كتب يقول « اذا استطعت أن تحدث فراغا سريعا تحت اسطوانتك الثانية انتهى عملك (٥٦) » ويلوح ان نيوكومن كان يجرى تجارب على آلة بخارية ، هنا اتصـــل العلم والصناعة اتصالا مرئيا ٠ ولكن هوك كان شكاكا ، فتخلى عن التجربة، وفاتته فرصة مرة أخرى ٠ وانضم نيوكومن الى سمكرى يدعى جون كولى فى صنع آلة بخارية (١٧١٢) - بذراع متذبذب ، ومكبس ، وصـمام أمن - يمكن الركون اليها فى القيام بعمل شاق دون خطر الانفجـار ، وبقدرة كاملة على التحكم الذاتى ٠ واستمر نيوكومن حتى وفاته (١٧٢٩) فى تحسين آلته ، ولكن فى وسعنا أن نؤرخ - من براءة ســافوى فى ١٦٩٩ ، وآلة نيوكومن فى ١٧١٢ - ، بداية الثورة الصـــناعية التى ستغير فى القرنين التاليين وجه الدنيا وهواءها ٠

٨ - الاحيـــاء

مدت جماعة الباحثين الممتازة التى صنعت مجد الجمعية الملكية

أبحاثها الى علوم الحياة ٠ فأوضح هوك بالتجربة ما قرره من قبل السر كينيلم ديجبى ـ ذلك « المشعوذ الكبير » كما دعاه ايفلين(٥٢) : وهو أن النباتات تحتاج الى الهواء لتحيا ٠ فعرض بذرة خس فى التربة فى العراء ، وفى نفس الوقت بذرة مماثلة فى تربة مماثلة فى حجرة مفرغة ، ونمت البذرة الاولى بوصة ونصفا فى ثمانية أيام ، أما الثانية فلم تنم على الاطلاق ٠ ووحد هوك بين جزء الهواء المستعمل فى الاحتراق وبين الجزء المستعمل فى تنفس النبات والحيوان ، ووصف هذا الجزء المستهلك بأنه نترى الطبيعة (١٦٦٥) ٠ وأوضح أن الحيوانات التى توقف تنفسها يمكن الابقاء على حياتها بنفخ الهواء فى رئاتها بمنفاخ ٠ واكتشف البناء الخلوى للنسيج الحى ، وأخترع لفظ « الخلية cell » لدلالة على مركباته العضوية ٠ ورأى أعضاء الجمعية من خلال مكروسكوبه فى ابتهاج خلايا الفلين الذى قدر هوك أن البوصة المكعبة منه تحوى ٠٠٠ر٠٠٠ر٢٠٠ر١ خلية ٠ ودرس هسنولوجيا (علم الانسجة) الحشرات والنباتات ، وعرض رسوما طريفة لها فى كتابه « ميكروجرافيا » ٠ لقد وقف هوك دائما قاب قوسين أو أدنى من جاليليو ونيوتن ٠

وأسهم عضو آخر فى الجمعية هو جون راى فى اضفاء الشكل الحديث على علم النبات ٠ وكان ابن حداد ، ولكنه شق طريقه الى كمبردج ، وأصبح زميلا لكلية ترنتى ، ورسم قسا انجليكانيا ٠ وقد أخلص للدين والعلم على السواء ، شأنه فى ذلك شأن بويل ٠ واستقال من زمالته لأنه أبى التوقيع على « قانون التوافق » (١٦٦٢) الذى يتعهد موقعه بعدم مقاومة تشارلز الثانى ، وانطلق مع تلميذه فرانسس ويلاجبى فى رحلة يجوبان فيها أوربا لجمع البيانات اللازمة لوصف منظم لملكتى الحيوان والنبات ٠ واضطلع ويلاجبى بعلم الحيوان ، ولكنه مات بعد أن أكمل الفصول الخاصة بالطيور والأسماك ٠ وفى ١٦٧٠ أصدر راى " Catalogus Plantarum Angliae قائمة بنبات انجلترة » أصبحت اطار علم النبات الانجليزى ٠ واقترح راى « طريقة جديدة لتقسيم النبات » ـ مستعينا فى ذلك بما وضعه يواقيم يونجيوس فى ١٦٧٨ من مصطلحات محسنة وتصنيف منقح ، فقسم كل الزهريات الى ثنائية الفلقة dicotyledons وآحادية الفلقة monocotyledons

حسب ورقتيها أو ورقتها الجنبية المرافقة للبذور . وأكمل مهمته الكبرى فى رائعة من روائع العلم الحديث ، هى كتابة الضخم ذو المجلدات الثلاثة « Historia Generalis Plantarum تاريخ النبات العام » (١٦٨٢ - ١٧٠٤) ، الذى وصف ١٨ر٦٢٥ نوعا من أنواع النبات . وكان راى أول من استعمل كلمة « نوع species » بمعناها البيولوجى ، وهو مجموعة من الكائنات الحية مشتقة من والدين مماثلين وقادرة على توليد نوعها . وهذا التعريف ، مضافا اليه ما أتى به لينايوس بعد ذلك من تصنيف (١٧٥١) ، هيأ للجدل حول أصل الأنواع وقابليتها للتغير ، وفى غضون ذلك نشر وحقق مخطوطات ويلاجبى عن علم الأسماك ichthyology وعلم الطيور ornithology وأضاف موجزا منهجيا عن ذوات الاربع (١٦٩٣) فأتاح لعلم الحيوان الحديث أول تصنيف علمى حقيقى للحيوان (٥٨) . لقد كان النظام أول القوانين عند راى .

وقد تبين علماء النبات ، حتى فى العصور القديمة ، أن بعض النباتات يجوز أن توصف بأنها مؤنثة لأنها تحمل ثمرا ، وبعضها مذكرة لأنها لا تثمر ، ولاحظ تيوفراستوس فى القرن الثالث قبل المسيح أن نخلة البلح لا تثمر الا اذا هز فوقها طلع الذكر ، ولكن هذه الافكار كانت قد نسيت تقريبا . وفى ١٦٨٢ أضاف نحميا جرو عضو الجمعية الملكية سحرا جديدا للزهور بتأكيد جنسانية النباتات تأكيدا قاطعا . ذلك أنه فى دراسته نسيج النبات تحت المكرٌوسكوب ، لاحظ المسام التى فى السطح الاعلى للاوراق ، وألمح الى أن الاوراق أعضاء التنفس . ووصف الازهار بأنها أعضاء التناسل ، فالمدقة pistil مؤنثة ، والسداة stamen مذكر ، واللقاح pollen بزرة . وافترض خطأ أن جميع النباتات خنثوية hermaphrodites ، تجمع بنيتى الذكر والأنثى فى كائن حى واحد . وفى ١٦٩١ أثبت رودلف كاميراريوس ، أستاذ النبات فى توبنجن ، بشكل قاطع جنسانية النباتات (sexuality) اذ أثبت أنها لا تثمر بعد ازالة المئبر anther وهو جزء السداه المحتوى على اللقاح .

وفي نفس اليوم (٧ ديسمبر ١٦٧١) الذى تلقت فيه الجمعية الملكية اللندنية أول مقالات جرو « بداية تشريح الخضر » ، تلقت أيضا

مخطوطا من مارتشيللو ملبيجى البـولونى ، نشرته (١٦٧٥) باسـم لاتينى Anatomes Plantarum Idea ، وكان استعمال اللاتينيـة مازال ييسر دولية العلم • وقد اقتسم مالبيجى مع جرو شرف ارسـاء دعائم هستولوجيا النبات ، ولكن اسهامه الكبير كان فى علم الحيوان • وفى ١٦٧٦ أثبت ماريوت ـ بتحليله الكيميائى لمخلفات النباتات والتربة التى نمت فيها ـ أنها تتشرب العناصر الغذائية فى الماء الذى تمتصـه من التربة • ولم يتبين ماريوت ، ولا جرو ، ولا مالبيجى ، قدرة النباتات على أن تاخذ غذاءها من الهواء ، ولكن عمليتى التغذية والتناسل اللتين اكتشفتا الآن كانتا تقدما هائلا على تعليل آرسطو الغامض لنمو النباتات بما لـ « النفس النباتية » من تطلعات الى التمدد •

وفى عام ١٦٦٨ أصيبت فكرة قديمة شائعة بأول صدمة من صدمات عديدة ، حين نشر فرانتسكو ريدى الاريتسوى كتابه « تجارب فى توالد الحشرات » ـ وهى تجارب تنحو الى نفى التولد الذاتى abiogenesis وهو التولد التلقائى للكائنات الحية من المادة غير الحية • فالى النصف الثانى من القرن السابع عشر كانت الفكرة التى آمن بها الجميع تقريبا (فيما عدا استثناء بارزا هو وليـم هارفى) هى أن فى الامكان توالد الحيوانات والنباتات الدقيقة فى القذر أو الوحل ، لا سيما فى اللحـم المتحلل ، وهذه الفكرة تكمن وراء عبارة شكسبير « الشمس التى تولد الدود فى الكلاب الميتة (٥٩) » • وقد أثبت ريـدى أن الدود لا يتكون على اللحم المحمى من الحشرات ، بل على اللحم المكشوف • وقد صاغ النتيجـة التى خلص اليهـا فى عبـارته " Omne vivum ex ovo " كل حى يخرج من بيضة أو بزرة » • ولما اكتشفت الاوليات (البرزويات Protozoa) ، انبعثت حجج القائلين بالتولد التلقائى من جديد ، وقد رد عليهم سباللانزانى فى ١٧٦٧ ، ثم باستير فى ١٨٦١ •

كان الكشف عن تلك الكائنات ذات الخلية الواحدة التى سـميت فيما بعد بالبروتوزوا أهم اسهام أسهم به هذا العصر فى علم الحيوان • وكان انطون فان ليوفينهويك هولنديا من ديلفت ، ولكنـه أنهى ـ عن طريق الجمعية الملكية بلندن ـ النتائج العلمية التى توصل اليها خـلال أربعين سنة من سنى عمره الواحدة والتسعين • كان سـليل أسرة من صناع الجعة الأثرياء ، فاستطاع أن يقنع بوظائف أتاحت له من الفراغ

اكثر مما أعطته من راتب ، وانقطع لدراسة عالم الحياة الجديد كما كشف عنه المكروسكوب ، باصرار من افتتن بهذا العـــلم • وكان يملك ٢٤٧ مكروسكوبا ، صنع معظمها بنفسه ، وكان مختبره يتألق بعدسات بلغت ٤١٩ ، ربما شحذ بعضها سبينوزا ، الذى ولد فى نفس ســـنة مولده (١٦٣٢) وفى نفس وطنه • وقد حرص بطرس الاكبر وهو بديلفت فى ١٦٩٨ على أن يحدق فى الكائنات خلال مكروسكوبات ليوفينهويك• فلما وجه هذا العالم (١٦٧٥) أحدها لدراسة بعض ماء المطر الذى سقط فى قدر قبل أيام ، راعه أن يرى « حيـــوانات صـــغيرة بدت لى أصغر عشرة آلاف مرة من تلك التى وصفها المسيو سوامردام والتى سماها براغيث الماء أو قمل المـــاء ، والتى يمكن أن ترى فى المـــاء بالعين المجردة (٦٠) » ، ثم وصف كائنا نعرفه الآن باسم الجيبون الناقوسي bell animalecule (Vorticella) • ويلوح أن هذا كان أول وصـــفه للبروتوزون • . فى ١٦٨٣ اكتشف ليوفينهويك كائنات أصـغر حتى من تلك ـ وهى البكتريا • وجدها أولا على أسنانه ، وقال مستدركا « مع اننى احافظ عادة على نظافة أسنانى التامة » ، وأذهل بعض جيرانه حين فحص بصاقهم وأراهم تحت المكروســـكوب « عددا عظيمـــا من المخلوقات الحية » فيه (٦١) • وفى ١٦٧٧ اكتشف البزيرات المنـــوية فى ماء الذكر : وتعجب من اسراف الطبيعة فى جهاز الانسال : فقـــد قدر أن هناك ألف بريرة فى كمية صغيرة من منى الرجـــل ، وحسب أن هناك ١٥٠ بليونا من البزيرات فى لقح سمكة واحـــدة من ســـمك الكود ـ وهو ما يزيد عشرة أضعاف على عدد السكان الذين يحتـــويهم العالم لو كانت كل أقاليمه غاصة بالسكان كالأراضي المنخفضة •

وكان جان سوامردام أصغر من ليوفينهويك بخمس ســـنوات ، ولكنه سبقه الى القبر بثلاث وأربعين سنة • كان رجلا ذا جرأة ، ورغبات مشبوبة ، وعلل ، وأهداف متقلبة ، كف عن جهـــوده العلميـــة فى السادسة والثلاثين ، وأفنى عمره وهو فى الثالثة والاربعين (١٦٨٠)• نذر خادما للدين ، ولكنه هجر اللاهوت الى الطب • فلما نال درجة الطب انقطع للتشريح • وقد أولع بالنحل ، لا سيما بأمعائه ، وكان ينفق نهاره فى تشريحه ، وليله فى كتابة التقارير ورسم الرسـوم عن كشوفه • فلما فرغ من بحثه القيم فى النحل (١٦٧٣) انهار بدنيا ،

وما لبث أن طلق العلم لأنه مطلب مسرف فى الدنيـــوية ، وعاد الى الدين . وبعد موته بسبع وخمسين سنة جمعت مخطوطاته ونشرت باسم Biblia Naturae (كتاب الطبيعة المقدس) . وقد احتـــوى الكتاب فى تفصيل دقيق غاية الدقة على وصف لحيـــاة اثنتى عشرة حشرة نموذجية ، منها ذبابة مايو ونحلة العسل ، ودراسات مكروسكوبية للحبار squid والحلزون ، والبطلينوس clam والضفدعة . كذلك وردت فى الكتاب أوصاف للتجارب التى أثبت بها سوامردام أن العضلات فى الأنسجة المقطوعة من جسم حيوان يمكن جعلها تتقلص بأثارة العصب الرابط . وقد رفض نظرية التولد التلقائى كما رفضها ريدى ، وزاد بأن بين أن اللحم المتحلل لا يحدث الكائنات الدقيقة ، بل ان هذه الكائنات هى التى تحدث التحلل فى المادة العضوية . وقد أسس سوامردام فى حياته القصيرة علم الحشرات الحديث ، وأرسي لنفسه مكانة رجـل من أدق الملاحظين فى تاريخ العلم . ورجوعه من العلم الى الدين تشخيص لتردد الانسان الحديث بين بحث عن الحقيقة يسخر من الأمل ، وانتكاس الى الآمال التى تجفل من الحقيقة .

٩ ـ التشريح والفسيولوجيا

أسلم جسم الانسان بعد اخضاعه للمكروسكوب بعض أسراره الدفينة لجيش العلم الزاحف . ففى عام ١٦٥١ تتبع جان باكيه سير الأوعيـــة اللبنية ، وفى ١٦٥٣ كشف أولوف روربيك ، وموطنه أوبسالا ، الجهاز اللنفاوى ، ووصف هذا الجهاز توماس مارتولين ، وموطنه كوبنهاجن ، وفى ١٦٦٤ اكتشف سوامردام الصمامات اللنفاوية وفى ذلك العام أوضح صديقه رينيه دجراف وظيفة البنكرياس والصفراء وعملهما . وفى ١٦٦١ اكتشف صديق آخر هو نيقولاوس ستينو قناة (لا تزال تحمل اسـمه) هى قناة الغدة النكفية ، وبعد سنة القنوات الدمعية للعـــين ، وخص جراف بدراسته تشريح الخصيتين والمبايض ، وفى ١٦٧٢ وصـف لأول مرة تلك الأكياس حاملة البيض التى أطلق عليها هالر تكريما له حويصلات جراف . وترك بارتولين بطاقته على جسمين بيضـــاويين ملاصـقين للمهبل ، واكتشف وليم كوبر (الطبيب لا الشاعر) فى ١٧٠٢ الغـــدد التى تفرغ افرازها فى مجرى البول وأطلق عليها اسمه . كذلك ترك فرانشسكوس سيلفيوس توقيعه على شق فى المخ (١٦٦٣) (وكان المعلم

المحبوب لجراف ، وسوامردام ، وستينو ، وويليس فى ليدن) • ونشر توماس ويليس ، أحد مؤسسي الجمعية الملكية ، فى عام ١٦٦٤ كتابه " Cerebri Anatome تشريح المخ » الذى كان أكمل وصف للجهاز العصبى الى ذلك التاريخ ، ولا تزال تحمل اسمه « دائرة ويليس » ، وهى شبكة سداسية من الشرايين فى قاع المخ •

أما ألمع مشرحى العصر فهو مارتشيللو مالبيجى ، الذى ولد قرب بولونيا فى ١٦٢٨ ونال درجته الطبية منها ، وبعد أن عمل استاذا عدة سنوات فى بيزا ومسينا عاد الى بولونيا ، ودرس الطب فى جامعتها خمسة وعشرين عاما • وبعد أن اشتغل بالتشريح المكروسكوبى للنبات ، ركز عدساته على دودة القز ، وسجل كشوفه فى دراسة ممتازة • وفى هذا البحث أوشك أن يفقد بصره ، ومع ذلك كتب يقول « خلال قيامى بهذه البحوث تكشف أمام عينى الكثير جدا من معجزات الطبيعة حتى استشعرت لذة باطنية لا قدرة لقلمى على وصفها (٦٢) » • ولا بد أن قد خالجه ما خالج الشاعر الانجليزى كيتس وهو يطالع لأول وهلة ترجمة تشابمن لهوميروس ، حين رأى (١٦٦١) فى رئتى الضفدعة كيف ينتقل الدم من الشرايين الى الأوزدة فى أوعية سماها « الشعيرات » لدقتها المتناهية ، وقد وجد شبكة من هذه الشعيرات حيثما تحول الدم الشريانى الى دم وريدى ، وهكذا وضح الجهاز الدورى لأول مرة أثناء دورته •

على أن هذا لم يكن سوى جزء من اسهامات مالبيجى فى التشريح ، وان كان أهم أجزائها • فقد كان أول من أثبت أن حلمات اللسان أعضاء للتذوق ، وأول من ميز الكرات الحمراء فى الدم (ولكنه ظنها خطأ كريات من الشحم) ، وأول من وصف بدقة الدورتين العصبية والدموية فى الجنين ، وأول من وصف هستولوجيا قشرة المخ والحبل الشوكى ، وأول من أتاح الوصول الى نظرية عملية للتنفس بوصفه الدقيق للبناء الحويصلى للرئتين • واسمه منتشر بحق على أجسادنا فى « الحزم المالبيجية » أو حلقات من الشعريات ، فى الكلى ، وفى « الكريات المالبيجية » فى الطحال ، وفى « الطبقة المالبيجية » فى الجلد • وكثير من كشوفه وتفسيراته تحداه معاصروه ، ولكنه دافع عن نفسه بقوة ، وانتصر فى معاركه وان كلف هذا النصر أعصابه عنتا • وقد أرسل

الى الجمعية الملكية بلندن تقريرا عن جهوده ، وكشوفه ، وجدلياته ، وكأنه كان يعرض هذه كلها على محكمة العلم العليا فى جيله ، ونشرت الجمعية هذا التقرير سيرة ذاتية بقلمه • وفى ١٦٩١ عين طبيبا خاصا للبابا انوسنت الثانى عشر ، ولكنه توفى عام ١٦٩٤ من اصابة بالفالج • وكشفه للشعيرات من المعالم فى تاريخ التشريح ، وعمله فى جملته أرسى دعائم علم الهستولوجيا •

واذ تقدم البحث فى التشريح أماط اللثام عن أوجه شبه كثيرة جدا بين أعضاء الانسان والحيوان ، حتى لقد اقترب بعض الطلاب من نظرية التطور • ففى عام ١٦٩٩ نشر ادوارد تيزون (الذى اطلق اسمه على الغدد الدهنية للبشرة) كتابا عن « الأورنج — أوتانج ، انسان الغابات » • وقد قارن بين تشريح الانسان وتشريح النسناس ، ورأى أن الشمبانزى وسط بينهما • ولم يمنع علم الاحياء من أن يسبق داروين فى القرن السابع عشر غير الخوف من احداث زلزال لاهوتى •

وانتقلت الأبحاث من التشريح والبنية الى الفسيولوجيا والوظيفة• وكان التنفس الى عام ١٦٦٠ يفسر بأنه عملية تبريد ، أما الآن فقد شبهه أصحاب التجارب العلمية بالاحتراق • فبرهن هوك على أن سر التنفس هو تعرض الدم الوريدى للهواء النظيف فى الرئتين • وأثبت عضو آخر فى الجمعية الملكية هو رتشرد لوور (١٦٦٩) أن الدم الوريدى يمكن تحويله الى دم شريانى بالتهوية ، وان الدم الشريانى يتحول وريديا اذا منع باستمرار من الاتصال بالهواء • ورأى ان أهم عامل فى التهوية هو « روح نترى » فى الهواء • وجريا على هذه المبادرات وصف جون مايو ، صديق لوور هذا العامل النشيط بأنه « جزيئات نترية — هوائية » وفى التنفس تمتص الجزيئات النترية — فى رأيه — من الهواء فى الدم ، ومن هنا كان الهواء فى الزفير أخف وزنا وأقل حجما منه فى الشهيق • والحرارة الحيوانية سببها اتحاد الجزيئات النترية بالعناصر القابلة للاحتراق فى الدم ، والحرارة المتزايدة عقب الرياضة تنشأ من فائض الممتص من الجزيئات النترية بسبب التنفس الزائد • يقول مايو ان هذه الجزيئات النترية تلعب دورا رئيسيا فى حياة الحيوان والنبات •

وقد أفضي تفسير العمليات الحيوية الى جدل من أبقى ما وعاه تاريخ العلم الحديث • ذلك أنه كلما أوغلت الفسيولوجيا بمزيد من

الفضول فى تشريح الانسان ، بدا أن الوظيفة تلو الوظيفة من وظائف الجسم تخضع لتفسير آلى بلغة الفيزياء والكيمياء . فلاح أن التنفس اتحاد بين التمدد ، والتهوية ، والانقباض ، وأن وظائف اللعاب ، والصفراء ، والعصارة البنكرياسية ، كيميائية لاخفاء فيها ، وأن جان ألفونسو بوريللى قد استكمل (١٦٧٩) التحليل الآلى للحركة العضلية . واعتنق ستينو، الكاثوليكى الغيور ، الرأى الآلى فى العمليات الفسيولوجية ، ورفض عبارات جالينوس الغامضة من أمثال « الأرواح الحيوانية » لأنهـا « مجرد ألفاظ لا تعنى شيئا » . وبدا الآن مفهوم ديكارت للجسم على أنه آلة مبررا كل التبرير .

ومع ذلك أحس معظم العلماء أن تلك الأجهزة البدنيـة ما هى الا أدوات لمبدأ حيوى يتجاوز التحليل بلغة الكيمياء والفسيولوجيا . فعزا فرانسس جليسون ، أحد مؤسسي الجمعية الملكية ، للمادة الحية كلها « تهيجية » تتميز بها ــ وهى استهداف للاثارة ــ قال انها لا توجد فى المادة غير الحية . وكما أن نيوتن ، بعد أن رد الكون الى الآلية ، عزا الى الله الدفع المبدئى لآلة العـالم ، فكذلك افترض بوريللى فى جسم الانسان نفسا هى المصدر لكل حركة حيوانية ، وذلك بعد أن فسر العمليات العضلية تفسيرا آليا (٦٣) . ورأى كلود بيرو ، المعمـارى والطبيب ، (١٦٨٠) أن الأفعال الفسيولوجية التى تبدو الآن آليـة كانت من قبل ارادية ، تهتدى بارشاد نفس ، ولكنها أصبحت آلية بفعل التكرار الكثير ، وذلك أشبه بتكون العادات ، بل ربما كان القلب ذاته خاضعا لتحكم الارادة فيما مضي (٦٤) . وزعم جيورج شتال (١٧٠٢) أن التغيرات الكيميائية فى النسيج الحى تختلف عن تلك التى ترى فى المختبرات ، لأن التغيرات الكيميائية ــ فى زعمـه ــ التى تعـرو الحيوانات الحية تحكمها « حساسية حيوانية " anima sensitiva " تنتشر فى جميع أجزاء الجسم . والنفس كما يقول شـتال تدير كل وظيفة فسيولوجية ، حتى الهضم والتنفس ، وهى تبنى كل عضـو ، بل الجسم كله ، بوصفه أداة للرغبة (٦٥) . وخيل له أن الأمـراض طرق تحاول بها النفس التخلص من عائق يعوق عملياتها ، وسـبق نظرية « سيكوسوماتية » (أى جسدية نفسية) من نظريات القـرن

العشرين بالقول بأن اضطرابات « النفس الحساسة » قد تحدث عللا بدنية (٦٦) ٠

وظلت المفاهيم الحيوية ، بشكل أو آخر ، تحتل مكان الصدارة فى العلم حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ٠ ثم استسلمت فترة أمام المكانة الصاعدة للفيزياء الميكانيكية ، ثم بعثت من جديد ،فى ثوب أدبى فتان ، فى كتاب برجسون « التطور الخلاق » (١٩٠٦) ٠ وسيمضي الجدل الى ما شاء الله حتى يقيض للجزء أن يفهم الكل ٠

١٠ ـ الطب

جاء أقوى دافع لعلوم الأحياء من حاجات الطب ٠ لقد كان علم النبات ، قبل راى ، أداة الصيدلة ٠ وكانت الصحة « الخير الأعظم » ، وتوسل الرجال والنساء والاطفال اليها بالصلوات ، والنجوم، والملوك، والضفادع ، والعلم ٠ يقول أوبرى (٦٧) ان أحد الاطباء كان قبل أن يصف الدواء للمريض يمضي الى مخدعه ليصلى حتى « تقرنت ركبتاه » فى النهاية من كثرة الصلوات وكان التنجيم لا يزال يتدخل فى الطب ٠ فقد نصح الجراح القائم على علاج لويس الرابع عشر بألا يَحجم الملك الا فى ربعى القمر الأول والأخير « حتى تكون الأمزجة قد تراجعت فى هذا الوقت الى مركز الجسم » (٦٨) ٠ وفى رأى ديفو أن المال الذى انفق على المشعوذين كان كفيلا بالوفاء بالدين القومى (٦٩) ٠ وقد سافر فلامستيد ، فلكى الملك ، أميالا لكى يربت ظهره المشعوذ المشهور فالنتين جريتراكس ، الذى زعم بكل بساطة أنه يشفى من الداء الخنازيرى ، وربما كان فلامستيد واحدا من ١٠٠ر٠٠٠ لسهم تشارلز الثانى ليشفيهم من هذا الداء الخنازيرى (scrofula) المسمى « داء الملك King's evil » (وهو سل الغدد اللنفاوية وبخاصة فى العنق) ٠ وفى سنة واحدة (١٦٨٢) لمس هذا الحاكم اللطيف ٨ر٥٠٠ مريض مصاب بهذا المرض ، وفى ١٦٨٤ بلغ التزاحم للوصول اليه حدا ديس معه ستة من المرضي تحت الأقدام حتى ماتوا ٠ ورفض

وليم الثالث أن يواصل التمثيلية . وقال حين حاصر جمع قصره « انها خرافة غبية ، فأعطوا هؤلاء المساكين بعض النقود واصرفوهم » . وفى مناسبة أخرى حين كثر الالحاح عليه ليضع يده على مريض أذعن قائلا « وهبك الله صحة أفضل وعقلا أرجح » . وقد اتهمه الشعب بالكفر (٧٠) .

وتضافرت عيوب عناية الأفراد بصحتهم ونقائص النظافة الصحية العامة مع ذكاء المرض القادر على التكيف . ونشر البغاء الزهرى فى المدن والمعسكرات . وقد استشرى بصفة خاصة بين الممثلين والممثلات ، كما نستنتج من قصة مستورة فى مدام دسفنييه عن « ممثل اعتزم الزواج برغم أنه يعانى من مرض خطير معين ، فقال له أحد أصحابه : ويحك ألا تستطيع الانتظار حتى تشفى ؟ انك ستجر البلاء علينا جميعا (٧١) » ، وقد مثل القائد الفرنسي فاندوم فى البلاط الملكى بغير أنف ، لأنه أعطاها قربانا لبكتريا الزهرى (٧٢) . وكان السرطان يمضي فى طريقه قدما ، وتصف لنا مدام دموتفيل سرطان الثدى (٧٣) وقد وصفت الحمى الصفراء أول مرة عام ١٦٩٤ . وانتشر الجدرى على الأخص انتشارا واسعا فى انجلترة ، ولم يكن هناك علاج معروف له ، وقد ماتت به الملكة مارى ، وابن ملبره . وابتليت أقطار بأسرها بالأوبئة لا سيما وباء الملاريا . وذكر توماس ويليس أن انجلترة كلها تقريبا كانت فى ١٦٥٧ أشبه بمستشفى يعالج حمى الملاريا (٧٤) . واجتاح الطاعون لندن فى ١٦٦٥ (٧٥) . وقتل فى فيينا سنة ١٦٧٩ ١٠٠٠٠٠ ألف و ٨٣٠٠٠ فى براغ سنة ١٦٨١ . وازدادت الامراض المهنية بانتشار الصناعة ، وفى ١٧٠٠ أصدر برناردينو راماتزينى ، أستاذ الطب فى جامعة بادوا ، رسالة ممتازة ، De morbis artificum عن الضرر الذى يصيب النقاشين من المواد الكيميائية فى طلائهم ، والعاملين فى الزجاج المعشق من الانتيمون ، والبنائين وعمال المناجم من السل ، والخزافين من الدوار ، والطباعين من أمراض العيون ، والاطباء من الزئبق الذى يستعملونه .

وكان تقدم علم الطب بطيئا فى جو الجهل والفقر • وعطل المهنة شره الأطباء للمال ، فكان بعض الاطباء الذين قاموا بعلاجات ناجحة يرفضون الكشف لغيرهم من الأطباء عن العلاج الذى استخدموه (٧٦)• على أن الأطباء من أعضاء الجمعية الملكية ارتفعوا فوق هذا الشره ، وأشركوا زملاءهم بحماسة فى كشوفهم • وكان هناك الآن مدارس طبية جيدة وفى مقدمتها مدارس ليدن ، وبولونيا ، ومونبلييه ، وعلى العموم كان الحصول على درجة من معهد معترف به شرطا لممارسة الطب قانونيا فى غربى أوربا • واستمر مدرسو الطب على انقسامهم الى مدرستين من مدارس العلاج • فدافع بوريللى عن طريقة العلاج الطبى (iartophysical) ورأى تناول الامراض على أنها اضطرابات فى آلية الجسم • أما سيلفيوس ، الذى طور حجج باراسيلسوس وهيلمونت فقد دافع عن **الطريقة الكيميائية** (iatrochemical) — وهى طريقة استعمال العقاقير لمقاومة الاضطرابات فى « أمزجة » الجسم ، ومعظمها فى رأيه راجع لزيادة فى الحموضة • وكان أنفع من هذه النظريات العامة تلك الكشوف فى أسباب أمراض معينة ، فوصف سيلفيوس مثلا لأول مرة الدرينات فى الرئتين ، وعزا هذه الاورام المرضية الى السل •

ومن أهم كشوف هذا العصر الجهد الذى قام به ذلك اليسوعى الممتاز ، أثناسيوس كيرشر الفولداوى ، وكان رياضيا ، وفيزيائيا ، ومستشرقا ، وموسيقيا ، وطبيبا ، ويبدو أنه أول من استخدم المكروسكوب فى فحص المرض (٧٧) • وبهذه الوسيلة وجد أن دم ضحايا الطاعون يحتوى على « ديدان » لا حصر لها لا ترى بالعين المجردة • ورأى حييونات مماثلة فى المادة المتعفنة ، وعزا التعفن وكثيرا من الامراض لنشاطها • وكتب تقريرا عن كشوفه فى « البحث فى الأمراض الوبائية Scrutinium Pestis " (روما ١٦٥٨) بين بعبارات صريحة واضحة لأول مرة ما لم يذكره فراكاستورو الا تلميحا فى ١٥٤٦ — وهو النظرية القائلة بأن انتقال الكائنات الحية الضارة من شخص أو حيوان الى آخر هو سبب المرض المعدى (٧٨) •

وتخلف العلاج الطبى عن البحث الطبى ، لأن الذين نبغـوا فى البحث جنحوا الى تاليف طبقـة متميزة عن ممارسي الطب ، وكان الاتصال بين الفريقين ناقصا . وكانت بعض علاجات العصور الوسطى مازالت توصف للمرضي . وقد سجل أوبرى نجاحا جاء فى غير محله. قال « ان امرأة حاولت أن تسمم زوجها (وكان مريضـا بالاستسقاء) بسلق ضفدعة فى حسائه ، الامر الذى شفاه من مرضه ، وكان هذا هو الظرف الذى عثر فيـه على الدواء (٧٩) » ودخلت بعض العقاقير الجديدة الفارماكوبيا فى النصف الثانى من القرن السابع عشر : عـرق الذهب ipecacuanha والكسكارة ، والنعناع ... ووصف الأطـباء الهونديون الشـاى دواء لكل الأدواء تقريبـا ترويجـا للتجـارة الهولندية(٨٠) .

وكان اثنان من الهولنديين أعظم معلمى الطب فى هذا العصر ، وهما سيلفيوس وبويرهافى ، وكلاهما فى ليدن . وقـد علم هيرمان بويرهافى الكيمياء ، والفيزياء ، والنبات أيضا ، وأقبل عليه الطلاب من شمالى أوربا كلها ، وقد رفع مقـام الطـب الاكلينيكى باصطحابه تلاميذه الأكثر نضجا فى جولاته اليومية على أسرة المستشفى ، وتعليمهم بالملاحظة المباشرة والعلاج النوعى لكل حالة بمفـردها . وقد ترجمت مؤلفاته الى كل اللغات الاوربية الكبرى ، وحتى الى التركية ، وطبقت شهرته الآفاق حتى بلغت الصين ذاتها .

ووجد الطب الاكلينيكى فى انجلترة أبرع ممثـل له فى توماس سيدنهام . قضي فى أكسفورد فترتين تفصلهما فترات خدمة فى الجيش، ثم استقر فى لندن ممارسا عاما . وانتهى بالقليل من النظريات والكثير من الخبرة الى فلسفته فى المرض ، الذى عرفه بأنه « جهد من الطبيعة التى تكافح بكل قوتها لترد الى المريض عافيته بالتخلص من المـادة المرضية (٨١) » . وميز بين الأعراض « الجوهرية » التى تحدثها المادة الدخيلة ، والأعراض « العرضية » التى تحدثها مقاومة الجسم لهـا ، فالحمى مثلا ليست مرضا بل حيلة يتوسل بها الـكائن الحى للدفـاع عن نفسه . ومشكلة الطبيب أن يعين عملية الدفاع هذه . ومن ثم فقـد امتدح سيدنهام أبقراط لأن « أبا الطب » :

« لم يتطلب من فن الطب أكثر من معاونة الطبيعة اذا وهنت ، وكبحها اذا ازداد عنف جهودها ٠٠٠ ذلك ن هذا المراقب الحكيم وجد أن الطبيعة وحدها هى التى تنهى اختلال الصحة ، وتعمل على الشفاء مستعينة بعقاقير بسيطة ، وأحيانا دون عقاقير على الاطلاق (٨٢) » ٠

وبراعة سيدنهام فى أنه تبين أن لكل مرض كبير صورا مختلفة ، وكان يدرس كل حالة بتاريخها الاكلينيكى ليشخص نوع المرض الذى تنطوى عليه ، ويوائم بين العلاج والاختلافات النوعية للمرض ٠ ولهذا نراه يميز الحمى القرمزية عن الحصبة ويعطيها اسمها الحالى ٠ وكان معروفا بين الاطباء بلقب « أبقراط الانجليزى » لأنه أخضع النظرية للملاحظة ، والأفكار العامة للحالات الخاصة ، والعقاقير للعلاجات الطبيعية ٠ وقد ظل كتابه Processus Integri طوال قرن من الزمان المرشد للممارس الانجليزى فى العلاج ٠

وواصلت الجراحة نضالها لتحظى بالاعتراف بها علما محترما ٠ ووجد أكفأ ممثليها أنفسهم بين نارين ، عداء الاطباء وحسد الحلاقين — الذين ما زالوا يجرون بعض الجراحات الصغيرة ، ومنهـا جراحة الأسنان ٠ ولم يستطع جى باتان ، عميد كلية الطب بجامعة باريس ، أن يغتفر للجراحين اتخاذهم زى الأطباء ومسلكهم ، ورمى الجراحين جميعا بأنهم « سلالة من الحمقى ، والمغرورين ، اللئام ، المسرفين ، الذين يطلقون شواربهم ويلوحون بأمواسهم (٨٣) » ٠ ولكن فى عام ١٦٨٦ أجرى الجراح فيلكس جراحة ناجحة على ناسور لويس الرابع عشر ، وسر الملك سرورا عظيما فنفح فيلكس بخمسة عشر الف جنيه ذهبى ، وخلع عليه ضيعة فى الريف ولقب النبالة ٠ ورفعت هذه الترقية من مكانة الجراحين الاجتماعية فى فرنسا ٠ وفى ١٦٩٩ صدر قانون جعل الجراحة فنا من الفنون الحره ، وبدأ ممثلوها يحتلون مكانا مرموقا فى المجتمع الفرنسي ٠ وقد وصف فولتير الجراحة بأنها « أنفع الفنون قاطبة » وأنها « الفن الذى بز فيه الفرنسيون سائر أمم الأرض (٨٤) » ٠

على أن الجراحة الانجليزية كان لها فى هـذا العصر مفخرتان على الأقل ٠ ففى ١٦٦٢ قام ج٠ د٠ ميجر بحقن الانسان أول حقنة وريدية ناجحة ، وفى ١٦٦٥ — ٦٧ نجح رتشرد لوور فى نقل الدم من

حيوان الى أوردة حيوان آخر . وقد سجل بيبيس هذا فى يوميته (٨٥). ويستفاد من جريدة القيل والقال تلك أن الجراحات كانت تجرى عادة بمخدر ضعيف أو دون مخدر ، فلما أجريت لبيبيس جراحة لازالة حصاة فى مثانته لم يعط كلوروفورما ولا مطهرات ، واكتفى باعطائه « جرعة مهدئة (٨٦) » .

واستمر الناس يهجون الطبيب كما يهجونه فى كل جيل . فقد ساءهم منه أتعابه ، وفخامة مظهره فى عباءته وشعره المستعار وقبعته المخروطية ، وعرور حديثه ، وأخطاؤه القتالة أحيانا . وروى بويل أن كثيرين كانوا يخشون الطبيب أكثر مما يخشون المرض (٨٧) . وكانت سخريات موليير بالمهنة العظيمة فى أكثرها مزاحا لطيفا من رجل كان حريصا رغم ذلك على الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع طبيبه . وبقى - بعد أن رشقت السهام كلها - أن القرن السابع عشر شهد تقدما مشكورا فى علم الطب بفضل عشرات الكشوف فى التشريح ، والفسيولوجيا ، والكيمياء ، وأن التبادل الدولى للمعرفة الطبية كان فى ازدياد ، وأن كبار الاساتذة كانوا يبعثون تلاميذهم الاكفاء الى جميع أرجاء أوربا الغربية ، وأن الجراحة كانت تحسن طرقها وترفع مكانتها ، وأن الاخصائيين كانوا يزدادون معرفة ومهارة ، وأن مزيدا من التدابير كان يتخذ للنهوض بالصحة العامة . وشرعت الحكومات البلدية القوانين التى تكفل النظافة الصحية . وفى ١٦٥٦ ، حين ظهر الطاعون فى روما ، حتم المونسنيور جاستالدى ، المأمور البابوى للصحة ، تنظيف الشوارع والمجارى ، وتفتيش السقايات بانتظام ، وتوفير الامكانات العامة لتطهير الملابس ، وتقديم الشهادات الصحية من جميع الاشخاص الذين يدخلون المدينة (٨٨) ، وبازدياد الثروة بنى الناس بيوتا أمتن تستطيع أن تبعد الفيران الى مسافة محترمة فتقلل من انتشار الطاعون . وقد يسرت امدادات أفضل من المياه - وهى أول ضرورات الحضارة - النظافة للاجسام الراغبة فيها . وأخذ التحضر يصبح - بدنيا - فى متناول مزيد من الناس .

١١ - النتائج

كان القرن السابع عشر فى جملته احدى القمم فى تاريخ العلم .

أنظر اليه فى سلمه الصاعد ، ابتداء من بيكون يدعو الناس للكفاح فى سبيل ترقية المعرفة ، وديكارت يزاوج بين الجبر والهندسة ، مرورا بتحسين التلسكوبات ، والمكروسكوبات ، والبارومترات ، والترمومترات والمضخات الهوائية والعلوم الرياضية ، وبقوانين كبلر الكوكبية ، وقبة جاليليو السماوية المتعاظمة ، ورسم هارفى لخريطة الدم ، ونصفى كرة جيوريكى المحكمتين ، وكيمياء بويل الشكاكة ، وفيزياء هويجنز المتعدده الصور ، ومحاولات هوك الكثيرة الاشكال ، وتنبؤات هالى الكونية ، ثم انتهاء بحساب ليبنتز التفاضلى التنويتى ونسق نيوتن الكونى ، انظر الى كل أولئك واسأل : أى قرن سابق أنجز مآثر هذا القرن ؟ يقول ألفريد فورث هوايتهيد ان الذهن الحديث « يعيش الى اليوم على ذخيرة الافكار المتجمعة التى وفرتها له عبقرية القرن السابع عشر « فى العلم ، والأدب ، والفلسفة (٨٩) » .

وانتشر تأثير العلم فى أقواس متسعة . أثر فى الصناعة بتوفيره الفيزياء والكيمياء اللتين كفلتا المغامرات الجديدة فى التكنولوجيا . وفى التعليم ألزم بتخفيف التركيز على العلوم الانسانية ــ على الأدب ، والتاريخ ، والفلسفة ، لأن تطوير الصناعة والتجارة والملاحة تطلب المعرفة والأذهان العملية . وأحس الأدب ذاته التأثير الجديد : فسعى العالم وراء النظام والدقة والوضوح أوحى بفضائل مماثلة فى الشعر والنثر ، وانسجم مع الاسلوب الكلاسيكى الذى يمثله موليير وبوالو وراسين ، كما يمثله أديسون وسويفت وبوب . واشترطت الجمعية الملكية ــ كما يقول مؤرخها ــ على أعضائها ، أسلوبا فى الحديث طبيعيا عاديا ، محكما . يقرب كل الاشياء قدر الامكان من الوضوح الرياضي (٩٠) » .

وتأثرت الفلسفة والدين بانتصارات الرياضة والفيزياء ، التى حددت للمذنبات ميقاتا ووضعت للنجوم قوانين . وتقبل ديكارت وسبينوزا الهندسة مثلا أعلى للفلسفة والعرض . ولم يعد بعد ذلك من حاجة لأن يفترض فى الكون شيء غير المادة والحركة.. ورأى ديكارت العالم كله آلة ، باستثناء العقل البشرى والالهى ، وتحدى هوبز هذا الاستثناء ، وصاغ مادية يكون حتى الدين فيها أداة للدولة تستعين بها على تسيير الآلات البشرية . ولاح أن علوم الفيزياء والكيمياء والفلك

الجديدة « تكشف عن كون يعمل طبقا لقوانين لا تتغير ، وهـــو كون لا يسمح بمعجزات ، واذن فلا يستجيب لصلوات ، واذن فلا يحتـــاج لاله . وربما جاز الابقاء عليه ليعطى آلة العالم دفعة مبدئية ، ولكنـــه بعد هذا له أن ينسحب ليكون ربا أبيقوريا ـ لوكريتيا ، لا يعبأ بالعالم ولا بالناس . روى ن هالى أكد لصديق لباركلى أن « عقائد المسيحية » أصبحت الآن « لا يمكن تصـــورها (٩١) » . على أن بويل رأى فى كشوف العلم دليلا جديدا على وجود الله . وكتب يقول « ان العالم يسلك وكأن الكون يشيع فيه كله كائن ذكى » . وأضاف فى عبارة تعيد بسكال الى الذاكرة « ان نفس الانسان كائن انبل وأثمن من العـــالم المـــادى بأسره (٩٢) » . ولما مات خلف مالا ينفق منه على محاضرات تظهـــر صدق المسيحية ازاء « مشهورى الكفار ، وهم الملحـــدون ، والقائلون بوجود آلهة ، والوثنيون واليهود ، والمسلمون » وأضاف شرطا هو أن المحاضرات يجب ألا تخوض فى المجادلات الناشبة بين المسيحيين(٩٣).

ووافق علماء كثيرون على رأى بويل ، وشارك كثير من المسيحيين المؤمنين فى الاشادة بالعلم . كتب درايدن فى ختام القرن يقول « فى هذه السنين المائة الاخيرة كشف لنا القناع عن طبيعة جديدة تقريبا ـ اخطاء أكثر من كشفت ، وأجرى من التجارب المفبدة ، وأميط اللثام عن أسرارا رفيعة فى البصريات ، والطب ، والتشريح ، والفلك ـ أكثر مما حدث فى جميع تلك العصور الخرفة الساذجة ، ابتداء من أرسطو الى يومنا هذا (٩٤) » ، وتلك مبالغة مفرطة ولكنهـا ذات دلالة ، تكشف لنا عن اقتناع « المحدثين » بأنهم كسبوا معركة الكتب ضد « القدامى » على أية حال لم يملك الناس الا أن يروا أن العلوم تزيد المعرفة الانسانية ، بينما الاديان تصطرع والساسة يقتتلون . وسما العلم الآن الى مقـــام جديد من الشرف بين مغامرات الانسان ، لا بل ان هذا العهد لم يؤذن بالنهاية الا والناس يرحبون بالعـــلم بشيرا بمجىء المجتمــــع المثـــالى ومخلصا للنوع الانسانى . كتب فونتنيل فى ١٧٠٢ يقول « ان تطبيق العلم على الطبيعة سينمو باطراد فى مداه وقوته ، وسنمضي قدما من عجيبة الى عجيبة . وسوف يأتى اليوم الذى يستطيع فيه الانسان أن يطير بأجنحة تحفظه فى الهواء ، وسينمو هذا الفن ... حتى نستطيع يوما أن نطيرا الى القمر (٩٥) » . لقد كان كل شيء يتقدم ، الا الانسان.

الفصل التاسع عشر

اسحاق نيوتن

١٦٤٢ ـ ١٧٢٧

١ ـ الرياضي

ولد فى مزرعة صغيرة بوولزثورب ، فى مقاطعة لنكولن ، فى ٢٥ ديسمبر ١٦٤٢ (حسب التقويم القديم ، أى اليوليانى) وهو العام الذى مات فيه جاليليو ، وكانت الزعامة الثقافية ، كالزعامة الاقتصادية ، فى سبيلها من الجنوب الى الشمال • وكان عند ميلاده صغير الحجم جدا بحيث كان فى الامكان وضعه فى كوز سعته ربع جالون (كما أخبرته أمه فيما بعد) ، وضعيفا جدا بحيث لم يخطر ببال أحد أنه سيعيش أكثر من أيام (١) معدودات • وكفلته أمه وخاله لأن أباه كان قد مات قبل ولادته بشهور •

وحين بلغ الثانية عشرة أرسل الى المدرسة الخاصة فى جرانثام ، فلم يحالفه التوفيق فيها • وجاء فى التقارير عنه أنه « خامل » و « غير ملتفت » ، وأنه يهمل الدراسات المقررة ويقبل على الموضوعات التى تستهويه ، وينفق الوقت الكثير على المخترعات الميكانيكية كالمزاول ، والسواقى ، والساعات البيتية الصنع • وبعد أن قضي عامين فى جرانثام أخذ من المدرسة ليساعد أمه فى المزرعة ، ولكنه عاد الى اهمال واجباته ليقرأ الكتب ويحل المسائل الرياضية • وتبين خال آخر كفايته ، فاعاده الى المدرسة ، وعمل الترتيبات لقبول نيوتن بكلية ترنتى فى كمبردج (١٦٦١) طالبا يكسب مصروفاته بمختلف الخدمات (subsizar) •وحصل على درجته الجامعية بعد أربع سنوات ، وبعدها بقليل انتخب زميلا بالكلية • وخص باهتمامه الرياضة ، والبصريات ، والفلك ، والتنجيم ، وقد احتفظ بميله لدراسة التنجيم الى فترة متأخرة من حياته •

وفى ١٦٦٩ استقال أستاذه فى الرياضة اسحاق بارو ، وعين نيوتن خلفا له بناء على توصية منه ، وصف فيها نيوتن بأنه « عبقرى لا نظير له » ، وقد احتفظ بكرسيه فى ترنتى أربعة وثلاثين عاما • ولم

يكن بالمعلم الناجح . كتب سكرتيره عن ذكريات ذلك العهد يقول « كان الذين يذهبون للاستماع اليه قليلين ، والذين يفهمونه أقل ، حتى أنه كان أحيانا كثيرة وكأنه يقرأ للحيطان بسبب قلة السامعين (٢) » . وفى بعض المناسبات لم يكن يجد مستمعين اطلاقا فيعود الى حجرته كاسف البال . وبنى فيها مختبرا ـ كان الوحيد فى كمبردج آنئذ . وقام بالكثير من التجارب ، لا سيما فى الخيمياء « وهدفه الأكبر تحويل المعادن (٣) » ، ولكنه اهتم أيضا بـ « اكسير الحياة » و « حجر الفلاسفة (٤) » وواصل دراساته الخيميائية من ١٦٦١ الى ١٦٩٢ ، وحتى وهو يكتب كتابه « المبادىء (٥) » ترك مخطوطات عن الخيمياء دون نشر بلغ مجموع كلماتها نيفا و ١٠٠ر٠٠٠ « لا قيمة لها اطلاقا(٦)» وكان بويل وغيره من أعضاء الجمعية الملكية مشغولين شغلا محموما بهذا البحث نفسه عن صنع الذهب . ولم يكن هدف نيوتن تجاريا بشكل واضح ، فهو لم يبد قط أى حرص على المكاسب المادية ، ولعله كان يبحث عن قانون أو عملية يمكن أن تفسر بها العناصر على أنها أشكال مغايرة ، قابلة للتحويل ، لمادة أساسية واحدة . ولا سبيل لنا الى التأكد من أنه كان مخطئا .

وكان له حديقة صغيرة خارج مسكنه بكمبردج ، يتمشي فيها فترات قصيرة سرعان ما تقطعها فكرة يهرع الى مكتبه ليسجلها . كان قليل الجلوس ، يؤثر أن يذرع حجرته كثيرا (فى رواية سكرتيره) « حتى لتخاله ... واحدا من جماعة أرسطو » المشائين (٧) . وكان مقلا فى الطعام ، وكثيرا ما فوت وجبة ، ونسي أنه فوتها ، وكان ضنينا بالوقت الذى لابد من انفاقه فى الاكل والنوم . « ونادرا ما ذهب لتناول الطعام فى القاعة ، فاذا فعل فانه ـ ما لم ينبه ـ يذهب فى هيئة زرية ، حذاؤه بالى الكعبين ، وجواربه بلا رباط ... ورأسه غير ممشط الا فيما ندر (٨) » . وقد رويت ، واخترعت القصص الكثيرة عن شرود ذهنه . ويؤكدون أنه قد يجلس الساعات بعد استيقاظه من النوم على فراشه دون أن يرتدى ثيابه وقد استغرقه الفكر (٩) . وكان أحيانا اذا جاءه زائرون يختفى فى حجرة أخرى ، ويخط أفكارا على عجل ، وينسي أصحابه تماما (١٠) .

لقد كان راهبا من رهبان العلم فى هذه السنين الخمس والثلاثين

بكمبردج . وقد وضع « قواعد للتفلسف » - أعنى للطريقـــة والبحث العلميين . ورفض القواعد التى وضعها ديكارت فى « مقاله » كمبادىء قبلية تستنتج منها كل الحقائق الكبرى بالاستدلال . وحين قال نيوتن « أنا لا أخترع فروضا (١١) » كان يعنى أنه لا يقدم نظريات حول أى شيء يتجاوز ملاحظة الظواهر ، فهو اذن لا يغامر بأى تخمين عن طبيعة الجاذبية ، بل يكتفى بوصف مسلكها وصياغة قوانينها . ولم يزعم أنه يتجنب الفروض باعتبارها مفاتيح للتجارب ، فان مختبره على العكس خصص لاختبار مئات الأفكار والامكانات ، وسجله يزخر بالفروض التى جربت ثم رفضت . كذلك لم يرفض الاستدلال ، انما أصر على أنه يجب أن ينطلق من الوقائع ويفضي الى المبادىء . وكانت طريقته أن يتصور الحلول الممكنة للمشكلة ، ويستنبط متضمناتها الرياضية ، ويختبر هذه بالحساب والتجربة . وكتب يقول « يبدو أن مهمة الفلسفة (الطبيعية) كلها تكمن فى هذا - البحث من ظواهر الحركات فى قوى الطبيعة ، ثم ايضاح الظواهر الاخرى من هذه القوى (١٢) » . لقد كان مزيجا من الرياضة والخيال ، ولن يستطيع فهمه الا من يملكهما جميعا .

ولكن لنمض فى طريقنا رغم هذا . ان لشهرته بؤرتين - حساب التفاضل ، والجاذبية . بدأ عمله فى حساب التفاضل عام ١٦٦٥ بايجاد مماس ونصف قطر الانحناء عند أى نقطة على منحنى . ولم يسم طريقته حساب التفاضل بل الفروق المستمرة Fluxions " وفسر هذا المصطلح تفسيرا لا يمكننا أن نصل الى خبر منه :

« ان الخطوط ترسم ، وبهذا الرسم تولد ، لا بضم الأجزاء بعضها الى بعض ، بل بالتحرك المستمر للنقط ، والسطوح بتحرك الخطوط ، والمجسمات بتحرك السطوح ، والزوايا بدوران الجوانب ، وأجـــزاء الزمن بالفيض المستمر ، وهكذا فى غير ذلك من الكميات . وعلى ذلك فبما أن الكميات ، التى تزداد فى أزمان متساوية ، وبالزيادة تولد ، أصبحت أكبر أو أقل حسب السرعة الاكبر أو الاقل التى تزداد او تولد بها ، فاننى بحثت عن طريقة لتحديد الكميات من سرعات الحركات أو الزيادات التى تولد بها ، واذ أطلقت على سرعات الحركات أو الزيادات لفظ « الفروق "Fluxions ، والكميات المولدة « المتغيرات » ، فقد اهتديت شيئا فشيئا الى طريقة الفروق فى عامى ١٦٦٥ و ١٦٦٦ (١٣) »

وقد وصف نيوتن طريقته فى خطاب كتبه لبارو عام ١٦٦٩ ، وأشار اليها فى خطاب لجون كولنز فى ١٦٧٢ • ولعله استخدم هذه الطريقة فى التوصل الى بعض النتائج المتضمنة فى كتابه « المبادىء » (١٦٨٧) ، ولكن عرضه لها فيه جرى على الصيغ الهندسية المقبولة ربما مراعاة لما يناسب قراءه • وقد أسهم ببيان لطريقته فى الفروق - ولكن دون أن يخفى اسمه - فى كتاب واليس « الجبر » عام ١٦٩٣ • ولم ينشر الوصف الذى اقتبسناه فيما سبق الا عام ١٧٠٤ ، فى ملحق لكتابه « البصريات » • وكان فى طبع نيوتن أن يؤخر نشر نظرياته ، وربما أراد أولا أن يحل الصعوبات التى أوحت بها • وعليه فقد انتظر حتى سنة ١٦٧٦ لينشر نظرية « ذات الحدين » التى خلص اليها • ولو أنه صاغها على الأرجح فى ١٦٦٥ × •

هذه التأجيلات زجت برياضي أوربا فى جدل معيب مزق دولية العلم جيلا بأسره • ذلك أنه فى الفترة بين ابلاغ نيوتن نظريته فى « الفروق » لأصحابه فى ١٦٦٩ ونشر الطريقة الجديدة فى ١٧٠٤ ، وضع ليبنتز نظاما منافسا لها فى ماينز وباريس • ففى ١٦٧١ أرسل الى أكاديمية العلوم بحثا يحوى جرثومة حساب التفاضل (١٤) ، وقابل لبنتز أولدنبرج فى زيارة للندن ، من يناير الى مارس ١٦٧٣ ، وكان قد تبادل الرسائل معه ومع بويل • وقد ظن أصحاب نيوتن فيما بعد أن لبنتز فى رحلته هذه تلقى الماعا لفروق نيوتن - ولكن المؤرخين يتشككون فى هذا الآن • وفى يونيو ١٦٧٦ ، بناء على طلب أولدنبرج وكولنز ، كتب نيوتن خطابا ليبلغ الى لبنتز ، شارحا فيه طريقته فى التحليل • وفى أوغسطس رد لبنتز على أولدنبرج ، وضمن الرد بعض الأمثلة من شغله فى حساب التفاضل ، وفى يونيو ١٦٧٧ ، فى خطاب آخر لأولدنبرج ، وصف نوع حساب التفاضيل الذى توصل اليه ، وطريقته فى التنويت notation أى التدوين بمجموعة من الرموز الرموز) ، وهما يختلفان عن حساب نيوتن وطريقته • ثم عاد فى مجلة Aeta Eruditorum عدد أكتوبر ١٦٨٤ يشرح حساب التفاضل،

× وطبقا لهذه النظرية فان أى قوة ذات حدين (وهو تعبير جبرى مؤلف من حدين تربطهما علامة زائد أو ناقص) يمكن ايجادها بصيغة جبرية بدلا من ايجادها بالضرب • وقد سبق نيوتن جزئيا الى هذه النظرية فييت وبسكال •

وفى ١٦٨٦ نشر طريقته فى حساب التكامل . وفى الطبعة الأولى من « المبادىء » (١٦٨٧) قبل نيوتن بشكل واضح اكتشاف ليبنتز لحساب التفاضل مستقلا . قال :

« فى رسائل تبادلتها مع عالم الهندسة الألمعى ج . و . لبنتز ، قبل عشر سنوات ، حين أشرت الى أننى أعرف طريقة لايجاد الحدود القصوى والدنيا ، ورسم المماسات ، وما الى ذلك ... رد السيد المبجل بأنه اهتدى هو أيضا الى طريقة من نفس النوع ، وأنهى الى طريقته ، التى لم تكد تختلف عن طريقتى ... الا فى أشكال ألفاظه ورموزه (١٦) » .

وكان خليقا بهذا الاعتراف المهذب أن يمنع الجدل . ولكن فى ١٦٩٩ أشار رياضي سويسرى فى رسالة للجمعية الملكية الى أن لبنتز استعار حساب تفاضله من نيوتن . وفى ١٧٠٥ ذكر ليبنتز تضمينا ، فى نقد غفل من التوقيع لكتاب نيوتن « البصريات » أن فروق نيوتن تحوير لحساب التفاضل اللبنتزى . وفى ١٧١٢ عينت الجمعية الملكية لجنة لفحص الوثائق المتصلة بالموضوع . وقبل أن ينصرم العام نشرت الجمعية تقريرا Commercium Epistolicum أكد اسبقية نيوتن ، دون أن تخوض فى موضوع أصالة لبنتز . وفى رسالة كتبها لبنتز بتاريخ ٩ أبريل ١٧١٦ الى قسيس ايطالى بلندن اعترض بقوله ان تعليق نيوتن قد حسم الأمر . ومات لبنتز فى ١٤ نوفمبر ١٧١٦ . وبعد موته بقليل نفى نيوتن أن التعليق « أقر له — أى للبنتز باختراع حساب التفاضل مستقلا عن اختراعى » وفى الطبعة الثالثة من « المبادىء » (١٧٢٦) حذف التعليق (١٧) . ولم يكن النزاع مما يليق بالفلاسفة، لأن كلا المدعيين كان يصح أن ينحنى احتراما لفيرما لأنه كان رائدا لهما فى هذا المضمار .

٢ — الفيزيائى

على أن الرياضة ، على ما فيها من عجب ، لم تكن سوى أداة لحساب الكميات ، فهى لم تزعم أنها تفقه الحقيقة أو تصفها . فلما تحول نيوتن من الاداة الى البحث الجوهرى ، عكف أولا على استكناه سر الضوء . وتناولت محاضراته الاولى فى كمبردج الضوء ، واللون ،

والرؤية ، وعلى عادته لم ينشر كتـابه « البصريات » الا بعد خمس وثلاثين سنة ، فى ١٧٠٤ ، فقد كان بريئا من شهوة النشر .

وفى عام ١٦٦٦ اشترى منشورا من سوق ستوريردج وبدأ التجارب فى البصريات . وفى عام ١٦٦٨ فصاعدا صنع سلسلة من التلسكوبات . فصنع بيديه ، على أساس النظريات التى شرحها مرسين (١٦٣٩) وجيمس جريجورى (١٦٦٢) ، تلسكوبا عاكسا ليتفادى بعض العيوب الملازمة للتلسكوب الكاسر ، وقدمه للجمعية الملكية بناء على طلبها عام ١٦٧١ . وفى ١١ يناير ١٦٧٢ انتخب لعضوية الجمعية .

وكان قد توصل (١٦٦٦) الى احد كشوفه الأساسية حتى قبل أن يصنع التلسكوبات ـ وهو أن الضوء الأبيض ، أو ضوء الشمس ، ليس بسيطا أو متجانسا ، بل هو مركب من الاحمر ، والبرتقالى ، والأصفر ، والأخضر ، والأزرق ، والنيلى ، والبنفسجى . فلما مـرر شعاعا صغيرا من ضوء الشمس خلال منشور شفاف وجد أن الضوء الذى يبدو أحادى اللون انقسم الى كل ألوان الطيف هــذه ، وأن كل لون مكون خرج من المنشور عند زاويته أو درجته أو انكساره الخاص ، وأن الألوان نظمت نفسها فى صف من الحزم ، مؤلفه طيفا مستمرا ، فى أحد طرفيه اللون الاحمر وفى الآخر البنفسجى . وقد أثبت الباحثون اللاحقون أن المواد المختلفة ، اذا جعلت مضيئة بحرقها ، تعطى أطيافا مختلفة . وبمقارنة هذه الاطياف بالطيف الذى يحدثه نجم معـــين ، أصبح فى الامكان تحليل مكونات النجم الكيميائية الى حـد ما . ثم دلت الملاحظات الأدق لطيف النجم على السرعة التقريبية لتحركه نحو الأرض أو بعيدا عنها ، ومن هذه الحسابات استنبط نظريا بعد النجم . وهكذا تمخض كشف نيوتن لتكوين الضوء ، وانكســاره فى الطيف ، عن نتائج كونية تقريبا فى ميدان الفلك .

ولم تتكشف هذه النتائج لنيوتن فى ذلك الحين ، ولكنه أحس (كما كتب لأولدنبرج) أنه توصل « الى أغرب كشف الى الآن ان لم يكن أهم كشف فى عمليـات الطبيعة (١٨) » فأرســل الى الجمعية الملكية فى بواكير عام ١٦٧٢ بحثا عنوانه « نظرية جديدة فى الضــوء واللون » . وقرىء البحث على الأعضاء فى ٨ فبراير ، فأثار جدلا عبر المانش الى القارة . وكان هوك قد وصف فى كتابه « ميكروجرافيـا »

(١٦٦٤) تجربة شبيهة بتجربة نيوتن بالمنشور ، ولم يكن قد استنتج منها نظرية ناجحة فى اللون ، ولكنه أحس بأن فى اعفال نيوتن لفضله السابق غضا من قدره ، فانضم الى بعض أعضاء الجمعية فى نقد النتائج التى خلص اليها نيوتن ، واستمر النزاع ثلاثة أعوام . كتب نيوتن المرهف الحس يقول « اننى مضطهد بالجدل الذى أثارته نظريتى فى الضوء اضطهادا جعلنى ألوم حماقتى لأننى ضحيت بنعمة عظمى ، نعمة هدوء البال ، جريا وراء سراب (١٩) » وحدثته نفسه حينا بأن « أطلق الفلسفة طلاقا بائنا لا رجعة فيه ، الا ما أفعله ارضاء لذاتى (٢٠) » .

وثارت نقطة أخرى من نقط الجدل مع هوك حول ناقل الضوء . وكان هوك قد اعتنق نظرية هويجنز ، التى زعم فيها أن الضوء ينتقل على موجات « أثير » . ورد نيوتن بأن هذه النظرية لا تفسر مسار الضوء فى خطوط مستقيمة . واقترح بدلا منها « نظرية الجسيمات أو الدقائق corpuscular theory " : فالضوء سببه اطلاق الجسم المضيء جزيئات دقيقة لا حصر لها ، تسير فى خطوط مستقيمة خلال الفضاء بسرعة ١٩٠٫٠٠٠ ميل فى الثانية . ورفض نظرية الأثير ناقلا للضوء ، ولكنه قبله بعد ذلك وسيطا لقوة الجاذبية × .

وجمع نيوتن مناقشاته حول الضوء فى كتابه (البصريات Opticks فى ١٧٠٤ . ومما له دلالة أنه كتبه بالانجليزية (فى حين كان كتاب المبادىء Psincipia باللاتينية) ، ووجهه « الى القراء الحاضرى الذكاء والفهم ، الذين لم يتضلعوا بعد فى البصريات» . وفى نهاية الكتاب وضع قائمة لواحد وثلاثين سؤالا تتطلب مزيدا من البحث . وكان السؤال الأول ارهاصا بهذه النبوءة « ألا تؤثر الاجسام فى الضوء عن بعد ، فتنحنى أشعته بهذا التأثير ، وألا يكون هذا

× فضل الفيزيائيون اللاحقون نظرية التموجات التى قال بها هويجنز على أساس أن فرض الجسيمات الذى قال به نيوتن لا يعلل تعليلا مرضيا ظواهر الانحراف ، والتداخل ، والاستقطاب . ويميل الفيزيائيون المعاصرون الى الجمع بين الرأيين تفسيرا لظواهر تبدو أنها تشتمل على الجسيمات والامواج معا . والفوتونات أو الكمات التى يقول بها الفيزيائيون اليوم تعيد الى الذاكرة جسيمات نيوتن ، أما الاثير فقد فقد الآن اعتباره .

التأثير على أشده فى أدنى الأبعاد × ؟ » والسؤال الثلاثون « لم لا تغير الطبيعة الأجسام الى ضوء والضوء الى أجسام ؟ » .

٣ - أصل نظرية الجاذبية

كانت سنة ١٦٦٦ سنة جنينية لنيوتن . شهدت بداية جهوده فى البصريات ، ولكنه كذلك يقول عن ذكرياته أن شهر مايو « كان مدخلى الى الطريقة العكسية للفروق المستمرة ، وفى نفس السنة بدأت أفكر فى امتداد الجاذبية الى مدار القمر .. .. بعد أن قارنت بين القوة اللازمة لحفظ القمر فى مداره ، وقوة الجاذبية على سطح الأرض ، ووجدتهما متفقتين تماما تقريبا ... فى تلك السنين كنت فى ربيع عمرى (٢١) » .

وفى عام ١٦٦٦ وصل الطاعون الى كمبردج ، فعاد نيوتن الى موطنه وولزثورب طلبا للسلامة . وهنا نلتقى بقصة لطيفة . كتب فولتير فى كتابه « فلسفة نيوتن » (١٧٣٨) :

« ذات يوم من أيام ١٦٦٦ ، حين كان نيوتن معتكفا فى الريف رأى ثمرة تسقط من شجرة كما أخبرتنى بنت أخته السيدة كوندويت ، فاستغرق فى تفكير عميق فى السبب الذى يجذب جميع الأجسام فى خط اذا مد مر قريبا جدا من مركز الأرض (٢٢) » .

وهذا أقدم ما نعرفه من ذكر لقصة التفاحة . وهى لا ترد فى كتب مترجمى نيوتن القدامى ، ولا فى روايته لكيفية اهتدائه لفكرة الجاذبية الكونية ، والفكرة السائدة اليوم عن القصة أنها أسطورة . وأرجح منها قصة أخرى رواها فولتير ، وهى أن غريبا سأل نيوتن كيف اكتشف قوانين الجاذبية ، فأجاب « بادمان التفكير فيها (٢٣) » ومما لا ريب فيه أنه بحلول عام ١٦٦٦ كان نيوتن قد حسب قوة الجذب التى تحفظ الكواكب فى أفلاكها وانتهى الى أنها تتناسب تناسبا عكسيا مع مربع بعدها عن الشمس (٢٤) . ولكنه لم يستطع الى ذلك الوقت التوفيق بين النظرية وحساباته الرياضية ، فنحاها جانبا ، ولم ينشر عنها شيئا طوال الاعوام الثمانية عشر التالية .

× قارن « النسبية » لالبرت اينشتين (بنيويورك ، ١٩٠٠) ، ٨٨ .

ولم تكن فكرة الجاذبية بين النجوم جديدة قط على نيوتن . فقد ذهب بعض فلكيى القرن الخامس عشر الى أن السماوات تؤثر فى الارض بقوة تشبه قوة تأثير المغنطيس فى الحديد ، وما دامت الأرض تنجذب بالتساوى من جميع الاتجاهات فانها تبقى معلقة فى مجموع هذه القوة (٢٥) . وقد نبه كتاب جلبرت « المغنطيس » (١٦٠٠) أذهانا كثيرة الى التفكير فى التأثيرات المغنطيسية المحيطة بكل انسان ، وقد كتب هو نفسه فى كتاب لم ينشر الا بعد موته بثمانية وأربعين عاما (١٦٥١) يقول :

« ان القوة المنبعثة من القمر تصل الى الأرض ، وبالمثل فان القوة المغنطيسية للارض تعم-منطقة القمر ، وكلتاهما تتجاوب وتتآلف بتأثيرهما المشترك ، حسب تناسب الحركات وتطابقها ، ولكن تأثير الأرض أكبر نتيجة لكبر كتلتها (٢٦) » .

وكان اسماعيلس بوريار قد قرر فى كتابه " Astronomia Philolaica " (١٦٤٥) أن جذب الكواكب بعضها لبعض يتناسب تناسبا عكسيا مع مربع المسافة بينهما (٢٧) ، وذهب ألفونسو بوريللى فى كتابه «نظريات الكواكب المديشية » (١٦٦٦) الى أن « كل كوكب وتابع يدور حول كرة كبرى فى الكون بوصفها مصدرا للقوة ، تجذب الكوكب وتابعه وتمسكهما بحيث لا يمكن اطلاقا أن ينفصلا عنهما ، بل يضطران لاتباعها أينما ذهبت ، فى دورات ثابتة مستمرة » ، وقد فسر مدارات هذه الكواكب والتوابع بأنها نتيجة القوة المركزية الطاردة لدورانها (« كما نجد فى العجلة أو الحجر يدوم فى مقلاع ») تقابلها قوة شمسها الجاذبة (٢٨) . وذهب كبلر الى أن الجاذبية ملازمة لجميع الاجرام السماوية ، وقدر فى فترة من حياته أن قوتها تتناسب تناسبا عكسيا مع مربع المسافة بينها ، وكان هذا خليقا بأن يكون سبقا واضحا لنيوتن ، ولكنه عاد فرفض هذه الصيغة ، وافترض أن الجذب يتناقص تناقصا طرديا مع زيادة المسافة (٢٩) . على أن هذه المداخل الى نظرية فى الجاذبية حرفتها عن طريقها نظرية ديكارت فى الدوامات التى تكونت فى كتلة بدائية ، ثم عينت عمل كل جزء ومداره .

وقد فكر كثير من المستفسرين اليقظين فى الجمعية الملكية تفكيرا

عميقا فى رياضيات الجاذبية . وفى ١٦٧٤ سبق هوك بكتابه « محاولة لاثبات حركة الارض السنوية » « اعلان » نيوتن لنظرية الجاذبيــة باحد عشر عاما . قال هوك :

« سأشرح نظاما للكون مختلفا فى تفاصيل كثيرة عن أى نظـام عرف الى الآن ، متفقا فى جميع الاشياء مع القواعد الشائعة للحركات الميكانيكية . وهو يعتمد على فروض ثلاثة : (أولها) أن كل الأجرام السماوية أيا كانت ذوات قوة جاذبة الى مراكزها ، لا تجذب بهـــا أجزاءها فحسب وتحفظها من أن تتطاير منها ... بل تجذب كذلك سائر الأجرام السماوية الواقعة فى مجال نشاطها ... (وثانيها) أن جميع الأجسام أيا كانت ، التى تحرك حركة طردية وبسيطة ، تستمر فى الحركة قدما فى خط مستقيم الى أن تحرفها عن طريقها قوى فعالة أخرى ... (وثالثها) أن قوى الجذب هذه يشتد فعلها بقــدر قرب الجسم الواقع تحت جاذبيتها من مراكزها » (٣٠) .

ولم يحسب هوك فى بحثه هذا أن الجذب بتناسب تناسبا عكسيا مع مربع المسافة ، ولكنه أنهى هذا المبدأ الى نيوتن ـ اذا صدقنا رواية أوبرى ـ بعد أن توصل اليه مستقلا (٣١) . وفى يناير ١٦٨٤ شرح هوك صيغة المربعات العكسية لرن وهالى ، اللذين كانا قبـــلاها من قبل . فذكرا لهوك ان الحاجة ليست الى مجرد فرض ، بل الى ايضاح رياضي يثبت أن مبدأ الجاذبية يفسر مسارات الكواكب . وعرض رن على هوك وهالى جائزة قدرها أربعون شلنا (١٠٠ دولار) ان أتاه أحدهما ببرهان رياضي على الجاذبية . ولم يأته البرهان على قـــدر علمنا (٣٢) .

وفى أحد أيام أغسطس ١٦٨٤ ذهب هالى الى كمبردج وسـأل نيوتن ماذا يكون مدار كوكب ما اذا تناسب جذب الشمس له تناسـبا عكسيا مع مربع المسافة بينهما . وأجاب نيوتن أنه يكون قطعا ناقصا (اهليلجا) . ولما كان كبلر قد استخلص من دراســته الرياضـــية لمشاهدات تيكو براهى أن مدارات الكواكب اهليلجية ، فقـد بدا أن الفلك الآن تأيد بالرياضة ، والعكس بالعكس . وأضـــاف نيوتن أنه أجرى الحسابات تفصيلا فى ١٦٧٩ ، ولكنه نحاها جانبا ، من جهـة

لأنها لم تتفق تماما مع التقديرات السائدة يومها لقطر الأرض والبعد بين الأرض والقمر ، وأرجح من هذا السبب أنه لم يكن واثقا من أنه يستطيع تناول الشمس ، والكواكب ، والقمر على أنها نقط مفردة فى قياس قوتها الجاذبة . ولكن فى عام ١٦٧١ أذاع بيكار قياسه الجديد لنصف قطر الارض ولدرجة من درجات خطوط الطول ، التى حسب أخيرا أنها تبلغ ٦٩٫١ ميلا تشريعيا انجليزيا ، وفى عام ١٦٧٢ تمكن بيكار بفضل بعثته الى سايين من حساب بعد الشمس عن الأرض فقرر أنه ٨٧٫٠٠٠٫٠٠٠ ميل (والرقم الحالى ٠٠٠ر ٩٢ر) واتفقت هذه التقديرات الجديدة اتفاقا طيبا مع رياضة نيوتن فى الجاذبية ، وأقنعه المزيد من الحسابات فى ١٦٨٥ بأن الكره تجذب الاجسام وكأن كتلة هذه الكرة كلها تجمعت فى مركزها . وشعر الآن بمزيد من الثقة فى فرضــه .

ثم قارن سرعة حجر على الأرض بسرعه ســقوط القمــر على الأرض اذا نقصت قوة جذب الأرض له بمربع المسافة بينهما . فوجد أن نتائجه تتفق وآخر البيانات الفلكية . فخلص من هذا الى أن القوة التى تسقط الحجر، والقوة الجاذبة للقمر نحو الأرض رغم قوة طرد القمر المركزية ، هما قوة واحدة . وسر الأنجاز الذى حققه هنــا كامن فى تطبيقه هده النتيجة التى انتهى اليها على جميع الاجســام التى فى الفضاء ، وفى تصوره أن جميع الأجرام السماوية مترابطة فى شـبكه من التأثيرات الجذبية ، وفى بيانه كيف أن حســـاباته الرياضـــية والميكانيكية تتفق وملاحظـــات الفلكيين ، لا ســيما قوانين كبــلر الكوكبية × .

وبدأ نيوتن اجراء حساباته من جديد ، وأنهاهــا الى هالى فى نوفمبر ١٦٨٤ . وأدرك هالى أهميتها فحثه على تقديمها للجمعيــة

× قوانين كبــلر (١٦٠٩ ، ١٦١٩) : (١) ان الكواكب ترســم مدارات اهليلجية ، فيها الشمس بؤرة واحدة (٢) ان الخط الذى يربط كوكبــا بالشمس ينتشر فوق مساحات متساوية فى أوقات متساوية . (٣) ان مربع فــترة دوران الكوكب يتناسب مع مكعب متوسط بعده عن الشمس . وهذه الصــيغة أفضت الى قانون المربعات العكسية .

الملكية فوافق ، وأرسل الى الجمعية رسالة فى « قضايا الحركة » (فبراير ١٦٨٥) ، لخص فيها آراءه فى الحركة والجاذبية . وفى مارس ١٦٨٦ بدأ عرضنا أوفى ، وفى ٢٨ أبريل ١٦٨٦ قدم للجمعية مخطوط الكتاب الاول من كتب الحركة ، عن المبادىء الرياضية للفلسفة الطبيعية . وللتو لفت هوك النظر الى أنه سبق نيوتن فى ١٦٧٤ . ورد نيوتن فى رسالة الى هالى أن هوك اخذ فكرة المربعات العكسية عن بوريللى وبويار . وتفاقم الخلاف حتى أصبح سخطا من الطرفين ، وحاول هالى أن يصلح ذات البين ، وهدأ نيوتن ثائرة هوك بتضمين مخطوطته حاشية ، تحت القضية الرابعة ، أقر فيها بفضل « أصدقائنا رن ، وهوك ، وهالى » ، فى أنهم « استنتجوا من قبل » قانون المربعات العكسية . ولكنه ضاق بالنزاع أشد الضيق حتى انه حين أعلن لهالى (٢٠ يونيو ١٦٨٧) أن الكتاب الثانى جاهز ، أضاف قائلا « فى نيتى الآن أن أوقف الكتاب الثالث . فالفلسفة أشبه بامرأة مشاكسة وقحة تزج بمن يتعامل معها فى قضايا أمام المحاكم » . وأقنعه هالى بأن يواصل الكتاب . وفى سبتمبر ١٦٨٧ نشر المؤلف كله برعاية الجمعية الملكية ورئيسها آنئذ ، صموئيل بيبيس . ولما كانت الجمعية فى ضائقة مالية ، فقد أنفق هالى على النشر بأكمله من جيبه الخاص ، مع أنه لم يكن بالرجل الميسور . وهكذا ، وبعد عشرين عاما من الاعداد ، ظهر أهم كتاب فى علم القرن السابع عشر ، كتاب لا يضارعه فى عظم تأثيره فى ذهن أوربا المثقفة سوى كتاب كوبرنيق فى الدورات (١٥٤٣) ، وكتاب دارون فى أصل الأنواع (١٨٥٩) . هذه الكتب الثلاثة هى أهم الأحداث فى تاريخ أوربا الحديثة .

٤ — كتاب المبادىء « برنكبيا “ Principia

فسرت عنوان الكتاب مقدمته :

« بما أن القدماء (كما يخبرنا بابوس) علقوا أهمية عظمى على علم الميكانيكا فى بحثهم فى الاشياء الطبيعية ، وبما أن المحدثين ، بعد ان نحوا أشكال المادة (التى قال بها السكولاستيون) والصفات الغيبية ، حاولوا اخضاع الظواهر الطبيعية لقوانين الرياضة ، فقد

طورت الرياضة فى هذا البحث على قدر اتصالها بالفلسفة (الطبيعية) ... وعليه فانا نقدم هـــذا المؤلف على أنه المبـــادىء الرياضـــية للفلسفة ، ذلك لأن كل معضلة الفلسفة هى فى بحث قوى الطبيعة من ظواهر الحركة ، ثم توضيح الظواهر الاخرى من هذه القوى » .

أما وجهة نظر الكتاب فستكون ميكانيكية خالصة :

« وددت لو استطعنا استخلاص باقى الظواهـــر الطبيعية بنفس نوع الاستدلال من الأسس الميكانيكبة ، لأن مبررات كثيرة تحملتى على الظن بأنها ربما كانت كلها تتوقف على فوى معينة تدفع بواســـطتها جزيئات الاجسام بأسباب مجهولة الى الآن بعضـــها نحـــو البعض ، وتتماسك فى أشكال منتظمة ، أو تصد وتتراجع بعضها عن البعض ، واذ كانت هذه القوى مجهولة ، فقد حاول الفلاسـفة الى الآن البحث فى الطبيعة عبثا ، ولكنى أرجو أن تلقى المبادىء الموضوعة هنا بعض الضوء على تلك الطريقة ، أو على طريقة أصح ، من طرق الفلسفة ».

وبعد أن وضع نيوتن بعض التعاريف والبديهيات ، صـــاغ ثلاثة قوانين للحركة :

١ ـ كل جسم يبقى على حالته من حيث السكون أو الحركة المنتظمة فى خط مستقيم ما لم يضطر الى تغيير تلك الحالة بقوى واقعة عليه .

٢ ـ تغيير الحركة يتناسب مع القوة المحركة الواقعة ، ويتم فى اتجاه الخط المستقيم الذى تقع فيه تلك القوة .

٣ ـ كل فعل يقابله دائما رد فعل مساو له .

أما وقد تسلح نيوتن بهذه القوانين ، وبقـــانون التربيع العكسي فقد تقدم الى صياغة مبدأ الجاذبية . وصورة المبدأ الحالية ، وهى أن كل جزىء من المادة يجذب كل جزىء بقوة تتناسب تناسبا طرديا مع حاصل ضرب كتلتيهما وتناسبا عكسبا مع مربع البعد بينهما ، هـــذه الصورة لا نجدها بهذا النص فى أى موضوع فى كتاب المبادىء ، ولكن نيوتن أعرب عن الفكرة فى التعقيب العام الذى ختم به الكتاب الثانى: « ان الجاذبية ... تعمل ... حسب كمية المادة الجامدة التى تحتويها (الشمس والكواكب) ، وتنتشر قوتها على جميع الجهات ... متناقصة

أبدا بما يتناسب مع المربع العكسي للمسافات (٣٣) » • وقد طبق هذا المبدأ ، وقوانينه فى الحركة ، على مدارات الكواكب ، ووجــد أن تقديراته الحسابية تتفق والمدارات الاهلبلجية التى استنتجها كبـلر • وزعم أن الكواكب تحول عن حركاتها المستقيمة ، وتحفظ فى مداراتها، بقوة تميل صوب الشمس وتتناسب تناسبا عكسيا مع مربع أبعادها عن مركز الشمس • وعنى أساس مبادىء مماثلة فسر جذب المشترى لتوابعه، والأرض للقمر • وبين أن نظرية ديكارت فى الدوامات باعتبارها الشكل الاول للكون لا يمكن التوفيق بينها وبين قوانبن كبلر • وحسب كتـلة كل كوكب ، وقدر كثافة الأرض من خمسة الى ستة أمثال كثافة الماء • (والرقم الحالى ٥ر٥) • وعلل رياضيا تفرطح الأرض عند القطبين ، وعزا انبعاجها عند الاستواء الى قوة الشمس الجاذبة ، ووضع رياضيات المد والجزر باعتبارهما راجعين الى جذب الشمس والقمــر الموحــد للبحار ، ويمثل هذا الفعل القمــرى ـ الشمسي فسر مبــادرة نقطتى الاعتدالين ، ورد مسارات المذنبات الى مدارات منتظمة ، وبهــذا أيد نبوءة هالى • وقد صور كونا أعظم تعقيدا من الناحية الميكانيكية مما ظن من فبل ، لأنه نسب لجميع الكواكب والنجوم صفة الجذب ، فأصبح الآن كل كوكب أو نجم بنظر اليه على أنه متأثر بكل كوكب أو نجم آخــر • ولكن فى هذا الحشد المعقد من الاجرام السماوية وضع نيــوتن قانونا يحكمه : فأبعد النجوم يخضع لذات الميكانيكا والرياضة اللتين يخضع لهما أصغر الجزيئات على الأرض • ان رؤية الانسان للقانون لم تغامر قط بالتحليق فى الفضاء الى مثل هذا البعد ، ولا بمثل هذه الجرأة •

ونفدت الطبعة الأولى من « المبادىء » سريعا ، ولكن لم تظهــر طبعة ثانية الا فى ١٧١٣ • وعزت نسخه حتى أن عالما نسخ الكتاب كله بيده (٣٤) • واعترف القراء بأنه عمل فكرى من أرفع طــراز ، ولكن بعض ملاحظات النقد كدرت صفو الثناء عليه • فرفضت فرنسا النظــام النيوتنى لتشبثها بدوامات ديكارت ، الى أن عرضه فولتير فى ١٧٣٨ عرضا ملؤه الاعجاب والتبجيــل • واعترض كاســينى وفونتنيل بأن الجاذبية ليست سوى قوة أو صفة غيبية تضاف الى القوى الماضية ، وقالا ان نيوتن شرح بعض العلاقات بين الاجرام السماوية ، ولكنه لم يكشــف عن طبيعة الجاذبية ، التى ظلت سرا خفيا كسر الله • وقال ليبنتز بأنه

ما لم يستطع نيوتن بيان المكنية التى تستطيع الجاذبية أن تؤثر بها ، خلال فضاء يبدو فارغا ، فى أجسام تبعد عنها ملايين الأميـال ، فانه لا يمكن قبول الجاذبية على أنها شيء أكثر من مجرد كلمة (٣٥) .

ولم تحظ النظرية الجديدة بالقبـول السريع حتى فى انجلترة . وزعم فولتير أن المرء كان بالجهد يجد عشرين عالما يرضون عنها بعد أن نشرت لأول مرة بأربعين عاما . وبينما شكا النقاد فى فرنسـا من أن النظرية ليست ميكانيكية بالقـدر الكافى اذا قيسـت بدوامات ديكارت البدائية ، كانت الاعتراضات عليها فى انجلترة فى أغلبها دينية ، فأسف جورج باركلى فى كتابه « مبادىء المعرفة الانسانية » (١٧١٠) لأن نيوتن يرى الفضاء والزمان والحركة مطلقة ، سرمدية فيما يبـدو ، وموجودة مستقلة عن المساندة الالهية . فالميكانيكية تطغى على النظام النيوتنى طغيانا لا يترك فيه مكانا لله .

فلما وافق نيوتن بعد ما عهد فيه من تسويفات على أن يعد طبعه ثانية الكتاب ، حاول أن يهـدىء من ثائرة نقـاده . فأكد لليبنتز والفرنسيين أنه لا يفترض قوة تعمل عن بعد خلال الفضاء الفارغ ، وأنه يعتقد بوجود ناقل متخلل ، رغم أنه لن يحاول وصفه ثم اعترف بصراحة أنه لا يفقه طبيعة الجاذبية . وبهذه المناسبة كتب فى الطبعة الثانيـة كلماته التى كثيرا ما يساء فهمها ، وهى أنه « لا يضع فرضا (٣٦) » وأضاف « يجب أن تتسبب الجاذبية من عامل يعمل بثبات وفق قوانين معينة ، ولكنى أترك لقرائى النظر فى هل هذا العـامل مادى أو غير مادى (٣٧) » .

ورغبة فى المزيد من الرد على الاعتراضات الدينية ألحق بالطبعة الثانية تعقيبا عاما عن دور الله فى نسقه . فقصر تفسيراته الميكانيكية على العالم المادى ، ورأى حتى فى ذلك العالم أدلة على وجود خطـة الهية ، فالآلة الكبرى تتطلب مصدرا أول لحركتها ، لا بد أن يكون هو الله ، ثم ان فى النظام الشمسي شذوذات فى المسلك يصححها تعـالى دوريا كلما ظهرت (٣٨) . ولكى يفسح نيوتن مجالا لهذه التدخـلات الخارقة نزل عن مبدأ عدم فناء الطاقة . وافترض الآن أن آلة العالم تفقد بعض طاقتها بمضي الوقت ، وستفقدها كلها ان لم يتدخل الله ليرد لها

قوتها (٣٩) • واختتم بهذه العبارة « ان هذا النظام البديع ، نظام الشمس ، والكواكب ، والمذنبات ، لا يمكن أن ينبعث الا من مشورة كائن ذكى قوى ومن رحابه (٤٠) » • وأخيرا تحرك صوب فلسفة يمكن أن تفسر بمعنى حيوى ، أو تفسر بمعنى ميكانيكى قال :

« وقد نضيف الآن شيئا يتصل بروح غاية فى الدقة ، روح تنتشر وتختفى فى جميع الاجسام الكبيرة ، وبقوتها وفعلها تتجاذب جزيئات الأجسام فى المسافات القريبة ، وتتماسك اذا تجاورت ، وتعمل الاحسام الكهربية الى أبعاد أعظم ، فتصد وتجذب الجزيئات المجاورة ، ويرسل الضوء ، ويعكس ، ويكسر ، ويثنى ، ويسخن الأجسام ، وكل احساس يثار ، وتتحرك أعضاء الأجسام الحيوانية بأمر الارادة ، أعنى بتموجات هذه الروح ، مبثوتة بالتبادل على خيوط الاعصاب المتينة ، من أعصاب الحس الخارجية الى المخ ، ومن المخ الى العضلات • على أن هذه أشياء لا يمكن تفسيرها فى بضع كلمات ، ثم اننا لم نزود بما يكفى من التحارب التى يتطلبها التقرير والايضاح الدقيقان للقوانين التى تعمل وفقا لها هذه الروح الكهربية المرنة (٤١) » •

ترى ماذا كان ايمانه الدينى الحقيقى ؟ لقد تطلبت أستاذيته فى كمبردج الولاء للكنيسة الرسمية ، وكان يختلف بانتظام الى الخدمات الكنسية الانجليكانية • أما صلواته الخاصة فيقول فيها سكرتيره « لا أستطيع أن أقول عنها شيئا ، وأميل الى الاعتقاد بأن دراساته المفرطة حرمته من النصيب الأفضل (٤٢) » • ومع ذلك فقد درس الكتاب المقدس بنفس الغيرة التى درس بها الكون • وقد أثنى عليه رئيس أساقفة بقوله « انك تعرف من اللاهوت أكثر مما نعرف كلنا مجتمعين (٤٣) » وقال لوك عن معرفته بالأسفار المقدسة « لست أعرف من أمثاله الا القليلين (٤٤) » وقد خلف كتابات لاهوتية يفوق حجمها كل مؤلفاته العلمية •

وقادته دراساته الى نتائج أشبه بالأريوسية ، وهى قريبة الشبه بنتائج ملتن ، ومجملها أن المسيح وان كان ابن الله الا أنه ليس مساويا لله الآب فى الزمن أو القوة (٤٥) • وفيما عدا ذلك كان نيوتن ، أو أصبح ، مستقيم العقيدة تماما • ويبدو أنه آمن بكل كلمة من كلمات

الكتاب المقدس على أنها كلمة الله ، وأنه قبل سفرى دانيـــال ورؤيا يوحنا على أنهما الحقيقة بحذافيرها . لقد كان أعظم علمـــاء عصره صوفيا نسخ فى شغف فقرات طويلة من يعقـــوب بومى ، وطلب الى لوك أن يناقش معه معنى « الحصـــان الابيض » الوارد فى ســـفر الرؤيا . وقد شجع صديقه جون كريج على كتابه « الاسس الرياضـــية للاهوت المسيحى » (١٦٩٩) الذى حاول أن يثبت بالرياضة تاريخ مجىء المسيح الثانى ، والنسبة بين أقصي ما يمكن بلوغه من السعادة الأرضية وسعادة المؤمن التى يجزى بها فى الفردوس (٤٨) . وقد كتب تعليقا على سفر الرؤيا ، وزعم أن المسيح الكاذب المتنبأ به فى السفر هو بابا روما . لقد كان ذهن نيوتن مزيجا جمع بين ميكانيكا جاليليو وقوانين كبلر وبين لاهوت بومى . ولن يطالعنا الزمان بمثـــله عن قريب .

٥ ـ الأصـــيل

لقد كان بمعنى آخر مزيجا شاذا ، رجلا مستغرقا بشكل واضـح فى النظرية الرياضية والصوفية ، وهو مع ذلك ذو مقدرة عملية وفطرة سليمة اختارته جامعة كمبردج عام ١٦٨٧ ليذهب مع آخرين للاحتجاج لدى جمبس الثانى على محاولة هذا الملك أن يفرض على الجامعة أن تمنح راهبا بندكتيا درجة جامعية دون أن يحلف الايمان العادية التى يستحيل على الكاثوليكى أن يقبلها . وفشلت البعثة فى ثنى الملك عن قراره ، ولكن لا بد أن الجامعة رضيت عن رآسة نيوتن لها ، لأنه اختير عضوا ممثلا لكمبردج فى برلمان ١٦٨٩ . وظل عضوا حتى حل البرلمان عام ١٦٩٠ ، ثم أعيد انتخابه عام ١٧٠١ ، ولكنه لم يشارك فى السياسة بدور مذكور .

وتخللت حياته العملية عام ١٦٩٢ سنتان من المرض الجسـمى والعقلى . فقد كتب الى بيبيس ولوك رسائل يشـكو فيهـــا من الأرق والسوداء ، ويعرب عن مخـــاوف الاضطهاد ، ويتحسر على فقـــده « تماسك ذهنه القديم (٤٧) » . وفى ١٦ ســـبتمبر ١٦٩٣ كتب الى لوك يقول :

سيدى : ان ظنى أنك حاولت توريطى فى علاقات نسائية وبطرق

أخرى أثر فى نفسي تأثيرا شديدا ، حتى أننى أجبت حين أخبرنى احدهم بأنك مريض ولن تعيش ، بأن من الخير أن تمـــوت . وأود أن تغتفر لى هذه القسوة لأننى الآن مقتنع بان ما فعلتــه صـــواب ، وأسألك الصفح عن اساءتى الظن بك فى هذا الأمر ، وعن قولى انك أصبت الفضيلة فى الصميم بمبدأ وضعته فى كتــاب « الأفكار » الذى الفته ، ونويت أن تواصله فى كتابه آخر ، وعن أننى حسبتك خطأ من انصار هوبز . كذلك أسألك الصفح عن قولى أو ظنى بأن هناك خطــة لبيعى منصبا ، أو لتوريطى ...

وانى خادمك الخاضع المنكود الحظ

اسحاق نيوتن (٤٨)

وذكر بيبيس فى خطاب تاريخه ٢٦ سبتمبر ١٦٩٣ « اضطرابا فى ... الرأس أو العقل » تدل عليه رسالة تلقاها من نيـــوتن . وقد خلف هويجنز عند وفاته (١٦٩٥) مخطوطة دون فيها تحت يوم ٢٩ مايو ١٦٩٤ أن « مستر كولين ، وهو رجل اسكتلندى ، أنبأنى أن عالم الهندسة الشهير اسحاق نيوتن أصابته لوثة قبل ثمانية عشر شـــهرا » ولكنه استعاد صحته فبدأ يفهم كتابه « المبادىء » . وأرسل هويجنز التقرير الى ليبنتز فى رسالة مؤرخة ٨ يونيو ١٦٩٤ قال فيها : « ان الرجل الطيب المستر نيوتن أصيب بنوبة من الخبل لازمته ثمانية عشر شهرا ، وقيل أن اصحابه شفوه منها بالعقاقير وابقائه محبوسا (٤٩) » وظن البعض أن هذا الانهيار العصبى صرف نيوتن عن العلم الى سفر الرؤيا ، ولكنا لا نستطيع الجزم بهذا . وقيل « انه لم يركز قط كما ألف أن يركز ، ولم يقم بأى جهد جديد (٥٠) » ومع ذلك ففى ١٦٩٦ حل على الفور تقريبا مسألة حسابية اقترحها يوهان برنوللى « على أذكى الرياضيين فى العالم » ، وكذلك فعل بمســـألة وضـــعها ليبنتز عام ١٧١٦ (٥١) . وقد أرسل رده على برنوللى غفلا من الاسم بطـــريق الجمعية الملكية ، ولكن برنوللى حزر على الفور أن صاحبه نيوتن ، اذ تبين « الأسد من مخلبه » على حد قوله . وفى عام ١٧٠٠ اكتشف نظرية آلة السدس ، ولم يكشف النقاب عنها الا بخطاب لهالى ، ووجب أن يعاد اختراعها عام ١٧٣٠ . ويبدو انه شرف المناصب العسيرة التى بادرت الدولة بتعيينه فيها .

وكان لوك ، وبيبيس ، وغيرهما من أصدقاء نيوتن قد فاوضوا حينا للحصول له على منصب حكومى يخرجه من سجن حجرته ومختبره فى كمبردج . وفى عام ١٦٩٥ اقنعوا اللورد هالبفاكس بأن بعرض عليه وظيفة أمين دار سك النقود . ولم تكن الوظيفة شرفبة ولا صدقة ، اذ أرادت الحكومة أن تفبد من علم نيوتن بالكيمياء والمعـادن فى ضرب عملة حديدة . ففى ١٦٩٥ انتقل الى لندن ، حيث عاش مع ابنة أخته كاترين بارتون ، خليلة هالبفاكس (٥٢) . وقد خبل الى فولتبر أن افتتان هاليفاكس ببنت الاخت هذه حمل هاليفاكس وهو وزبر للخزانة على أن يعين نيوتن مديرا لدار سك النقود فى ١٦٩٩ (٥٣) ، ولكن هذه الشائعة لا تكاد تفسر استمرار نيوتن فى شغل ذلك المنصب طوال الثمانية والعشربن عاما الباقية له فى أجله ، وشغله على نحو حـاز الرضاء العام .

وكان خليقا بشيخوخته أن تكون سعيدة . فقد كرمته الدولة بوصفه أعظم العلماء الاحياء ، ولم يحظ رجل من رجال العلم حتى وقتنا هذا بمثل ما حظى به من ثناء عربض . وقد انتخب رئيسا للجمعية الملكية عام ١٧٠٣ ، وظل ينتخب سنويا بعد ذلك حتى وفاته . وفى عام ١٧٠٥ خلعت عليه الملكة آن لقب الفروسية . وحين ركب عربته مخترقا شوارع لندن تفرس الناس برهبة فى وجهه الوردى ، وقد فاض جـلالا وطيبة تحت لمة من الشعر الابيض . ولم يستطيعوا طوال الوقت أن يلحظوا أنه قد عرض باكثر مما يتناسب مع طوله المتواضـع . وكان يستمتع براتب طيب بلغ ١٫٢٠٠ جنيه فى العام ، وقد استثمر مدخراته بحكمة حتى انه خلف عند وفاته ٣٢٫٠٠٠ جنيـه (٥٤) ، رغم سـخائه فى الهدايا والصدقات . وقد أفاق من خسارته فى انهيار شركة « سـاوث سي » . على أنه كان متقلب المزاج ، وأحيانا سريع الغضب سيىء الظن، كتوما ، ودائما شديد التهيب رغـم كبريائه (٥٥) . كان يحب اعتزال الناس ولا يصنع الاصدقاء بسهولة . وفى عام ١٧٠٠ عرض الزواج على أرملة غنية ، ولكن العرض لم يسفر عن نتيجة ، ولم يتزوج قط . واذ كان عصبى المزاج . حساسا بشكل مرضي ، فقد كان لا يطيق النقد الا متألما ، ويغتاظ منه غيظا شديدا ، ويرد الصاع صاعين فى الجدل . وكان يعرف قدر عمله وكفايته ، ولكنه عاش عيشا متواضعا الى أن اتارح له راتبه

ومدخراته أن يستخدم ستة خدم ويستمتع بمكان مرموق فى المجتمع اللندنى ٠ ·

فلما بلغ التاسعة والسبعين بدأ يرد دينه للطبيعة ٠ فأصابته الأمراض التى لا تقيم للعبقرية وزنا ـ حصاة المثانة وسلس البول ، وحين بلغ الثالثة والثمانين أصيب بالنقرس ، وفى الرابعة والثمانين بالبواسير ٠ وفى ١٩ مارس ١٧٢٧ اشتدت به آلام الحصاة حتى فقد وعيه ٠ ولم يفق قط ، ومات فى الغد وقد بلغ الخامسة والثمانين ، ودفن فى كنيسة وستمنستر بعد أن شيع بجنازة تصدرها رجال الدولة والنبلاء والفلاسفة ، وقد سجى فى نعش حمله الأدواق والايرلات ٠ وأغرقه الشعراء بمراثيهم ، وألف بوب قبرية شهيرة قال فيها : « ان الطبيعة وقوانينها كان يلفها ظلام الليل ، وقال الله ليكن نيوتن ، فأصبح الكل ضياء » ولم يملك فولتير عواطفه ، حتى فى شيخوخته ، وهو يروى كيف شاهد ، أثناء منفاه فى انجلترة ، رياضيا يدفن بمظاهر تكريم الملوك (٥٦) ٠

وبلغ صيت نيوتن ذرى أشرفت على السخف ٠ فقدر ليبنتز أن اسهامات منافسه فى الرياضة تعدل فى قيمتها كل المؤلفات السابقة فى ذلك العلم (٥٧) ٠ وذهب هيوم الى أن نيوتن « أعظم وأندر عبقرى ظهر ليشرف النوع الانسانى ويعلمه (٥٨) » ووافقه فولتير فى تواضع (٥٩) ٠ ووصف لجرانج كتاب المبادىء بأنه « أعظم انتاج انتجه الذهن البشرى » ، وضمن له لابلاس الى الابد « مكان الصدارة على جميع انتاجات العقل البشرى » ، وأضاف أن نيوتن أوفر الناس حظا ، لأنه ليس هناك سوى كون واحد ، وليس سوى مبدأ مطلق واحد له ، وقد اكتشف نيوتن ذلك المبدأ (٦٠) ٠ ومثل هذه الاحكام لاثبات لها ، لأن « الحقيقة » حتى فى العلم ، تذبل كالزهرة ٠

ولو أننا قسنا عظمة انسان بأقل المقاييس ذاتية ، وهو انتشار تأثيره وطول بقاء هذا التأثير ، لما وجدنا لنيوتن نظيرا الا فى مؤسسي الاديان العالمية والفلسفات المحورية ٠ لقد كان تأثيره على الرياضة الانجليزية ـ حينا ـ تأثيرا ضارا ، لأن « فروقه وتنويتها كانا أقل يسرا من حساب التفاضل والتنويت اللذين هيمن بهما ليبنتز على القارة ٠ ويبدو أن نظريته فى جسيمات الضوء عاقت تقدم البصريات قرنا ، وان وجد بعض

الطلاب الآن عونا كبيرا فى نظرية نيوتن (٦١) • أما فى الميكانيكا فقد أثبت عمله أنه خلاق الى غير حدود • كتب ارنست ماخ يقول : « ان كل ما انجز فى الميكانيكا منذ أيامه لا يعدو أن يكون تطويرا استنتاجيا ، شكليا ، رياضيا ••• على أساس قوانين نيوتن (٦٢) » •

وقد خشي اللاهوتيين لأول وهلة من تأثير كتاب « المبادىء » على الدين ، ولكن محاضرات بويل التى ألقاها بنتلى (١٦٩٢) ، بتشجيع من نيوتن ، حولت النظرة الجديدة الى العالم الى تأييد الايمان ، لانها أكدت على وحدة الكون ونظامه وعظمته الواضحة أدلة على حكمة الله وقوته وجلاله • على أن هذا النسق النيوتونى ذاته قبله الربوبيون على أنه يدعم ايمانهم ، وهو القبول البسيط لاله واحد ، أو حتى اعتبار الله واحدا هو والطبيعة وقوانينها ، بدلا من اللاهوت المسيحى • وأغلب الظن أن تأثير نيوتن النهائى فى الدين كان ضارا ، فقد افترض أحرار الفكر أنه برغم تأكيداته ، وملايين الكلمات التى احتوتها كتاباته اللاهوتية ، أنه تصور عالما قائما بنفسه ، وأنه أدخل الاله فيه فكرة لاحقة معزبة • وفى فرنسا على الاخص شجعت كونيات نيوتن ، رغم عرض فولتير لها عرضا ربوبيا ، الحاد الكثيرين من « الفلاسفة » الحادا يقوم على ميكانيكية الكون •

وفى الفترة بين اضمحلاء نظرية ديكارت فى نشأة الكون فى فرنسا (حوالى ١٧٤٠) وظهور نظريات النسبية وميكانيكا الكم فى القرن العشرين ، لم يصادف « نسق العالم » النيوتنى أى تحد خطير ، وبدا مؤيدا من كل تقدم أو كشف فى الفيزياء أو الفلك • والخلافات الرئيسية بين الفيزيائيين المعاصرين وميكانيكا نيوتن ، على قدر ما يستطيع غير المتخصص فهم هذه الالغاز ، هى :

١ ـ ذهب نيوتن الى أن المكان والبعد ، والزمان والحركة ، أشياء مطلقة ـ أى أنها لا تختلف كما باختلاف أى شيء خارجها (٦٣) • أما أينشتين فقد اعتبرها نسبية ـ تختلف باختلاف موقع وحركة المشاهد فى المكان والزمان •

٢ ـ افترض أول قوانين نيوتن للحركة ، فى وضوح ، أن الجسم قد « يستمر فى حالة سكون ، أو حركة منتظمة فى خط مستقيم » ولكن

« السكون » نسبى دائما ، كسكون مسافر فى طائرة مسرعة ، وكل الاشياء تتحرك ، ولا تتحرك أبدا فى خط مستقيم ، لأن كل خط حـــركة أو فعل تحرفه الأجسام المحيطة (كما أدرك نيوتن) .

٣ ـ كانت فكرة نيوتن عن الكتلة أنها من الثوابت ، وفكرة بعض الفيزيائيين المعاصرين عنها أنها تختلف باختــلاف السرعة النســبية للمشاهد والشيء .

٤ ـ النظرة السائدة الآن الى « القوة » هى أنها فكرة ميسرة . ولكنها ليست ضرورية فى العلم ، الذى يهدف الى الاكتفـــاء بوصف التتابعات ، والعلاقات ، والنتائج . فلسنا نعلم ، ولا حاجة بنا الى أن نعلم (كما يقول لنا العلماء) ما هو « هذا » الذى يسرى من جسم متحرك الى آخر يصدمه ذلك الجســـم ، فالحاجـة فقط لتســجيل التتابعات ، والعلاقات ، والنتـــائج ، وللافتراض (دون أى يقينية مطلقة) بأن هذه ستكون فى المستقبل ما بدته فى الماضي . والجاذبية وفقا لهذا الرأى ليست قوة ، بل نظام علاقات بين الأحداث فى الزمان والمكان .

ومما يعزينا أن نعلم أن هذه وغيرها من التنقيحات الطــارئة على ميكانيا نيوتن لا أهمية لها الا فى ميـــادين (كالظواهر الكهربيــة ـ المغنطيسية) تبدو الجزيئات فيها تتحــرك بسرعة تقـــرب من سرعة الضوء ، وفى غير هذا فالفرق بين الفيرياء القديمة والحديثة يمكن أن نتجاهله مطمئنين . وللفلاسفة ـ الذين شفاهم التاريخ من اليقينية ـ أن يحتفظوا بارتيابية متواضعة من نحو الافكار المعاصرة ، بمـــا فى ذلك أفكارهم هم ، وسوف يحسون نسبية متدفقة فى صــيغ النســـبية ، وسوف يذكرون كل المنقبين فى الذرات والنجوم بتقدير نيوتن النهائى لانجازه الخطير :

« لست أعلم كيف أبدو للعالم ، ولكنى أبدو لنفسي وكأننى صبى يلعب على شاطىء البحر ، ألهو بين الحين والحين بالعثور على حصاة أملس أو صدفة أجمل من العادة ، بينما ينبسط محيط الحقيقة العظيم مغلق الأسرار أمامى (٦٤) » .

م

مراجع

الجزئية ٣٢ ٩ ٣٣

CHAPTER VII

1. Firth, *Oliver Cromwell*, 228.
2. *Ibid.*, 230.
3. Trevor-Roper, *Historical Essays*, 218-219.
4. Firth, 244.
5. Gooch, *English Democratic Ideas in the 17th Century*, 168.
6. Trevelyan, *England under the Stuarts*, 294.
7. Carlyle, *Oliver Cromwell*, I, 427.
8. *Ibid.*, 428; Gardiner, S.R., *History of the Commonwealth and Protectorate*, I, 48.
9. Gooch, 183-84; Bowle, *Western Political Thought*, 343.
10. Gooch, 189-90.
11. D'Alton, *History of Ireland*, IV, 308.
12. *Camb. Mod. History*, IV, 533.
13. Carlyle, *Cromwell*, I, 458.
14. *Ibid.*
15. Firth, 255.
16. *Camb. Mod. History*, IV, 538.
17. Firth, 259.
18. Lingard, *History of England*, VIII, 178.
19. Churchill, Winston, *History of the English-speaking Peoples*, II, 235.
20. Lingard, VIII, 146.
21. Lang, Andrew, *History of Scotland*, III, 233.
22. Morley, John, *Oliver Cromwell*, 319.
23. Gooch, 165.
24. Lingard, VIII, 194-95.
25. Firth, 312; Hallam, *Constitutional History of England*, II, 229-30.
26. Gardiner, *History of the Commonwealth*, II, 208-10; *History Today*, October 1953, p. 690.
27. Morley, *Cromwell*, 336.
28. Firth, 319.
29. Hume, David, *History of England*, IV, 551n.
30. Churchill, II, 245.
31. Guizot, *History of Civilization*, I, 240-1.
32. Lingard, VIII, 207.
33. *Ibid.*, 211; Trevor-Roper, 188.
34. Morley, *Cromwell*, 427.
35. Firth, 445.
36. Hume, D., *History*, IV, 578.
37. Walpole, Horace, *Anecdotes of Painting in England*, I, 425.
38. Lingard, VIII, 271.
39. Hallam, *Constitutional History*, II, 241-243; Morley, *Cromwell*, 390.
40. Morley, 400.
41. Plato, *Republic*, §§556-65.
42. Evelyn, *Diary*, I, 331.
43. Morley, *Cromwell*, 413.
44. Macaulay, *History of England*, I, 128.
45. Lingard, VIII, 203.
46. Firth, 355; Morley, 412.
47. Hume, D., *History*, V, 45.
48. Churchill, II, 248.
49. Firth, 344.
50. In Masson, David, *Life of John Milton*, V, 23.
51. Fox, George, *Journal*, 34.
52. *Ibid.*, 4-5.
53. 8-9.
54. 11.
55. 12.
56. 20.
57. 22.
58. 27.
59. 36.
60. 43.
61. 51.
62. 105-6.
63. Firth, 357.
64. Lingard, VIII, 243-44.
65. Beard, Miriam, 397; Firth, 392.

66. Beard, 396.
67. Churchill, II, 249.
68. Hume, D., *History*, IV, 592.
69. Firth, 433.
70. Harding, T. S., *Fads, Frauds, and Physicians*, 118.
71. Lingard, VIII, 267.
72. *Ibid.*, 268.
73. Macaulay, *History*, I, 152.
74. *Enc. Brit.*, VI, 745d.
75. *Camb. Mod. History*, IV, 542.
76. Masson, *Milton*, V, 619.
77. Bowle, *Western Political Thought*, 337.
78. *Camb. Mod. History*, IV, 554; Bryant, Sir Arthur, *Charles II*, 58.
79. Lingard, VIII, 236.
80. Hallam, II, 328.
81. *Ibid.*, 329.
82. Bryant, 60.
83. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 66.
84. Bryant, 64.
85. Lingard, VIII, 304.

CHAPTER VIII

1. Allen, J. W., *English Political Thought*, 268.
2. Walton, Izaak, *Complete Angler*, 15.
3. Palgrave, *Golden Treasury*, 67.
4. Bunyan, *Grace Abounding*, No. 2, in *Entire Works*, I, 5-6.
5. *Ibid.*, No. 4.
6. No. 8.
7. In Froude, *Bunyan*, p. 8.
8. Bunyan, *Grace Abounding*, No. 14.
9. *Ibid.*, No. 97.
10. No. 96.
11. No. 104.
12. Coulton, *Life in the Middle Ages*, I, p. 20.
13. *Grace Abounding*, No. 116.
14. Froude, *Bunyan*, p. 59.
15. *Ibid.*, 65.
16. 72.
17. 74-82.
18. *Pilgrim's Progress*, 7.
19. Acts xvi, 31.
20. *Pilgrim's Progress*, 169-71.
21. *Ibid.*, 193.
22. 196.
23. 11.
24. *Camb. History of English Literature*, VII, 197-98.
25. Froude, *Bunyan*, 86.
26. Milton, *Defensio Secunda*, in *Areopagitica and Other Works*, 291.
27. Johnson, Samuel, *Lives of the Poets*, I, 57.
28. Saintsbury, *History of English Literature*, 159.
29. Milton, *Reason of Church Government*, in *Areopagitica, etc.*, 305.
30. Milton, *Poetical Works*, 46.
31. *Comus*, ll. 768f.
32. *Defensio Secunda*, *loc. cit.*, 293.
33. *Reason of Church Government*, *loc. cit.*, 301.
34. "Letter to Mr. Hartlib," in *Areopagitica, etc.*, 46.
35. Johnson, *Lives*, I, 63.
36. Milton, "Letter to Mr. Hartlib," *loc. cit.*, 48.
37. As indicated in *Apology for Smectymnuus*, in *Areopagitica, etc.*, 113.
38. Masson, *Milton*, II, 215.
39. Milton, "Of Reformation," in *Areopagitica, etc.*, 58.
40. *Ibid.*, 102.
41. 103.
42. Masson, II, 257.
43. *Ibid.*, 390, 396.
44. Milton, in *Areopagitica, etc.*, 123.
45. *Ibid.*, 121.
46. 124.
47. 304.
48. *Reason of Church Government*, in Masson, II, 371.
49. *Areopagitica, etc.*, 302.
50. *Ibid.*, 303.
51. 304.
52. 146.
53. Masson, II, 487.
54. Aubrey, *Brief Lives*, 201.
55. Milton, *Doctrine and Discipline of Divorce*, in Taine, *History of English Literature*, 281.
56. Pattison, Mark, *Milton*, 58.
57. *Areopagitica, etc.*, 198.
58. *Ibid.*, 225.
59. 195.
60. Masson, III, 320-21.
61. *Ibid.*, 269.
62. *Areopagitica*, 4-5.
63. *Ibid.*, 21.
64. 13.
65. 35.
66. 36.
67. 38.
68. 34.
69. Masson, IV, 64.
70. *Ibid.*, 92.
71. *Areopagitica, etc.*, 4.
72. Masson, IV, 45n.
73. In *Areopagitica, etc.*, 289.
74. Masson, IV, 168.
75. *Ibid.*, 255-5
76. 261.
77. 263-67.
78. Johnson, *Lives*, I, 69.
79. Masson, IV, 520.
80. *Defensio Secunda*, in Johnson, I, 72.

81. Masson, IV, 455-56.
82. *Ibid.*, 457.
83. *Ibid.*, 458.
84. Disraeli, *Curiosities*, I, 154.
85. Masson, IV, 627.
86. *Ibid.*, 581.
87. 583
88. 605.
89. 612-15.
90. 609.
91. 610.
92. *Ibid.*
93. Masson, V, 206.
94. *Ibid.*, 215.
95. 369-70.
96. 573.
97. *Ready and Easy Way*, in *Areopagitica, etc.*, 166-69.
98. *Ibid.*, 186.
99. 181.
100. Masson, V, 603.
101. Aubrey, 202.
102. Masson, VI, 447, 649; Johnson, *Lives*, I, 87.
103. Pattison, *Milton*, 148.
104. Masson, VI, 476.
105. Aubrey, 201.
106. *Paradise Lost*, VII, 26.
107. Hutchinson, F. E., *Milton and the English Mind*, 118.
108. Johnson, I, 85.
109. *Ibid.*, 102, 108.
110. *Paradise Lost*, I, ll. 106f., 105-40.
111. *Ibid.*, I, 253-55.
112. IV, 800.
113. IV, 515f.
114. IX, 703-8.
115. VIII, 66f.
116. IV, 738f.
117. IX, 1051f.
118. X, 884, 888f.
119. *Cf.* IV, 634-38.
120. *Samson Agonistes*, 1053-60.
121. Masson, VI, p. 830.
122. *Paradise Lost*, III, l. 183; Masson, VI, p. 831.
123. Masson, 818.
124. *De Doctrina Christiana*, Ch. XXX, in Willey, *Seventeenth-Century Background*, 71-72.
125. Masson, VI, 827.
126. John Toland in Hutchinson, 152.
127. Johnson, I, 192.
128. Masson, VI, 683; Hutchinson, 104.
129. Aubrey, 201.
130. Masson, II, 473.
131. *Ibid.*, I, 312.
132. Johnson, I, 60.
133. *De Doctrina Christiana*, in Masson, VI, 837.
134. *Paradise Lost*, I, l. 496; IV, 765f.
135. Masson, VI, p. 654.
136. *Paradise Regained*, II, ll. 352f.
137. *Ibid.*, IV, 338.
138. IV, 606.
139. Masson, VI, p. 655.
140. Johnson, I, 88.
141. *Samson Agonistes*, ll. 68-72, 80-82.
142. *Ibid.*, 1034-60.
143. *Ibid.*, 597-98.
144. Masson, VI, p. 727.
145. Johnson, I, 92.
146. Dryden, *Essays*, 108.
147. *The Spectator*, Jan. 5–May 3, 1712.

CHAPTER IX

1. Evelyn, *Diary*, I, 341.
2. Bryant, *Charles II*, 85.
3. Gooch, *English Democratic Ideas in the 17th Century*, 171.
4. Taine, *English Literature*, 314.
5. Hume, *History of England*, V, 61.
6. Bryant, 90.
7. *Ibid.*, 89; Churchill, II, 264.
8. *Cf.* his speech in Peterson, H., *Treasury of the World's Great Speeches*, 96.
9. Pepys, *Diary*, Oct. 13, 1660.
10. Evelyn, *Diary*, I, 350.
11. As by Macaulay, *History of England*, I, 135; *cf.* Bryant, 128.
12. Burnet, *History of His Own Times*, 71.
13. Bryant, 133.
14. *Ibid.*, 159.
15. Pepys, July 27, 1667.
16. Burnet, 101.
17. *Grammont Memoirs*, 115n.
18. *Ibid.*, 116.
19. Pepys, May 19, 1668.
20. Bryant, 238.
21. Evelyn, Oct. 4, 1683.
22. Taine, *English Literature*, 314.
23. Bishop, A. T., *Renaissance Architecture of England*, 43.
24. Burnet, 103.
25. Evelyn, Feb. 4, 1685.
26. *Grammont Memoirs*, 350.
27. *Ibid.*, 356.
28. Aubrey, 288.
29. Bryant, 168.
30. Burnet, 33.
31. Bryant, 82.
32. Robertson, J. M., *Freethought*, II, 84.
33. Buckle, Ia, 261n.
34. In Robinson, J. H., *Readings in European History*, 363.
35. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 137.
36. Hallam, *Constitutional History*, II, 327.
37. *Ibid.*
38. Burnet, 41.
39. Dick, O. L., Introd. to Aubrey, *Lives* lxxviii.

5

40. Besant, Walter, *London in the Time of the Stuarts*, 87; Lecky, W. E., *History of . . . the Spirit of Rationalism in Europe*, II, 66.
41. Burnet, 45-46; Ure, Peter, *Seventeenth-Century Prose*, 136-38.
42. Burnet, 45.
43. Quoted on title page of Toland's *Christianity Not Mysterious*.
44. In Allen, J. W., *English Political Thought*, 297.
45. Markun, Leo, *Mrs. Grundy: A History of Four Centuries of Morals*, 122.
46. Weber, Max, *The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism*, 158-9.
47. Macaulay, *History*, I, 377-79.
48. Besant, *London in the Time of the Stuarts*, 152; Green, J. R., *Short History of the English People*, III, 1338.
49. *Ibid.*
50. Aubrey, 234; *Enc. Brit.*, XVII, 473d.
51. Buckle, Ia, 301n.
52. Churchill, II, 271.
53. Bryant, *Charles II*, 162n.
54. Fülop-Miller, *The Jesuits*, 344; Macaulay (*History*, III, 261) estimated the Catholics as 2 per cent of the population of England in 1690.
55. *History Today*, March 1954, p. 150.
56. Trevelyan, *English Social History*, 276; Clark, G. N., *Seventeenth Century*, 5; Macaulay, *History*, I, 221.
57. Toynbee, A. J., *Study of History*, ed. Somervell, 237.
58. Trevelyan, *Social History*, 322; Marx, *Capital*, 300n.
59. Nussbaum, *Economic Institutions*, 216.
60. Wolf, *History of Science . . . in the 16th and 17th Centuries*, 616.
61. Macaulay, *History*, I, 320.
62. Besant, *London in the Time of the Stuarts*, 287.
63. Macaulay, I, 321.
64. Mousnier, *Histoire générale*, 146.
65. Rogers, J. E. T., *Six Centuries of Work and Wages*, 267.
66. Rogers, *Economic Interpretation of History*, 267.
67. Nussbaum, 108.
68. Wingfield-Stratford, 579.
69. *Ibid.*, 577.
70. Lipson, E., *Growth of English Society*, 176-7.
71. *Ibid.*, 182.
72. Hume, *History*, V, 429; Cunningham, W. C., *Western Civilization in Its Economic Aspects*, II, 216; Lecky, *England in the 18th Century*, I, 194.
73. Bryant, *Charles II*, 278.
74. Besant, 184.
75. *Camb. Mod. History*, V, 206.
76. Rogers, *Economic Interpretation of History*, 212.
77. Besant, 122.
78. Ure, *Seventeenth-Century Prose*, 47; Los Angeles *Times*, Dec. 21, 1958.
79. Howard Kennedy in Los Angeles *Times*, March 2, 1958.
80. Besant, 223.
81. Defoe, *Journal of the Plague Year*, 7-8.
82. Evelyn, Feb. 7, 1666; *cf.* Pepys, Sept. 2, 1666.
83. Pepys, Sept. 2, 1666; Evelyn, Sept. 7, 1666; Lingard, IX, 65; Churchill, II, 277.
84. Besant, 251.
85. *Ibid.*, 245.
86. Summerson, *Sir Christopher Wren*, 55.
87. *Ibid.*, 134.
88. Fergusson, *History of Modern Styles of Architecture*, 294.
89. In Wingfield-Stratford, 605, where Riley is handsomely restored.
90. Duke of Marlborough Collection.
91. Pepys, Mar. 25, 1667.
92. *Ibid.*, Oct. 20, 1662.
93. London, National Portrait Gallery.
94. In Hampton Court Palace.
95. Pepys, Sept. 2, 1666.
96. *Ibid.*, Jan. 16, Feb. 3, Mar. 5, Apr. 9, 1660, etc.
97. Jan. 16, 1660.
98. Brockway and Weinstock, *The Opera*, 32.
99. Burney, Charles, *General History of Music*, II, 383.
100. *Ibid.*, 399.
101. Rowse, A. L., *The Early Churchills*, 98.
102. Hallam, *Constitutional History*, II, 344n.
103. Pepys, Mar. 26, 1666.
104. In *Grammont Memoirs*, 90; Macaulay, *History*, I, 561.
105. Taine, *English Literature*, 315.
106. *Grammont Memoirs*, 281f.
107. Pepys, Aug. 31, 1661; Nov. 9, 1663.
108. Pope, *Essay on Criticism*, ll. 536-43, in *Collected Poems*, p. 71.
109. *Grammont Memoirs*, 112.
110. *Ibid.*, 284n.
111. Evelyn, I, 366.
112. Ure, 36.
113. Markun, *Mrs. Grundy*, 127.
114. *History Today*, October 1958, p. 672.
115. Trevelyan, *Social History*, 313.
116. *History Today*, *loc. cit.*, 668.
117. Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, I, 529.
118. James, B. B., *Women of England*, 295.
119. *Camb. Mod. History*, V, 213.
120. Besant, 345.
121. Macaulay, I, 327.
122. Saintsbury, *Dryden*, 182.

123. Bryant, 119; *Camb. Mod. History*, IV, 265.
124. Macaulay, I, 140; II, 416.
125. Hallam, II, 377.
126. Trevelyan, *England under the Stuarts*, 376.
127. *Camb. Mod. History*, V, 228.
128. Pepys, Nov. 2, 1663.
129. *Ibid.*, Aug. 18, 1664.
130. Besant, 303.
131. Day, *Ninon*, 182.
132. Traill, H. D., *Social England*, IV, 489.
133. Ashton, J., *Social Life in the Reign of Queen Anne*, 163.
134. Pepys, Sept. 15, 1668.
135. *Camb. Mod. History*, V, 208.
136. Pepys, June 1, 1667.
137. *Camb. Mod. History*, V, 202.
138. *Ibid.*; Lingard, IX, 85.
139. Text in Lingard, IX, Appendix; *cf.* Bryant, 168; Acton, *Lectures*, 210; *Camb. Mod. History*, V, 204.
140. *Ibid.*, 226; Lecky, *History of England*, I, 18.
141. Bryant, 183.
142. Burnet, 34.
143. Trevelyan, *England under the Stuarts*, 347.
144. Macaulay, I, 183.
145. *Camb. Mod. History*, V, 220.
146. *Enc. Brit.*, XVI, 662c.
147. Hallam, II, 413.
148. Macaulay, I, 186.
149. Trevelyan, *Stuarts*, 400-2.
150. Macaulay, I, 186; Bryant, 225.
151. Hume, *History*, V, 320.
152. Trevelyan, *Stuarts*, 387-88.
153. Hallam, II, 421.
154. Acton, 215.
155. Churchill, II, 298.
156. Acton, 215; Hume, V, 320.
157. *Enc. Brit.*, XX, 616b; Guizot, *History of Civilization*, I, 258.
158. Macaulay, *Essays*, I, 63; Wingfield-Stratford, 622; Lecky, *History of England*, III, 53.
159. Bryant, 270.
160. Mencken, H. L., *New Dictionary of Quotations*, 481.
161. Bryant, 283.
162. *Ibid.*, 282.
163. Turner, E. S., *Call the Doctor*, in *Time*, Dec. 8, 1958, p. 63.
164. Macaulay, *History*, I, 335; Bryant, 294.
165. Macaulay, I, 337; Bryant, 296.
166. Macaulay, I, 338.

CHAPTER X

1. Turin Gallery.
2. London National Gallery.
3. Macaulay, *History*, I, 560-64.
4. Burnet, 65.
5. *Camb. Mod. History*, V, 265, 268.
6. Macaulay, II, 387.
7. Rowse, *Early Churchills*, 152; Lingard, X, 90.
8. Hume, *History*, V, 359; Macaulay, I, 496.
9. Acton, 221; *Camb. Mod. History*, V, 233.
10. Hume, V, 345.
11. Lecky, *History of England*, I, 21.
12. Macaulay, I, 359, 525.
13. *Camb. Mod. History*, V, 239.
14. Hearnshaw, F. J., *Social and Political Ideas of Some English Thinkers of the Augustan Age*, 61.
15. Lingard, X, 128.
16. Macaulay, III, 170.
17. Lord Dartmouth's notes to Burnet's *History*, in Lingard, X, 136n.
18. Burnet, 251.
19. Lingard, X, 136.
20. *Ibid.*, 131.
21. Trevelyan, *Stuarts*, 441.
22. *Camb. Mod. History*, V, 243.
23. Shrewsbury, Duke of, *Correspondence*, 4.
24. *Churchill, Marlborough*, I, 263.
25. Robinson, J. H., *Readings*, 367-69.
26. Mantoux, *Industrial Revolution*, 97.
27. Macaulay detailed these in his essay on Hallam (1828), and countered them in his *History of England* (1848), end of Ch. X.
28. Halifax, *Thoughts and Reflexions*, in Hearnshaw, *Social and Political Ideas of . . . the Augustan Age*, 10.
29. *Ibid.*
30. Ure, *Seventeenth-Century Prose*, 72.
31. Hearnshaw, 60.
32. Halifax, *Character of a Trimmer*, in Trevor-Roper, 255.
33. Hearnshaw, 53.
34. Livy, *History of Rome*, v, 47.
35. Buckle, Ia, 297.
36. *Ibid.*, 298.
37. Bowen, *William Prince of Orange*, 277-8.
38. Burnet, 306.
39. Lecky, *England*, I, 275.
40. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 141.
41. *Camb. Mod. History*, V, 317.
42. *Ibid.*, 321; Lecky, I, 279-80; D'Alton, *Ireland*, 467; Wingfield-Stratford, 665.
43. *Camb. Mod. History*, V, 323.
44. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 95.
45. Day, *History of Commerce*, 162.
46. Groom, *History of Money*, 41-46.
47. *Ibid.*

48. *Camb. Mod. History*, V, 249.
49. Macaulay, III, 418-19; Churchill, *Marlborough*, I, 302.
50. *Ibid.*, 348.
51. Rowse, 134.
52. Goldsmith, *Life of Bolingbroke*, in Clark, B. H., *Great Short Biographies*, 1032.
53. *Ibid.*; *cf.* Chesterfield, *Letters*, I, 261 (Dec. 22, 1749).
54. Lecky, *England*, I, 128.
55. *Enc. Brit.*, XXIII, 725.
56. Kronenberger, *Marlborough's Duchess*, 247.
57. Churchill, *English-speaking Peoples*, III, 76.
58. Rowse, 170.

CHAPTER XI

1. Mousnier, 308.
2. Desnoiresterres, I, 212.
3. Swift, *Journal to Stella*, Aug. 7, 1712.
4. Theater History Exhibition, New York Public Library, Sept. 28, 1956.
5. Johnson, *Lives*, I, 201.
6. Besant, *Stuarts*, 323.
7. Holzknecht, *Background of Shakespeare's Plays*, 417.
8. Besant, 321.
9. Hume, *History*, V, 436; *Camb. History of English Literature*, VIII, 209.
10. Farquhar, *Beaux' Stratagem*, I, i, in Gosse, *A Volume of Restoration Plays.*
11. Congreve, *Way of the World*, II, iv, in Gosse, 185.
12. Macaulay, *Essays*, II, 426.
13. Gosse, 151.
14. Vanbrugh, *The Relapse*, III, in Gosse.
15. *Ibid.*, IV, i.
16. Vanbrugh, *Provoked Wife*, I, i.
17. *Ibid.*, I, ii.
18. *Enc. Brit.*, XVI, 574b.
19. Johnson, *Lives*, II, 2.
20. Macaulay, *Essays*, II, 446.
21. *Enc. Brit.*, VI, 255d.
22. Congreve, *Way of the World*, II, v.
23. *Ibid.*, IV, v.
24. Macaulay, *Essays*, II, 449.
25. Thackeray, *English Humorists*, 139.
26. Lecky, *England*, I, 539.
27. Dryden, Preface to *Fables, Ancient and Modern*, in *Essays*, 290.,
28. Pepys, Feb. 23, 1663.
29. Nettleton, G. H., *English Drama of the Restoration*, 5.
30. Dryden, *All for Love*, IV, i, in Gosse.
31. *Camb. Mod. History*, V, 134.
32. Dryden, *Poems*, 75.
33. *Ibid.*, 78.
34. *Ibid.*, 89.
35. Pepys, Feb. 3, 1664.
36. Scott, *The Pirate*, 147-49.
37. Macaulay, *History*, I, 285.
38. Johnson, *Lives*, I, 187.
39. *Ibid.*, 219; *Camb. History of English Literature*, VIII, 231-32.
40. Johnson, I, 216.
41. As Macaulay believed (*History*, I, 657).
42. Dryden, *The Hind and the Panther*, in *Poems*, 123.
43. Butler, Samuel, *Hudibras*, 3-9.
44. Pepys, Dec. 10, 1663.
45. *Camb. History of English Literature*, VIII, 68.
46. An excellent edition, *Brief Lives*, appeared in 1957, with a lively and learned introduction by O. L. Dick.
47. *Camb. History of English Literature*, IX, 151.
48. A good example in Brockway and Winer, *Second Treasury of the World's Great Letters*, 131.
49. Macaulay, *Essays*, I, 195.
50. Temple, Sir William in Taine, *English Literature*, 333.
51. Evelyn, I, 229f. The passage on his son is under Jan. 27, 1658.
52. Pepys, June 13, 1662; June 17, 1663.
53. *Ibid.*, July 16, 1660.
54. Jan. 23, (1670).
55. Apr. 5, 1664.
56. Dec. 19, 1664.
57. Aug. 18, 1667.
58. Sept. 6, 1664.
59. July 15, 1660.
60. Aug. 23, 1663.
61. May 21, 1662.
62. July 30, 1663.
63. Sept. 4, 1660.
64. Sept. 24, 1663.
65. Feb. 28, 1662.
66. *Enc. Brit.*, VII, 139.
67. Defoe, *Moll Flanders*, 295.
68. Steele, *Tatler*, No. 151.
69. Thackeray, *English Humorists*, 183.
70. Steele, *Tatler*, No. 95.
71. Johnson, *Lives*, I, 330; Macaulay, *Essays*, II, 465.
72. *Ibid.*, 486; Johnson, I, 328.
73. Addison, *Spectator*, No. 4.
74. *Ibid.*
75. No. 112.
76. Macaulay, *Essays*, II, 499; Enc. Br. I, 161d.
77. Thackeray, 157n.
78. Voltaire, *Works*, XIXb, 137.
79. Stephen, Leslie, *Swift*, 82.
80. *Id.*, *Alexander Pope*, 60.
81. *Id.*, *Swift*, 15.
82. Hardy, Evelyn, *The Conjured Spirit: Swift*, 40.

83. *Ibid.*, 62.
84. Stephen, *Swift*, 52.
85. *Ibid.*, 37.
86. Swift, *Tale of a Tub, etc.*, 56.
87. *Ibid.*, 72.
88. 77.
89. 78.
90. 81.
91. 121.
92. 103.
93. 105.
94. 106.
95. 109.
96. 110.
97. Stephen, *Swift*, 42.
98. Rowse, 269.
99. Hardy, *Conjured Spirit*, 148.
100. Swift, "A Critical Essay upon the Faculties of the Mind," in *Tale of a Tub, etc.*, 192.
101. In Stephen, *Swift*, 47.
102. *Ibid.*, 161.
103. *Ibid.*, 57.
104. Hardy, 125.
105. In Trevelyan, *Social History*, 444.
106. In Rowse, 265.
107. *Ibid.*, 266.
108. *Ibid.*, 269.
109. Stephen, *Swift*, 103.
110. *Ibid.*, 102.
111. Swift, *Journal to Stella*, Letters xxvii and xxxiii.
112. *Ibid.*, 172 (Letter xxiii).
113. *Ibid.*, 203 (Letter xxvii).
114. Stephen, *Swift*, 143.
115. Hardy, 57.
116. Swift, "Strephron and Chloe," in Hardy, 59.
117. In Hardy, 176.
118. Stephen, *Swift*, 120.
119. *Journal to Stella*, Letter xvi.
120. Swift to Pope, Sept. 29, 1725, in Thackeray, *English Humorists*, 218n.
121. Stephen, *Swift*, 108.
122. Hardy, 164.
123. *Ibid.*, 157.
124. Stephen, 131.
125. Johnson, II, 258; Hardy, 174f; Stephen, 133f.
126. Hardy, 219.
127. Swift, *Gulliver's Travels*, Book II, Ch. vi, p. 120.
128. *Ibid.*, III, viii, p. 183.
129. III, x, pp. 198f.
130. IV, vii, p. 240.
131. IV, v, p. 250.
132. IV, xi, pp. 272-73.
133. Stephen, 168.
134. Hardy, 230.
135. Stephen, 160.
136. In Taine, *English Literature*, 436.
137. *Ibid.*
138. Stephen, 184.
139. *Ibid.*, 195.
140. In Woods, George, etc., *The Literature of England*, I, 813.
141. Stephen, 195.

CHAPTER XII

1. Morton, J. B., *Sobieski*, 41.
2. *Ibid.*, 57.
3. *Cambridge History of Poland*, I, 520.
4. Morton, 47.
5. *Camb. History of Poland*, I, 521.
6. *Ibid.*, 537.
7. Morton, 5.
8. *Camb. History of Poland*, I, 545.
9. *Ibid.*, 547.
10. *Ibid.*, 556.
11. Ogg, *Europe in the 17th Century*, 499.
12. Schoenfeld, H., *Women of the Teutonic Nations*, 263; Michelet, V, 154.
13. Kluchevsky, V., *History of Russia*, III, 334.
14. *Ibid.*, 282.
15. *Ibid.*, 367.
16. Waliszewski, *Peter the Great*, 63.
17. *Ibid.*, 75.
18. Florinsky, M. T., *Russia: History and an Interpretation*, I, 321.
19. Schuyler, E., *Peter the Great*, I, 350.
20. Waliszewski, 87.
21. *Ibid.*, 91.
22. Schuyler, I, 358.
23. *Ibid.*, 374.
24. Macaulay, *History*, IV, 374.
25. Voltaire, *Charles XII*, 37.
26. *Camb. Mod. History*, V, 595.
27. *Ibid.*; Schuyler, II, 85.
28. *Camb. Mod. History*, V, 596.
29. Waliszewski, 322.
30. Voltaire, *Charles XII*, 163; Schuyler, II, 138; *Camb. Mod. History*, V, 600.
31. Schuyler, II, 160.
32. *Ibid.*, 162.

CHAPTER XIII

1. In Buckle, *History of Civilization*, Ib, 580.
2. Frederick to Voltaire, Mar. 6, 1737, in Voltaire and Frederick, *Letters*, 55.
3. Florinsky, I, 327, 334.
4. Schuyler, I, 374.
5. Waliszewski, *Peter the Great*, 105.
6. *Ibid.*, 143.
7. 133.
8. 137.
9. 218.
10. 152-53, 161-63; Florinsky, I, 319; Schuyler, I, 422.

11. Schuyler, II, 405.
12. Rambaud, *History of Russia*, I, 104.
13. Réau, L., *L'Art russe*, II, 18n.
14. Semple, Ellen, *Geography of the Mediterranean Region*, 348.
15. Robinson, J.H., *Readings*, 390.
16. Schuyler, I, 411.
17. Waliszewski, 448f.
18. Ogg, 511.
19. Schuyler, II, 192.
20. Rambaud, I, 94.
21. Pokrovsky, M., *History of Russia*, 279.
22. *New Camb. Mod. History*, VII, 319.
23. Pokrovsky, 287; Florinsky, I, 380.
24. Mavor, *Economic History of Russia*, I, p. *xxxi; New Camb. Mod. History*, VII, 319.
25. Pokrovsky, 285; Schuyler, II, 471.
26. Schuyler, II, 453; Florinsky, I, 382.
27. Waliszewski, 436.
28. Rambaud, I, 99.
29. Schuyler, II, 609-10.
30. *Ibid.*, 283.
31. *Ibid.*, 338.
32. Waliszewski, 517.
33. *Ibid.*, 518.
34. Schuyler, II, 345.
35. *Ibid.*, 410.
36. Waliszewski, 534.
37. *Ibid.*, 538.
38. Toynbee, A., *Study of History*, VIII, 269.
39. Pokrovsky, 330; Florinsky, II, 334.

CHAPTER XIV

1. Westermarck, *History of Human Marriage*, III, 51; Bebel, *Woman under Socialism*, 71.
2. Rocker, *Nationalism and Culture*, 125.
3. *New Camb. Mod. History*, VII, 293.
4. *Camb. Mod. History*, IV, 416.
5. Acton, *Lectures*, 286.
6. Quennell, *Caroline of England*, 5-7.
7. Montagu, Lady Mary W., *Letters*.
8. Francke, K., *History of German Literature*, 175.
9. Richard, E., *History of German Civilization*, 332.
10. Thieme, *Women of Modern France*, 199.
11. Wormeley, *Correspondence of Mme. Princess Palatine*, letter of Nov. 22, 1714.
12. Hurlimann, *Germany*, 232; La Farge, H., *Lost Treasures of Europe*, 33.
13. Dresden.
14. Spitta, K., *Bach*, I, 257. The walking is doubtful.
15. Morton, *Sobieski*, 130.
16. *Ibid.*, 132.
17. *Camb. Mod. History*, V, 355.
18. *Ibid.*, 355-56; Ogg, 490.
19. Ogg, 488.
20. Lane-Poole, S., *Story of Turkey*, 226.
21. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 165.
22. Coxe, W., *History of the House of Austria*, II, 445.
23. Morton, 202; Coxe, II, 447.
24. Ogg, 496.

CHAPTER XV

1. Lea, H. C., *History of the Inquisition in Spain*, IV, 53-54.
2. *Ibid.*, 49.
3. *Ibid.*, 57. Lea adds, "I cannot but regard this as a truthful report."
4. Ranke, *History of the Popes*, II, 381n.
5. *Ibid.*, 380; III, Appendix, 145.
6. Ranke, II, 325.
7. Funk, *Manual of Church History*, II, 148.
8. Ranke, II, 330.
9. *Ibid.*, 333; Funk, II, 177.
10. Ranke, II, 418.
11. Funk, II, 178.
12. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 135.
13. Churchill, *English-speaking Peoples*, II, 317.
14. Acton, 226.
15. Sismondi, *History of the Italian Republics*, 789.
16. Bonacossi Collection, Florence.
17. Wadsworth Athenaeum, Hartford, Conn.
18. Dresden and Rome.
19. Wallace Collection.
20. Dresden.
21. Vatican.
22. Rome, Santa Maria in Vallicella.
23. Stirling-Maxwell, *Annals of the Artists of Spain*, III, 1152.
24. *Ibid.*, 1154.
25. *Ibid.*, 1101.
26. *Enc. Brit.*, X, 361b.
27. *Ibid.*
28. Garnett, *History of Italian Literature*, 283.
29. *Ibid.*, 284.
30. Hallam, *Literature of Europe*, IV, 213.
31. Bain, F. W., *Christina, Queen of Sweden*, 253.
32. Motteville, *Memoirs*, III, 104.
33. *Ibid.*, 106-8.
34. *Ibid.*, 109-10.
35. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 60.
36. Motteville, III, 110.
37. Day, *Ninon*, 149.
38. Bain, 321.
39. In Voltaire, 405.
40. Bain, 339.

44. Fox-Bourne, *John Locke*, II, 223-25.
45. Boyle, Robert, *Sceptical Chymist*, 1.
46. *Ibid.*, 2.
47. *Ibid.*, 17.
48. Butterfield, *Origins of Modern Science*, 105.
49. Wolf, 349.
50. *Ibid.*, 545.
51. Kirby, R. S., *Engineering in History*, 154.
52. Wolf, 550.
53. Beard, Miriam, 465.
54. Wolf, 551.
55. *Ibid*, 552.
56. Wolf, A., *History of Science . . . in the 18th Century*, 611.
57. Evelyn, *Diary*, Nov. 7, 1651.
58. Wolf, *18th Century*, 406.
59. *Hamlet*, II, ii.
60. Locy, W. A., *Growth of Biology*, 212.
61. *Ibid.*, 214-16.
62. *Ibid.*, 236.
63. Castiglioni, *History of Medicine*, 537-538.
64. Brett, G. S., *History of Psychology*, 337.
65. *Ibid.*, 339; Sigerist, *The Great Doctors*, 184.
66. Garrison, *History of Medicine*, 313.
67. Dick in Aubrey, *xix*.
68. Lewis, *Splendid Century*, 181.
69. Harding, T. S., *Fads, Frauds, and Physicians*, 151.
70. Macaulay, *History*, III, 78.
71. Sévigné, *Letters*, I, 106 (April 8, 1671).
72. Michelet, *Histoire*, V, 29.
73. Motteville, *Memoirs*, I, 186.
74. Castiglioni, 560.
75. *Ibid.*, 562; Garrison, 304.
76. Dick in Aubrey, *xix*.
77. Garrison, 252.
78. *Ibid.*, 253.
79. Dick in Aubrey, *xix*.
80. Hallam, *Literature of Europe*, IV, 341.
81. Wolf, *16th Century*, 438.
82. *Ibid.*
83. Garrison, 295.
84. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 374.
85. Pepys, Nov. 14, 1666.
86. MacLaurin, C., *Post Mortem*, 170f.
87. Dick in Aubrey, *xx*.
88. Castiglioni, 566.
89. Whitehead, Alfred North, *Science in the Modern World*, 58.
90. Sprat, *History of the Royal Society* (1667), 113, in Clark, G. N., *Seventeenth Century*, 336.
91. Newman, *World of Mathematics*, I, 286.
92. Wolf, *16th Century*, 668-70.
93. *Enc. Brit.*, V, 994c.
94. In Smith, P. I, 150.
95. In Hazard, *Critical Years*, 316; Mousnier, *Histoire générale*, IV, 331.

CHAPTER XIX

1. Brewster, *Newton*, I, 4.
2. *Ibid.*, 92.
3. Newton's secretary, in Brewster, II, 96.
4. Keynes, J. M., in Newman, J. R., *World of Mathematics*, I, 282.
5. Smith, D. E., *Isaac Newton*, 207.
6. Keynes in Newman, *loc. cit.*
7. Brewster, II, 96-97.
8. *Ibid.*, 93.
9. *Ibid.*, 413.
10. Andrade, E. N., *Sir Isaac Newton*, 77.
11. Newton, *Principia*, 546.
12. *Ibid.*, xvii, preface to first edition.
13. Newton, *Opticks*, Appendix "De Quadratura Curvarum," in Wolf, *16th Century*, 211.
14. Brewster, II, 24n.
15. Wolf, 217.
16. *Principia*, scholium to Prop. 7 of Book II.
17. *Cf. ibid.*, 656.
18. Wolf, 266.
19. *Enc. Brit.*, XVI, 361b.
20. Brewster, I, 96.
21. *Enc. Brit.*, XVI, 361b.
22. In Parton, *Voltaire*, I, 213.
23. *Ibid.*
24. Brewster, I, 26.
25. Thorndike, L., *History of Magic and Experimental Science*, IV, 158.
26. Gilbert, W., *De Mundo Nostro Sublunari Philosophia*, in Whewell, *Inductive Sciences*, I, 394.
27. Brewster, I, 282.
28. Whewell, I, 393.
29. Brewster, I, 287.
30. Aubrey, 166.
31. Butterfield, 118.
32. Brewster, I, 293.
33. *Principia*, 546.
34. Brewster, I, 337.
35. Leibniz, Letter to Hartsoeker, Feb. 10, 1711.
36. *Principia*, 546, General Scholium.
37. *Ibid.*, 634.
38. Cajori in *Principia*, 677.
39. Vartanian, A., *Diderot and Descartes*, 96.
40. General Scholium.
41. *Principia*, 547.
42. Brewster, II, 97.
43. *Ibid.*, 84.
44. Andrade, in Newman, I, 274.
45. Robertson, *Freethought*, II, 112-13.
46. Clark, G. N., *Seventeenth Century*, 249.

47. Keynes, address at tercentennial celebration of Newton's birth by the Royal Society, July 1946, in Newman, I, 283.
48. In Bell, E. T., *Men of Mathematics*, 113.
49. Brewster, II, 132-35.
50. Keynes, *loc. cit.*
51. Andrade, in Newman, I, 274.
52. Keynes, *loc. cit.*
53. Parton, *Voltaire*, I, 213.
54. Andrade, *Newton*, 121.
55. Keynes' in Newman, I, 278; Locke in Brewster, II, 163.
56. Parton, I, 213.
57. Smith, D. E., *History of Mathematics*, I, 404.
58. Hume, *History of England*, V, 433.
59. Voltaire, *Works*, XXIb, 66.
60. Smith, D. E., *Newton*, 15; Brewster, I, 343.
61. S. Brodetsky in Smith, D. E., *Newton*, 8.
62. Andiade in Newman, I, 275.
63. *Principia*, First Scholium.
64. Andrade, *Newton*, 131.

لقد رأينا الثورة الصناعية تبدأ بذلك السيل المتدفق من المخترعات التي قد تحقق قبل أن نصل إلى الألف الثاني للميلاد - حلم أرسطو بالآلات التي تحرر البشر من كل عناء يدوي. ولقد سجلنا المراحل التي خطتها علوم كثيرة صوب فهم للطبيعة وتطبيق أجدى لقوانينها. ولقد رحبنا بانتقال الفلسفية من أفضل الميتافيزيقا العقيمة إلى اجتهادات العقل في شئون البشر الدنيوية. ولقد علمتنا أن نقيم حكومة عادلة قادرة وأن نوفق بين جهود الساسة والفلاسفة الديموقراطية وبين بساطة البشر وعدم مساواتهم الطبيعية. ولقد استمتعنا بمختلف إبداعات الجمال في الباروك والفن الكلاسيكي المحدث وانتصارات الموسيقى.واستمتعناأيما استمتاع بثروة القرن التاسع عشر في الأدب والعلم والفلسفة والموسيقى والفن والتكنولوجيا والحكم.لقد أتممنا على قدر استطاعتنا قصة الحضارة هذه ومع أننا كرسنا معظم حياتنا لهذا العمل فإننا عليمان بأن عمر الإنسان أن هو إلا لحظة قصيرة في التاريخ وبأن خير ما يقدمه المؤرخ من عمل سرعان ما يكتسح حين يطمو نهر المعرفة ويتعاظم. غير أننا ونحن نتابع دراستنا من قرن إلى قرن ازددنا يقناً بأن كتابة التاريخ الرسمي قد أسرف في تجزئتها أبواباً وفروعاً وأنه ينبغي لبعضنا أن يحاول كتابة التاريخ كلاً كما كان يعاش في جميع وجوه الدراما المعقدة الموصولة .

لقد انقضت الآن أربعون عاماً من المشاركة السعيدة في ملاحقة التاريخ. وكنا نحلم باليوم الذي نكتب فيه آخر كلمة في آخر مجلد. والآن وقد أقبل هذا اليوم سنفتقد الهدف الممتع الذي أضفى على حياتنا معنى واتجاهاً. وإننا لشاكر فإننا للقارئ الذي صاحبنا هذه لسنين الكثيرة بعض الرحلة الطويلة أو كلها. لقد كنا على الدوام واعين بحضوره. والآن نستأذنه في الرحيل ونقرئه تحية الوداع ...

